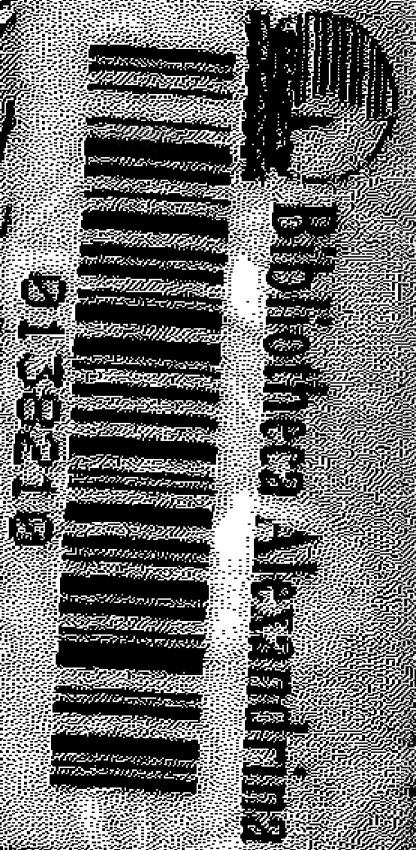


موسوعة أحمد أمين الإسلامية

نعناء الأضالعة

في العصر الحديث



Bibliotheca Alexandrina

زَعَمَاءُ الْأَصْلَاحِ

فِي الْبَعْضِ الْحَدِيثِ

تأليف

أحمد الفين

التأليف
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب يتضمن سيرة عشرة من المصلحين المحدثين ، في الأقطار الإسلامية المختلفة .

كنت قد نشرت بعضه في بعض المجلات ، ثم أتممته وجمعتة ، ليسهل تناوله ، ويكثر تداوله .

وقد رجوت منه أن يكون — فيما يصور من حياة المصلحين ونوع إصلاحهم — باعثاً للشباب ، يستثير همهم ، فيحذون حذو أولئك المصلحين ، ويهتدون بهديهم ، وينهضون بأممهم . والله يوفقهم .

فهرس

سنة

مقدمة	٥
محمد بن عبد الوهاب	١٠
مدحت باشا	٢٦
السيد جمال الدين الأفغانى	٥٩
السيد أحمد خان	١٢١
السيد أمير على	١٣٩
خير الدين باشا التونسى	١٤٦
على باشا مبارك	١٨٨
عبد الله نديم	٢٠٢
السيد عبد الرحمن الكواكبى	٢٤٩
الشيخ محمد عبده	٢٨٠
خاتمة	٢٢٨

مقدمة

بلغ العالم الإسلامي في القرون الأربعة الأولى شأواً بعيداً في الخلق والعلم والحضارة ، حتى كاد يكون سيد العالم في هذا كله ، فخلق في حربه وسلمه قوى متين ، وعلمه قد استوعب ما عند الأمم الأخرى من هند وفرنس ويونان وروم ، وهضمه كله ، ومنزجه منزجاً جميلاً ، وبني عليه ، وابتكر فيه ، وحضارته كانت خير الحضارات ، تزدهر مدته كبغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة بشتى ألوان الحضارة ، من علم وفن وعمارة وتجارة وصناعة ، حتى كان يُرحل إليها جميعاً للأخذ عنها والاقتباس منها ؛ هذا إلى حرية في العقيدة وحرية في القول والعمل ، وهي حرية قلما كان يتمتع بها غيرهم من الأمم ، وكان ينعم بها كل من استظل بظلمهم من نصارى ويهود ومجوس . على حين كان يشقى في الشعوب الأخرى كل من خالف دينها واعتقد غير عقيدتها .

ثم بدأت فيه عوامل الضعف بعد ذلك ، وتوالت عليه الكوارث ، وتتابعت عليه الخطوب ، وكلما مرّ عليه زمن زاد ضعفه وبدا هزاله . وكان أول ذلك ما دهمه من قبائل الترك الرحالة ، وكانوا إذ ذاك معروفين بالغلظة والجفوة ، لا يحسنون إلا القتال من غير رحمة ، والفتك من غير روية ، لا علم ولا حضارة ولا معرفة بأساليب الحكم وقوانين السياسة . ومكّن لهم الخلفاء لحاجتهم إليهم ، حتى كانوا السيد المطاع والحاكم المستبد ، وسرعان ما دخلوا في الإسلام ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، فلم يؤاخوا المسلمين بل استعبدوهم ، ولم يرحمهم بل نكّلوا بهم ، ولم يؤسسوا علماً ولا حضارة ، بل قضوا على العلم والحضارة .

وجاءت الحروب الصليبية فاشتكت آسية الصغرى واستولى الصليبيون

على بيت المقدس ، وجندت أوربة الجيوش تلو الجيوش لهذا الغزو ، وتتابعت البعثات قرونًا ، والعالم الإسلامي يبذل كل جهوده وقواه وموارده لدفع هذه الغزاة ، حتى استنفدت ذكائه وماله ومهارته وكل مقدرة له .

وفي القرن السابع الهجري اكتسح المغول جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي ، وعلى رأسهم جنكيزخان ، هذا الجبار المتعبد . ثم خلفاؤه من بعده مثل هولاكو ، ولم تكن غايتهم الفتح والاستعمار ، ولا الغنم والاستلاب لحسب ، بل كانت الفتك والتدمير أيضاً ، فحطموا بغداد وحضارتها وعلمها وفنها ، وكانت زينة العالم وبهجة الدنيا ، فذبحوا أهلها وخربوا عمرانها ، وأتلفوا جسورها وكل ما بها . وكانت نكبة بغداد نكبة العالم الإسلامي .

وفي أول القرن التاسع الهجري زحف تيمورلنك ، فمثل دور جنكيزخان وهولاكو ، فذبح ودمر وأتلف وخرب ، ورعى العالم الإسلامي بكارثة عظيمة ، ولما يستفيق مما غشيته من النوازل قبلها .

ثم امتدت فتوح الأتراك العثمانيين ، فلم يكن حكم أكثرهم حكماً صالحاً ، ولم يسوسوا الأمم سياسة عادلة . كانوا شجعاناً مقاتلين ولم يكن أغلبهم سياسة عادلين . عُنوا بالحرب أكثر مما عُنوا بالإدارة ونظم الحكم ، ومهروا في الفتح أكثر مما مهروا في إقامة صرح العلم ومتابعة السير بالحضارة ، فزاد العالم الإسلامي تدهوراً على توالي الأزمان . ظلمة حالكة ومحنة شاملة وجهل مطبق وظلم فادح وفقير مدقع . هذا سائح فرنسي زار مصر في آخر القرن الثامن عشر — وهو مسيو فولني Volney وأقام بها وبالشام نحو أربع سنوات — يقول : « إن الجهل في هذه البلاد عام شامل ، مثلها في ذلك مثل سائر البلاد التركية ، يشمل الجهل كل طبقاتها ، ويتجلى في كل جوانبها الثقافية ، من أدب وعلم وفن ، والصناعات فيها في أبسط حالاتها ، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد من يصلحها إلا أن يكون أجنبياً » .

وهذه الحكومة المصرية تراها — إذ ذاك — تحشى تعليم الرياضة والطبيعة ، فتستفتى شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمداً الإنبأى : « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالمهندسة والحساب والهيئة والطبيعات وتركيب الأجزاء — المعبر عنها بالكيمياء — وغيرها من سائر المعارف ؟ فيجيب الشيخ فى حذر : « إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها » — كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها ، ولم يكونوا من مخترعيها وذوى التفوق فيها .

كان العالم الإسلامى منعزلاً ، لا يتصل بأوربة إلا فيما تعانىه تركيا من مشاكلها السياسية ، فليس هناك بين الشعوب الإسلامية والشعوب الأوربية اتصال فى الثقافة والعلم والصناعة ونظم الحكم ، يمد لها الاستفادة منها والأخذ عنها . لقد أغلقت على العالم الإسلامى الأبواب منذ الحروب الصليبية ، وأخذ يأكل بعضه بعضاً — وقف المسلمون فى علمهم ، فليس إلا ترديد بعض الكتب الفقهية والنحوية والصرفية ونحوها . وفى صناعاتهم ، فلا اختراع ، ولا إتقان للقديم ؛ وفى آلاتهم وفنونهم العسكرية ، فهى على نمط الأقدمين . وسكان المدن والريف قد أبعدوا عن الاشتراك فى الشؤون السياسية والحربية ، فلا تراهم فى جيش ولا فى قيادة جيش ، ولا رأى لهم فى الحكم ولا فى السياسة ولا فى الإدارة ، إنما هم مزرعة الحكام ومستغلّ الولاة والأمراء ، كلما تفتحت شهواتهم فعلى الرعية أن يجدوا سبيلاً لملئها بالمال يجمعونه من كد يمينهم وعرق جبينهم . مركز الخلافة — وهو الأستانة — مفكك منحل ، والولايات من مصر والشام والعراق والحجاز متدهورة متضععة ، قد أمات نفسها توالى الاستبداد عليها ؛ العلم فيها كتاب دينى شكلى يُقرأ ، أو جملة تعرب أو متن يحفظ ، أو شرح على متن ، أو حاشية على شرح . أما علوم الدنيا فلا شىء منها إلا حساب بسيط يُستعان به على معرفة الموارث ، أو قبس من فلك قديم يُستدل به على أوقات الصلاة .

والسياسة فيها نزاع مستمر بين الأسماء ، وكل أمير له حزبه ، وكل حزب يتربص الدائرة مخصمه ، والبلاد ضائعة بينهم ، والوالى لا يطيل المكث إلا ريثما يفتنى ، حتى أصبح اسم الحكومة والوالى والجندى سرعياً مفزعاً مقروناً فى النفس بمعنى الظلم والعسف .

وأعجب من هذا كله إلفُ الشعوب الإسلامية هذه الحالة السيئة واستناعتها إليها وكراهيتها لكل إصلاح ؛ فإذا أريد إصلاح الجندية ثارت الانكشارية ، وإذا أريد إصلاح القضاء غضب العلماء .

وعلى الجملة فقد كان العالم الإسلامى — إذ ذاك — شيخاً هرمًا حطمته الحوادث ، ونهكه ما أصابه من كوارث . فساد نظام ، واستبداد حكام ، وفوضى أحكام ، ونمور عام ، واستسلام للقضاء والقدر ، وترديد لقول الشاعر :

دع المقادير تجري فى أعنتها ولا تبتئن إلا خالى البال

فقد الدين روحه ، وصار شعائر ظاهرية ، لا تمس القلب ولا تحيى الروح ، سادت الخرافات ، وانتشرت الأوهام ، وأصبح التصوف ألعاباً بهلوانية ، والدين مظاهر شكلية ، ووسيلة النجاح فى الحياة ليست الجد فى العمل ، ولكن التمسح بالقبور والتوسل بالأولياء ، فهم الذين يُنجحون فى العمل ، وهم الذين ينصرون فى الحروب . والشوارع والحارات مملوءة بالدجالين والمشعوذين .

هذا هو الحال فى الشرق ، أما الغرب فلم يكن قد أصيب بكوارث الشرق . وقد بدأت أوربة تستيقظ منذ الحروب الصليبية وتنشئ لها حضارة جديدة ، مؤسسة على العلم والحرية ، وتتقدم فى الصناعة ، ويتدفق عليها المال من اكتشافها أمريكا وغيرها ، وتنتزع وترتقى فى النظم الحربية على أساليب جديدة ، وتنشئ الأساطيل الضخمة ، حتى إذا شعرت بقوتها هجمت على الشرق بآلاتها وأسلحتها واختراعاتها فتساقطت أقطاره فى يدها ، وكانت إذا دخلت قطراً ضغطت عليه بكل قوتها ،

واستغلته لمصلحتها ، وأجرت فيه الأمور على هواها ، فكان من جراء هذا الضغط أن أخذ وعيُ الشرق يستيقظ ، وطموحه يتوثب . وكان من طبيعة هذا أن يتقدم الصفوف زعماء للإصلاح يشعرون بالآلام شعوبهم أكثر مما تشعر ، ويدركون الأخطار المحيطة بها أكثر مما تدرك ، ويفكرون التفكير العميق في أسباب الداء ووصف الدواء . وكل مصلح ينظر إلى المرض من زاويته ويدعو إلى مداواته على حسب خطته ؛ فكان من ذلك مصلحون مختلفون دعوا إلى الإصلاح في أقطارهم على حسب بيئتهم وثقافتهم ومزاجهم . وكلُّ قد أبلى بلاء حسناً ، ولاقى من العناء ما لا يتحمله إلا أولو العزم ؛ فمنهم من شُرِّد ، ومنهم من قتل ، ومنهم من رُمى بالخيانة العظمى ؛ فمن نادى بالمساواة في العدل بين الرعية من غير نظر إلى جنس أو دين اتهم بمحاربة المسلمين ، ومن نادى بتنظيم الجيش على الأساليب الحديثة اتهم بالتفريط والخروج على التقاليد ، ومن نادى بتأسيس مجلس شورى اتهم بمحاربة السلطان والحض على الثورة والعبث بالنظام ، ومن نادى بإصلاح العقيدة والرجوع بها إلى أصل الدين اتهم بالإلحاد ، وهكذا ؛ وهم على هذا صابرون مجاهدون ؛ أحبوا مبادئهم في الإصلاح أكثر مما أحبوا الحياة ، ولم يعبأوا بالعذاب يحيق بهم في سبيل تحقيق فكرتهم ، وظلت آراؤهم تعمل عملها في حياتهم وبعد موتهم ، حتى تحقق إصلاحهم ونفذت أفكارهم ؛ وتقدم الشرق على أيديهم خطوات تستحق الإعجاب .

وكان من حقهم علينا أن نحبي سيرتهم ، ونجدد ذكركم ، ونبين مبادئهم ، فربما جهل كثير من شباب الجيل الحاضر تاريخهم مع قرب العهد بهم ، وتأثرنا في حاضرنا ومستقبلنا بأرائهم وأعمالهم . والله الموفق ؟

محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥ - ١٢٠٦ هـ) (١٧٠٣ - ١٧٩١ م)

هو زعيم الفرقة التي تسمى الوهابية ، وتعتنق مذهبه الحكومة الحاضرة في الحجاز .

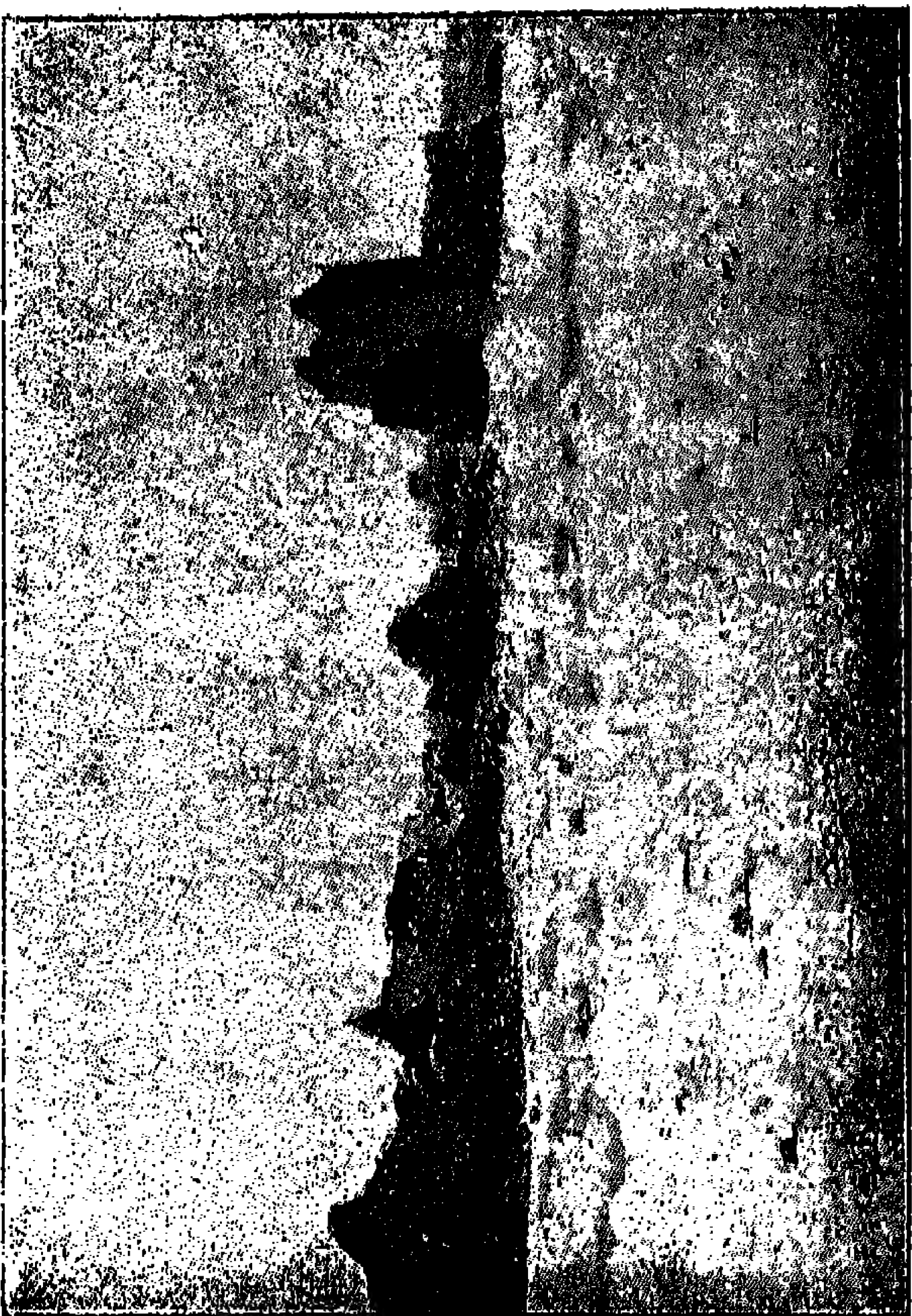
نشأ في بلدة تسمى « العيينة » في نجد ، وتعلم دروسه الأولى بها على رجال الدين من الحنابلة ، وسافر إلى المدينة ليتم تعليمه ؛ ثم طوف في كثير من بلاد العالم الإسلامي ، فأقام نحو أربع سنين في البصرة ، وخمس سنين في بغداد ، وسنة في كردستان ، وسنتين في همدان ؛ ثم رحل إلى أصفهان ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف ، ثم رحل إلى « قم » ، ثم عاد إلى بلده واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة .

وأهم مسألة شغلت ذهنه في درسه ورحلاته مسألة التوحيد التي هي عماد الإسلام ، والتي تبلورت في « لا إله إلا الله » ، والتي تميز الإسلام بها عما عداه ، والتي دعا إليها « محمد » (ص) أصدق دعوة وأحرها ؛ فلا أصنام ولا أوثان ، ولا عبادة آباء وأجداد ، ولا أخبار^(١) ولا نحو ذلك . ومن أجل هذا سعى هو وأتباعه أنفسهم « بالموحدين » ؛ أما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليهم خصومهم واستعمله الأوربيون ، ثم جرى على الألسن .

وقد رأى أثناء إقامته في الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامي أن هذا التوحيد الذي هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع ، ودخله كثير من الفساد . فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم ، والمسيطر

(١) أخبار جمع خبر . وهو : رئيس الدين .

خرائب المدينة ، وطن الشيخ محمد بن عبد الوهاب



عليه ، وواضع قوانينه التي يسير عليها ، والمشرع له ، وليس في الخلق من يشاركه في خلقه ولا في حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ؛ لأنه تعالى ليس في حاجة إلى عون أحد مهما كان من المقربين إليه ؛ هو الذي بيده الحكم وحده ، وهو الذي بيده النفع والضرر وحده لا شريك له ؛ فمعنى لا إله إلا الله : ليس في الوجود ذو سلطة حقيقية تسيّر العالم وفقاً لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس في الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو ، وهذا هو محور القرآن : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

إذا فما بال العالم الإسلامي اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة إلى أن يشرك مع الله كثيراً من خلقه ؟ فهؤلاء الأولياء يحج إليهم ، وتقدم لهم النذور ، ويُعتقد أنهم قادرون على النفع والضرر . وهذه الأضرحة لا عِداد لها ، تقام في جميع أقطاره ، يشد الناس إليها رحالهم ، ويتمسحون بها ، ويتذللون لها ، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم ؛ ففي كل بلدة ولي أو أولياء ، وفي كل بلدة ضريح أو أضرحة تُشرك مع الله تعالى في تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا الفاشمين ، يُتقرب إليه بذوى الجاه عنده وأهل الزلّنى^(١) لديه ، ويُرجون في إفساد القوانين وإبطال العدل . أليس هذا كما كان يقول مشركو العرب : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وقولهم : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ؟ !

بل واأسفاه ؟ لم يكتف المسلمون بذلك ، بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد ؛ فهؤلاء أهل بلدة « منفوحة » باليمامة يعتقدون في نخلة هناك أن لها قدرة

(١) الزلّنى : يتقرب .

عجيبة ، من قصدها من العوانس تزوجت لعمها . وهذا الغار في « الدرعية »
يخرج إليه الناس للتبرك . وفي كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هذا ؛ ففي مصر
شجرة الحنفى ، ونعل الكلشى ، وبوابة المتولى^(١) ؛ وفي كل قطر حجر وشجر .
فكيف يخلص التوحيد مع كل هذه العقائد ؟

إنها تصد الناس عن الله الواحد ، وتشرك معه غيره ، وتسيء إلى النفوس ،
وتجعلها ذليلة وضيفة مخرفة ، وتجردها من فكرة التوحيد ، وتفقدتها التسامى .
وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد كان يفكر فيه « محمد بن عبد الوهاب » ،
وهو أن الله وحده هو مشرّع العقائد ، وهو وحده الذى يحلل ويحرم ، فليس
كلام أحد حجة في الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين ، فالله يقول : « أم لهم
شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » ؛ فكلام المتكلمين في العقائد ،
وكلام الفقهاء في التحليل والتحريم ليس حجة علينا ؛ إنما إمامنا الكتاب والسنة ،
وكل مستوف أدوات الاجتهاد له الحق أن يجتهد ؛ بل عليه أن يفعل ذلك
ويستخرج من الأحكام — على حسب فهمه لنصوص الكتاب وما صح من
السنة — ما يؤديه إليه اجتهاده . وإقبال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين ؛
إذ أضاع شخصيتهم وقوتهم على الفهم والحكم ، وجعلهم جامدين مقلدين يبحثون
وراء جملة في كتاب أو فتوى من مقلد مثلهم ؛ حتى انحط شأنهم وتفرقوا أحزاباً
يعلمن بعضهم بعضاً ؛ ولا منجاة من هذا الشر إلا بإبطال هذا كله ، والرجوع إلى
الدين في أصوله ، والاستقاء من منبعه الأول .

وهكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كل شريك ،
وفكرة التوحيد في التشريع ، فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

(١) شجرة الحنفى : شجرة كانت في الحنفى يتبرك بها . ونعل الكلشى : نعل قديمة
في تكية الكلشى ، يزعمون أن المأم إذا شرب منها ينفع للتداوى من المشق . وبوابة المتولى
ملوثة بالمسامير تعلق بها الشمور والحيوط ليذكر بالخير من علقها . وهكذا .

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب ؛ وعلى هذا الأساس بنيت الجزئيات .
اقتنى في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ، ظهر في القرن السابع الهجري في عهد
السلطان الناصر هو « ابن تيمية » ، وهو — مع أنه حنبلي^١ — كان يقول بالاجتهاد
ولو خالف الحنابلة ، وكان حُرَّ التفكير في حدود الكتاب وصحيح السنة ، ذَلِقَ
اللسان ، قوى الحجة ، شجاع القلب ، لا يخشى أحداً إلا الله ، ولا يعبأ بسجن
مظلم ، ولا تعذيب مرهق ، فهاجم الفقهاء والمتصوفة ، ودعا إلى عدم زيارة القبور
والأضرحة وهدمها ، وألف في ذلك الرسائل الكثيرة ، ولم يعبأ إلا بما ورد
في الكتاب والسنة ، وخالف إمامه أحمد بن حنبل حين أداه اجتهاده إلى ذلك .
فيظهر أن « محمد بن عبد الوهاب » عرف ابن تيمية من طريق دراسته
الحنبلية ، فأعجب به ، وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها . وفي المُتَحَفِ
البريطاني بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب ، فكان
ابن تيمية إمامه ومرشده وباعث تفكيره ، والموحى إليه بالاجتهاد والدعوة
إلى الإصلاح .

دعا مثله إلى ردّ البدع والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده ، لا إلى
المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسّل ولا شفاعة . وزيارة القبور إن
كانت فللعظة والاعتبار ، لا للتوسّل والاستشفاع ، فهم لا يملكون شيئاً بجانب
الله وقوانينه الثابتة التي لا تتخلّف والتي نظم الله بها كونه ، فالذبح للقبور والنذور
لها والاستغاثّة بها والسجود عندها شرك لا يرضاه الله ، وهو هدم للتوحيد
— الذي جاء به الإسلام — من أساسه ، ومثل ذلك تخصيص القبور^(١) وبناءة
الأضرحة وتشديد الأبنية عليها ، وكسوتها بالحرير المذهب وما إلى ذلك ، فكل
هذه لا يعرفها الإسلام .

(١) ملازمها بالحص .

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة مولد ، ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنازة ، ولا إقامة أذكار يُغنى فيها ويُرقص ، ولا « محمل » يُتبرك به ويتمسح ، ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم ، وهو ليس إلا أعواداً خشبية لا تضر ولا تنفع .

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال ، ويجب أن نعود إلى الإسلام في بساطته الأولى ، وطهارته ونقاؤه ، ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك . فلا إله إلا الله معناها كل ذلك . والكتب الملوثة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد ، كدلائل الخيرات ؛ وما في البردة من مثل قوله :
يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العم (١)
وقوله :

إن لم تكن في معادى آخذاً بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم
وقوله :

فإن من جودك الدنيا وضررتها ومن علومك علم اللوح والقلم (٢)
ونحو ذلك ، أقوال فاسدة كاذبة . فلا التجاء إلا إلى الله ، ولا اعتماد في الدنيا والآخرة إلا عليه .

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسياتهم ليس له من سبب إلا العقيدة . فقد كانت العقيدة الإسلامية في أول عهدها صافية نقية من أى شرك . وكانت لا إله إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم الخوف من الموت في سبيل الحق .

(١) العم : الشامل .

(٢) ضررتها : أى الآخرة .

وعدم الخوف من استنكار المنكر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من عذاب ..
ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت في رفع لواء الحق ودفع الظلم ؛ وهذا هو الفرق
الوحيد بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها
غزّوا وفتحوا وحكموا . ثم ماذا ؟

ثم لم يتغير شيء إلا العقيدة ، فتدنّوا من سموّ التوحيد إلى حضيض الشرك ،
فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد خشب وقبور أولياء ، وركنوا إلى ذلك
في حياتهم العامة ؛ فالزراع ينجح لرضا ولي ويخيب لغضبه ، والبقرة تحيا إذا
نُذِرَت للسيد البدوي أو مثله ، وتموت إذا لم تُنذَر ، وهكذا في الأمراض
والعلل والغنى والفقر كلها لا ترجع إلى قوانين الله الطبيعية ، وإنما ترجع إلى
غضب الأرواح ورضاها . ومثل هذه النفوس الضعيفة التي تذل للحجر والشجر
والأرواح . لا تستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين تأمرهم بمعروف
أو تنهاهم عن منكر ، فذلوا للحكام والأغنياء كما ذلوا للخشب والأحجار .
وما زال كل قرن يمرّ تزداد معه الآلهة عدداً وتزداد النفوس ذلة ، حتى وصلت
الحال بالامة الإسلامية إلى فقد سيادتها ، وانهيار عزتها . ولا يصلح آخر الإسلام
إلا بما صاح به أوله ، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد
الصحيح والعزة الحقّة ، ولا بد من هدم هذه البدع والخرافات باللين إن نجح ،
وبالقوة إن لم ينجح ، والله المستعان .

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم
يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد علي باشا ، وإنما اتجه إلى
العقيدة وحدها والروح وحدها . فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب
إن صلحا صلح كل شيء ، وإن فسدا فسد كل شيء ، وطبعي أن يكون هذا
هو الفرق بين رئيس الدين في نجد ورئيس الحكم في مصر .

أما بعد ، فإن التوحيد الصحيح المطلق اجرد عن شائبة كل تجسيم ، المنزه عن كل تشخيص ، الذى يصل العبد بربه من غير وساطة ولا وسيلة ، مطلب عسير لا يستطيعه إلا الخاصة أو خاصة الخاصة . أما من عداهم فيشعرون بالتوحيد لحظات ثم سرعان ما يتدهورون ، ويشوب عقيدتهم نوع من التشخيص ، وأسلوب من التجسيم على نحو ما ، ثم يتخذون من الصالحين وسائل وزلفى — كان ذلك فى الجاهلية ، وكان ذلك فى الإسلام بُعَيْدَ البعثة إلى الآن .

فالمؤرخون يروون أن أهل الطائف لما أسلموا كان لهم بِنْيَةٌ على اللات^(١) ، فأمر النبي بهدمها ، فطلبوا منه أن يترك هدمها شهراً لئلا يروّعوا نساءهم وصبيانهم حتى يدخلوهم فى الدين ، فأبى ذلك عليهم وأرسل معهم المغيرة بن شعبه وأبا سفيان ابن حرب وأمرهم بهدمها .

وفى الحديث أن العرب كانت لهم فى الجاهلية شجرة تسمى « ذات أنواط » كانوا يعلقون بها سلاحهم ويعكفون حولها ويعظمونها ، فسأل بعض المسلمين رسول الله أن يجعل لهم كذلك « ذات أنواط » فنهاهم عن ذلك .

ولما جاء عمر شعر أن بعض الناس أخذ يحن إلى العادات الجاهلية القديمة ، فرآهم يأتون الشجرة التى بايع رسول الله (ص) تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها ، فبلغ ذلك عمر فأمر بها فقطعت .

ولما رأى عمر كعب الأخبار يخلع نعله ويأمس برجليه الصخرة عند فتح بيت المقدس ، قال له : « ضاهيت والله اليهودية يا كعب » .

وهكذا ما لبث بعض الناس حتى تراجع عن التوحيد المطلق الذى جاء به الإسلام ، لأن التحرر من المادة بأشكالها جميعاً ، والإفلات من قيود الحس ، والتساقى إلى الله فوق المادة وفوق الحس وفوق التشخيص ، يتطلب منزلة رفيعة من سمو العقل تعجز عنه الجماهير .

(١) بنية : كعبة . اللات : صنم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » .

ثم سرعان ما اتخذ المسلمون قبور الصالحين وغير الصالحين مساجد ، ولم يكن الصحابة الأولون يشدون الرحال إلى المشاهد ، ثم كان ذلك ، وهكذا كلما مضى زمن كثرت فيه أصناف التعظيم للقبور والأضرحة وكثير من الأشجار والجماذ . وظهر الدعاة والمصلحون على توالى العصور يحاولون أن يردوا الناس عن هذا ويرجعوهم إلى التوحيد وحده ، وكلما دعا داع إلى ذلك عُدِّب وأهين ورُمى بالكفر والإلحاد كما فعل بابن تيمية ، فقد ألف الرسائل في هذا الموضوع ، وانتقد حال المسلمين في استغاثتهم بالقبور ورحيلهم إليها ، وطوافهم بالصخرة في بيت المقدس ، ورحيلهم إلى مشهد الخليل ومشاهد عسقلان ، وتعظيمهم حتى بعض آثار النصرانية فعُدِّب وسجن ؛ وأتى بعده بقرون محمد بن عبد الوهاب هذا ، فدعا مثل هذه الدعوة فرمى بالكفر . وأخيراً جاء الشيخ محمد عبده فدعا إلى العدول عن التوسل والشفاعة والزيارة للقبور ، وملاً دروسه في التفسير بمثل هذه الدعوة ، فلقى من أهل زمنه ما لم يغيب عن أذهاننا بعد .

هذا هو جوهر الدعوة التي دعا بها محمد بن عبد الوهاب ، فماذا كان شأنها ومصيرها ؟

كانت جزيرة العرب عندما دعا محمد بن عبد الوهاب دعوته — التي شرحناها فيما مضى — أشبه شيء بحالتها في الجاهلية ، كل قبيلة تسكن موضعاً يرأسها أمير منها . هذا أمير في الأحساء ، وهذا أمير في العسير ، وهؤلاء أمراء في نجد الخ ، ولا علاقة بين الأمير والأمير إلا علاقة الخصومة غالباً . ثم تنوزعها — أيضاً —

الخصومة بين البدو والحضر ، فمن قدر من البدو على خطف شيء من الحضر فعل ، ومن قدر من الحضر على التنكيل ببدو فعل . والطرق غير مأمونة ، والسلب والنهب على أشدهما ، وسلطة الخلافة في الآستانة تكاد تكون سلطة اسمية ، ومظهرها تعيين الأشراف في مكة وإمدادهم ببعض الجنود وكفى .

لقد بدأ « محمد بن عبد الوهاب » يدعو دعوته — التي ذكرناها — في لين ورفق بين قومه . ثم أخذ يرسل الدعوة لأمرء الحجاز والعلماء في الأقطار الأخرى ، حاثا لهم على استنهاض الهمم في مكافحة البدع والرجوع إلى الإسلام الصحيح .

كم من المصلحين دَعَوْا مثل هذه الدعوة ، ولكنها سرّت بسلام ، وإن شابهها شيء فسجن الداعي أو التشهير به ، ورميه بالكفر أو الزندقة ، ثم ينتهي الأمر ويعود الناس سيرتهم الأولى ؛ بل ترى من قام بمثل هذه الدعوة — فعلا — في المغرب ، كالشيخ أبي العباس التيجاني ، فقد أمر بترك البدع ونهى عن زيارة القبور ، وكثرت أتباعه حتى بلغت مئات الألوف ، ولكن لم يلفت الناس والحكام أمره كما لفتهم محمد بن عبد الوهاب ؛ وكذلك الشيخ محمد عبده دعا مثل هذه الدعوة ، فأجابه بعضهم ، وأنكر عليه بعضهم ، ثم أسدل الستار . فما السبب في نجاح الدعوة الوهابية دون الأخرى ؟ .

السبب في هذا ما أحاط بالدعوة الوهابية من ظروف لم تهياً لغيرها . فقد اضطهد في بلده العيينة ، واضطر أن يخرج منها إلى الدرعية مقر آل سعود ؛ وهناك عرض دعوته على أميرها محمد بن سعود قبلها ، وتعاهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع ، ونشر الدعوة في جميع جزيرة العرب باللسان عند من يقبلها ، وبالسيف عند من لم يقبلها ؛ وإذ ذاك دخلت الدعوة في دور خطير ، وهو اجتماع السيف واللسان ، وزاد الأمر خطورة نجاح الدعوة شيئاً فشيئاً ، ودخول الناس أفواجا فيها ، وإخضاع بعض الأمراء بالقوة لحكمها ،

وكلما دخلوا بلدة أزالوا البدع وأقاموا تعاليمهم ، حتى هددت الحركة كل جزيرة العرب . ولما مات الأمير ومات الشيخ تعاقد أبناء الأمير وأبناء الشيخ على أن يسيروا سيرة أبويهم في نصره الدعوة متكاتفين ، وظلوا يعملون حتى غلبوا على مكة والمدينة .

وشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها ، وهو موطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان لها مركزاً إسلامياً ممتازاً ، تفقد الكثير منه إذا فقدتهما .

فأرسل السلطان محمود إلى محمد علي باشا في مصر أن يُسَيِّر جيوشه لمقاتلة الوهابيين ؛ وكما أرسلت الجيوش لمقاتلتهم أرسلت الدعاية من جميع الأقطار الإسلامية للنيل من هذه الدعوة وتكفير مبتدعيها . وحمل علماء المسلمين عليها حملات منكرة وألفت الكتب الكثيرة في التخويف منها والتشنيع عليها .

وهكذا حدثت الحرب بالسيف والحرب بالكلام ، كل هذا خدم الدعوة الوهابية بلفت الأنظار إليها ودورانها على كل لسان . وزاد في شأنها أن الوهابيين انتصروا على حملة محمد علي باشا الأولى بقيادة الأمير طوسون .

ثم أعدَّ محمد علي باشا لعدة القوية الكبيرة ، وسار بنفسه وحاربههم بخير سلاحه ، فانتصر عليهم ، وأتم النصر ابنه إبراهيم باشا ، وانهزمت قوة الوهابيين . ولكن بقيت الدعوة إلى أن هُيِّئ لها في العهد الحاضر الملكة السعودية الحاضرة في تاريخ طويل لا يعيننا هنا ، وإنما يهمننا الدعوة وما تم لها .

إن الدعاية التي أحكت ضدها ، وتعلق الناس بالدولة العثمانية ، وميلهم الشديد أن تظل بلادها وحدة لا ينفصل عنها جزء ، جعلت عامة المسلمين في أقطار العالم الإسلامي يفرحون بهزيمة الوهابية . ولو لم يفهموا جوهر دعوتها ، وشيء آخر كان كبير الأثر في تنفير عامة المسلمين من هذه الحركة ، وهو أنها

حيث استولت على بلد نفذت تعاليمها بالقوة ولم تنتظر حتى يؤمن الناس بدعوتها ؛ فلما دخلوا مكة هدموا كثيراً من القباب الأثرية ، كقبة السيدة خديجة ، وقبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد أبي بكر وعليّ ؛ ولما دخلوا المدينة رفعوا بعض الحلى والزينة التي كانت على قبر الرسول ؛ فهذه كلها أثارت غضب كثير من الناس وجرحت عواطفهم ، فمنهم من حزن على ضياع معالم التاريخ . ومنهم من حزن على الفن الإسلامي . ومنهم من حزن لأن مقبرة الرسول صلى الله عليه وسلم ونخامتها مظهر للعاطفة الإسلامية وقوة الدولة ؛ وهكذا اختلفت الأسباب واشتركوأ في الغضب . والوهابيون لم يعبثوا إلا بإزالة البدع والرجوع بالدين إلى أصله .

قد اهتموا بالناحية الدينية وتقوية العقيدة وبالناحية الخلقية كما صورها الدين . ولذلك حيث سادوا قلت السرقة والفجور وشرب الخمر وأمن الطريق وما إلى ذلك ؛ ولكنهم لم يمشوا الحياة العقلية ولم يعملوا على ترقيتها إلا في دائرة التعليم الديني . ولم ينظروا إلى مشاكل المدينة الحاضرة ومطالبها . وكان كثير منهم يرون أن ما عدا قطرهم من الأقطار الإسلامية التي تنتشر فيها البدع ليست بممالك إسلامية ، وأن دارهم دار جهاد ؛ فلما تولت حكومة ابن سعود الحاضرة كان لا بد أن تواجه هذه الظروف ، وتقف أمام منطق الحوادث . ورأت نفسها أمام قوتين قويتين لا معدى^(١) لها عن مسايرتهما ، قوة رجال الدين في نجد المتمسكين أشدهم التمسك بتعاليم ابن عبد الوهاب والمتشددين أمام كل جديد فكانوا يرون أن التفراف السلكي واللاسلكي والسيارات والعجلات من البدع التي لا يرضى عنها الدين . وقوة التيار المدني الذي يتطلب نظام الحكم فيه كثيراً من وسائل المدنية الحديثة كما يتطلب المصانعة والمدارة . فاختلفت لنفسها طريقاً وسطاً شاقاً بين القوتين . فقد عدلت نظرها إلى الأقطار الإسلامية الأخرى وعدتهم مسلمين .

(١) لا معنى : لا بد .

وبدأت تنشر التعليم المدني بجانب التعليم الديني ، وتنظم الإدارة الحكومية على شيء من النمط الحديث . وتسمح للسيارات والطائرات واللاسلكي بدخول البلاد واستعمالها وما إلى ذلك . وما أشقه عملاً ، التوفيق بين علماء نجد ومقتضيات الزمن ، وبين طبائع البادية ومطالب الحضارة .

* * *

لم تقتصر الدعوة الوهابية على الحجاز والجزيرة العربية ؛ بل تعدتها إلى غيرها من كثير من الأقطار الإسلامية . وكان موسم الحج ميداناً صالحاً وفرصة سانحة لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم إلى قبولها . فإذا عادوا إلى بلادهم دعوا إليها . فدرى في زنجبار طائفة كبيرة من المسلمين يعتقدون هذا المذهب ، ويدعون إلى ترك البدع ، وعدم التقرب بالأولياء .

وقام في الهند زعيم وهابي اسمه السيد أحمد . حج سنة ١٨٢٢ م . وهناك آمن بالمذهب الوهابي ، وعاد إلى بلاده ، فنشر هذه الدعوة في بنجاب وأنشأ بها شبه دولة وهاوية ، وأخذ سخطانه يمتد حتى هدد شمال الهند ، وأقام حرباً عواناً^(١) على البدع والخرافات . وهاجم الوعاظ ورجال الدين هناك . وأعلن الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه ويقبل دعوته ، وأن الهند دار حرب . ولقيت الحكومة الإنجليزية متاعب كثيرة شاقة من أتباعه ، حتى استطاعت إخضاعهم .

وكذلك حضر الإمام السنوسي مكة حاجاً ، وسمع الدعوة الوهابية واعتنقها ، وعاد إلى الجزائر يشر بها ، ويؤسس طريقته الخاصة في بلاد المغرب كما سيأتي بيانه . وفي اليمن ظهر أعلم علمائه ، وإمام أئمتته وهو الإمام الشوكاني المولود سنة ١١٧٢ هـ . فسار على هذا النهج نفسه ، وإن لم يتلقه عن ابن عبد الوهاب ، وألف كتابه القيم « نيل الأوطار » شارحاً فيه كتاب ابن تيمية « مُنتقى الأخبار »

(١) عواناً : متكررة ، مشتدة .

عارضاً الأحاديث النبوية ، مجتهداً في فهمها ، وفي استنباط الأحكام الشرعية منها ولو خالف المذاهب الأربعة كلها ؛ وحارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد واثارت من أجل ذلك حرب كلامية شعواء^(١) بينه وبين علماء زمنه ، كان أشدها في صنعاء . وألف في ذلك رسالة سماها « القول المفيد في حكم التقليد » ؛ ودعا في قوة إلى عدم زيارة القبور والتوسل بها ، فقال في نيل الأوطار^(٢) : « وم سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفسد يئس لها الإسلام ، (منها) اعتقاد الجملة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ؛ فعملوها مقصداً لطلب قضاء الجوائج وملجأ لنجح المطالب ؛ وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم ، وشدوا إليها الرجال وتمسحوا بها واستغاثوا . وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

» ومع هذا النكر الشنيع والكفر الفظيع ، لا نجد من يفضب الله ، ويعار حمية الدين الحنيف ، لا عالماً ولا متعلماً ، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً ، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يُشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعم وتلكأ ، وأبى واعترف بالحق ؛ وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال إنه تعالى ثاني اثنين وثالث ثلاثة .

» فيا علماء الدين ، ويا ملوك المسلمين ؛ أي رزء للإسلام أشد من الكفر ، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ، وأي مصيبة يعصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك اللين ؟ »

(١) شعواء : منتشرة ، ممتدة

(٢) جزء ٣ ص ١٣٤ من الطبعة الأميرية .

، قد مات الإمام الشوكاني سنة ١٢٥٠ بعد أن أبلى في هذا بلاء عظيماً ،
وخلف تلاميذ كثيرين يدينون برأيه

وفي مصر شبَّ الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو ،
فرجع إلى هذه التعاليم في أممها من عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية ، إلى عهد
ابن عبد الوهاب ؛ وكان أكبر أمله أن يقوم في حياته للمسلمين بعمل صالح ، فأداه
اجتهاده وبخثه إلى هذين الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمه ، وهما :
(١) محاربة البدع وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد يأسرك الإولياء
والقبور والأضرحة مع الله تعالى ، و (٢) فتح باب الاجتهاد الذي أغلقه ضعاف
العقول من المقلدين ، وجرّد نفسه لخدمة هذين الغرضين ، ولكنه امتاز بميزة
كبرى عن عدايه ، وهي ثقافته الواسعة الدينية والدنيوية ، ومعرفته بشئون الدنيا
وأسسها وتياراتها ، وذلك بتربيته الدينية الأولى المستمرة ، وبانغماسه في الأمور
السياسية واطلاعه على الثقافة الفرنسية ، ورحلاته إلى أوربة يخالط علماءها
وفلاسفتها وساستها . فلما تعرض لمثل ما تعرض له ابن عبد الوهاب فلسف الدعوة
وركزها على أسس نفسية واجتماعية ، كما شارك في تركيزها على الأسس الدينية ؛
ففي دروسه في التفسير التي كان يلقيها في الرواق العباسي بالأزهر ، كان ينتهز كل
إشارة لآية ولو من بعيد تندّد بالشرك فيفيض في الحلة على عبادة الصالحين ، وزيارة
القبور والشفاعة والتوسل وما إلى ذلك . فيطيل الوقوف — مثلاً — عند قوله
تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ،
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ » ، فيقسم الشيخ الأنداد إلى قسمين : هؤلاء الشفعاء
الذين اتخذهم الناس وسيلة للقرب من الله يستقضونهم في الخواص ، وهؤلاء الذين
يقلدون في الدين يتخذ قولهم شرعاً من غير حجة ولا برهان . وتظهر فلسفته

للمذهب في بيان الأضرار النفسية من هذه العقائد ، فهي تورث الذل وتخضع الناس للحكام الظالمين ، وتَحُطُّ النفوس إلى الدَّرَكِ الأسفل ، ثم هي تضر اجتماعياً باعتماد الناس على هؤلاء الأولياء بتركهم القوانين الطبيعية التي جعلها الله أسباباً لا بد منها لحصول المسبب . فالزراعة إنما تنجح بالحرث والتسميد والبذر والسقي ، لا بالاستغانة بولي ؛ والحرب إنما تكسب باتخاذ سلاح مجهز على آخر طراز كسلاح العدو ، وإعداد العدة الكاملة كما يفعل العدو ، لا بالاستعانة بأهل القبور . وفضيلة المسلم أن يستعين بعد ذلك كله بالله وحده ، يطلب منه أن يثبت قلبه ، ويلهمه التوفيق . وهكذا كان يُفيض في هذين الأساسين مفنداً آراء من يقول بالتوسل والشفاعة والتقليد .

وينتهاز فرصة وجود جماعة من العلماء عنده في يوم مولد النبي ، ودعوته للعشاء عند أحد المحتفلين ، فيبين لهم أن هذه الموالد كلها منكرات ، ويتمنى لو أنفق ما يُصرف في الموالد على تعليم الفقراء ، ويناظروهم في ذلك مناظرة تنتهي بانصراف العلماء إلى العشاء في المولد ، وامتناع الشيخ وحده .

ويضع الشيخ تفسيراً لجزء « عم » للناشئة فيلتمس كل وسيلة للحملة على كل ما يشوب التوحيد من شرك بعبادة المشايخ والقبور والأضرحة والتخريف ، راجياً أن ينشأ الشباب نشأة دينية صحيحة خيراً مما عليه آبائهم — وأعانه في هذه السبيل تلميذه وصديقه السيد محمد رشيد رضا في مجلة المنار ، فقد ملأها كذلك بمثل هذه الدعوة ومثل هذه الحجج ، يُسمع بها المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية . وفي تركيا قامت الحكومة التركية الكمالية بمحاربة هذه البدع والخرافات فأغلقت التكايا وكانت عش التدجيل ، وطاردت المشايخ ، واضطهدت المهرّجين ؛ ولكن الفرق بين هذه الحركة وما قبلها أن كل الحركات السابقة كانت مؤسسة على الدين والإصلاح الديني ، والرجوع إلى الأصول الدينية ، أما هذه الحركة

فمؤسسة على العقل المطلق ، وفكرة الإصلاح الاجتماعى من غير أن يكون الدافع إليها الرغبة فى الإصلاح الدينى .

* * *

وأخيراً وقد مضى على هذه الدعوة الإصلاحية من عهد محمد بن عبد الوهاب إلى الآن عشرات السنين ، واشترك فى تنظيم الغزوة عشرات من الأبطال ، فإذا كانت النتيجة ؟

ظلت عامة المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية — كما هم — من حيث الالتجاء فى قضاء الحوائج إلى المشايخ والقبور والأضرحة ، وظلت على عادتها فى الاحتفال بالموالد ونحرها وإن قل بهاؤها وروثها ، وإنما تأثر بهذه الدعوة الخاصة أو خاصة الخاصة . كما تأثر بها ناشئة الشباب المثقفين بحكم ثقافتهم ونمو عقليتهم ؛ فلم يلجأوا إلى المزارات والمشايخ كما كان يلجأ آباؤهم ، ولكن أخشى أن يكون كثير منهم لا يلجأ إلى الله أيضاً كما كان يلجأ آباؤهم .
والآن ننتقل إلى نوع آخر من الإصلاح كان مظهره مدحت باشا فى تركيا .

مراجعة باننا

(١٢٣٨ - ١٣٠١ هـ) (١٨٢٢ - ١٨٨٣ م)

وهذا مصلح آخر من جنس آخر : محمد بن عبد الوهاب مصلح ديني ، وهذا مصلح اجتماعي ؛ ذاك في نجد ، وهذا في استنبول ؛ ذاك لا شأن له بالسياسة ولا المدنية الحديثة ، إنما هم إصلاح العقيدة ؛ وهذا منغمس في السياسة لا مشكلة أمامه غيرها ؛ ذلك برّ نامج إصلاحه الرجوع إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومحابته لمتعقد ما يعتقدون ، ونعمل ما يعملون ، ونترك ما يتركون ؛ وهذا يرى الإصلاح في الرجوع إلى المدنية الحاضرة ومناجها في الأمم الحية لتختار منها ما يصلح لنا ويتفق ومواقفنا ، دارسين في إمعان كيف شق الأوربيون طريقهم إلى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وكيف تعثروا وكيف نهضوا ، فتعلم من خطئهم وصوابهم ، وتقتبس خير ما أنتجته عقولهم .

* * *

لقد ولد في عهد السلطان محمود ، ونضج شبابه في عهد السلطان عبد الحميد ، وبدأت لهوته في عصر عبد العزيز ، وانهت في عهد عبد الحميد .

جاء والدنيا مدبرة عن الدولة العثمانية ، وحركة الجزر تلي حركة المد ، والمملكة تنقص من أطرافها ، ويدب الفساد في داخلها .

يقع الظلم على سكانها المسلمين والنصارى على السواء ، ولكن المسلمين ينادون بالإصلاح في هدوء وإشفاق ، والنصارى من ورائهم أمم تحميهم ، وتتخذ ظلمهم وسيلة للتدخل في شئون الدولة بدعوى حمايتهم ، والعمل على تحريرهم ،

فأصبحت الدولة وكل يوم تُقتطع منها ممالك ، وكل يوم تُعقد معاهدات تنقص حقوقها وتُفرض عليها بالتهديد والوعيد .

حكام في كل ولاية يحكمون البلاد بعقول ضيقة وشهوات واسعة ، ترف في المظهر ، وسخف في الخبر ؛ لا يقيدهم قانون ، ولا يردعهم عدل ، ولا يرون للشعوب حقاً إلا أن تؤمر فتطيع ، وتُنتهب فتصبر ؛ بل لا يكفيهم الصبر على المصيبة ، وإنما يتطلبون المدح والثناء عليهم في ظلمهم وطريقة حكمهم ، فمن امتنع من ذلك فهو ثائر ، ومن شكاه فهو كافر ؛ فأورث ذلك الهجرة عند من احتفظ بإبائهم ، والذل والهوان عند من لصق بأرضه .

لا عناية بصحة ولا تعليم ، فالأمراض فاشية والجهل عميم ، والمسلمون في ذلك أسوأ حالاً من المسيحيين ، لأن الجمعيات المسيحية في الأمم الغربية تعين مسيحي الشرق بفتح المدارس لهم ، ونشر التعليم بينهم ، والمسلمون حاثرون بين إقدام على التعلم في هذه المدارس مع التعرض لما يمس دينهم ، وبين الاحتفاظ بدينهم ومعه الاحتفاظ بجهلهم .

والفقر ضارب أطنابه^(١) بين الشعوب لضعف وجوه الاستغلال ، فلا زراعة صالحة ، ولا صناعة ناجحة ، فهذه كلها تدار بيد أضعفها الفقر ، وعقل أضره الجهل . وعقيدة أفسدها التخريف ! ثم عدم اكتراث الناس لما تنتجه أيديهم وأرضهم ، إذ ليس يحميه عدل حكامهم .

الجنود في الدولة لا تزال قوية شجاعة على رغم كل ذلك ، تحتقر الموت وتستعذبه ، وحالتها المعنوية عالية رفيعة ، ولكن لا نظام لها على النمط الحديث ، ولا نظام في الإمداد بالآلات والعدد والغذاء ، فإن انتصروا في بعض المواقع فبفضل قوة إيمانهم وسمو روحهم ، وعلى الرغم من سوء تغذيتهم ، وضعف عدتهم .

(١) ضارب أطنابه : مطبق . والأطناب : حبال الخيمة .

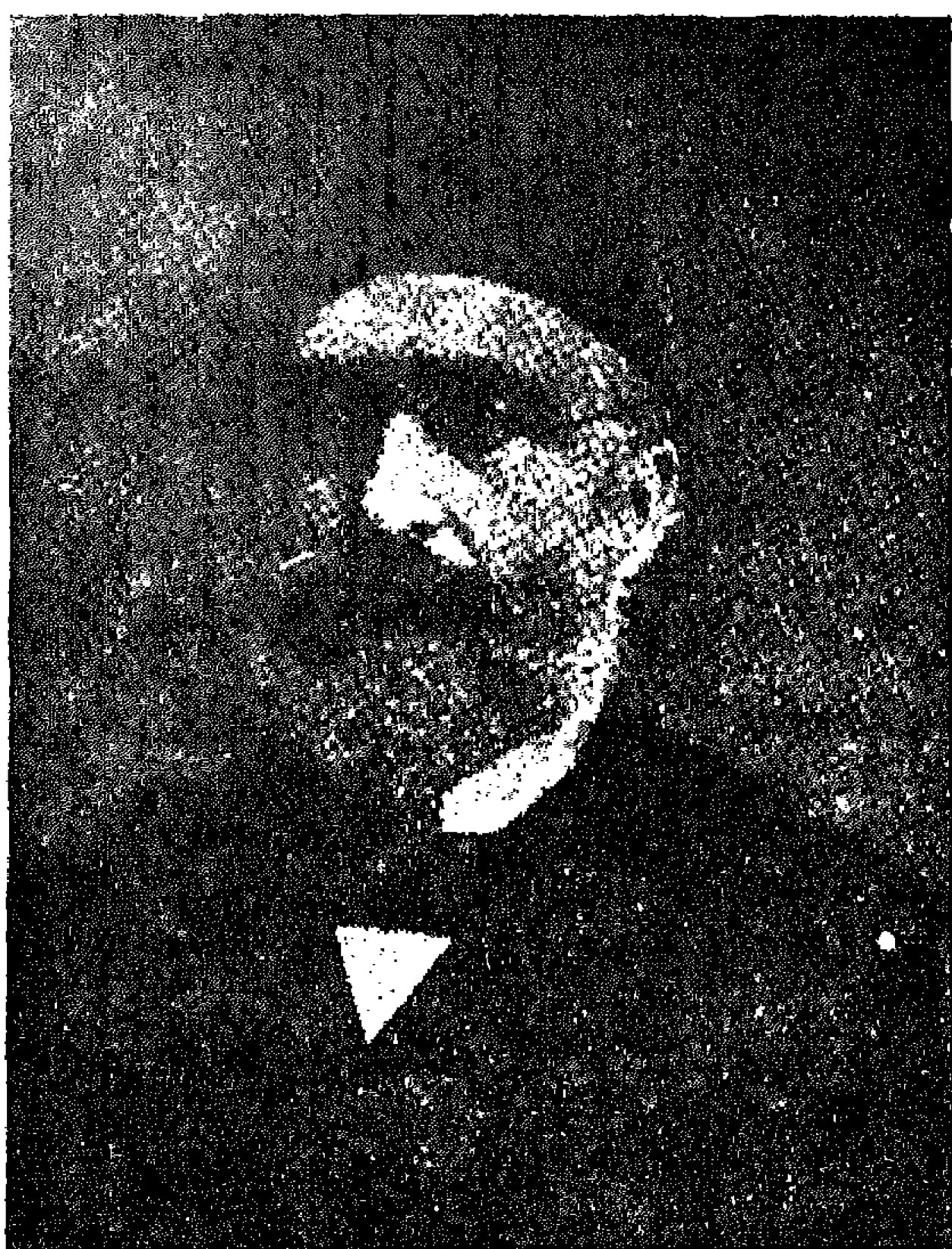
وتلك حال لا تبشر بخير دائم . والأم الحية حولهم كل يوم تُعدّ جديداً من الآلات وتستكمل نقصاً في النظام ، وتتخذ الأساليب الخفية والظاهرة في الظفر بالأعداء ؛ فكيف ينفع بقاء القديم وسير الأمور في مجراها العتيق ؟

وهذه الدول من حولها أحست ضعفها ، وشعرت بدنوا أجلها ، فهي كل يوم تنصيب الشباك حولها ، وتتقن صنعها في دقة ومهارة ، وكل دولة أساليبها في الحبائل ، وطرقها في الصيد ، وكل دولة تصطنع من الدولة رجالاً هم عيونها وعُدتها ووسائلها .
والملسكة خليط من عناصر شتى يختلف جنسها ، ويختلف لغتها ، ويختلف دينها ، ولكل عنصر هوى ، ولكل جنس أسباب متصلة بأمر أخرى تستهويها وتستنجدها .

فلا المالية صالحة ، ولا الإدارة صالحة ، ولا الجيش صالح ، ولا الأمة متحدة النوازع والآمال والآلام .

وزاد الأمر سوءاً أن السلطان عبد العزيز جاء ناقماً على الحالة التي وصلت إليها الأمة ، وانتقد أخاه عبد المجيد في تصرفاته ، وفي إسرافه في شهواته ، وفي تبذيره للمال ، وعدم نظره إلى شئون الدولة كما ينظر إلى نفسه ، فأعلن أنه آت لإصلاح المفسد ، والأخذ بيد الشعب ، والاقتصار على زوجة واحدة ، والاقتضاد في نفقات الحريم ، ولكن سرعان ما تبددت هذه الوعود ، وخطا في سبيل البذخ^(١) والترف والنعم والإسراف أضعاف ما كان ينتقده من أخيه ! وارتكب في عهده غلطتين كبيرتين : تقويته عواطف رعاياه المسلمين في أنهم أولى بالترفضيل في مزايا الدولة في المعاملة والمناصب ونحو ذلك ، وأن ليس يصح أن يساويهم رعاياه المسيحيون في ذلك ، فأوقد بذلك شعور البغضاء والحقد وحب الانتقام بين عناصر الأمة الواحدة ، وسد الطريق للدول الأوربية أن تتدخل في حماية أهل دينها .

(١) للبلغ : للماظم .



مدحت باشا

والغلطة الثانية : وقوعه في الدين من المصارف الأجنبية لقلة دخل الدولة وكثرة إسرافه . نعم ، إن بعض هذا المال أنفق في إصلاح الجند والبحرية ، ولكن كثيراً منه أنفق في بناء قصوره الكثيرة الفخمة وما تحوى من أسباب الترف والنعيم — مع أنه لما أراد سعيد باشا والى مصر الاستدانة بعث إليه بكتاب طويل مملوء بكل الحجج التي يمكن أن تقال في سوء عاقبة الاستقراض وضرره بالممالك — فكان هذا أيضاً وسيلة من وسائل التدخل الأجنبي ؛ هذا إلى اعتداده بنفسه ، واستبداده برأيه ، وتركيز أعمال الحكومة كلها في شخصه ؛ فهو مرجع كل شيء ، لا يسمع نصيحة ناصح ، ولا رأى مجرب ، ويخشى الذكاء والعلم والثقافة الواسعة ومعرفة بواطن الأمور ، لأنها كلها تؤدي إلى مراقبة أعماله ومحاسبته على إسرافه .

وجاء السلطان عبد الحميد فزاد في الطنبور نفمة بل نغات : لقد لعب خوفه على شخصه برأسه ، وقد سمع من التاريخ أن كثيراً من أجداده خلعوا أو قتلوا ، وهذا بالأمس القريب عبد العزيز خلع وقيل قتل ، فليحذر أن يُمثل به هذا الدور . ثم ذكاء نادر ، ومال كثير ، وسلطان كبير ، كل هذا يوجهه للمحافظة على شخصه أن يمس بسوء ، فلا تذكر الملة والأمة في الصحف والمجلات ، بل تذكر « الذات الشاهانية » متوجة بالألقاب الضخمة الفخمة ؛ فهو السلطان الأعظم ، والخالق الأنعم ، وسلطان البرين والبحرين ، وإمام الحرمين الشريفين ؛ وهو ظل الله في أرضه ، المحفوف بالطفاه الصمدانية ، وعنايته الربانية .

ويصادر الكتاب إذا كان فيه « الأئمة من قریش » . وتمنع « العقائد النسفية » من الطبع لأن فيها فصلاً في الإمامة وشروط الخلافة ؛ وكل كتاب يطبع في الشام أو العراق أو الآستانة لا بد له من « رخصة جليّة » ؛ ويجمع كتاب كان يدرس في « مكتب الحقوق » ويحرق لأنه وردت فيه جملة مضمونها

أنه إذا اختلت دولة من الدول يكون للدولة المجاورة الحق في طلب إصلاحها .
وخطيب الجمعة يتحرى الحديث الذي يذكره في الخطبة ، فلا يكون مما ينهى
عن ظلم ، ولا مما يشير إلى حق رعية على راع ، ولا نحو ذلك ؛ ولذلك يغلب أن
يكون الحديث : « إن الله جميل يحب الجمال » .

والجواسيس لا غداد لها ، والجاسوسية سبيل الارتقاء ، وعشرة آلاف
جندي يقفون للمحافظة على حياة السلطان وإظهار أئبته وجلاله إذا خرج
للمصلاة يوم الجمعة ؛ والقصر مملوء بالمشعوذين والدجالين من المشايخ ، يختلقون
رؤيا يزعمون أنهم رأوها ، أو يفسرون حلمًا ، أو يوقعون بمن يقف في سبيل
دجلهم . والأمور تدار ، والمشاكل السياسية تحل ، بمثل هذه الرؤى ، وآراء
هؤلاء الطغام^(١) .



في هذه الأجواء عاش مدحت باشا وكافح وجاهد حتى مات .
ما أشق الإصلاح على من يعمل فيها ! فأنفاسه معدودة عليه ، وحركاته
وسكناته تسجلها الجواسيس . وهم لا يكتفون بما يعمل ، بل يزيدون عليه ما لم
يعمل . ويؤولون ما يصدر عنه تأويلًا يزيد في ربحهم وقربهم . يخلص في عمله
فيقال إنه يرمى إلى أخطر غاية ، ويُعزل من عمله فيقال إنه يدبر المكائد ، ويبعد
لعمل خارج العاصمة فيقال إنه يسعى للاستقلال بولايته ، ويعمل للدستور
فيقال إنه يريد لها جمهورية ، وهكذا وهكذا . في كل خطوة عقبه ، وفي كل
فكرة وساوس ، وفي كل حركة دسائس ؛ وليس يحتمل مثل هذا إلا أولو العزم
الذين يدأبون مهما عذبوا ، ويعملون مهما اضطهدوا ؛ عقيدة تملكهم أنهم
ليسوا مملوكًا لأنفسهم ولا لأمرتهم ، إنما هم ملك لفكرة استحوذت عليهم .

(١) الطغام : ضعاف العقول .

ومبدأ غمر مشاعرهم ؛ أما غيرهم فسرعان ما يعودون من منتصف الطريق ،
سائلين الله السلامة ، مكتفين بأول عذاب نالهم ليستريح ضميرهم ، ويلقوا التبعة
على سواهم . وكان مدحت من هؤلاء الذين في خلقهم حمية ، وفي طبيعتهم تحذّر
للشر ، وثبات على الجهاد ، وجلد على تحمل الألم ، حتى يلفظ آخر أنفاسه وغار
عليه أن يتأوه .

ولد مدحت في استانبول ؛ وكان أبوه « الحاج حافظ محمد أشرف » عالماً
دينيّاً تولى بعض أيامه القضاء الشرعى في بعض الولايات . فأنشأ أبوه تنشئة
دينية ، لحفظه القرآن وهو في العاشرة ، ولقب بالحافظ ، وهو لقب لكل من
يحفظ القرآن من الأثر ، فكان اسمه الحافظ أحمد شفيق ؛ أما مدحت الذى
غلب عليه فهو اسم ديوانى . والتحق بالديوان الهمايونى يتعلم الخط الديوانى ،
وتنقل مع والده في الولايات التى تولى فيها القضاء يتعلم في مكاتبها ؛ حتى إذا عاد
والده إلى الآستانة ألحقه بأحد أقلام الحكومة يساعد الكتبة ويتعلم منهم
بعض الوقت ، والبعض الآخر يقضيه في جامع الفاتح ، وكانت فيه حلقات
الدروس تشبه حلقات الأزهر ، لكل شيخ حلقة وتلاميذه . فكان يتعلم
هناك اللغة العربية والفارسية والدروس الدينية والنحو والمنطق والفقه والبلاغة
والفلسفة التى كانت تسمى الحكمة ، وظل على هذه الحال إلى أن ناهز
العشرين ، تلميذاً في دواوين الحكومة تلميذاً في جامع الفاتح .

وهى ثقافة — كما ترى — ضعيفة ، فلا تاريخ ولا جغرافية ولا رياضة ولا لغة
أجنبية ، ولكن قد يعلم الزمن العقل المستعد أكثر مما تعلمه المدارس النظامية
والبرامج الثقافية ، ولذلك نراه يشعر بنقصه الثقافى إذا كبر ، فيطالع بنفسه الكتب .
ولما تجاوز الخامسة والثلاثين رأى الحاجة الثقافية والسياسية ماسة إلى تعلم لغة

أجنبية ، فتعلم اللغة الفرنسية ، فكان يدرسها وهو يشتغل في (وظيفته) .
وشيء آخر أفاده فائدة كبرى في ثقافته العالمية ، وهو سياحته في أوربة
لدرس النظم السياسية والاجتماعية التي أصلحت من شأنها ، وعالجت بها أمثال
المفاسد التي تعانيها تركيا ؛ فحصل على رخصة للسفر سنة ١٢٧٤ وسنه إذ ذاك
نحو ست وثلاثين ، فأنفق في سياحته هذه نحو ستة أشهر ، زار فيها باريس ،
ولندن ، وفيينا ، وبلجيكا ، وكانت زيارته زيارة درس واستطلاع ؛ كيف تنظم
الدول مالياتها ، وكيف تسوس أمورها ، وما نظام الحكم فيها ، وما علاقة
شعوبها بملوكها ، وما أهم وسائل العمران عندهم ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي
ملأت ذهنه ، وأراد أن يتطلب الإجابة عنها من كل مملكة زارها — وفي
الوقت عينه أراد من سياحته أن يتقن اللغة الفرنسية التي تعلمها على كبر ، فتم له
ما أراد بعقله المسح ، وهمته العالية ، واستقامته التي أخذها عن دينه .

ولذلك كان مزيجاً غريباً : محافظة على الصلاة وسُبُحة ، ومعرفة بشئون
الدنيا ، واطلاع واسع على تيارات العالم وأسس المدنية الحديثة ، ودَرُوشة ويقظة .
أول ما لفت الأنظار إليه في تركيا أنه شبٌ صريحاً لا يتقن فن المجاملة ،
حاذلاً لا يكظم ، حاراً في تنفيذ ما رأى في وسط بارد بطيء ، مخلصاً لفكرته ، على
حين أن كثيراً ممن حوله إنما يخلص لشخصه ؛ تربى في مدرسة كبرلى باشا ورشيد
باشا وعالي باشا ، وتعلم منهم القوه والتصميم ، والقدرة على التنفيذ ؛ فلما خلفهم من
لا يملأ كراستهم اصطدم بهم . تولى محمد باشا القبرصلى « صدرأعظم » ، وكان
بينه وبين مدحت إحن وأحقاد ، واندلع لهيب الثورة إذ ذاك في البلقان ،
واحتاجت إلى رجل شديد ، فرماها القبرصلى باشا بمدحت . لعله يخفق أو يُقتل
فيستريح منه ، وإن نجح فلا بأس ، فأقل ما في الأمر أنه أبعدته عن وجهه .
فما فرمدحت ومعه قوة عسكرية ، وقضى ستة أشهر في قم الجبال ومغاورها يقبض

على أشقيائها ، وأثبت إدانة أربعة منهم وأعدمهم ، وحبس ثمانين أرسلهم إلى
الآستانة ، وهدأت الفتنة ووضع مشروع الإصلاح ، فكان ذلك مما لفت
الأنظار إلى قوته وحزمه .

كما لفت الأنظار إلى حسن إدارته عندما عين والياً في الصرب وبلغاريا ،
وقضى فيها أربع سنوات كان فيها مجدداً حقاً ، يختلف عن سائر الولاة العثمانيين :
بث المدارس في أنحاء الولاية ، وأنشأ المستشفيات ، وأصلح من الطرق نحو ألفي
ميل ، وبنى نحو ١٤٠٠ جسر ، فإذا أعوزه المال الرسمي حض الأهالي على التبرع
فأجابوه ، بعد ما لمسوا قيمة الإصلاح في تحسين حالهم ؛ وأهم ما تمتاز به إدارته
— بما كان جديداً في نظر العثمانيين — عدم تفرقه في سياسته وإدارته وعدله بين
مسلم ومسيحي ، ثم شدته المتناهية على العصاة ومثيري الدسائس ، ومعاقبته لهم بما
يؤمن البريء ، ويردع السيئ ؛ فأصبحت بفضل هذه المقاطعة على فقرها وكثرة
فتنها مضرب المثل في الغنى والأمن أيام حكمه من غير أن يكلف الدولة مالا .
كل هذا كان إرهاباً^(١) بما سيكون ، إذا أسندت إليه شئون الدولة .

— ٢ —

إن ضعف الدولة العثمانية الذي ذكرنا ، وعدم كفاية السلاطين المتأخرين ،
صحبهما مشاكل في منتهى التعقيد ، فعناصر الدولة متعددة ، ويكفي البلقان وحده
— بما يشمل من البوسنة والهرسك وسربيا وألبانيا واليونان وبلغاريا ورومانيا —
وما يقطن فيه من أمم كثيرة متناقضة المطالب أن يُقضى مضجع أية دولة مهما بلغت
من القوة ، وخاصة بعد ما جاءت عدوى القومية فأثارت نوازع كل عنصر من
هذه العناصر نحو الاستقلال ، فكيف بالدولة العثمانية ، وكيف ذلك مع الأعيب

(١) إرهاب : علامة ودلالة .

الدول المختلفة وإثارته لهذه العناصر ؟ هذا إلى تعدد المذاهب الدينية النصرانية وما بين كنائسها من خلافات لا تنتهى . فنشأ عن هذا كله ما سمي « المسألة الشرقية » ويعنون بها « النزاع بين عناصر الأمم التركية من جهة ، ودخول الدول العظمى في هذا النزاع لتحقيق آمالها المتناقضة من جهة أخرى » .

وسوء الحالة الداخلية والحالة الخارجية يتمخض — عادة — عن عدد من المفكرين في هذه المشاكل ، يقترحون فيها ما يرون من ضروب الإصلاح ؛ ومن هذا نشأت أنواع من الإصلاح متسلسلة تسمى في عرف الأتراك « التنظيمات الخيرية » ويريدون بها الإصلاحات التي يراد بها إنقاذ الدولة العثمانية من ضعفها ، وعلاج مشاكلها في الداخل والخارج ، من عهد السلطان محمود . وكان من أشهر هذه الإصلاحات أو التنظيمات ، القانون المعروف بخط « كُؤخَّانه » الذي صدر سنة ١٨٣٩ في عهد السلطان عبد المجيد ، والذي سعى إليه محمد أمين عالي باشا ، وكان أهم ما يتضمن هذا « الخط » حماية النفس والملكيَّة من غير تفرقة بين جنس أو دين ، وإلغاء نظام الالتزام ، ومساواة الرعايا مهما اختلف دينهم أمام القانون ، وأن جميع المجرمين يجب أن يحاكموا محاكمة علنية ، والمساواة في الفرص أمام الجميع لتولى الأعمال الحكومية ، وتجنيد غير المسلمين مع المسلمين ، وإصلاح الإدارة والشرطة والضرائب والطرق ، وإنشاء المصارف إلخ .

ولكن هذه الإصلاحات كان يعترض تنفيذها صعوبات جمة : أهمها السلطان — وأكثر السلاطين كان يرى أن هذه الإصلاحات تحدُّ من إرادته — ورجال الدين لغضبهم على التشريع المدني ، وبعض الرعايا الأجانب لأن هذه المساواة تحرمهم امتيازاتهم القديمة ، وبعض الدول الأجنبية لأنها لا يسرها أن تصلح الدولة . فكانت كل « التنظيمات » التي توضع لا تلبث أن تصبح حبراً على ورق .

وفي هذا الوسط الشائك جداً حاول مدحت باشا أن يضع إصلاحه ، فرأى أن الإصلاح الذي يجب أن يسود المملكة العثمانية هو الحكم الديمقراطي على نمط ما رأى في إنجلترا وفرنسا ، ومظهر هذا الحكم هو الدستور ، وإنشاء المجالس النيابية ، وتمثيل كل عنصر من عناصر الدولة وكل قطر من أقطارها في هذه المجالس ؛ وبعبارة أخرى أن تحكم الأمة نفسها بنفسها ، لا أن يحكمها السلطان بإرادته ونوازه والمقررين إليه الذين يخدمون أغراضهم ومصالحهم .

كان يرى أن كل الأمم الأوربية صرت بهذا الدور الذي تمر به الدولة العثمانية ، ولم ينقذها إلا الحرية ، فهي التي تربي الأمم ، وتحيي النفوس ، وترد للمرء حقوقه ، وتشعره بشخصيته ، وتضمن له العدل ، والحرية هي التي تولد الدستور الذي يثبت الطمأنينة بين أفراد الأمة ، ويسوى بين الأفراد على اختلاف دينها وعناصرها ، فيؤلف بين قلوبها ، وهو الذي يتيح الفرض لكل كفاء قادر ، ويسد الطريق أمام كل دسّاس ماكر .

لقد عانت إنجلترا وفرنسا ما نعانى ، ووقع على الأفراد هناك الظلم كما يقع علينا ، ولكن كلاً منهما نجت من ذلك كله بتحرير شعبها ، ووضع دستورها ، والحزم في السير عليه ؛ ذلك حال إنجلترا قبل دستورها وبعده ، وحال فرنسا قبل ثورتها وبعدها ، هدموا الاستبداد ، وأحلّوا محلّه حياة الحرية الصحيحة ، فلو فعلنا ذلك وأعلن السلطان الدستور ، وسرنا عليه في حزم لا تنظمت إدارتنا وماليتنا ، وشعرت عناصر الدولة المختلفة بالتساوى بينها ومشاركتها في الحكم وتحقيق العدل فاطمأنت ، ولو فعلنا ذلك لم تجد الدول المختلفة وسيلة للتدخل في شئوننا فكفّت يدها ، وإذا تدخلت ظهر تعنتها فلم تجد رأياً عاماً يُساندها — بهذا الدستور يصبح الحكم في كل ولاية مسئولين أمام البرلمان ، وبعبارة أخرى أمام الأمة ، فيفتح الحاكم عينه ، ويحدّ من شهوته ، ويتحرى العدل ، وإلا طار من منصبه .

الدستور علمٌ ينشر بين الشعب ، وغنى يسبب طمأنينة الشعب ، وعدل بين أفراد الشعب ، ويقظة للرأى العام ، وتفتح للملكات ، ونشاط للقدر التي كتبتها الاستبداد .

فلا حياة للدولة العثمانية إلا بدراسة النظم الديمقراطية في الأمم الأوربية ، واختيار أنسبها مما يتفق وحالة الدولة وظروفها ومركزها ، ثم سنّ تشريع لها ، ثم إحاطته بسياسج من القوة حتى لا تتلاعب به أيدي العابثين المفسدين . إلى هذا انتهى مدحت بعد طول درسه وتفكيره وتقليبه وجوه الإصلاح المختلفة .

لم يكن مدحت باشا وحده هو الذى يفكر هذا التفكير ، بل كان حوله شباب أحس إحساسه وشعر شعوره ، وأنكر الاستبداد ، وحاول الخلاص منه ، وعكف على قراءة التاريخ والسياسة ، والنظم الأوربية ، ووجدت جمعية في باريس على رأسها مصطفى باشا فاضل تنقد الدولة العثمانية ، ونظام الحكم فيها ، وتجاهد في طلب الإصلاح . ومصطفى فاضل هو صاحب الكتاب المفتوح المشهور الذى ترجمه فتحي زغلول باشا « من أمير إلى سلطان » والأمير هو مصطفى فاضل هذا ، والسلطان هو السلطان عبد العزيز ، والكتاب هو أول كتاب من نوعه يوجه أمير عثمانى إلى السلطان في مثل هذه الصراحة والقوة .

كان رأس هذه الحركة وعقلها المفكر وحكيمها الرزين هو مدحت باشا ، وجاء دور التنفيذ ، يريد مدحت باشا ورجاله وشبابه الحكم الديمقراطى والدستور والحرية ويصطدمون بالسلطان عبد العزيز وحاشيته وأعوانه ، فهم لا يريدون ذلك — يرى مدحت أن لا أمل للحياة إلا بالشورى ، ويرى عبد العزيز أن الشورى تسلبه سلطانه ؛ يرى مدحت أن الدستور لا بد منه ، فهو يعيد إلى الأمة حقها فى الإشراف على الحكم ، ويضمن العدل والمساواة ، ويعيث

الإخاء ، ويحمي الأمة من شهوات الأمراء والسلاطين ، ويوحد بين عناصر الأمة المختلفة ؛ ويرى عبد العزيز وحاشيته وكثير من رجال الدين وبعض رجال السياسة أن الحكم النيابي لا يصلح للدولة العثمانية لاختلاف العناصر فيها وعدم التجانس ، وميل كثير من الطوائف المسيحية إلى ترويج مصالح الأمم التي ترتبط بها ، وعدم بلوغ الأمة حدا من العلم يهيئها لهذا الحكم وتفضيل مصلحة الوطن على المصلحة الشخصية الخ .

إذ ذاك ظهر الصراع بأجلى مظاهره ، وانجلي الغبار عن معسكرين متميزين بأعلامهما وجنودهما : هذا معسكر مدحت باشا على رأس حزب كبير من الكبراء والوزراء والأمراء وطائفة كبيرة من الشباب ، وهذا معسكر على رأسه السلطان عبد العزيز وحوله الحاشية ومحمود باشا نديم رئيس الوزارة ، وهو يُبدئ السلطان بكل ما يحتاج إليه من أموال الدولة ، ينفق منه أقله في المصلحة العامة وأكثره في شهواته ، ثم يؤيده كثير من المعممين من رجال الدين ، قد اشترت ذمهم بما أغدق عليهم من أموال الأمة ، فهم يُسمّون كل حركة تدعو إلى الإصلاح فتنة ، ويقولون : سلطان غشوم^(١) خير من فتنة تدوم .

وكان لكل معسكر أيضاً أدباؤه وكتابه وشعراؤه ، فمع مدحت باشا كتاب من الطبقة الأولى يحررون في الصحف الفرنسية والتركية والعربية . وأبدع « نامق كمال » أدبا تركيا يتغنّى بالحرية في أسلوب جديد ، جميل في بساطة ، واضح في قوة ؛ وأدب آخر رجعي يُشيدُ بذكر السلطان ويهجو دعاة الحرية والإصلاح ، ومنهم صاحب جريدة « الجوائب » وكتّابها .

والدول الأوربية نفسها تدخل في هذا المعترك ؛ فإنجلترا تعطف على مدحت ، لأنها بحكم نظامها تميل إلى الديمقراطية وإلى الدستور ، ولأن في صلاح تركيا

(١) غشوم : ظالم .

وهدونها ما يعوق مطامع روسيا ؛ وروسيا تؤيد السلطان ومحمود نديم ، وسفيرها في تركيا « إيفناتيف » يثير الفتن والثورات حتى يحقق مطامع روسيا إذ ذاك . ويركز مدحت برناتجه في كلمات فيقول : « إن التبذير في الدولة قد بلغ درجة لا تطاق ، فنظارة المالية ترسل الأموال إلى المايين ، فيصرفها السلطان في ملذاته ، والنظار يبيعون الوظائف بيع السلع ؛ فالوالى يشتري وظيفة من الصدر الأعظم ويذهب إلى الولاية فيستغل أهلها بأنواع الظلم ، حتى خربت الولايات ، ووقعت الدولة في أزمة شديدة ، ولا سبيل إلى الخلاص منها إلا بتبديل الإدارة الحالية ، وتبديلها يكون بإنشاء مجلس نيابى ، وجعل النظار مسئولين أمامه ، وأن يكون هذا المجلس قومياً ، فلا يفرق في انتخابه بين المذاهب والعناصر — وأن يوضع الوُلاة في الولايات تحت المراقبة الشديدة فلا يعبثوا بمصالح الرعية » . كل هذه المعانى تركزت في كلمة واحدة اسمها « الدستور » .

هاهى الدبوة تنتشر ، والنفوس تغلى ، وأخطاء السلطان عبد العزيز المتتابعة تزيدها غلياناً .

تحت ضغط الحوادث أبعد الصدر الأعظم محمود باشا نديم ، حبيب السلطان عبد العزيز لأنه يمدد بما شاء من أموال الدولة ، وحبيب الحاشية كذلك ، وحبيب سفير روسيا فى الآستانة ، وحبيب ذوى المناصب من رجال الدين ؛ وعين مدحت باشا صدرأعظم ، وهو المكروه من كل هؤلاء ، والمحجوب من الطائفة التى تغلى لطلب الإصلاح .

فما استقر على كرسىه حتى أعاد المنفيين الذين نُفوا لاتهامهم بمشايعة حركة الإصلاح ، وأعاد تأسيس ميزانية الدولة على أساس ثابت لا أساس صورى كما فعل محمد نديم ، وضيق على السلطان عبد العزيز وحاشيته ، فلم يمدم بالمال الذى يشتهون ، وبت فى المشاكل الخارجية بما أصلحها ، وتوجه إلى الإصلاحات

الداخلية ، فاهتم بربط البلاد البعيدة بالدولة ، فوضع مشروع خط حديدي يربط العراق بالدولة بإنشاء خط بين بغداد وطرابلس الشام . واختار مهندساً فرنسياً لذلك كلفه وضع المشروع وتخطيطه واكتشاف أقرب طريق إلى ذلك ، ورسم الخرائط له في نظير مائتي ألف ليرة ، ودر المال لذلك المشروع بالانفاق مع إنجلترا على دفع ثلاثة ملايين من الليرات في نظير نقل بريد الهند على هذا الخط ، كما وضع مشروع إنشاء الخطوط التلغرافية في بلاد الحجاز ، وإنشاء طريق حديدي بين دمشق وبغداد ، ومد الأسلاك التلغرافية بين دمشق والحجاز واليمن ، وفعلاً أحضرت الخشب والأدوات لإنشاء خط بين القدس وجُدَّة ، ورأى أن ذلك لا يكلف الدولة كثيراً ، فتلغرافات الحجاج تعوض النفقات في سنين قلائل .

ووضع المكاييل والموازين على أساس عَشْرِي ، ووَحَّدها بين أجزاء الدولة ، وعارض أشد المعارضة في منح الخديو إسماعيل باشا فرماناً يبيح له عقد قروض من الدول الأجنبية وقال : « إنه إذا أبيع له ذلك تدخل الأجانب في شئون القطر المصري ، وضاع استقلاله الإداري والسياسي معاً ، وتدخل الأجانب يوماً ما في شئون تلك البلاد بحجة حفظ أموالهم » ، فعل هذا مع أن السلطان كان قد وعد إسماعيل باشا بإصدار هذا فرمان .

نَمَطٌ^(١) جديد في الوزراء لم يألفه عبد العزيز ، فقد أُلْفَ أن طاعته غُثم وإشارته حُكم . ولذلك لم يلبث مدحت في الوزارة إلا خمسة وسبعين يوماً اعتزل العمل بعدها وضاعت كل مشروعاته ، وخسرت الحكومة مائتي ألف ليرة للمهندس الفرنسي واضع مشروع خط بغداد من غير أن تستفيد شيئاً .

ثم رأيناه وزيراً للعدل في وزارة أسعد باشا ، ثم في وزارة شرواني زاده

(١) النمط : المذهب والنوع .

محمد رشدى باشا ، فمكنته هذه الوزارة الأخيرة أن يَتَكفَّى على وضع النظم والوائىح لإصلاح الدولة .

وكتب مدحت إلى عبدالعزیز کتاباً لیناً فى مظهره شديداً فى جوهره ، قال فيه :
« لقد صرحتم جلالتكم فى خطاب العرش بأنكم تلتزمون خطة الإصلاح المنشود ، ومع هذا فقد ساء الحال ، وأنتجت كثرة تغيير موظفى الدولة القلقله والاضطراب ، وصل أكثرهم الطريق ، ولم يسيروا وفق مقصدكم ، بل خرجوا عن جادة^(١) الاستقامة وأفسدوا ما أحدثه الإصلاح ، واختلت مالية البلاد ، وحداً ذلك بالناس إلى نشر الأراجيف^(٢) فى داخل البلاد وخارجها ، وخاف الناس أن ينتج هذا انقراض الدولة .
« وقد اضطررنا وطنيتنا إلى عدم السكوت والوقوع فيما لا تحمد عقباه ، فلجأنا إلى أعتابكم الشاهانية . . . ولا يخفى على حكمة جلالتكم أن الدواء الشافى لهذه العلة هو اجتثاث أسبابها التى نعرفها حق المعرفة ، فإذا أزيلت الأسباب زال المرض . . . فإذا أصدرتم خطأ هماً يونياً جديداً حَتَمْتُمْ به اتباع القوانين والنظم والمساواة بين الغنى والفقير والكبير والصغير فى نظر القانون ، وأرجعتم المنشآت الخيرية إلى أصلها (وكان السلطان استولى عليها) ، وصرقتم الأموال فى سبيل ما خصصها له الواقفون ، وأعدتم مرجع أمور الدولة إلى الباب العالى (الوزراء) فيقر قراراته ويعرضها على جلالتكم ، ولم تستأثروا جلالتكم بشيء من حقوق الدولة المالية والملكية ، ولم تصرف المالية قرشاً واحداً إلا برأى الباب العالى ، وحُدِّدت وظائف كبار الموظفين وأصاغهم ، وجُعِلَ الوزراء مسئولين عن نتائج أعمالهم ، وحَتَمْتُمْ ذلك على خواصكم ورجال حاشيتكم — إذا تم ذلك كله حصلت النتيجة المطلوبة بعون الله تعالى ، ووصلت الدولة إلى الطريق الذى ترجوه جلالتكم .

(١) الجادة : الطريق .

(٢) الأراجيف : الأخبار الكاذبة السيئة .

« هذه الأقوال هي نتيجة أفكارنا ، وربما أخطأنا . . . ونحن نطلب من جلالته تخلص الأمة — التي قد أصبحت مصالحها بين يديكم — من أزمته الحاضرة . وعلى كل حال فالرأى لكم » .

في هذا الكتاب مجمل أفكار مدحت باشا ونظرته إلى الإصلاح .
أعد مدحت باشا هذا التقرير وهو وزير العدل ، وعرضه على الوزراء فاتفقت كلمتهم عليه ، واتفقوا على أن يرفعه الرئيس إلى السلطان عبد العزيز ، فقبله ولم يستطع أن يفاجئه ، فحدث السلطان أحاديث مختلفة ، ثم تدرّج إلى ذكر هذا الكتاب ، فلما سمع كلمة الإصلاح والشورى والدستور هاجه هائجاً ، وأصدر أمره في الحال بعزل مدحت باشا من الوزارة ، وإبعاده بتعيينه والياً لسلانيك ؛ وبعد أيام عزل شرواني وعينه والياً لحلب ، وبذلك أبعد الاثنين اللذين يذكرا الإصلاح ، ولم يمكث مدحت طويلاً في سلانيك فعزل بعد ثلاثة أشهر ، وأخذ يصلح في مزرعته ، ويفكر في أمته .

هذا مدحت باشا — في مزرعته — يفكر ، كل محاولته في الإصلاح ضاعت سُدى ، لصلافة السلطان عبد العزيز الذي يأبى أن يسمع كلمات « الشورى ، والدستور ، والعدل ، والحرية ، والأمة » ؛ وكل من نطق بهذه الكلمات كان عُرضة للنفي والتشريد والقتل والعزل كما حدث له .

إن السبب الوحيد لتدمير المسيحيين في الدولة هو فقدانهم الحرية ، فمتى مُنحوا عطفوا على الدولة وشعروا أنهم جزء منها .

وسبب ضعف المسلمين هو فقدان الحرية ؛ فمتى شعروا بحريتهم أقدموا على عملهم ونشطوا ، وكسبوا ، وتعلموا ، واستخدموا ذكاهم ومواهبهم لإسعاد أنفسهم وأسرتهن وهيئتهن الاجتماعية .

وققدان الجميع الحرية يملؤهم خوفاً ، ويفقدون رجولتهم ويخافونهم بأخلاق العبيد : من ذلة وضة ، وعدم الالتفات إلا إلى المأكل والملبس ينالونه من أخس الطرق . وليس الذي وقعنا فيه من طبيعة الإسلام في شيء ، فالإسلام يسوى بين الغنى والفقير في الحقوق والواجبات ، وبين الوزير وراعى الغنم ، ويجعل أمرهم بينهم شورى ؛ وهذا السلطان يكره كلمة الشورى كما يكره الموت . والإسلام جعل من أهم قواعده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وهذا السلطان لا يسمح لأحد أن يأمر بمعروف ولا أن ينهى عن منكر .

إن الشورى الإسلامية نُظمت في العصر الحديث بما يسميه الأوروبيون البرلمان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تشكل في المدنية الحديثة بحرية الصحف في النقد ، وحرية الأفراد والجماعات في التأليف ، وإبداء الآراء في صراحة يستحسنون ما يرون ، ويستنكرون ما يرون ، ويخطبون كما يشاءون . فلا أحد معصوم ، ولا الحكومة معصومة ، ولا الوالى معصوم ، وإنما الذي يقوّمهم ويخيفهم ويلزمهم الجادة يقظة رأى العام وحرية في النقد ، وهذا هو ما سُمى في القرآن : بالتواصى بالحق . كل هذا واضح جلى ولا بد منه ، ولكن إرادة السلطان عبد العزيز هي الصخرة التي تتكسر عندها كل هذه الآراء .

أرض الدولة العثمانية أخصب أرض في العالم ، وهي مع ذلك أفقر أرض ، لهجرة كثير من أهلها بالظلم ، وإثقال كاهل من بقى بالضرائب . ولا شركات ، ولا مصانع ؛ فالقطن كثير في البلاد ، ومع هذا فالمنسوجات القطنية تُجلب من أوربة ، حتى الطرايش التي نضعها على رؤوسنا ، وعلب الكبريت التي نشعل بها نيراننا بجلبها من الخارج ، وكل المواد الأساسية متوافرة عندنا ، ولكن لا عدل ولا أمن على المال ، فلا شركات ولا صناعات . ولا يتأتى العدل إلا بالقوانين العادلة ، والمحاكم العادلة ، وهذه لا تكون إلا بالحرية ، أى الدستور . كل من جاهر بالإصلاح

أبعد ؛ فقؤاد باشا مات محتقراً مهيناً ، وعالى باشا دُست له الدسائس حتى عُزل من منصبه ، وهما ما هما فى الكفاية والاستقامة ؛ وإنما يقرب أمثال محمود نديم الشرير الجاهل الذى يقدم مال الدولة للسلطان ، ثم ينتهب لنفسه ما نالته يده .

رحم الله قؤاد باشا وعالى باشا ، فقد رأيا أن السلطان لا يسمع لقولهما فى الإصلاح ، ففكرا فى حيلة لطيفة : أن يشوِّقا السلطان عبد العزيز لزيارة أوربة ، وينتهزا فرصة زيارته للعواصم الأوربية فيبيننا له ما وصلت إليه من النظام والتقدم ، ويشعراه من طَرْفٍ خفى بأن سبب هذا كله حُسْن الإدارة وصلاحيه الحكم ، لعله إذا عاد تحفرت نفسه لحسن التقليد ، فأصغى إلى المصلحين وشجعهم على الإصلاح ، وسار فى أموره غير سيرته ، والتفت إلى رعيته ، ولكن خاب فألها ، فقد عاد أشد إسرافاً وأكثر تبذيراً فى ملذاته . عاد ووعد ثم أخلف ما وعد ؛ وكل ما فعل أن حقد عليهما لأنهما أشارا عليه بانتخاب مجلس فى كل ولاية بمجدد كل سنة لمشاركة الوالى فى أعماله وبذل النصيح له ، فرأى أنها فكرة شيطانية يراد منها التدرج إلى البرلمان أو الدستور ، ذلك الشبح الخيف . وكل ما جنته البلاد من هذه الرحلة لإنشاؤه مصانع ومتاجر باسم خزانته الخاصة لا باسم الشعب . ثم هذا السلطان يستدين ويستدين ؛ فقد كانت ديون الدولة فى آخر أيام السلطان عبد المجيد ٢٥ مليون ليرة فبلغت بعد ١٢ سنة — بفضل عبد العزيز — ٢٥٠ مليون ليرة ، فما مصير الدولة إذا استمر الحال على هذا المنوال ؟ يظهر أن لا أمل فى الإصلاح مع وجود « عبد العزيز » ، بل لا أمل حتى لو أصدر لوائح الإصلاح ، وأوامر إنشاء القوانين للمحاكم والنظم للمدارس ، فقد جربناه فرأيناه يطاقطى للعاصفة حتى تتر ، فإذا مرت عاد سيرته الأولى ، وحل ما عقد ، ونقض ما أبرم .

لم يبق إلا أمر واحد ، وهو تهيئة النفوس لعزله ، ووضع الخطط المحكمة لإنزاله عن عرشه ؛ ومع الأسف لا يمكن أن يتم ذلك إلا بالجيش ، وفى هذا خطره ،

ولكن قد تعلّمتُ في جامع الفاتح أن الضرورات تبيح المحظورات . فإذا تمت الأمور وعُزل عبد العزيز ، وأقيم مكانه سلطان جديد أقامته الأمة بقوتها ، وأعلن — يوم توليته — الدستور ، شعر بأن الأمر بيد الأمة فأطاعها ، وأنه مدين لعرشه بالدستور فاحترمه ، وسارت الأمور سيراً حسناً : دستور نافذ ، وسلطان مطيع ؛ وبدأنا حياة جديدة كلها خير الأمة ، وسرنا في الطريق الذي سارت فيه الأمم الحيّة ، نأخذ محاسنهم ، ونتجنب أخطاءهم ، فإذا الحياة سعيدة ، والعدل شامل ، والدستور مكفول ، فانسر على بركة الله .

هكذا فكَرَّ مدحت ، ويشرف على الإصلاح في مزرعته ، والفتوس تضرب في الأرض ، والنواعير تبكي بدموع غزار .

سارت الأمور أول الأمر كما فكر تماماً ، فما هو يدبر الحركة ويتصل بالشبان والشيوخ الذين سثموا هذه الحال ، ويتفق معه في الرأي حسين عوني باشا (سرعسكر الدولة) ، وهما يتصلان بناظر البحرية وشيخ الإسلام ، ويتفق الجميع على خلع عبد العزيز في يوم معين . حتى إذا جاء اليوم أتى الأسطول فرسا أمام سراي طوليه بفتحة ، واجتمعت العساكر فأحاطت بالقصر ، ودخل على السلطان من أبلغه خبر العزل ، فاستخف بهذا الخبر ، فأشهدوه العساكر والأساطيل والجموع المحتشدة فاستسلم ، وأنزلوه من السراي ، ووضعوه في قصر نغم ومعه والدته وثلثمائة أنثى ، بين زوجات وجوار مملوكات ووصيفات وخادومات ؛ واختصروا حاشيته فاستغنوا عن ١٢٠٠ سائس و ١٠٠٠ طبلكار (حامل طبليات الطعام) و ٦٠٠ « قواريبي » وأمثالهم من الخدم ؛ وقطعت مرتباتهم للضائقة المالية التي حلت بالدولة . وبعد بضعة أيام وُجد السلطان مقتولاً ، فقيل إنه اعتدى عليه بالقتل ؛ ويرى الأكثرون ويقرر جمع من الأطباء ؛ ويؤكد ذلك مدحت ، أن السلطان أخذته العزة فقطع شرياناً من ذراعه بمقراض^(١) فمات .

(١) مقراض : مقص .

ومهما كان فقد بويج السلطان مراد فلم تمض عليه أيام حتى ظهر جنونه واختلط عقله ؛ فولى السلطان عبد الحميد بعد ثلاثة أشهر ، وحل « مدحت » عبء هذه الأحداث الفظيعة والربكة الشنيعة ؛ وهو في أثناء مرض السلطان مراد يجتمع بأعوانه ويدرس قوانين أوربة ونظمها ويختار أنسبها .

وكان في ذلك يضع إحدى عينيه على النظم الأوربية والأخرى على حالة الدولة ، فما كل ما يصلح لأوربة يصلح لها ؛ وفي ذلك يقول : « إن أخذ القانون من أوربة ووضعناه لنا لأنه أفادهم يشبه أخذ آلة من الآلات عندهم للنسج وجلبها إلى بلادنا وليس عندنا فرد يقدر على إدارتها والاستفادة من سرعتها .

» فضلا عن ذلك فكثير من القوانين لا يوافق كل الولايات في دولتنا ؛ فالقانون الذي يوافق ولايات حلب وسورية وبغداد لا يوافق ولايات بروسه وأزمير وأدرنة ؛ وقد يكون القانون في بعض الولايات عدلا ، وفي بعضها ظلما ، فيجب النظر إلى هذه المسألة عند تغيير القوانين .

« وإن مسألة استقلال المحاكم ، وأصول جباية الأموال ، وقوانين الإدارة وغيرها من القوانين والنظم قد استعملها الإفرنج فأفادتهم بسبب رقي الأهالي ومدنيتهم ؛ فقانون الأراضي مثلا يقضى علينا بتعيين المهندسين ، ومعرفة مقادير أراضي بلادنا وأصحابها ووضع الضرائب اللازمة ، وهذا لا يتم بواسطة كاتب واحد يتقاضى ١٥٠ قرشا في الشهر ، فالإفرنج يعينون لكل قرية لجانا ومهندسين يمسحون الأراضي ويقدرون الضرائب ، ونحن لا نعرف لليوم عدد سكان بلادنا ولا مقدار أراضيها .

» فيجب تدريب الرجال وإلقاء أزمة الأمور إليهم بالتدريج . . . كما يجب تخصيص الأعمال لكل طائفة ؛ ففي أوربة للمالية اختصاصها ، وللحربية اختصاصها ، وكذلك للداخلية والعدل ، أما عندنا فالأمور كلها منوطة ^(١) بالوالي .

(١) منوطة : متعلقة .

وهكذا عكف هو وأعوانه على هذا الإصلاح الذي يتلخص في اختيار خير النظم الأوربية وأوقفها لحالة الدولة الاجتماعية ، والأخذ بيدها تدريجاً ، كلما ألفت خطوة انتقل بها إلى ما بعدها .

ويُعَد القانون الأساسي للدولة ويرتب نظام مجلس المبعوثان ، فما ولى السلطان عبد الحميد حتى كان ذلك كله مُعَدّاً ، وتولى مدحت باشا الصدارة . وبعد أربعة أيام من صدارته بادر السلطان إلى إقرار القوانين ، وأعلن الدستور المؤسس على الشورى ، والمؤسس على اشتراك جميع الرعايا في شئون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ؛ ونُظِم للدولة مجلسان : مجلس يُنتخب من الأهالي ويسمى بمجلس المبعوثان ، ومجلس تُعين الدولة أعضائه ويسمى مجلس الأعيان . وتلى هذا الدستور المشتمل على ١١٩ مادة بالآستانة في محفل عام (١٤ من ذى الحجة سنة ١٢٩٣ هـ) وأمر بأن يكون العمل بمقتضاه في جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية ، واستبشر الناس خيراً ، وأقيمت الأفراح والليالي الملاح . وكان يتضمن هذا الدستور حقوق الدولة وواجبات الوزراء ورجال الإدارة ، واختصاص كل مجلس من المجالسين ، وتنظيم المحاكم والديوان العالي والمالية إلخ ، وكل الدلائل تبشر بالخير . هذا مدحت أبو الدستور رئيس الوزراء ، وهذا السلطان عبد الحميد أتى بإرادة الأمة وهو مدين لها بجلوسه على العرش ، مدحت يؤيده وهو يؤيد مدحت ، والكل يخضع للنظام والحكم الديمقراطي ، فماذا ينتظر بعد ذلك إلا الخير ! !

هكذا قال الناس ، وهكذا قال مدحت .

لعله أخطأ إذ بالغ في التفاؤل أكثر مما يلزم ، وكذلك أكثر عظماء الرجال تسحرهم الفكرة ، ويلعب بلبثهم المبدأ ، فلا يرون منه إلا النواحي البراقة ، كالقنان يرى في شجرة الورد أزهارها ولا يرى أشواكها . استخف بقوة الرجعيين ،

ولم يعرف لطهارته أساليب دسائسهم ، واقتنع بالبسمة على وجوههم ، ولم ينفذ منها إلى الغل في أعماق صدورهم ، ولم يقدر قوة العدد الجم الذي كان يغتنى من الظلم وسيفتقر بالعدل ، والذي كان يُثرى من كلمة ملق أو تسويد سطر بوشاية ، فأصبح خائفاً من العدل أن يجرده من ثرائه وينزله عن جاهه ، والذين كانوا يبشرون أنفسهم بمواتاة الحظ ، لأنهم فقدوا أن ينالوا شيئاً إلا ببذل الجهد .

وشىء آخر مهم فاتهم ، وهو أن من عاش طويلاً في ظل العبودية لا يتعلم سريعاً مزايَا الحرية ، وأن الأمم السابقة إلى النظم الديمقراطية لاقت الأهوال قبل أن تعتدل ، وتأرجحت كثيراً قبل أن تتوسّط ، والذي نفعها أنها لم يكن يطمع فيها طامع ، فقضت مدة التجربة وهي آمنة مطمئنة ؛ أما هذه الدولة فلا ينتظر مدة تجربتها أحد ، فإذا بدأت تجرب قالوا لا تصلح ، وإذا أخطأت لم يقولوا إنه عَرَضَ مفارق ، بل قالوا طبع ملازم .

فهذا مجلس المبعوثان يجتمع فيشتط بعض أعضائه في القول من غير حساب حتى يثير بأقواله مشاكل ومخاوف ما كان أغناه عنها ، وكل ولاية تظن أن مبعوثيها ناثبون عنها لا غير ، وليسوا ناثبين عن الأمة ، وأن عليهم أن ينفذوا جميع رغائبها ولو كانت غير عادلة ، ولو كانت لا تتفق ومصلحة الدولة من حيث هي كل ؛ ويحمل البريد إلى كل مبعوث ما ينوء بفتحه بَلَه^(١) قراءته : هذا يطلب عزل خصمه وتوليته بدله ، وهذا يلتمس رتبة ونيشاناً ، وهذا راغب في وظيفة ، وهذا راغب في ترقية ، حتى بلغ الحال أن مُكاري^(٢) سُرق دابته فبعث إلى مبعوث ولايته أن يأمر بإعادتها إليه .

وربما كان هذا طبيعياً والنظام جديد ، والجهل عريق ، ولا بد من فترة تمر

(١) بله : بمعنى دع ، أى فضلاً عن قراءته .

(٢) المكاري : مؤجر الدواب .

حتى يفهم الناس أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، وأن مبعوث
الولاية نائب الأمة أولاً وولايته ثانياً ، وأنه كلما خفف ناخبوه مطالبهم زادوه
مقدرة على نفع أمتهم ؛ ولكن أنى لهم بمن يصبر على سخافتهم ، ويفسح
الصدر لمراتهم ، والأعداء كثيرون في الداخل والخارج وهم لهم بالمرصاد !
وزاد الأمر سوءاً أن روسيا إذ ذاك لم يرضاها هذا الحال ، فاحتجت على
ذلك وتأخرت في الاعتراف بالنظام الجديد ، ولعبت بالبلقان فحركته ، واثارت
الثورات في أنحائه ؛ فتورق في الصرب ، وثورة في الجبل الأسود والبوسنة
إلهرسك ، والحروب قائمة ، وانتصارات الدولة لا تفيدها عند الدول ،
وانتصارات عدوها تفيده ؛ والدولة فقيرة في المال بما أسرف عبد العزيز ، وفقيرة
في رؤساء القواد ، فقد قتل حسين عوني باشا وغيره معه بيد أثيمة ، وروسيا تريد
فصل البلقان عن الدولة ، ولكل دولة مطامع . ومدحت يتحمل كل هذه
الأعباء الداخلية والخارجية في صبر عجيب ، فنهاره في تنظيم الشئون الداخلية ،
وليله في المشاكل الخارجية . وفي ذلك يقول : « تحملت من المتاعب من يوم
جلوس السلطان مراد ما يفوق القدرة البشرية ، وكنت أقول ليست هذه الحياة
لي بل للأمة ، وقد وقع الوطن في مصائب داخلية وخارجية ، فواجب أن أسعى
في تخليصه من مخالبها » .

وفيما هو كذلك سلم إليه أحد رجال المايين كتاباً فتحه وقرأه ، فإذا فيه عزله
وإبعاده إلى خارج الدولة فوراً من غير أن يعرّج على أهله . وذلك بعد شهرين
من صدارته . فألح مدحت على رجل المايين أن يراجع السلطان في بيان السبب ؛
فعاد وقال : إن السلطان يقول إن المادة ١١٣ من الدستور تُخَوِّلُ السلطان حق
إبعاد الذين ترى نظارة الضابطة سوء حالهم ، وقد قدم ناظر الضابطة إلى جلالة
السلطان تقريرين وقع عليهما وهما هذان . ففتح مدحت أحدهما فإذا فيه : « إن

جاسوساً سمع ضابطاً يقول لصاحبه في أحد المقاهي إن مدحت سيكون رئيس جمهورية « فاكنتي مدحت بهذا ولم يفتح الثاني ، وقال : « إن يلاذي التعيسة كريض حضره نُطُس^(١) الأطباء ، وعالجوه حتى كاد يُبَلِّ من مرضه ، فاندس عدوله فسقاه سماً قضى على حياته » . وأذن للأمر وركب الباخرة « عز الدين » لساعته من غير أن يرى أهله .

وخاف السلطان من الرأي العام ، فطلعت الجرائد ومن ضمنها « الجوائب » ترمي مدحت بأفظع التهم ؛ هذه تقول إنه ضبطت أوراق تدل على خيائته ، وهذه تقول إنه أراد أن يجعلها جمهورية ، وهذه تقول إنه قد أوقع الدولة في مشاكل خطيرة . وأدى الشعر رسالته ، وأنشئت فيه قصائد هجاء بليغة . وأظهر كثير من المعممين ابتهاجهم ، وقالوا إنه يريد فصل السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية . والذي يقارن بين الجرائد منذ أربعة أيام وبينها اليوم يعجب لهذا الانقلاب الغريب من مديح رنان إلى هجاء رنان . وسكت الناس بين الدهشة والعجب ، والشك واليقين ؛ وشرّد رجال مدحت ممن أخلصوا له ولباده . ووسط هذه البلبلة الفكرية صدر الأمر الشاهاني بتعطيل الدستور تعطيلاً مؤقتاً . ولكن ألا تعرف — أيها القارئ الكريم — مدة هذا التعطيل المؤقت ؟ ثلاثون سنة !! لم يكن الرأي العام حذراً فيخدر ، ولا عاقلاً فيخدع ، ولا قوياً فامتن .

هذه الباخرة « عز الدين » تمخر البحر لتقذف به في ثغر من ثغور أوربية ، وقد ضاعت كل آماله ؛ فكل ما حَزَرَ^(٢) من تقدير الثورة وتناجها ، والدستور وثباته ، والسلطان عبد الحميد وخضوعه لإرادة الأمة ، قُضِيَ عليه في لحظة . وزال

(١) نطس : مامرون .

(٢) حزر : خنن وقدر .

(٤ — زعماء الإصلاح)

من الوجود في لحظة ، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه قبل جهاده المتواصل ، وكدحه المتتابع ، وكل ما في يده الآن غضبُ السلطان عليه وعلى أتباعه ، وبعده عن أهله ، وتجرّده من ماله .

لو أن أيّ إنسان عادى آخر مكانه للعن الإصلاح والمصلحين ، وترك الدولة تتجنى جزاء ظلم سلاطينها ، وانتظر حتى يتشقى بمنظر الفساد يهدأ أركانها ، ويفتخر بأنه نصح فلم ينتصحو ، وأنذر فلم يُصغوا ، فارتاحت نفسه بصدق ما تنبأ ، وحدث ما أنذر .

ولكن لم يكن مدحت في شيء من هذا ، فامرت هذه الخواطر بنفسه حتى طاردها ، وأخذ يفكر من جديد في وسائل إصلاح ما كان ، وتجب من نفسه فوصفها بقوله : « إن حب الإصلاح قد اختلط بدمي فكان كالمرض المزمن لا يُبرأ منه » .

فكر سريعاً ، ووصل إلى النتيجة سريعاً ، فرأى أن روسيا تحارب بلاده وتجمع لها جيوشها الجرّارة ، ويذهب القيصر بنفسه إلى ميدان القتال لتحميس الجند ، والدول كلها تتنبأ بنصرتها ، فواجهه — إذاً — أن يؤلّب الدول على روسيا ما استطاع ، ويبين لكل منها الأضرار التي تنالها من هزيمة الدولة العثمانية ، وتعديل خريطتها . فهو في أسبانيا يتصل بساسة إنجلترا وفرنسا ، ويحاول إقناعهم بأرائه ، ثم يذهب إلى إنجلترا لهذا الغرض . ويبرق إل المايين يقول : « قد سعت مدة إقامتي في عاصمة بلاد الإنجليز بما يعود على دولتنا بالنفع ويرفع شأن حكومتنا ، وحاولت إقناعهم بعقد صلح يحفظ الدولة وعظمتها ، وأفتخر أني وفّقت إلى ذلك بنص التوفيق » ؛ ثم يذهب إلى قيسيا لهذا الغرض ويبرق فيقول : « أنا اليوم في (قيسيا) أبذل الجهد لترويج نفس الساعي ... وآمل إخباري بما يوافق مصلحة الأمة لأستعين به على أميتي الوحيدة وقد وقفت حياتي لتخليص الدولة من ورطتها ،

وأنا قادر على القيام بأعباء ما يُطلب مني ، ومصلحة الوطن تضطرنني إلى ذلك .
وكانت تعترضه صعوبة أن بعض الدول تردُّ عليه بأنه ليس مفوضاً ، ولأنه
صفة رسمية يتكلم بها ، وأنه ليس إلا رجلاً منفيّاً ، فطلب من الدولة تصحيح
موقفه لإتمام مساعيه فلم يجد سميعاً !

وأغرب ما في الأمر بعد ذلك أن زفَّ إليه « ناظر التشريفات » بشري
ذِكْرَتِهِ بمحضر السلطان ، فسأل عنه : كيف يعيش ؟ فقال « ناظر التشريفات » :
إنه في حالة بؤس ، ينتقل من بلد إلى بلد ، ويعيش بالقرض ؛ فظهرت رِقَّة قلب
السلطان وبكى ، وقال : أرسلوا له ألف ليرة ؛ ثم يحتم الكتاب بأنه يطلب منه
شكر السلطان ، وتضرعه إليه بالعفو عنه .

ظن المسكين « ناظر التشريفات » أن كل النفوس ذليلة كذلته ، مَلَقَة
كملكه ؛ ولكن هذا الكتاب وقع من نفس مدحت الأبيّة موقع السهم المسموم
في الفؤاد الجريح ، فهاج وثار ، ورد عليه فقال :

لقد عبرتم للسلطان عن حالي بأنها حال بؤس وفقر وارتحال ، تستدرّون
بذلك شفقتي ، وهذا وصف لا يوصف به إلا فاقد الشعور أفاق^(١) ، لا رجل
مثلي عمل ما عمل ، وتولى الصدارة بجدارة .

« وأنا كما وصفتكم من أسباب عيشي وفقري ، فقد اقترضت عشرة آلاف
فرنك من خرستاكى فى نابلى فنفدت ، وأنا اليوم أسعى فى قرض جديد أسدّ به
رَمَقى ورمق أسرتى فى الآستانة ، ولكنى نفور بذلك ، فقد وُلدتُ عارى
الجسد ، وسأموت عارى الجسد ، وأنا ابن الحاج أشرف أفندى ونعم النسب ،
ومع هذا فلا أنتسب إلا إلى الله ، وذخيرتى أنى طاهدته ألا أقول إلا الحق ،
ولو أوصلتنى إلى مثل ما ألاقيه الآن من الشدائد .

(١) أفاق : متنقل فى البلاد لتكسب والافتتام .

« وما الذي فعلت من إجرام حتى أطلب العفو ؟ لقد سعت في تولية السلطان مراد بعد عبد العزيز ، فلما مرض سعت أن يجلس مكانه السلطان عبد الحميد ، وكان جلوسه مقروناً بإعلان الدستور ووضع خطط الإصلاح .

« ومنذ خروجي من الأستانة وأنا أفكر في الدولة وسبيل إنقاذها من المهالك ، ولا أفكر في نفسي ، فماذا في هذا مما يعتذر منه ؟

« لقد بلغت السادسة والخمسين ، ولا أمل لي في الحياة ، فلم يتجاوز أسلافي الستين فأياي معدودة ، وكل رجائي أن أعيش منفرداً ، وأدعوا لولي النعم الأعظم .
هذه خلاصة كتاب أقل ما يوصف به أنه يعتبر أصدق تعبير عن قوة مدحت وعظمته ورجولته وسمو نفسه .

لقد وصف « ناظر التشريفات » هذا الكتاب لما قرأه بأنه كالعروس عطلت من حليها ، وعريت من ثيابها ، ولكن أين يكون الجمال إذا لم يكن هذا جميلاً ؟ وفي الحق أن هناك عيوناً لا ترى الجمال الحق في الإباء والشتم ، وإنما ترى الجمال المتصنع في النفاق والمَلَق .

كان يوماً بصطاف في الريف عند صديق له من دوقات الإنجليز ، وإذا بسفير الدولة العثمانية في إنجلترا يقابله ، ويبلغه أن السلطان سمح له أن يقيم مع أسرته في جزيرة « كريد » . فذهب إليها وعاش فيها مع أسرته نحو شهرين . ثم عين والياً لسورية ، ثم لأزمير ، ثم كانت مأساته التي ختمت بها حياته كما سنبينه بعد .

* * *

هذا هو العمود الفقري في حياة مدحت ، وله بجانب هذا أعمال فرعية في الولايات التي تولاهها ، وهي أعمال خالدة لا تزال تُذكر من أهل البلاد التي عمل فيها بالحمد والثناء .

لقد ولى العراق ، وولى سلا نيك . وولى الشام ، وولى أزمير ، وكان له فى كل أولئك خطة واحدة ، يَعْمِدُ — أولاً — إلى الأشقياء الذين يعبثون بالأمن فيضربهم ضربة تنخلع منها قلوبهم وقلوب أمثالهم ؛ فإذا الأمن شامل والمهدوء عام . ثم ينشر العدل بين الناس فيطمئنون على أنفسهم وأموالهم ؛ ويعمل بالشورى فيحيط نفسه بمجلس من خيرة الولاية يستشيرهم فى أمورها ، ويجرّئهم على قول الحق فى صراحة ، ويعلمهم كيف يعالجون المشاكل ؛ ثم يصلح الطرق ويربط الولاية بشبكة محكمة ؛ لأن ذلك يعين على الإسراع فى ضبط أمورها ؛ ثم يصع الخطة لاستغلال منابع الثروة فى البلاد على خير وجه ، كل ولاية بما يناسبها ، حتى يزيد نتائجها على نفقاتها ؛ ويأخذ من المال الناتج لإنشاء المدارس ونشر التعليم ، وهو بعمله هذا يضع نواة العلم فى بلاد فشا فيها الجهل وكادت تعم فيها الأمية .

تولى العراق سنة ١٢٨٥ هـ — سنة ١٨٧٠ م فى عهد السلطان عبد العزيز ، فأخضع رؤساء العشائر بعد عنادها ، ودوّخ العصاة وطاردهم فى أوكارهم ، ثم أصلح أداة الحكومة ، فأقبل الزراع على زراعتهم ، والعمال والصناع على عملهم وصناعاتهم وأنشأ أول مطبعة فى بغداد ، وشجّع على إنشاء جريدة سماها « الزوّراء » ؛ وحث الشركات على العمل ؛ فشركة تسيّر البواخر بين بغداد والبصرة ، وشركة تسيّر الترام بين بغداد والكاظمية ؛ وقرب المسافة بين بغداد والبصرة بتحويل مجرى دجلة ، وبث المهندسين الزراعيين يدرسون حالة البلاد الزراعية ، وأنشأ مُتَنَزَّهًا عامًّا فى بغداد سماه « يستان الأمة » (ملّت بانجه سى) .

ومن طريف آرائه أنه عرف أن « بالنجف » كنوزاً مدفونة ، فيها كثير من الأحجار الكريمة كانت تُزَيَّن بها الأضرحة والمشاهد ، قد أخفيت أيام هجوم الوهابيين وهدمهم للقبور ، فأخرجها مدحت ، وقومها الخبراء بما يزيد على ثلثمائة ألف ليرة ؛ فاقترح مدحت بيعها وإنشاء خط حديدى بثمنها بين

النجف وإيران (إذ كان قد اشترك في التبرع بها كثير من الفُرس) ، فلم يوافقوه العلماء على ذلك فبطل المشروع . كذلك من طرائفه أنه أُلّف مجلساً للشورى في بغداد يرجع إليه في أمور الولاية ، ولم يكن الناس يألِفون الجهر بالرأى والشجاعة في القول ، ولا يعدُّ لهم بجانب رأى الوالى رأى ، فجمعهم يوماً وقال لهم : إني أرى الحاجة ماسة إلى استئذان الباب العالى في زيادة الضرائب لتنفيذ ما نرى من وجوه الإصلاح فماذا ترون ؟ قالوا جميعاً : موافقون ، هذا هو الرأى ، وهى الحكمة . فكتب بذلك محضراً وختمه جميعهم ، ثم جمعهم في اليوم الثانى وقال : لقد فكرت في أمر زيادة الضرائب فترأى لى أنها ظلم فادح لا يستطيعه الناس ، ولكن محضراً أمس أرسل ، فإذا رأيتم هذا الرأى صواباً كتبنا آخر الحقناه به ، وبيننا الأسباب الموجبة لنقضه ، فقالوا : نعم الرأى ما رأيتم . ووقعوا على الثانى كما وقعوا على الأول . فأمسك بالحضرين هذا بيد وهذا بيد ، وقال : والله ما أرسلته ، ولكن أردت أن أختبركم ، فما قيمة المجلس إذا رجعتم دائماً إلى رأى وحده ؟ ثم ألقى عليهم درساً قاسياً في الحرية وفوائدها ، والشخصية وتكوينها ، والاستقلال فى الرأى ومزاياه .

وكانت ولايته للشام أصعب ، فقد تولاها فى العهد الحميدى بعد موقفه من عبد العزيز واتهامه بالجمهورية ، وعداء السلطان والمالين والوزراء له : كلهم يتربص به الدوائر . ثم مشاكل الشام أعقد من مشاكل العراق ، فهذا مشاكله بدوؤه وعشائره ، وعلاقته بإيران ونحو ذلك . أما مشاكل الشام فأخطر : أمور لبنان تتصل بفرنسا ، وأمور الدروز تتصل بإنجلترا ؛ ولكل دولة مصالح ومدارس وكنائس ، وغير ذلك . فكان أول ما لفت نظره ما ذكر من « أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل . . . ومدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدماً ملموساً ، وليس للحكومة سوى بعض مدارس ابتدائية يقرأ فيها الأحداث

القرآن ، فكنتُ أفكر في أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا .
فشكّل الجمعيات ، وجمع الإعانات ، وفتح المدارس ، وأصلح المساجد
وجعلها مدارس ، ووضع عقوبة لولى أمر الطفل إذا بلغ ابنه السادسة ولم يرسله
إلى المدرسة ، واستعان بأموال الأوقاف في أمور التعليم ، وتأسست في عهده
« جمعية المقاصد الخيرية » وانتشرت شعبها في البلاد .

ولما حاول الإصلاح الاقتصادي والإداري اصطدم بالدول ؛ فكانت
فرنسا صاحبة امتياز لبنان ، وكانت الحكومة العثمانية خصصت لها خمسة
وعشرين ألف ليرة من إيراد جمارك الشام ، فكتب إلى رئيس الوزارة بقطع
هذا المبلغ فغضبت فرنسا ؛ وهكذا وهكذا من مشاكل ، والدسائس تُحاك
حوله ، وتشاع الإشاعات بأنه يريد الاستقلال بسورية ، ويُستدل على ذلك بأن
هاتفاً هتف أمامه « فليحي مدحت باشا » وأن كاتباً كتب « الخديو مدحت » .
فلم يتمكن من الإصلاح في الشام كما تمكن منه في العراق ، بسبب ما لاقى من
العناء في الداخل والخارج . فيالله للمصلحين !

وأخيراً نقل إلى أزمير ، فلم يطل بها مقامه حتى كانت المأساة .
فبعد خمس سنين من وفاة السلطان عبد العزيز تحركت مسألة وفاته من
جديد ، وأشيعت الإشاعات أنه لم ينتحر وإنما قتل بإيعاز مدحت وأصحابه . وبلغ
مدحت وهو في أزمير أنه يُراد القبض عليه والتحقيق معه ، وكتب إليه
صديق له : « فاخرج إني لك من الناصحين » . وعرض عليه بعض أصدقائه من
الأوربيين ركوب باخرة معدة وسفره إلى الخارج ، فرفض وقال : « كيف
أرتكب الفرار لجريمة لا نصيب لها من الصحة ؟ » .

وبينما هو نائم في داره إذا بالجنود تحيط به ، ويُقبض عليه ويرسل إلى
الأسنانة لمحاكمته بتهمة الاشتراك في قتل عبد العزيز .

من عهد أن تولى السلطان عبد الحميد ، وهو لا يأمنُ جانب مدحت ، ومن
لَفَّ لَه ، ويخشى جِدَّ الخشية أن يعيدوا معه تمثيل دور عبد العزيز ؛ وبلغت
به الخشية حد الهوس ، فكل قُوى المملكة من مال ورجال وسمع وبصر
مُسَخَّرَة للمحافظة على شخصه ، ومراقبة مدحت وأمثاله ، لأن من قدر على البدء
كان أقدر على الإعادة . وأخيراً اهتدى هو وأعوانه — للقضاء على مدحت
وأصحابه — إلى هذه التهمة ، فدرِّبَتْ محاكمتهم ، ورتبت شهودهم ، ورسمت
خطة الإيقاع بهم . وبعد محاكمة صورية حكم عليهم بالإعدام . فتوسط الإنجليز
وبعض سفراء الدولة فاستبدل بالإعدام النفي ، ووضعوا في باخرة سارت بهم
إلى جُدَّة ومنها إلى الطائف . وأهينوا من يوم خروجهم من الآستانة بالتضييق
عليهم في مأكلهم وملبسهم ومناهم ؛ وسجنوا في قلعة الطائف ثلاث سنين ،
وأجرى عليهم العذاب ألواناً ؛ وكلما مر عليهم زمن وهم أحياء زادهم تضييقاً
حتى يموتوا ؛ ومن اشتد من الضباط عليهم رُقَى ، ومن أخذته الشفقة عليهم
أبعد . ومدحت يرسل الكتب إلى أهله يطلب منهم مالاً يقتات به ، ويبذل
كثيراً من الحيل في إيصالها إليهم ، فإذا أرسلوا مالاً لم يصل إليه . وثمانية من
سادة القوم منهم مدحت يعيشون على صحن من الحساء^(١) مصنوع من الماء
وورق الفجل في الصباح ، ومثله في المساء ، يريدون بذلك أن يميتوهم جوعاً ،
ولكنهم لا يموتون . وأخيراً ضاق ولاة الأمور بهم ذرعاً فقرروا أن يسُوموهم ،
ولكن مدحت وصحبه يكتشفون المؤامرة .

فلما أعييتهم الحيل أوعزوا بنحوق مدحت بنحوق . وكان آخر ما كتَب كتاب
إلى أهله جاء فيه : « سيكون هذا المكتوب آخر ما أكتب فيما أظن .
» فقد أخذوا منا الأقلام والمداد والورق ، وضيّقوا علينا الخناق ، وقصدوا

(١) الحساء : ما يحسى ، أى : يشرب

تسميئنا واحداً بعد واحد ، ولكن ظهرت نيتهم .
« ولا بد أن يصلوا يوماً ما إلى غرضهم . فإذا جاءكم خبر وفاتي قبل كتابي
فلا تحزنوا : وأنا أرجو من الله المغفرة ، فقد ميت فداء الوطن ، وأستودعكم
الخالق الباقي » .

* * *

قضى مدحت حياته كلها في الإصلاح الاجتماعي ، يختار من المدنية الحديثة
أحسن ما وصلت إليه في تنظيم الحكم على أساس الشورى التي تتفق وتعاليم
الإسلام ، يأخذ خير أساليبها في نشر العلم وتنظيم الحياة الاقتصادية للبلاد ،
ويراعى في ذلك كله مستوى الأمة ومقدرتها على الامتصاص ، فيعجل ما أمكن ،
ويؤجل ما لم يمكن إلى أن يمكن ، ويعدّل ما يأخذه حتى يتفق وعقلية شعبه ،
ويلتذ من العذاب يصيبه في هذه السبيل ، لأنه ربط الإصلاح بعقيدته الدينية ؛
فالدين في نظره ليس صلاة وصوماً فقط ، ولكنه مع ذلك عمل الخير لشعبه ،
ولا خير أرقى من الأخذ بيد الأمة لتفهم حقوقها وواجباتها ، وتثور على من
يقف عقبة في سبيل تقدمها ؛ ومن أجل هذا كان هادئاً مطمئناً مستبشراً وهو
في منقاه ، يرتقب الموت من ساعة إلى ساعة ، ويقول لأهله في بعض كتبه : إني
أقرأ القرآن وأستعيد حفظه وأستعذب تكرار آية « ما أصاب من مصيبة
إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه » وأعدّها أكبر عزاء لي ، وأهزأ
بما أسمع من هجاء وافتراء ، فقد سلّمت كل أمورى لربى . إن الحياة محدودة وهي
كالمعوبة ، ومحنتنا يكافئنا عليها ربنا ، ولنا أسوة في الأنبياء والأولياء الذين
قتلوا أو سجنوا فصبروا على ما أصابهم .

فإذا فرغ من عباداته ، دوّن بعض مذكراته .

* * *

وقد خدّمت أفكاره شناعته وفاته ، أكثر مما خدمها جهاده في حياته ، فقد
ألّمت النفوس الخيرة مما أصابه المأْ مِحْضاً ، وتأججت النار في أفئدتهم وأفئدة من
يتصل بهم ، وكانت أحداث الظلم المتوالية تغذيها بالوقود ، فلما التهمت البيران
التهمت عبد الحميد كما التهمت من قبلُ عبد العزيز . بل لعلها أيضاً هي التي
للتهمت فكرة الخلافة من أساسها فيما بعد .

* * *

والآن ننقل بأجهزتنا إلى مصلح آخر من صنف آخر ، هو السيد جمال
الدين الأفغانى .

السيد جمال الدين الأفغانى

(١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ) (١٨٣٩ - ١٨٩٧ م)

لئن كان محمد بن عبد الوهاب يرمى إلى إصلاح العقيدة ، ومدحت باشا يرمى إلى إصلاح الحكومة والإدارة فالسيد جمال الدين يرمى إلى إصلاح العقول والنفوس — أولاً — ثم إصلاح الحكومة — ثانياً — ، وربط ذلك بالدين . « مدحت » يرى إصلاح الشعب من طريق إصلاح الحكومة ، وجمال الدين يرى إصلاح الحكومة من طريق إصلاح الشعب . مدحت يقول : إن الحكومة راع وإذا صلح الراعى صلحت الرعية ، والغاية (الدستور) فإذا وضع ونفذ فالخير كل الخير للأمة . ويقول جمال الدين : « إن القوة النيابية لأى أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبتت من نفس الأمة ؛ وأى مجلس نيابى بأمر بتشكيله ملك أو أمير ، أو قوة أجنبية محركة له ، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه » فالعقول والنفوس أولاً ، والحكومة ثانياً .

ماذا تنفع الحكومة الصالحة إذا كان الشعب غير صالح ؟ لقد علمنا التاريخ أن الحكومة لا تستقيم إلا إذا كانت فى الأمة رأى عام يخيفها ، ويلزمها أداء واجباتها ، والوقوف عند حدها ؛ فإذا لم يكن ذلك فالطبيعة البشرية تُنثلى على الحكام أن يستأثروا بالمنافع ؛ وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها ، فإذا زالت حل محلها من لا يصلح ؛ إذ لا شأن للأمة فى اختيارها ، ولا رقابة لها على أعمالها .

يقول سنة ١٢٩٦ هـ : « هَبُوا أن مجلساً نيابياً أنشى فستجدون أن حزب الشمال لا أثر له ، وسيفر الأعضاء كلهم إلى حزب اليمين ، وسيكونون كلهم آلة

صماء . . . وسيرى كل عضو أن الدفاع عن الوطن ، ومناقشة الحاكم الحساب قلة أدب ، وسوء تدبير ، وقلة حُكْمَة ، وتهوّر « . لا . لا . العقول والنفوس هي المقدمة ، والحكومة الصالحة هي النتيجة .

* * *

أفغانى الأصل ، شريف النسب ، ينتمى إلى الحسن بن على (ولشرف النسب في هذه البلاد حرمة وإجلال يفوقان ما في غيرها من الأقطار) . جمع إلى شرف النسب عزة السيادة ؛ فقد كان أهل بيته سادة على عمل من أعمال أفغان^(١) . ولكن ما لنا ولهذا كله ، فقد تُنبت النبتة الطيبة في الأرض السَّيِّخَة ، والنبتة الفاسدة في الأرض الصالحة ، فإذا نبتت النبتة الصالحة في الأرض الصالحة اكتفينا بالتسجيل . فأسرة جمال الدين لم تُنبت إلا جمال الدين ، وأسرة محمد عبده لم تُنبت إلا محمد عبده . وما أكثر الأسر التي تشبه أسرتيهما أو تفوقهما ، ومع هذا لم تُنبت شيئا ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

تعلم — كما يتعلم شباب زمانه في بلاده — الفارسية والعربية على طريقة تشبه الطريقة الأزهرية ، لا تمتاز عنها إلا بدراسته الواسعة في الفلسفة الإسلامية والتصوف ، كما هي عادة الفرس إلى اليوم ، فكان ذلك نواة ثقافته ؛ ودرس في الهند الرياضة على الطريقة العصرية ، وساح سياحة طويلة في الأقطار الإسلامية إلى مكة ، فأكسبه ذلك تجارب عملية واسعة ، وخبرة بحياة الشرق . ووقعت بلاده في منازعات سياسية على من يتولى الملك ، فانغمس فيها وتشيع بجانب منها وقام منه مقام الوزير ، وانتصر وانهمزم ، ولمس تدخل الدول فعلمه ذلك كله السياسة وخصومتها ، ودهاءها والأعبيها .

وتعلم الفرنسية وهو كبير . أتى بمن يعلمه الحروف الهجائية ، ثم انفراد بتعليم

(١) أعمال أفغان : أقطارها وما تحت حكمها من البلاد .



السيد جمال الدين الأفغاني في شبابه

نفسه نحو ثلاثة أشهر يحفظ من مفرداتها ، حتى استطاع أن يقرأ من كتبها ويترجم منها ، ثم توسع في ذلك أثناء إقامته بباريس ، ومع هذا فلم يحذقها كل الحذق .
كم من الناس علموا أكثر مما علم ، وقرأوا أكثر مما قرأ ، ورطنوا أكثر مما رطن ، ولكن لم يكن لأحد منهم شخصية كشخصيته : ذكاء متوقد ، وبصيرة نافذة ، وتوليد للأفكار والمعاني من كل ما يقع تحت سمعه وبصره ، واستقصاء للفكرة حتى لا يدع فيها قولاً لقائل « له سلطة على دقائق المعاني وتحديداتها ، وإبرازها في صورها اللاتقة بها ، كأن كل معنى قد خلق له ؛ وله قوة في حل ما يُعْضِل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلتقي إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتي على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه ، فيظهر المستور منه . وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ؛ ثم له في باب الشرقيات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لَسَنٌ^(١) في الجدل ، وحِذْقٌ في صناعة الحجة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه . . . »

« أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته ، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه ، فينقلب الحلم إلى غضب ، تنفض منه الشهب ، فبينما هو حلِيمٌ أوَّابٌ^(٢) . إذ هو أسد وثاب . وهو كريم يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله ، لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر .

« أما خلقه فهو يمثل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين ، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سَكَنَةِ الحجاز . رَبْعَةٌ^(٣) في طوله ، وسط في بنيته ،

(١) اللسن : الفصاحة .

(٢) أوَّاب : راجع إلى الاستغفار

(٣) ربيعة : متوسط القامة .

قمحى في لونه ، عصبي دموى في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عريض
الجهة في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الأحداق ، ضخم الوجنتان ، رطب
الصدر ، جليل المنظر ، هشّ بشّ عند اللقاء ، قد وفّاه الله من كمال خلقه ما ينطق
على كمال خلقه^(١) .

فهم رسالته وما تتطلب من جهاد ، وما تقتضيه من أعباء ، فلم يرتبط بأسرة
ولم يستعبده مال ، وعاش لأفكاره ومبادئه ، تكفيه أكلة واحدة في اليوم كله ،
وإن أفرط في الشاي والتدخين . أعد نفسه للنفي في كل لحظة ؛ فنافيه لا يتعبه
إلا شخصه . ملابسه على جسمه ، وكتبه في صدره ، وما يشغله في رأسه ،
وآلامه في قلبه .

ولقد طوّف في فارس والهند والحجاز والآستانة ، وأقام فيها . ولكن
لعل أخصب زمنه ، وأنفع أيامه ، وأصلح غرسه ، ما كان في مصر مدة إقامته
بها من أول محرم سنة ١٢٨٨ إلى سنة ١٢٩٦ هـ (مارس سنة ١٨٧١ — أغسطس
سنة ١٨٧٩) . ثماني سنين كانت من خير السنين بركة على مصر ، وعلى العالم
الشرقي ، لا بما أفاد من جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها ، ولكن
لأنه فيها كان يدفن في الأرض بذوراً تنهياً في الخفاء للنماء ، وتستعدّ للظهور ثم
الإزهار ، فما أتى بعدها من تعشّق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها ، وإن
وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت في نموّها .

لقد جرّب « السيد » أن يذرّ بذوراً في فارس والآستانة فلم تنبت ، ثم
جربها في مصر فأنبتت .

كان من حسنات رياض باشا أن أعجب « بالسيد » ورأى فيه عالماً لا من طراز
من عرف من العلماء ، يعرف الدين ويعرف الدنيا ، ويجيد الفهم ويجيد القول ،

(١) من وصف الشيخ محمد عبده له .

فمكن له من البقاء في مصر وسعى عند الحكومة فقررت له عشرة جنيهاً شهرياً . كانت هذه السنوات الثماني من أشقّ السنين على مصر ، إذ كان حالها حال أسرة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فلم تكف بدخلها الذي يسد حاجتها ، فاستدانت لرفاهيتها ، حتى إذا بلغت الغاية في الدين أخذ الدائنون يحجرون عليها ويتدخلون في شئونها ، ويشرفون على مصادرها ومواردها ، ولا يتركون لها شيئاً من حرية التصرف ؛ فإذا الأسرة بأئسة بعد نعيم ، وشقية بعد سعادة ، وإذا هي مغولة الأيدي والأرجل والأعناق ، تحاول الخلاص فلا تجده ، وتلمس طريق الحرية فلا تهتدي إليه .

فقد توالى القروض التي اقترضتها . ففي المدة الواقعة بين سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٧٥ بلغت الديون نحو خمسة وتسعين مليوناً من الجنيهاً ، فجاءت بعثة كيف Cave سنة ١٨٧٥ لفحص مالية مصر ، واقترحت لضرورة إصلاحها إنشاء مصلحة للرقابة على مالياتها ، وأن يخضع الخديو لمشورتها ، ولا يعقد قرضاً إلا بموافقتها .

وأنشئ صندوق الدين سنة ١٨٧٦ يتسلم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية ، فكانت حكومة أجنبية داخل الحكومة المصرية . وأنشئ نظام الرقابة الثنائية في هذه السنة أيضاً ، وكان من مقتضاه أن يتولى الرقابة على المالية المصرية مراقبان : أحدهما إنجليزي لمراقبة الإيرادات العامة للحكومة ، والآخر فرنسي لمراقبة المصروفات . وأنشئت لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء الإسكندرية . وجاءت لجنة تحقيق عليا أوروبية سنة ١٨٧٨ لمراعاة مصالح الدائنين الأجانب ، وتدير المال اللازم لوفاء الأقساط المطلوبة لهم .

وتطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار باشا يدخلها وزيران أوريان أحدهما إنجليزي لوزارة المالية ، والآخر فرنسي لوزارة الأشغال .

ولا شك أن المال عصب الحياة ، فالشرف عليه مشرف على كل شيء .
فتوفير المال لأداء الديون يتطلب الإشراف على جميع الإدارات التي تُغَلّ المال ،
وهذه الإدارات تحصل المال من الفلاح ، وتقول إنه لا بد أن يكون آمناً على
ماله ، مهياً له وسائل إصلاح زراعته ، يُعَامَلُ بالعدل في تحصيل الضرائب منه ،
فلا بد من الإشراف على هذه الشئون كلها من أجل المال . وهكذا من أشرف
على المال أشرف على كل شيء .

كل هذا حدث مدة إقامة « جمال الدين » في مصر ، وكان من طبعه
الانغماس في السياسة ، ونمى هذا الطبع فيه نشأته في بيت حكم ، وانغمسه فيها
أيام تنازع الأسرة المالكة في الأفغان ، فكانت هذه الأحداث المصرية حافزة
له على أن يعيد ما بدأ به من الاشتغال بالسياسة ، وحافزة للناس في مصر على
أن يجاوبوا حركته .

كان نشاطه التعليمي ذا شعبتين : دروس علمية منظمة يلقيها في بيته
في « خان الخليلي » ، ودروس عملية يلقيها بين زوّاره في بيته وفي بيوت العظماء
حين يردّ زيارتهم ، وفي « قهوة البوستان » بالقرب من « العتبة الخضراء » ،
وحيثما كان في المجتمعات .

فأما دروسه في بيته ، فكان يلقيها على طائفة من مجاوري الأزهر وبعض
علمائه ، أمثال الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ إبراهيم
اللقاني ، والشيخ سعد زغلول ، والشيخ إبراهيم الملباوي .

كان أكثر الكتب التي قرأها لهؤلاء وأمثالهم كتب منطق وفلسفة
وتصوف وهيئة ، مثل كتاب الزوراء للدواني في التصوف ، وشرح القطب على
الشمسية في المنطق ، والهداية ، والإشارات ، وحكمة العين ، وحكمة الإشراق

في الفلسفة ، وتذكيرة الطوسي في علم الهيئة القديمة ، وكتاب آخر في علم الهيئة الجديدة .

هي كتب فلسفة على نحو ما يتصور الفلاسفة القدماء وفي العصور الوسطى ؛ فكانوا يعدّون المنطق مقدمة الفلسفة أو مدخلها ، ومن فروعها الإلهيات والطبيعة والفلك والطب وما إلى ذلك

ويظهر لي أن هذه الكتب لم تكن لها قيمة في ذاتها ؛ فقد كان الشيخ حسن الطويل مثلاً يقرأ بعض هذه الكتب في الأزهر ولم يؤثر أثره ، إنما كانت قيمتها في أن كل فصل من فصولها ، أو جملة من جملها ، كان تُسكّاة يستند إليها الشيخ في شرح أفكاره وآرائه ، والتبشّط في مناحي الفكر ، والتطبيق على الحياة الواقعة ، ونظراته إلى العالم كوحدة ، مازجا التصوف بالفلسفة وبالهيئة وبغير ذلك . وهذا هو ما أقنع الشيخ محمد عبده من الشيخ وطمان نفسه إذ قال : إنه « بعد حضوره في الأزهر سنين ملّ الدروس المعتادة ، وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً ، وتميل إلى العلوم العقلية ؛ وكان الشيخ حسن الطويل ممثلاً في الأزهر بعلم المنطق ، فحضره عليه ولكن لم يكن يشفي ما في نفسه ، بل كانت تشوّف^(١) دائماً إلى علم غير موجود . . . وقرأ الشيخ حسن الطويل شيئاً من الفلسفة ، ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا ، بل كان درسه احتمالات ، حتى جاء السيد جمال الدين فوجد عنده طلبته وأقصى أمنيته .

فهذه الكتب التي قرأها إنما قيمتها في نفس جمال الدين ، والدنيا تتلون بلون منظار الرائي ، والطبيعة كلها مفتوحة أمام أعين الناس ، ولكن لا يفهمها إلا القليل .

ما هذا الشيء الجديد الذي وجدته « محمد عبده » عند « جمال الدين »

(١) تشوّف : تتطلع .

فاطم أن به واهتدت نفسه إليه ؟ هو ما عند جمال الدين من أصول كُلية هي عماد الفلسفة ، يرجع إليها في كل ما يقرأ من صفحات الكتب ، وهي الحكم في صحة ما يُصح ، وبطلان ما يُبطل ، ثم شخصية قوية تجزم في الحكم ولا تردد تردد الشيخ حسن الطويل ، ثم ربط جزئيات الحياة العلمية والعملية كلها برباط واحد يفتح النوافذ بعضها على بعض حتى تتألف منها وحدة ؛ فالتصوف ، والفلسفة ، والدنيا العامة ، ودنيا الشخص ، هذه كلها لا يصح أن يكون كل منها حجرة مغلقة على نفسها ، بل لا بد أن تتقابل وتتناغم ، وتؤلف دوراً موسيقياً واحداً ، فإذا تم هذا صح نظر الإنسان وزال عنه كثير من الشك المؤلم والحيرة المضنية ، وبِت^(١) فيما ينفع وما يضر ، وما يعمل وما يدع ، ووضحت أمامه الأعلام ، واستنارت السبل ؛ أما جملة تصح وجملة لا تصح ، ومؤلف أخطأ ومؤلف أصاب ، ومنطق في الكتاب ولا منطق في العمل ، ونظرية في التصوف تنقضها نظرية في الحكمة ، وأقوال في الزهد يسلّم بها في حينها ، وأقوال في الحث على الانغماس في الحياة يسلّم بها في حينها أيضاً ؛ فهذه كلها نظرة البدائيين الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلا إلى السطح دون الأعماق ، والأعراض دون الجوهر ، والأشكال دون الحقيقة .

وفوق هذا كله كان يأخذ بيد تلاميذه فيرفعهم إلى مستوى يسيطرون فيه على الكتاب ، ولا يستعبدون الكتاب ، ويسمون عن قيود الألفاظ والجل إلى معرفة الحقيقة في ذاتها ، ولو خالفت الألفاظ والجل .

وكانت طريقته في التدريس عكس طريقة الشيخ محمد عبده . كان جمال الدين يحدّد موضوع الدرس فقط من الكتاب ، ثم يُفيض في شرح الموضوع من عنده حتى يحيط به من جميع أطرافه ، وبعد ذلك يقرأ نصّ الكتاب فإذا هو واضح ظاهر يبيّن فيه موضع الخطأ والصواب . أما الشيخ محمد عبده ، فكان

(١) بت : مضى الحكم .

يقرأ النص أولاً ويتفهمه ويفهمه ، ثم يفيض في التعليق عليه وفي بسط الموضوع من عنده .

هذه هي مدرسته النظامية في بيته .

أما مدرسته الثانية غير النظامية فكانت أكبر أثراً وأعمّ نفعاً ، وهي التي كان يتلقى عليه فيها زوّاره في بيته ، وعظماء الرجال عند زيارته لهم في بيوتهم ، وخاصةً المفكرين والمثقفين عند تحلقهم حوله في « قهوة البوسطة » ، وجمهور الناس عند اجتماعهم به في المناسبات .

في هذه المدرسة تلقى دروسه أمثال : محمود سامي البارودي ، وعبد السلام المويلحي ، وأخيه إبراهيم المويلحي . ومن الشباب أمثال : محمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحاق ، وغيرهم . وفي هذه المدرسة حوّل « السيد » مجرى الأدب ونقله من حال إلى حال . كان الأدب عبد الأرستقراطية ، لاهمّ له إلا مدح الملوك والأمراء ، والتغني بأفعالهم وصفاتهم مهما بلغ من ظلمهم ؛ فكل حاكم سيد الوجود في زمانه ، آت بالمعجزات في أعماله ، معصوم من الخطأ فيما يأتي به ؛ يبتز^(١) مال الناس غصباً ، فلا يُلام على ما غصب ، ولكن يُمدح على ما أنفق ؛ ويقتل من شاء فلا يُسأل عمّن قتل ، ولكن يُشاد بفضلّه إذا عفا . الفن والأدب والشعر والنثر موسيقى لطّريّة ، وبهلوان لتسليته ، وعبيد مُسخّرة لنهش أعدائه ، ومدح أوليائه . الأديب الصغير مدّاح للغنى الصغير ، والأديب الكبير مدّاح للأمير الكبير — فأتى جمال الدين فسخر الأدب في خدمة الشعب ؛ يطالب بحقوقه ، ويدفع الظلم عنه ، ويهاجم من اعتدى عليه كائنًا من كان ؛ يبيّن للناس سوء حالهم ومواقع بثوسهم ؛ ويبصّرهم بمن كان

(١) يبتز : يسلب .

سبب فقرهم ، ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات إلى النور ، وألا يخشوا بأس الحاكم ، فليست قوته إلا بهم ، ولا غناه إلا منهم ، وأن يلجأوا في طلب حقوقهم المخصوصة ، وسعادتهم المملوكة . نخرج على الناس بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم ، وينشد الحرية ، ويخاف العبودية ، ويفيض في حقوق الناس وواجبات الحاكم ، ويجعل من الأدب مشرقاً على الأسماء ، لا سائلاً يمد يده للأغنياء . وهذه نعمة جديدة لم يعرفها المسلمون منذ عهد الاستبداد .

قال الشيخ محمد عبده في وصف حال مصر قبل مجيء (جمال الدين) :
« إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه في تدير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ؛ ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيائته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يديه في إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ؛ ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرّفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم . وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوربية — ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد علي باشا الكبير وإبراهيم باشا ، لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف ، ومع أن إسماعيل أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ ، وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأنًا في مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يُرَجَّع إليه فيها ، لم يحسن أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية ، لأن مُبدع المجلس قيّده في النظام وفي العمل ، ولو حدث إنساناً فكره السليم بأن هناك

وجهة خير غير التي يوجهه إليها الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن بجانب كل لفظ نفيًا عن الوطن ، أو إزهاقًا للروح ، أو تجريدًا من المال .

كان الأدب ظلاً لهذا الموقف ، وصورة صادقة لهذا المنظر ؛ فأدباء مصر أمثال السيد على أبي النصر ، والشيخ على الليثي ، وعبد الله باشا فكرى ، تتصفح آثارهم فماذا ترى ؟ غزلاً فى حبيب أو رسالة إلى صديق ، أو مدحاً لأمير ، أو استعطافاً له ، أو اعتذاراً إليه ، أو وصف سفينة ، أو شكراً على هدية . أما مصر وحالة شعبها ، وبؤس قومها ، وظلم حكامها ، وحقوق الناس ، وواجبات الحكومة فلا تعثر منها على شيء .

فلما جاء جمال الدين قلب هذا الوضع ، وفتح للناس منافذ للقول ، وسلك فى ذلك مسالك مختلفة :

١ — كَوّن جماعة من الكهول والشبان حُبب إليهم الكتابة ورسم لهم خُطتها ، وأوحى إليهم بالمعاني الجديدة التي يكتبونها ، وشجعهم على إنشاء الجرائد يكتب فيها ويستكتب منهم من تَوَسَّم فيه القدرة . مثال ذلك أنه شجع « أديب إسحق » — بعد أن اتصل به اتصالاً وثيقاً وتَلَمَّذَ له طويلاً — على أن ينشئ جريدة اسمها « مصر » ، وكان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ، ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسم مستعار هو « مظهر بن وضاح » ، ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الاسكندرية ، وأنشأ بها صحيفة يومية اسمها « التجارة » . وكان جمال الدين يستكتب لهاتين الصفحتين الشيخ محمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وأمثالهما ؛ هذا إلى ما يكتبه جمال الدين بنفسه . وكان مما كتبه مقالان أحدهما فى الحكومات الشرقية وأنواعها ، والثانى سماه « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » كان لهما صدى بعيد . ولقيت الصحيفتان رواجاً كبيراً ، ولفتنا إليهما الأنظار بروحهما الجديد ، ثم أغلقهما (رياض باشا) .

وكذلك فعل في توجيه الكتاب إلى الكتابة في الوقائع المصرية وأمثالها ،
فربى بذلك طائفة من الكتاب تحسن الكتابة ؛ وتحسن اختيار الموضوعات
التي تمس حياة الأمة في صميمها . فيكتب (أديب إسحق) — مثلاً — تحت
عنوان « أوروبا والشرق » : « قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ،
ويذل بعد الامتناع ، ويكون هدفاً لسهام المطامع والمطالب ، تعبت به أيدي
الأجانب من كل جانب ... » الخ .

ويقول الشيخ محمد عبده : « إن الحاكم — وإن وجبت طاعته — هو من
البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يردّه عن خطئه ، ولا يقف طغيان
شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل » .

ويتصل به الكاتب الإسرائيلي الفك « يعقوب صنوع » فينشى مجلة
هزلية اسمها « أبو نضارة » ينتقد فيها سياسة إسماعيل باشا .
كل هذا كان النواة الأولى في الشرق للصحافة الشرقية والكتاب الذين
يعالجون نشئون الوطن وحالة الشعوب .

وفي الحق أن الظروف التي أحاطت بجمال الدين كانت مساعدة على ذلك ؛
فالحال في مصر هي كما وصفنا من قبل ، والنفوس جزعة من المراقبة الثنائية
ونحوها . وإسماعيل نفسه يشجع نقد التدخين الأجنبي وإن لم يشجع نقد
شخصيته ، فكان يسره مقالات أمثال « الوقائع المصرية » و « مصر »
و « التجارة » ولا يسره أمثال « أبو نضارة » . فكان الأمر أن البلاد أصبحت
مستودع (بنزين) وجمال الدين (عود ثقاب) ، فلما أشعله اشتعلت البلاد .
ولولا هذه الظروف لخابت دعوته في مصر كما خابت في فارس والآستانة .

٢ — ومسلك آخر سلكه جمال الدين في مدرسته الشعبية ، وهو أحاديثه
التي كان ينثرها هنا وهناك في المقهى ، وفي المحافل ، وفي بيوت الزيارة . وكان

رحمه الله قليل الاحتفال بالأكل ، قليل النوم ، كثير السهر قوى الشهوة للكلام
تواتيه المعاني ويطاوعه اللسان . فكان يجد مادة للكلام في كل شيء : في
« السيجارة » يشعلها ، وفي أي منظر يراه ، وفي الطفل يسأله فيجب أو لا يجب ،
وفي حادثة زواج أو حادثة طلاق . وهكذا يستطيع أن يخلق أمتع الحديث من
الشيء العظيم والشيء التافه ومن لا شيء . وكانت مصر — بحمد الله تعالى
بالأحداث في هذا الزمان ، فكانت تغنيه أحداثها العظام عن خلق الأحاديث
المرتبلة ، وكان له القدرة على أن يلهب مستمعه ، فلا يزال يروح على الفهم حتى
يلهبه ، فإذا جلس يري بعد الجلسة راحته في السير لا في الركوب ، وفي العمل
لا في السكون ، كأنه يريد أن يجاوب جسمه قلبه ، وينغم^(١) عمله نفسه .

وكان له مذهب في الكلام يتفق وشهوته ؛ وهو أن يحدث من يفهم ومن
لا يفهم ، من يستعد ومن لا يستعد ، كالسحاب ينزل الغيث فتنتفع به الأرض
الصالحة وتسوء به الأرض الفاسدة ، ولا عيب على السحاب . يقول الشيخ محمد
عبده في هذا : « كان السيد جمال الدين يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ،
ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد ، وإن لم يكن من أهله ، وكنت
أحسده على ذلك ، لأنني تؤثر في حالة المجلس والوقت ، فلا تتوجه نفسي
للكلام إلا إذا رأيت له محلاً قابلاً واستعداداً ظاهراً » .

وهذا هو السر في وجود مدرسة في مصر عجبية تحسن السمر والحديث ،
وتشقيق الكلام وحسن الاستطراد ، وتأخذ على السامع لُبّه ، من أمثال محمد
عبده ، وسعد زغلول ، والهللأوى ، ولطفي السيد ، وكلهم من تلاميذه في هذا الباب .
قال سليم بك العنحوري : « كان من ديدن^(٢) » جمال الدين « أن يقطع

(١) ينغمه : أي يساوقه في نعمته .

(٢) الديدن : العادة .

بياض نهاره في داره حتى إذا جنَّ الظلام خرج متوكتلاً على عصاه إلى مُقَهَّى
قرب الأزيكية ، وجلس في صدر فِئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ، ينتظم
في سِطِّها^(١) اللغويّ والشاعر والمنطقي والطبيب والكيميائي والتاريخي والجغرافي
والمهندس والطبيعي ، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه ، وبسط أغوص
الأحاجي^(٢) لديه ، فيحل عُقد إشكالها فرداً فرداً ، ويفتح أغلاق^(٣) طلاسمها
ورموزها واحداً واحداً ، بلسان عربي مبين لا يتلعثم ولا يتردد ، بل يتدفق
كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش السامعين ، ويُفهم السائلين ،
ويُبسِّم المعارضين ، ولا يبرح هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيباً ... فيقفل
إلى داره بعد أن ينقد صاحب المقهى كل ما يترتب له في ذمة الداخلين في عِداد
ذلك الجمع الأنيق .

ويقول في موضع آخر : « إنه في خلال سنة ١٨٧٨ ، زاد مركزه خطراً لأنه
تدخل في السياسة ، وأخذ يقرب منه العوام ، ويقول لهم في أثناء كلامه
ما معناه : إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، ورُبِّيتُم في حجر
الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون
عبء نير^(٤) الفاتحين ، وتغنون^(٥) لوطاة الغزاة الظالمين . تسوِّمكم حكوماتكم
الحفيف والجور ، وتُنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون ، بل راضون ، وتستنزف
قِوَام حياتكم — التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم — بالعصا والمقرعة
والسوط ، وأنتم صامتون . فلو كان في عروقكم دم فيه كُرَيَّات حيوية ، وفي
رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتُم بهذا الذل وهذه المسكنة ..
تتأوَّبَتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد

(١) السِط : العقد . (٢) الأحاجي : الألغاز . (٣) الأغلاق : الأقفال .

(٤) النير : خشبة توضع على عنق الثورين يقرنان بها ويساقان .

(٥) تغنون : تخضعون .

والمالك الخ ؛ وكلهم يشق جلودكم بمبيض نهمه ، وأتم كالصخرة الملقاة في
الفلاة ، لا حسن لكم ولا صوت .

« انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ،
وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم .

« هتبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم ! عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء .

« ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية . »

بهذا انقلب « الشيخ » من معلم في حجرة إلى معلم أمة : يخاطب العامة
والخاصة ، ورجل الشارع والمتربع في دسّ الوزارة .

ومن تمام برّ ناجحه في هذا الباب أن انضم إلى الحفل الماسوني الاسكتلندي
لأنه يضم كثيراً من عليّة القوم ، لعله بذلك يتمكن من إيصال أفكاره إليهم ،
ويضم طائفة من المصريين والأجانب ، فعمل حرية القول فيه تكون أتم ؛
ولكن ما دخل « السيد » فيه حتى ثارت ثائرتة ، وأخذ يهاجمه في تصرفه
وينقده بخطبه المتوالية . غاظه من الحفل أنه وجد أعضاءه لا يحبون أن يتكلموا
في السياسة فقال : « أول ما شوقني للعمل في « بناية الأحرار » عنوان كبير
خطير : حرية — مساواة — إخاء ، وأن غرضها « منفعة الإنسان — سعى
وراء ذلك صروح الظلم — تشييد معالم العدل المطلق » ، ولكن كنت أنتظر
أن أسمع وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن
يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتي المحافل الماسونية !

إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا
كانت آلات البناء التي بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشييد معالم حرية صحيحة
وإخاء ومساواة ، وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتوّ والجور ، فلا حملت
يد الأحرار مطرقة ، ولا قامت لبنائتهم زاوية قائمة . »

وهكذا نقدها في عدم تدخلها في السياسة ، وتنازع أعضائها على الرئاسة ، ورغبتهم في إغماض أعينهم على ما يقع على الأمة من ظلم .
وأخيراً استقال من هذا الحفل ، وأنشأ محفلاً آخر تابعاً للشرق الفرنسي ؛ وسرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين ، وكان في هذا الحفل مطلق الحرية ، نظم شعبه للأعمال المختلفة ؛ فشعبة للحقانية ، وأخرى للسالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجهادية . وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ، تدرس كل شعبة شئون وزارتها أو مصلحتها ، وتعرف ما يقع من الظلم ووجوه الإصلاح فيها ، ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها في أسلوب حازم صريح . فكان لذلك هِزَّة في الأندية والمجتمعات^(١) .

وهكذا اتسعت دائرة نفوذه وأعماله ، فقد بدأ يدرس في حجرة ، ثم أخذ يسيطر على عقول مستمعيه في «قهوة» ، ثم ما هو ذا يريد أن يسيطر على الوزارات ومصالح الحكومة بمحفله . وكان يدرس في بيته كتب الفلسفة والحكمة ، فإذا به في مجتمعاته ومنتدياته يشرح حالة الأمة الاجتماعية ، ويبين حقوقها وواجباتها ، ثم إذا به آخر الأمر يضع يده في صميم الحياة السياسية .

خِلقة فيه ظهرت منذ كان شاباً يلعب دوره في نصرة أميرٍ على أميرٍ في ولاية الأفغان ، لا يقنع حتى يتزعم ، ولا يهدأ حتى يضع يده على الأضرار التي تصرف الأمور ، ولكنها أضرار مشحونة بالكهرباء مثيرة للاضطراب ، وهو لا يعبأ بها ولكنها على رغمه تنال منه .

ماذا كان يريد السيد جمال الدين في مصر ؟

يريد في درسه النظامي توسيع عقول الطلبة ، وتفتيح آفاق جديدة في فهم

(١) خاطرات جمال الدين لمحمد باشا الخزومي .

العالم ، وتعليم الحرية في البحث ، وإيجاد شخصيات من الطلبة تبحث وتنقد وتحكم ؛ خالفت النص أو وافقته ، خالفت المعروف المؤلف أو وافقته .

ويريد في درسه العام أن يتحرر الشعب من العبودية للحكام ، ويفهموا موقفهم من الحاكم ، وموقف الحاكم منهم . كل يعرف حدوده ويؤدي واجبه ، فإذا تعدى الحاكم هذه الحدود قال له الشعب : « لا » بملء فيه — يريد تكوين رأى عام واسع الثقافة قوى حازم ، يفهم الأمور الداخلية والخارجية ، ويكون لكل ما يعرض من الحوادث العظام رأياً يقنعه ثم يفرضه على أولى الأمر حتى لا يتلاعبوا به ، يفهم أن من حقه أن يعيش عيشة صالحة ينعم بدخوله وله غلة جهده ، فإذا أخذت الحكومة منه الضرائب فعلى قدر ما تستدعيه المصالح العامة لا الشهوات الشخصية ، ولذلك كان من حقه الإشراف على وجوه الدخل والخروج .

ويريد في السياسة أن يقتنع الشعب بحقه في الحكم ؛ فإذا فهم ذلك — وهذا ما عمله جمال الدين وصحبه — طالب بالمجلس النيابي ، فيعطاه بناء على فهمه وطلبه وقدرته ، لا على أنه منحة تمنح له ، فإذا أعطيه بجهده كان أجدر بالمحافظة عليه ، وحرص عليه حرصه على دمه ، فاستقر وثبت ، ولم تستطع سلطة ما أن تلغيه أو تهمله .

استدعاه الخديو توفيق باشا إلى قصر عابدين وقال له : « إني أحب كل خير للمصريين ، ويسرنى أن أرى بلادى وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ؛ ولكن مع الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل ، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة » .

فأجاب جمال الدين : « ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص ؛ إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفرادهم ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعامل ، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصيح هذا الخالص ، وأسرعتم فى إشراك

الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى ، فتأمرهم بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم»^(١) ثم خرج من عنده يخطب في الموضوع ، ويستحث تلاميذه وأعوانه على الكتابة فيه في حماسة وقوة .

لقد رأينا أول عهده في مصر يرى أن مجلس النواب لا قيمة له ما دام المصريون على ما هم عليه من قلة التنبيه ، وضعف اليقظة ، وقلة الشجاعة ، ثم رأينا آخر عهده يلح في طلب الحكم النيابي ويحرّض عليه ، فاعله رأى من الأحداث واستبداد الحكام ، ونضج الأمة في السنين الثماني ما غير رأيه وعدّل خطته .

لقد كان الأمير توفيق في آخر أيام إسماعيل باشا يقدره ويدين بمبادئه ، وكان السيد يلتقي به في الحفل الماسوني ، ويتوسّم فيه الخير إذا ولي بعد إسماعيل ، ولكن الخديو توفيق لما تولى الحكم سعى إليه الساعون ، ودس له الدساسون ، فاجتمع مجلس الوزراء وقرر نفي السيد جمال الدين « لأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا » ، فثقلت لنا من جديد رواية سقراط ، وقبض عليه وعلى خادمه الأمين الفيلاسوف أبي تراب في ٦ رمضان سنة ١٢٩٦ ، ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧١ ، وأودعا باخرة سارت بهما إلى بمباي . وكان هذا آخر العهد بالأستاذ في مصر ، وإن لم يكن آخر عهدها بأرائه ومبادئه .

أقام السيد في حيدر اباد في الهند منفيا لا يُسمح له بمفارقتها ، ولا يستطيع أن يشترك في عمل إلا حديثا مع زائر ، أو قراءة في كتاب ، أو رداً على سؤال . وفي هذه المدة ألف كتابه المشهور في « الرد على الدهريين » وعنوانه « رسالة

(١) خطرات جمال الدين .

في إبطال مذهب الدهريين ، وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية والكفر فساد العمران » وقد كتبها بالفارسية ثم ترجمت إلى الأردية ، ثم ترجمها الشيخ محمد عبده بمعاونة عارف بالفارسية ، وهو تابع السيد جمال الدين ، عارف أبو تراب .

ردّ في هذه الرسالة على « داروين » ومذهبه في النشوء والارتقاء ، وعلى أمثاله ممن ذهبوا لمذهبه .

وقد يعجب القارئ من تعرضه لمثل هذا البحث ، وهو يتطلب — كما فعل « داروين » — تخصصاً في العلوم الطبيعية من جيولوجيا وفسولوجيا وبيولوجيا وأمبيولوجيا « علم تكوين الأجنة » وغير ذلك .

ولكن عذر السيد أن مذهب « داروين » قد أثار موجة من الإلحاد قوية — وإن لم يكن داروين نفسه ملحداً — وطفوا في عصره مذهب المادية القائل بأن العالم له أساس واحد هو المادة ، ولا شيء وراءها ، وكل شيء في الحياة مظهر من مظاهرها حتى الفكر والعاطفة ؛ والمادة لا تتجدد ولا تنفئ ، وقوانينها أبدية لا تتغير ، وهي قديمة أزلية أبدية ، وليس في هذا العالم شيء يعثره الفناء ، وإنما تتغير الأشكال وبناء على ذلك فلا نفس ، ولا روح ، ولا دين ، ولا إله .

وهذا المذهب قديم تراه في البوذية ، وعند قدماء المصريين وعند بعض فلاسفة اليونان ، وظهر في العصور الحديثة في الثورة الفرنسية ؛ ودعا إليه كثير من الفلاسفة في إنجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ؛ وعرفه العرب قديماً وسموا أصحابه « الدهريين » وحكى مذهبهم الجاحظ والشهرستاني وغيرهما من مؤرخي المذاهب .

وبانتقال الآراء الغربية إلى الشرق انتقل مذهب النشوء والارتقاء ،

ومذهب الماديين ؛ فترجم في مصر « شبلى شميل » مذهب بخنر سنة ١٨٨٤ ، وأثار حركة كبيرة حوله . وفي الهند ظهرت طائفة تعتنق هذا المذهب وتسمى طائفة « النيتشرية » نسبة إلى نيتشر Nature (وهى كلمة إنجليزية معناها الطبيعة) وترددت هذه الكلمة وقرعت أسماع الكثيرين ، كما قرعت سمع جمال الدين أيام إقامته في حيدر اباد . وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزّة بحيدر اباد في كتاب يقول فيه : « يقرع سمعنا في هذه الأيام صوت « نيتشر » ، ويصل إلينا من جميع الأقطار الهندية ، ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب « نيتشرى » فما حقيقة النيتشرية وما مذهبهم ، وفي أى وقت ظهوروا ؟ » . فكان من ذلك تأليف هذه الرسالة .

ولكن ليس أقوم ما فيها الرد على داروين ، وإنما أقوم ما فيها إثبات قيمة الدين ، وضرورته للإنسان ، وأثره في رقيه ، وأثر الإلحاد في انحطاطه . وهذا هو ما يبلغ فيه جمال الدين الذروة .

وخلاصة رأيه في هذا الموضوع أن الدين — على العموم — أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية .

العقيدة الأولى التصديق بأن الإنسان مَلَكٌ أرضى وأنه أشرف المخلوقات . والعقيدة الثانية يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل . والثالثة جزمه بأن الإنسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى ، والانتقال من دار ضيقة الساحات ، كثيرة المكروهات ، جديرة بأن تسمى « بيت الأحزان » إلى دار فسيحة الساحات ، خالية من المؤلمات ، لا تنقضى سعادتها ، ولا تنتهى مدتها . أما الخصال الثلاث فهى : الحياء والأمانة والصدق .

ويشرح أن هذه الأسس التي أتت بها الأديان هي علة العمران ، وعليها تتوقف سعادة الإنسان ، وأن الماديين أو الدهريين أو النيتشريين تؤدي تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس ، فتنزل الإنسان منزلة الحيوان ، وتفقده الباعث على الخير ، وتُعمده لحياة جامدة ضيقة جافة لا قلب لها ، ولا سمو فيها ، وفي هذا انتكاس^(١) خلّقه ، وهدم لكيانه ، وحرمان مما أعده الله له .

وفي الإسلام مزايا على سائر الأديان . أولها : صقل العقول بصقال التوحيد ، وتطهيرها من لوث^(٢) الأوهام . فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصرف الأكوان متوحد في خلق الأفعال ، وأن من الواجب طرح كل ظن في إنسان أو جاد — علويًا كان أو سُفليًا — يكون له في الكون أثر من نفع أو ضرر ، أو إعطاء أو منع ، أو إعزاز أو إذلال . أو نحو ذلك من خرافات كل واحدة منها كافية في إعماء العقول وطمس أنوارها .

وثانيها أن الإسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها ، وأثبت لكل نفس الحق في السمو وبحق امتياز الأجناس ، وتفاضل الأصناف ؛ وقوم الناس بالكمال العقلي والنفسي ؛ فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأي شيء آخر . وقد لا نجد من الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة .

وثالثها : أن الإسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل ، وتوبيخ المتبعين للظنون فهو كلما خاطب ، خاطب العقل ، وكلما احتكم ، احتكم إلى العقل ؛ تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة . وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل ، وانطفاء نور البصيرة . ورابعها : أن الإسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم ،

(١) انتكاس : انقلاب .

(٢) اللوث : الشوب والتلويث .

وفرض نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم ، وإقامة المؤدب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وقال : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

وعلى هذه الأركان الأربعة بُني الإسلام ، وكل ركن منها له الأثر البالغ في تقويم المدنية وتشديد بناء النظام ، وتدعيم السعادة الإنسانية ؛ وقد دارت حالة المسلمين رقيًا وانحطاطًا على حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها . هذا ما عمله « جمال الدين » في حيدر اباد .

فلما حدثت في مصر « الثورة العرابية » نقلته حكومة الهند من حيدر اباد إلى كلكتا ، وألزمته الإقامة فيها مخفورا مراقبًا حتى انتهت الثورة بدخول إنجلترا مصر ، فأبيح له الذهاب حيث شاء (في غير الشرق) . فيذكر مستر « بلنت » Blunt أنه ذهب إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية ، وأقام بها أشهراً ولم ينفذ ما اعتزمه — ولم يذكر ذلك غير بلنت من مترجميه^(١) .

ثم رأيناه في لندن سنة ١٨٨٣ ولم يطل الإقامة بها ، ثم سافر منها إلى باريس ، وكان قد كتب إلى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ، ليوافيه بها من متفاه في بيروت ، ففعل .

ما برنأججه ؟ ماذا ينوي من العمل بعد ما جرب ، وبعد ما نال من الأحداث ونالت منه ؟

(١) وأنا أستبعد رواية مستر « بلنت » لأن السيد لما خرج من الهند سافر بحراً عن طريق البحر الأحمر ، فلما كان في بور سعيد كتب إلى الشيخ محمد عبده كتاباً لا تزال محفوظة صورته الفوتوغرافية يقول فيه : « أنا الآن في « برط السعيد » أذهب إلى لندرة . . . إن أخبار العالم كانت قد انزعجت عن مدة سبعة أشهر ، ولذا لا أدري مستقر العارف (وهو تابعه) . أخبره بسفري » .

هاهو ذا الشيخ محمد عبده يتشاوران فيما يصنعانه من الإصلاح .
فأما الشيخ محمد عبده فكاد يدب إليه اليأس من الجيل الحاضر ، بعد أن
خبر الناس في حوادث عراقى ورأى غدرهم ، وقلة وفائهم ، وتكالبهم على مصالحهم
الشخصية ، فأشار على السيد جمال الدين أن يذهب إلى مكان بعيد غير خاضع
لسلطان دولة تعرقل سيرهما ، ثم يفتشان فيه مدرسة للزعماء يختارون لها التلاميذ
من نجباء الناشئين من الأقطار الإسلامية ، ومن يتوسَّمان فيهم الخير ، ثم يربيانهم
على منهج قويم يختارانه ، ويُعدَّانهم للزعامة والإصلاح ، قال : « فلا تمضى
عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك
أوطانهم ، والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار » .
لم يعجب « السيد » هذا رأى ، ورأى فيه خوراً في العزيمة ، وجنوحاً إلى
السلامة ، ومبالغة في التشاؤم من الحاضر ، وقال للشيخ محمد عبده : « إنما أنت
مُثَبِّطٌ »^(١) . ووضع « السيد » خطته وهى إنشاء جريدة عربية في باريس ، تُنشر
منها في العالم الإسلامى ، تفهمه حقوقه وواجباته وتشعل وطنيته ؛ فكان ذلك .
وكان من هذا جريدة « العروة الوثقى » يكون « للسيد » فيها الأفكار والمعانى ،
وللشيخ محمد عبده التحرير والصياغة ، وميرزا محمد باقر يعرب لها عن الصحف
الأجنبية كل ما يهم العالم الشرقى ، وكان وراء هذه المجلة جمعية سرية منبثة في
جميع الأقطار الإسلامية ، اختير أعضاؤها من بين المسلمين المثقفين المتحمسين
لدينهم ، ووضع لها يمين يقسمها من يدخل فيها ويتعهد « بأن يبذل ما في
وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية ، وإنزالها منزل البثوة والأبوة الصحيحتين ،
وأن لا يقدم إلا ما قدَّمه الدين ، وأن لا يؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا يسعى قدماً

(١) ولعل هذه الفكرة هى التى أوحى إلى السيد محمد رشيد فيما بعد إنشاء مدرسة الدعوة والإرشاد في مصر .

واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلاً وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامى من كل نواحيه بقدر ما يستطيع « الخ . وأنشئت للجمعية فروع في البلدان المختلفة ، وكل فرع يجتمع للمذاكرة ، وفي آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشيء من المال في صندوق صغير له ثقب ضيق يضع فيه كل ما تيسر خفية ، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر ؛ ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها ، فقد كانت ترسل أكثر أعدادها بالجمان .

أصدرا من الجريدة ثمانية عشر عدداً في ثمانية أشهر ، ظهر العدد الأول منها في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ = ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ ، وظهر العدد الأخير في ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ = ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

ماذا كان الغرض من هذه الجريدة ؟

لخصت الجريدة أهم أغراضها أول عدد من أعدادها فيما يأتى :

(١) بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات .

ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التي أفسدت حالهم ، وعمت عليهم طريقهم . وإزاحة الغطاء عن الأوهام التي حلت بهم .

(٢) إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس .

(٣) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

(٤) الدفاع عما يُرْمَى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم ،

وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

(٥) إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .
(٦) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها ،
وتأمين المنافع المشتركة بينها ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الخيف
والإجحاف بحق الشرقيين .

أراد السيد أن يدعو إلى إصلاح المسلمين دينياً واجتماعياً وسياسياً .
وإذ كان الإسلام تميز فيه العقائد بالنظم الاجتماعية والنظم السياسية كانت
دعوته شاملة لهذه المناحي الثلاثة .

كان المثل الأعلى له حالة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين ، من حيث
العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسي .

فيرى أنهم كانوا موحدين حقاً ، معتزين بدينهم ، لا تفرقهم المذاهب
والنحل ، مترابطين برباط الأخوة ؛ فيهم خلق الإباء والشم يبذلون أعز شيء
في سبيل عقيدتهم وعزتهم ، ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا ، ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر في غير هوادة .

ثم دخل الفساد على توالي الزمن من خمسة أبواب : من عقيدة الجبر والخطأ
في فهم القضاء والقدر ، حتى صرفت النفوس عن الجد في الأعمال ؛ ومما أدخله
الزنادقة على تعاليم الإسلام في القرنين الثالث والرابع ، فجعلوا المسلمين شيعاً
وأحزاباً ، وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة ؛ ومما أحدثه
السوفسطائية من أفكار ، وعدم الحقائق خيالات تبدو للنظر ، ومما عمله كذبة
المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله ، وفيها السم القاتل لروح العمل
والإباء ، وفيها ما يستوجب ضعفاً في الهمم وفتوراً في العزائم ؛ ومن ضعف
التربية والتقصير في إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم ، ونشر العلم بينهم . وزاد في
بعض المقالات أسباباً أخرى أهمها تفكك الروابط بين أجزاء الأمة ، فلا ترابط

بين العلماء بعضهم وبعض ، ولا بين العلماء والأمراء ؛ ومنها أن الدين الإسلامي جعل أمة مجاهدة قوية محاربة ، يأمرها الله بقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فلما استهانت بهذا الأمر ، ولم تُعدِّ لكل موقف عدته ، ذلت بعد عزة وضعفت بعد قوة .

وكان يختار بعض هذه الأسباب ويُوسعها تفصيلاً ، أو يفرد لها في مقال ، كما فعل في مقال (القضاء والقدر) . وكان من عادته أن يلهب النفوس بأسواق التقرير ثم يدخل الأمل عليها بأن هذه عوارض يمكن أن تزول ما سلم الأصل ، مذكراً دائماً بحالة المسلمين في العهد الأول ، وعزتهم الأولى .

وكان مثله الأعلى كذلك حكومة إسلامية واحدة تأتم بالاسلام وتعاليمه . ولما رأى أن ليس في الإمكان خضوعها لأمير واحد اكتفى بالدعوة إلى أن ترتبط أجزاؤها بروابط محكمة ، ويكون لها مقصد واحد وتحكم الأقطار كلها بحكومات إمامها القرآن ، وأساسها العدل والشورى ، واختيار خير الناس لتولى الأمور . يقول في ذلك بعد أن دعا إلى اتفاق الأمم الإسلامية : « لا ألتبس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما يكون عسيراً ، ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهد لحفظ الآخرين ما استطاع ، فإن حياته بحياتهم وبقائه ببقائهم » . وكثيراً ما كان يضرب المثل بالإمارات الجرمانية في توحيدها بعد تشتتها ، ويدعو إلى حلف بين الدول الإسلامية يتزعمه أكبرها وأقواها .

وخشى أن هذا النظام الذي يدعو إليه يثير الشقاق بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات الأخرى في الأقطار الإسلامية ، فقال : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه — بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم — تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ، ويتفق معهم في مصالح

بلادهم ، ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة ؛ فليس هذا من شأننا ، ولا مما ندعو إليه ، ولا مما يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا » الخ .

وقاده هذا التفكير في نوع الحكومة التي يأملها ، والأخلاق التي يريها من العزة والشم والقوة ، أن يناهض — في الجريدة — الاحتلال الأجنبي في الأقطار الإسلامية — وخاصة في مصر — بكل قوته ، ويؤلّب عليه في غير هوادة . وقد شغل هذا أكبر جزء من الجريدة ، من كتابة مقالات ورواية أخبار وتعليق عليها ، واستعمل لهذا الغرض أشد أنواع التعبير ، وأعنف أساليب التهيج ، واستغل حوادث المهدي في السودان لإثارة الشعور وإهاجة النفوس .

واستعمل إلى جانب الجريدة رُسلًا متخفين يذهبون إلى الأقطار المختلفة مزودين بالتعاليم التي لا يستطيع نشرها في الجريدة ، فرسول إلى موسكو ، ورسول إلى الحجاز ، حتى أرسل الشيخ محمد عبده مرة — وهو محكوم عليه بالنفي — إلى مصر وتونس .

كان من نتيجة ذلك أن أحس من بيده السيادة على الحكومات الهندية والمصرية الخطر من الجريدة ، فأمر بمنعها من الدخول ، وأصدرت وزارة نوبار باشا قراراً بالتشدد في منعها .

فلما أحست الجريدة شدة المراقبة ، واستحالة وصول الأعداد إلى أصحابها إلا في القليل النادر ، وفي كثير من التحايل ، احتجبت .

احتجبت والأسى يَحْزُ في نفس القائمين عليها ؛ فلا من دعوم لبوا الدعوة فثاروا يطلبون أن يكون أمرهم بيدهم ، ولا الجريدة استطاعت أن تستمر في دعوتها حتى تؤدي رسالتها .

وبهذا انتهت مرحلة أخرى من حياة « السيد » مدتها ثلاث سنين قضائها

في باريس ، كلها عناء ، وكلها جهاد ، انتهت بما أحزنه وخيب أمله ، وإن كانت المعاني لا تنعدم كما أن المادة لا تنعدم .

حدثان هامان حدثا في السنين الثلاث التي كان فيها « السيد » في باريس ، أحدهما اتصاله بالفيلسوف الشهير « رينان » وإعجاب كل منهما بالآخر ، ودخولهما معاً في معركة — وإن لم تكن حامية — حول الإسلام والعرب ؛ وقد فتحت صدرها لهذه المعركة جريدة « الديبا » الفرنسية الشهيرة .

فقد ألقى الأستاذ « رينان » في السربون محاضرة دارت حول نقط ثلاث :

(١) خطأ المؤرخين في قولهم : علوم العرب ، وفنون العرب ، وتمدن العرب ، وفلسفة العرب ، مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية ، فالتمدن أكثره من نتاج الفرس ، والفلسفة أكثرها من نتاج النصارى النسطوريين والوثنيين الحرثانيين . والفلاسفة الذين ظهرُوا في دولة الإسلام كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندي ، فنسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ . وعدم دقة في التعبير ،

(٢) أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد للغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر . ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه أو كان في حاية خليفة أو أمير مؤمن في الظاهر غير متدين في الباطن ؛ ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء في الفلسفة ليس له قيمة كبيرة ، فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوهة ، والفلسفة التي أخذها الأوربيون عن المسلمين في أسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة ، مشوهة الأصل ، لم تستفد منها أوربة الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة

من منابعها الأصلية . ومع هذا يقول « رينان » : « إن في دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة رفيعة المقام ، وما دخلت في حياتي مسجداً من مساجد المسلمين إلا شعرت بجاذبية نحو الإسلام ، بل تأسفت ألا أكون مسلماً ... » ، ولكن الإسلام حجب العقل عن التأمل في حقائق الأشياء وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر وقلة عقل لا فائدة فيه . (٣) أن العنصر العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ؛ فالزمن الذي كان يسود فيه العنصر العربي — وهو عهد الخلفاء الراشدين — لم تكن فيه فلسفة ، ولم يظهر البحث العلمي ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك ، ونقلوا الخلافة إلى العراق ، مهد التمدن الفارسي القديم .

وختم محاضراته بالإشادة بقيمة العلم ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الهجوم عليه ، « فالعلم روح كل هيئة اجتماعية ، وبه تتقدم الأمم ، وبه يتحقق العدل ، وبه يستخدم العقل القوة وهو لا يساعد إلا على التقدم المؤسس على حرمة الإنسان وحرية » .

نشرت هذه المحاضرة في جريدة « الديبا » فأثارت خواطر المسلمين والمستشرقين والباحثين في شئون المسلمين .

فكان ممن رد عليه الأستاذ « مسمر » رئيس البعثة المصرية بفرنسا إذ ذاك ، وفي رده كاد يسلم بالمسألة الأولى ، وهي أن المدنية العربية ليست مدنية العرب وحدهم ، بل مدنية الأمم المختلفة التي دخلت في الإسلام . وفي المسألة الثانية قال إنه ليس في دين الإسلام وتعاليمه ما يمنع المسلمين من التقدم العلمي ، وقد تقدم المسلمون في عصور مختلفة ولم يمنعهم دينهم من أن يتفوقوا على المسيحيين في بعض تاريخهم ، وكل سائح الآن يسبح في البلاد الإسلامية يشعر بنهضة الشرق وأخذة بأساليب

التقدم والإصلاح ، من غير أن يصددهم دينهم عن ذلك . ثم قال : « ومن الغريب أنه قبل أن يلقي المسيو رينان خطبته بيومين ألقى بعض العلماء العظام أمام المحفل نفسه محاضرة اشتملت على مكتشفات العرب في علم الحياة — وقد نشرت هذه المحاضرة في المجلة العلمية — ... وهي محاضرة ترشدنا إلى حقيقة التمدن الإسلامى فى القرون المتوسطة ، فلو اطلع المسيو رينان عليها وعلى ما كتبه « سديو » و « دوزى » — فى مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة إلى العرب ، وعرف ما عملته هذه الأمة فى العلم ، مما لا يحصى عدده ، على حين كانت أوربة منغمسة فى التوحش والجهالة — ما نسب إلى العرب ما نسب ، وهذا العلم تقدم بمعونة الدين لا برغم الدين . فإذا كان الإسلام سمح للنساطرة والمجوس واليهود فى دولته بهذا التقدم العلمى الذى ذكره مسيو رينان ، فلماذا لا يكون سبباً فى حل ملايين المسلمين الآن على الأخذ بأسباب العلم . وأما المسألة الثالثة فلم يعرفها مسيو مسمر كبير اهتمام فى الرد .

وقد تحمس الشبان المسلمون فى باريس لمقال « رينان » ورد « مسمر » فاجتمعوا وكلفوا أحدهم حسن عاصم « حسن باشا عاصم فيما بعد » بتعريب المحاضرة والرد عليها فعربهما ، وقال فى أول ذلك : « لما كان الذب عن الدين فرضاً على الإنسان ، وحب الوطن من الإيمان ، اجتمع جم غفير من طلبة العلم المصريين المقيمين بفرنسا وكلفوا أخاهم العبد الفقير « حسن عاصم » بتعريب الخطبة التى ألقاها رينان . . . طعنًا فى دين الإسلام والأمة العربية ، وبتعريب ما كتبه الفيلسوف الكبير صاحب الفكر الصائب المسيو مسمر . . . والغرض أن نقف على الطعن والرد كلٌّ من كان على دين الإسلام أو من الأمة العربية ، حتى يمكنهم تفنيد كلام المسيو رينان ، فيفعلوا إظهاراً للحق » . كما عرب محمد مختار أحد طلبة العلوم الطبية بباريس المحاضرة التى أشار إليها مسيو مسمر .

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان رد الأستاذ جمال الدين عليه في « الديبا » أيضاً ، ولكن كان رده هادئاً في بعض نقطه ، فلمعله لذلك لم يعجب حسن عاصم ولا إخوانه ، ولذلك لم يهتموا بترجمته إلى العربية أو نشره ، فقد مدح رينان على بحثه وإنصافه ، وقال إنه استفاد من محاضراته استفادة كبيرة ، ثم قال : « إن المحاضرة تشتمل على نقطتين أساسيتين : (١) أن الديانة الإسلامية كانت — بما لها من نشأة خاصة — تناهض العلم ؛ (٢) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة .

» فأما عن النقطة الأولى ، فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها : أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الإسلامية في العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو تحملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملسكاتها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك ؟ لا ريب أن قصر الوقت المخصص للسيور رينان قد حال دون جلالة هذه النقطة .

ثم أخذ يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله في الأديان الأخرى ، « فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المبيجلون لم يلقوا أسلحتهم بعد كما أعلم ، وهم عاكفون على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضللال (يعني العلم والفلسفة) .

قال : « وأما النقطة الثانية فالكل يعلم أن الشعب العربي خرج من حال الهمجية التي كان عليها وأخذ يسير في طريق التقدم الذهني والعلمي ، ويُغذّ^(١) السير بسرعة لا تعادها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن في خلال قرن من التكثيف بالعلوم اليونانية والفارسية ... فتقدمت العلوم تقدماً مذهشاً بين العرب ، وفي كل البلدان التي خضعت لسيادتهم . وقد كانت رومة وبيزنطة المدينتين

(١) يند : يسرع .

الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل مبعث أنوار المعارف الإنسانية كلها ... ثم جاء الوقت الذى وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث ، وتهدمت فيه نُصُصُهُم التى أقاموها للعلم ، ودرجت كتبهم القيمة فى طيِّ النسيان ، وقد كان العرب فى ذلك الجمل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتعدنة فأحيوا تلك العلوم المندثرة ، ورقوها وخلصوها عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهاناً على حبهم الطبيعى للعلوم ؟ .

« صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به ، بيد أن هذه العلوم التى أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضحوها ، ونسقوها تنسيقاً منطقياً ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وتنطوى على الثبوت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبيزنطة بُعد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا ، حتى جاء اليوم الذى ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهائه على الغرب ، فأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو فى ثوبه اليونانى على مقربة منهم . أو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على مزايا العرب الذهنية وحبهم الطبيعى للعلوم ؟ »

« وبينما يسلم مسيورينان بأن البلدان الإسلامية فى غضون خمسة قرون من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن الثالث عشر كانت تحتوى علماء ومفكرين عظاماً ، وأن العالم الإسلامى إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحى فى الثقافة الذهنية إذ يقول : إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كُناهبى السياسيين من أصل حرّانى ، أو أندلسى ، أو فارسى ، أو من نصارى الشام . ولست أريد أن أغبط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ، ولا أن أغض الطرف عن

الدور الجليل الذي لعبوه في العالم الإسلامي ، ولكن أرجو أن يسمح لي أن ألاحظ أن الحرائين كانوا عرباً ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرائين ، وكونهم قد حافظوا على ديانتهم القديمة وهي « الصابئة » ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عرباً غسانيين اهتموا بهدى النصرانية . أما ابن باجه ، وابن رشد ، وابن طفيل ، فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى أنهم لم يولدوا في جزيرة العرب ، وخصوصاً إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بِلغتها .

« ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذي ينتمي إليه العظيم ، ولم نأبه للنفوذ الذي سيطر عليه ، والتشجيع الذي لقيه من الأمة التي عاش فيها ؟ لو فعلنا ذلك لقلنا إن نابليون لا ينتمي إلى فرنسا ، ولما صبح لألمانيا أو إنجلترا أن تدعى كلتاها الحق في العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى . »

ثم تعرض لأسباب انطفاء هذه الشعلة ، وختم رده بقوله : « إن العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم — على ما به من جمال — لا يرضى الإنسانية كل الإرضاء ، وهي التي تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعلماء برويتها أو ارتيادها . »

رد عليه الأستاذ رينان وبادله مدحاً بمدح ، وإعجاباً بإعجاب ، وقال : « تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين فوقع في نفسي منه ما لم يقع لي إلا من القليلين ، وأثر في تأثيراً قوياً ؛ وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هي موضوع محاضراتي في السريون ... »

والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التي طالما أعلنها ، وهي أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس ، وقد خيّل إلى من حرية فكره ، ونبالة شيعته ، وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أني أرى أحد معارف من القدماء وجهاً لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحداً من أولئك الملحدّين العظام الذي ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإيسار .

ثم قال : « ولست أرى في البحث النفيس الذي عاجله الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقيقة ... فلسنا بالتأكيد فنكر ما رومة على تاريخ الإنسانية من نفوذ ، ولا ما كان للعرب من نفوذ ، ولكن هذه التيارات الإنسانية العظيمة في حاجة إلى تحليل ؛ إذ ليس كل ما كتب باللاتينية يزين تاج شهرة رومة ، ولا كل ما كتب باليونانية من عمل اليونانيين ، ولا كل ما كتب بالعربية نتاج عربي ، ولا كل ما نشأ في بلد مسيحي من تأثير المسيحية ، ولا كل ما ظهر في البلدان الإسلامية من ثمار الإسلامية .

« لقد خالني الشيخ غير منصف في أني لم أوف الكلام حقه ، ولم أقل في المسيحية ما قلته في الإسلام ، وأن الاضطهاد بين المسيحيين لا يقل عما كان بين المسلمين ؛ وهذا قول حق ، فجاليو لم يلق من الكاثوليك خيراً مما لقيه ابن رشد من المسلمين ... وإذا كنت لم أطل القول في هذه الحقيقة فلأن آرائي في هذا الشأن معروفة لا حاجة بي إلى تكريرها على مسمع محفل علم بكل أعمال وآرائي ... ولست أريد من المسيحي ترك عقيدة المسيحية ولا من المسلم ترك الإسلام ؛ ولكن أريد من المسيحيين والمسلمين المتنورين أن يهتموا بالعلم اهتماماً لا تعوقه العقيدة ، وقد تم هذا في نصف البلدان المسيحية ، ونرجو أن يتم مثله في الإسلام . وإن يوماً يتم ذلك فيه لما أرحب به أنا والشيخ ونطرب له جميعاً » .

واستمر في تأييد رأيه الذي قاله في المحاضرة ثم ختم مقاله بقوله : « ويلوح لي أن الشيخ جمال الدين قد زوّدني بطائفة من الآراء الهامة تعينني على نظريتي الأساسية ، وهي أن الإسلام في النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية في الأراضى الإسلامية ، ولكنه في النصف الثاني خنق الحركة العلمية وهي في حظيرته ، فكان هذا من سوء حظه » .

وهذه النتيجة الأخيرة — من غير شك — فيها كثير من التعديل لآراء ريثان السابقة ، وهي تؤدي حتماً إلى أن مقاومة العلم ليست من طبيعة الإسلام ، ولو كانت من طبيعته ما شجع الحركة العلمية في أوله ولا آخره .

وإلى هنا أسدل الستار على هذه الرواية التي سيعاد تمثيلها — على وجه أشد — بين مسيو هانوتو والشيخ محمد عبده . وما أقوى الردود ! ولكن أقوى منها رد المسلمين عليها بتبوتهم مكانة عليا في العلم والفلسفة .

وأما الحادثة الثانية فسياسية ، ذلك أن بعض ساسة الإنجليز — وقد أحسوا حملة جريدة العروة الوثقى وتهيبجها الرأي العام على إنجلترا — رأوا أن يتفاهموا مع القائمين عليها ، فبعثوا إلى السيد جمال الدين في ذلك ، فأرسل مندوبه الشيخ محمد عبده وقال : « رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندرة إجابة لدعوة من يُرجى منهم الخير لملتنا ، ومن يُؤمّل فيهم حسن النية . . . » (إشارة إلى مستر بلنت) .

قابل محرر الجريدة كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وحادثهم محادثات طويلة في المسألة المصرية ، ومن هذه المحادثات ما نشر إذ ذاك في الجرائد الإنجليزية ، واكتفى السيد جمال الدين في العدد الرابع عشر من العروة الوثقى بذكر محادثات كانت بين الشيخ محمد عبده ووزير الحرية الإنجليزية لورد

« هرتسكتن » خلاصتها أن وزير الحرية سأل الشيخ محمد عبده : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الإنجليز ، وهي خير من سلطة الأتراك ومن جاء على أثرهم ، خصوصاً وأن الجهالة عامة في أقطار مصر ، وأن كافتهم لا يفرق بين حاكم أجنبي وحاكم مصري ؟

ورد الشيخ محمد عبده بما خلاصته : أن في المصريين من يحبون أوطانهم حب الشعب الإنجليزي لبلاده ، وأرض مصر من زمن محمد علي انتشرت فيها العلوم والمعارف ، وأخذ كل منها نصيباً على قدره ، ولا تخلو قرية مصرية من قارئ وكاتبين يقرءون الجرائد العربية ويوصلون ما فيها إلى من لم يقرأ ، والنفرة من ولاية الأجنبي من طبيعة البشر ، فضلاً عما لتعاليم الإسلام في هذا الشأن .

وقد أخذت الجريدة هذا الحديث وسيلة للتهيج وإثارة الشعور . وعلى كل حال فلم تأت هذه الأحاديث بنتيجة من التفاهم ، واستمرت الجريدة في خطتها حتى جُجبت كما أسلفنا .

ماتت جريدة العروة الوثقى ، ولكن لم يمت أثرها ، فقد أحييت روح كثير من المتنورين في العالم الشرقي ، وأيقظتهم من سباتهم ، وبصرتهم بسوء حالهم مع الاحتلال ، وعلمتهم كيف يكتبون ويخطبون ويدعون إلى الشعور بالقومية الذي سُمي بعد الاستقلال ؛ فإن قلنا إنها كانت أول شرارة في الشرق لإلهاب الشعور بالكراهية للحكم الأجنبي لم نُبعد ، فقد كتبت في الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والمسألة المصرية والسودانية والهندية ، وعالجتها كلها في حماسة وتهيج بالغين ، ونظرت إلى كل ذلك في ضوء السياسة الدولية العامة ، والتفتت

إلى الشعوب تحركها وتثير شعورها، الحكومات المختلفة تبين لها أضرارها من احتلال الشرق . وهكذا وهكذا .

لم تتأثر بالدعوة وقتذاك الشعوب ولا الحكومات الأجنبية ولا المحلية ، وإنما تأثرت بها طبقة قليلة من المستعيرين في الأقطار الشرقية المختلفة تأثراً كان نواة للحركات الوطنية بعد ، ولست أزعم أنها كانت النواة الوحيدة ، ولكن كانت النواة الأولى .

على كل حال عطلت الجريدة وانقرط عقد القائمين بأمرها . فالشيخ محمد عبده وميرزا باقر يعودان إلى بيروت ، والسيد جمال الدين إلى فارس بناء على دعوة من الشاه ناصر الدين . تلقاه الشاه والعلماء والأمراء في حفاوة ، ولكن سرعان ما دبت الغيرة في نفس الشاه وأحسّ خطره فتتكرّر له ، فاستأذن السيد في الرحيل ورحل إلى سان بطرسبرج عاصمة روسيا ، وأقام بها نحو ثلاث سنين من سنة ١٨٨٦ — سنة ١٨٨٩ .

لماذا اتجه إلى روسيا ؟ وماذا عمل في هذه المدة ؟

إن معلوماتنا عنه في هذه الفترة قليلة ، وأكبر الظن أنه شغل فيها بشيئين : (١) حال المسلمين الروسين وعددهم نحو ثلاثين مليوناً ، وكانوا يعاملون في عهد القياصرة معاملة ظالمة جائرة ؛ فلعله حاول باتصاله برجال الحكم إذ ذاك أن يلطف من ظلمهم ويخفف من جورهم . وقد عرف عنه أنه سعى عند القيصر في طبع المصحف ، وبعض الكتب الدينية لمسلمي الروس ، فأذن له في ذلك . (٢) ما كان لروسيا من أثر كبير في سياسة الشرق ومناقضتها للسياسة الإنجليزية في آسيا ، وضغطها الشديد على الدولة العثمانية ، والعمل على إضعافها ، وتقطيع أوصالها ؛ ومع هذا التنافس والمخاصمة على الشرق بين إنجلترا وروسيا ؛ فإن كثيراً من السياسيين يرون أن هذه المنافسة أفادت إنجلترا وفرنسا وإيطاليا أكثر مما أفادت

روسيا . فلولا ضغط الروس على الدولة العثمانية ما سهل على فرنسا الاستيلاء على الجزائر وتونس ، ولا على إيطاليا الاستيلاء على طرابلس ، ولا على إنجلترا الاستيلاء على مصر .

على كل حال انغمس « السيد » أثناء إقامته في روسيا في السياسة الدولية وحرّض روسيا على سياسة إنجلترا . ونشر في الجرائد الروسية مقالات في السياسة الأفغانية ، والفارسية ، والعثمانية ، والروسية ؛ ونقد السياسة الإنجليزية ، وقابل القيصر فسأله عن آرائه في الشرق ، ثم سأله عن سبب خلافه مع الشاه ، فقال : إنه الحكومة الشورية ، أدعو إليها ولا يراها . قال القيصر : الحق مع الشاه ، فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟ قال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعداء يترقبون له الفرص . فلم يُعجب القيصر هذا الحديث ، وقام : علامة الإذن له بالانصراف .

ثم سافر « السيد » إلى أوربة على نية أن يزور معرض باريس سنة ١٨٨٩ . وفي أثناء سفره من روسيا إلى باريس نزل ميونيخ في ألمانيا ، وتقابل مع شاه الفرس ناصر الدين ، فعرض عليه العودة معه إلى فارس ، واعتذر إليه عما كان ، ووعد أنه يمهّد له طريق الإصلاح الذي يقترحه ، فرفض السيد أولاً وقبل أخيراً .

ها هو ذا السيد في طهران ، يلتف حوله جمهور من العلماء والعظماء ، ويتلبور فيه ما في نفوس الخيرين من ميل إلى الإصلاح ، فيسعى هو ومن التفت حوله إلى وضع المشروعات في إصلاح الإدارة ، وإقامة العدل ، وتقنين القوانين ؛ وفوق ذلك تنظيم الحكم النيابي للبلاد ، والحركة تشتد وتمتد ، والشاه يظهر الاستعداد لقبول هذه المطالب ، والنفوس العاملة تفرح لقرب النصر ، والأمل في الخير ، ولكن سرعان ما اكفهر الجو وأُنذر بالصواعق ؛ فقد وسوس

المصدر الأعظم للشاه أن الحكم النيابي يسلبه سلطانه ، والنظام الإداري والقانوني المقترح أعلى من مستوى الناس ، ونحو ذلك من مقالات السوء التي سمعنا مثلها في مصر أيام إقامة « السيد » فيها ، وفي تركيا أيام « مدحت » ، وفي كل مكان وزمان يدور فيهما النزاع بين دعاة الإصلاح ودعاة الرجعية .

فتجههم الشاه له وأحسن « السيد » الخطر منه ، فخرج إلى مقام « عبد العظيم » أحد حُفَدَاء الأئمة — على بعد نحو عشرين كيلو من طهران — والفرس يعدون مقامه حرماً من دخله كان آمناً . اتخذ السيد مركزاً لدعايته وخطبه وتهيبج الرأي العام لطلب الإصلاح ، وبعض العلماء والوزراء والضباط يحجون إليه ليسمعوا خطبه ، ويصفوا إلى آرائه ، ويعودوا وقد شحِنوا قوة كهربائية بقدر تحملهم للشحنة ، وكلهم ثائر هائج يريد الإصلاح ، وأقام على ذلك أشهراً والبلاد يزداد غليانها ، ومركز الشاه والحاشية يزداد خطراً ، والمنشورات تذاع ، والكتب الأغفال من الإمضاء تصل إلى الشاه بالعدل أو العزل ، وبالحكم النيابي أو تولية غيره .

فما راع « السيد » إلا خمسمائة جندي مسلحون يهجمون عليه غير حافلين بحرم الشيخ عبد العظيم ولا بمرض السيد مرضاً شديداً . وكما يصف هو : « سحبتني على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصوّر دونها في الشناعة ... ثم حملني زبانية^(١) الشاه — وأنا مريض — على برذون^(٢) ، مُسَلَّساً ، في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ؛ وساقتنى جَحْفَلَةً من الفرسان إلى خانقين » ومنها سافر إلى البصرة يعاني ألم المرض الذي اشتد عليه من هذا الحادث ، وكان يُودى به لولا لطف الله .

فلو رأيت أنه ثم لرأيت رجلاً أكلت منه حُمى الحمية حُمى المرض ، وقد تجمع

(١) الزبانية : رجال الشرطة . (٢) برذون : دابة .

(٧ - زعماء الإصلاح)

دمه في رأسه يحترق ، وفي وجهه يلتهب ، وفي عينه تقذف بالشرر ؛ كيف يهان هذا الموان وهو الرفيع النسب ، العزيز الحسب ، العظيم الجاه ، العالى المنزلة في دينه وشرفه وعقله ، ورغبته في الخير ؟ كيف يرجوه الشاه أن يأتى بلده ويمدّه أن يُنفذ إصلاحه ، ويعلى كلمته ، ثم يعامله معاملة العبد يُطرد ، والذليل يُصنع ، والحقير يهان ؟

لقد آلى أن ينتقم منه شرّ انتقام ، وألا تهدأ نفسه حتى ينزله عن عرشه ، وقد برّ فيما أقسم . فأخذ يكتب إلى علماء الدين المسموعى الكلمة يهيجهم على الشاه ، ولا يتورّع أن يصفه بأقبح الصفات ، ويبين ضرره على الأمة ، ويشير عاطفتهم الدينية ، ليشغبوا عليه حتى يُخلع . وكان الشاه قد تعاقد مع شركة إنجليزية على احتكارها «التنباك» فاتهز الفرصة وأبان الضرر على الأمة من هذا الاحتكار ، وأهاب برجال الدين أن يذودوا عن وطنهم ، فاستمعوا إليه ، وهاجوا على الشاه ، وهيجوا عليه ، حتى اضطرّ إلى فسخ العقد ، ودفع نصف مليون ليرة تعويضا للشركة ، فكانت هذه أول خطوات الانتقام .

ثم لما عادت إليه عاقبته سافر إلى لندرة ، وحاضر نبلاء الإنجليز وكبراءهم في مصائب الشاه على فارس ، وساهم في إخراج مجلة شهرية أسماها « ضياء الخافقين » تصدر بالعربية والإنجليزية ، كان يكتب فيها مقالات بامضاء « السيد الحسينى » يفضح فيها حكومة الشاه ، وسوء الإدارة ، وانتشار الرشوة ، وتعذيب الأهالى ، ويحرض فيها العلماء على عمل صغير ؛ وهو أن يُصدروا فتوى بعدم التعاون مع الشاه فإذا هو طريد ؛ ويختار من الألفاظ والجل في مدح العلماء وقوتهم أضخمها وأقواها ، وفي ذم الحكومة والشاه أجهأها وأقساها .

هذه زلة كبيرة من السيد جمال الدين ، دعاه إليها حدّته وحبه للانتقام ؛ إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية في بلاد أجنبية تتخذ

من أقواله حجة للتدخل الذى طالما حاربه فى « العروة الوثقى » ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويفسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس ؟ لقد كانت مدحت باشا فى موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، إذ نفاه « عبد الحميد » ، وأخذته رجاله من دسّت الوزارة إلى السفينة ، لا مال ولا ثياب ولا أهل ؛ ومع هذا فما وضع قدمه فى أوربة حتى أخذ يسعى فى دفع الشر عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير فى فضل الأتراك على أوربة ، ولا ينطق بكلمة فى ذم عبد الحميد الذى عامه معاملة الشاه لجمال الدين . الحق أنها غلطة من غلطات « السيد » دعا إليها حدة مزاجه .

لقد رجاه سفير فارس أن يكفّ عن الطعن فى الشاه ، وعرض عليه المال الكثير ، فقال : لا ، حتى يلقى الشاه ربه .

تجمع عند السلطان عبد الحميد من الأسباب ما حمله على أن يدعو « السيد » إلى الآستانة ، فهو يخشى أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة ، فيكون قوة كبرى إلى قوتهم ، خصوصاً وقد كان السيد اجتمع فى باريس ببعض رجال هذه الجمعية ، وأطلعوه على خطتهم فى إصلاح الدولة العثمانية ، فراقه مذهبهم ، وشجعهم على عملهم ، وسمى جمعيتهم « الجمعية الصالحة » وبلغ السلطان ذلك عنه . ثم إن الشاه وسّط السلطان فى كفّ أذى جمال الدين . لهذا وذاك رجاه السلطان عبد الحميد أن يزور الآستانة فأبى ، ثم سلط عليه حيله ومكايدته ، ووعدته — فى تنفيذ آرائه فى الإصلاح — ومناه حتى قبيل ، وما إن وضع قدمه فى الآستانة حتى كان فى قفص من ذهب أحكم بابه ، لقد وعده السلطان أن له حرية الخروج من الآستانة إذا شاء ، ولكن كان كل ذلك خدعة .

أمر السلطان عبد الحميد باستقباله استقبالا حسناً ، وأخرى عليه ٧٥ ليرة شهرياً . وأنزله بيتاً ظريفاً فى نيشان طاش ، بالقرب من يلدز ، وجعل تحت أمره

عربية وخدمًا وحشًا ، بعضهم للخدمة وبعضهم للتجسس ، وأحاطه بكل أنواع الرعاية المادية .

لقد خُيل إليه أنه بمعونة السلطان يستطيع أن يوسع دائرة إصلاحه ؛ فيضع خطته لجامعة إسلامية ، يؤلف بها بين فارس والأفغان وتركيا وولاياتها بنوع من الاتحاد أو الحلف ، ثم يرسم منهج إصلاح الإدارة في الدولة العثمانية وإصلاح التعليم ، وفاته أن جو الآستانة في عهد عبد الحميد لا يصلح أن تنمو فيه بذرة صالحة ، وكان له في مدحت وأشباهه العظة البالغة . ولقد زار الآستانة الشيخ محمد عبده بعد وفاة السيد وفي عهد عبد الحميد ، فقال فيها : « إنه لم ير بيئة في العالم — ولم يكن يعقل وجود بيئة — كآستانة في سوء تأثيرها في العقل والفكر والقلب ، وإن ذهنه فيها كان ممسوحًا كأنه لم يكن فيه شيء من العلوم والآراء ، ولهذا كان أحرار الترك معذورين في شرودهم منها ، وتوطين أنفسهم على كل ما يمكن أن يلقاه الإنسان من ضروب البلاء والحن » .

وقابل السلطان السيد ، في يلدز ، فرأى منه شخصية غربية جريئة في القول والحركة جرأة لم يشهدها من أحد قبل . يطلب منه السلطان أن يترك مهاجمة الشاء ، فيقول « السيد » : إني لأجلك قد عفوت عنه . فارتاع السلطان لمثل هذا القول — والسيد في حضرته يلعب بحبات السُّبُحَةِ ، فإذا لفت نظره رئيس « المايين » إلى ذلك بعد خروجه قال له : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسُّبُحَتِهِ كما يشاء » ؟ فيفزع رئيس المايين ، ويهرُبُ من سماعه هذه الكلمة ، خشية أن يكون قد سمعها أحد .

لقد تحدث إلى السلطان كذلك في الحكم الشورى للدولة العثمانية ، فخدعه السلطان بتظاهره بحسن الاستعداد له ، وفرح السيد بهذا التظاهر ، واتفق معه على العمل لتكوين الجامعة الإسلامية ، وعرض عليه السلطان منصب شيخ



صورة للسيد جمال الدين أهداها إلى الشيخ محمد عبده وكتب عليها :
« تذكرة للشيخ الفاضل محمد عبده ، يتذكر بها ما حوته الصدور ،
واستقرت عليه القلوب » سنة ١٨٨٥

الإسلام ، فأبى إلا إذا عُدِّل النظام من أساسه أولاً . وكرر مقابلته للسلطان والحديث إليه ، وكون أخيراً فكرة عن السلطان عبد الحميد بأنه ذكى وإوسع الاطلاع على السياسة الأوربية والأعيانها ، واسع الحيلة فى العمل على ضرب بعض الدول ببعض ، ولكنه جبان يفسد عليه جبته ذكائه ومعرفته .

كانت المدة الأولى من إقامته فى الأستانة محفوفة بعطف السلطان عليه ولو ظاهراً — يزوره السيد ويشير عليه بالإصلاح ؛ قال له مرة : « خُذْ بِحَزْمِ جَدِّكَ السلطان « محمود » وأقص الخائنين من خاصَّتِكَ الذين يكتُمون عنك حقائق ما يجرى فى الولايات ، وخفف الحجاب عنك ، وأظهر للملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نِعَمَ الحارس الأجل » فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ولكن ذهب كل ذلك مع الريح ، ووجد له فى الأستانة خصم لبود ، هو أبر الهدى الصيادى الذى أتقن من الحيل والدهاء والدسائس والمؤامرات والغلبة على عقل السلطان ما لا ينفع معه إخلاص جمال الدين وصراحتة ونصحه ، فسدت حياة السيد ، وفسد ما بينه وبين السلطان ، وضاع كل أمل له فى التعاون معه على الإصلاح ، وأصبح يقول فى مجالس خاصته : « إن هذا السلطان سُلٌّ فى رُثَّة الدولة » واقتصرت قيمة السيد مدة إقامته فى الأستانة — وهى أربع سنين وأشهر — على ما كان يلقيه على زُوَّاره وسماره من أحاديث وآراء ، إلى دسيسة بين حين وآخر تحاك حوله ، ويصْرِف الزمن فى نقضها .

وكل ترائثا منه فى هذه الفترة بعض من أحاديثه اللطيفة وآرائه الطريفة^(١) وتحريكه عقول سامعيه إلى التفكير الحر فى الإصلاح وفى الشئون الاجتماعية . فى هذه الفترة كانت تظهر من أحاديثه آثار الأسف والحزن ، إذ يعْرِض

(١) روى كثيراً منها الخزوى فى خاطراته ، وشكيب أرسلان فى ترجمته .

ماضيه فيرى ما كان منه من جهاد طويل في تحريك الشعوب الإسلامية ثم لم ينبض لها عرق ، وفي رجال عقد عليهم الأمل ثم غَدَرُوا ، وفي شاهِ خان ، وفي جريدة عَطَّلَتْ ، وفي سلطان لا أمل فيه ، وفي بيثة خائفة . ماذا في يده بعد حياة طويلة قضاها في الكفاح وفي النفي ، وفي الحبس ، وفي الطرد ، وفي التفكير والتحرير ، وفي إيقاظ العقول النائمة والنفوس الخائرة ؟ لا شئ إلا أنه أسدٌ في حديقة الحيوان ، ينشدُ حرية نفسه فلا يجدها ؛ بعد أن كان ينشدُ حرية الأم الإسلامية كلها ويأمل أن يجدها .

يزوره شكيب أرسلان ، ويدور الحديث حول ما رُوى من أن العرب عبروا المحيط الأطلنطي قديماً ، وكشفوا أمريكا ، فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بنى آدم ، أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا . وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه من الخمول والضعفة . إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آباءكم إلا أن تفعلوا فعلهم » ؛ « إن المسلمين قد سقطت همهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شئ واحد فيهم هو شهواتهم » . « هذا محمود سامي البارودي عاهدني ثم نكث معي ، وهو أفضل من عرفت من المسلمين » .
ولكن أحياناً تنقشع عنه سحابة اليأس ، ويعود إلى أمله في الشرق والمسلمين ، ويعود إلى ذكر الداء والدواء ، والأمل في العلاج ، ككل النفوس البشرية ، تتردد بين الحزن والسرور ، واليأس والأمل ، وكالطبيعة تتردد بين الصحو والغيم ، والإرعاد والإبراق ثم الإشراق .
فها هو ذا في رقعة من صحبة يحللون أدواء الشرق ويستوصفونه العلاج ، فيقول :

إن الدواء هو ما يسير عليه الغربيون من العزة والجرى على قول الشاعر العربي :
« عِشْ غَيْرِ زَأْ أَوْ مِتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ » . فإذا كان هذا بعيد المنال ، فلا بد من
تربية جيل جديد تربية دينية صحيحة ، يتولى أمرها أناس يأخذون على أنفسهم
عهداً ألا يقرعوا باباً لسلطان ، ولا تضعضهم الحداثان^(١) ، ولا يثنى عنهم الوعيد ،
ولا يفرهم الوعد بالمنصب ، ولا تلهيهم التجارة ولا المكسب ، بل يروّون في
التعاب وتحمل المكاه لنجاة الوطن من الاستعباد غاية المغنم ، وفي عكسه المفرم .
قيل له : وهل هذا في الإمكان ؟

قال : إن الأزمة تلد الهمة ، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق ، ولا يظهر
فضل الفجر إلا بعد الظلام الحالك — وعلى ما أرى قد أوشك فجر الشرق أن
ينبتق ، فقد ادلممت فيه ظلمات الخطوب ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج ،
سنة الله في خلقه .

ثم استطرد في المجلس إلى بيان الخطر مما تستعمله بعض الأمم الأجنبية في
الشرق من إضعاف اللغة القومية وقتل التعليم القومي ، والتنفير من آداب الأمم
الشرقية ، لتحل محلها لغتها وآدابها « مع أنه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان
لقوم لا آداب لهم ، ولا عن لقوم لا تاريخ لهم ؛ ولا تاريخ لهم إذا لم يقر منهم من
يحي آثار رجال تاريخهم ، فيعمل عملهم وينسج على منوالهم » . وكانت محاضراته
في مجالسه تدور حول موضوعات هامة تخلقها المناسبة ، كلها ترمى إلى الإصلاح
في العقيدة وفي الاجتماع وفي اللغة . وبين حين وآخر تثار حفيظة^(٢) السلطان
عليه بما يدبره أبو الهدى الصيادي وصحبه ، فيزور الأستانة — مثلاً — الخديو
عباس ويريد مقابلة جمال الدين ، ولا يكون هذا إلا بإذن ، فيرفض السلطان ويأمر
جمال الدين ألا يقابله ، فيقول لرسول الخديو : « إني كضيف للسلطان أسير »

(١) الحداثان : نواب الدهر وتصاريفه . (٢) الحفيظة : الغضب .

لمُضيفي في منزله ، ولكني أذهب كل يوم إلى « الكاغدخانة » للتنزه ، فإن شاء أن يحضر الخديو إلى هناك فليفعل . فذهب الخديو وقابله على انفراد ، فأطرى الخديو السيد وأبدى له إعجابه به ، وحيّاه تحية لطيفة ، وهذا كل ما كان . فأطار الجواسيس إشاعات في الجو وملاؤا التقارير بأن جمال الدين قد تعاقد مع الخديو عباس على تأسيس دولة « عباسية » ، ووضعوا بيتين نسبوهما إلى جمال الدين هما :

شاد الخلافة في بني العباس عباسٌ لكن نعتُه السفاحُ
ولأنت خير بملك ستشيدها بالبشر يا عباس يا صفّاح^(١)

وقامت الدنيا وقعدت ، واستدعى السلطان جمال الدين وسأله ، فقال : إن الأمر بسيط ، فقد كتبت التقارير أنا كنا وحدنا وليس معنا ثالث ، فمن سمع هذا القول ؟ وهل إذا كان هذا الخبر صحيحاً أقوله أنا أو يقوله عباس ؟ ثم أقسم أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وأنه في حياته لم ينظم شعراً ، وانتهى الأمر ، ولو — في الظاهر — بعد جلبة طويلة ، وضجة مفتعلة .

وحدث أن الشاه ناصر الدين — الذي كان بينه وبين السيد الحصومة التي عرفنا — قد قُتل ، وكان القاتل أحد تلاميذ جمال الدين ، وعمن كانوا يزورونه في الآستانة ، ورؤي أنه عندما طعن طعنته قال : « خذها من يد جمال الدين » . ورؤي عن جمال الدين أنه لما بلغه ذلك قال كلمات تدل على الإعجاب بالقاتل ، فذلك كله أزعج السلطان عبد الحميد ، وخاف منه على حياته ، فضيق عليه في مقابلاته ومنع زيارته إلا بإذن ، فغضب جمال الدين وعزم على الرحيل من الآستانة ووعد بإعطائه التصريح بذلك من المفوضية الإنجليزية ، ولكن السلطان كان يخاف منه في الخارج أكثر مما يخافه في الداخل ، وهو تحت سمعه وبصره ، فاسترضاه ورجاه في البقاء واستعان بإثارة إباءه العار من الالتجاء إلى دولة أجنبية

(١) الصفاح : الكثير الغفو .

فَعَدَلَ . ثُمَّ حَلَّتْ الْمَشْكَلَةُ نَفْسَهَا بِمَرْضِهِ بِالسرطان في فمه ثم وفاته ، وشاعت الإشاعات المختلفة حول موته من إهمال مقصود في معالجته والاتفاق مع طبيب السلطان للتخلص منه .

وأيًا ما كان فقد مات وشيعت جنازته كأقل الناس — لم يسرف فيها إلا أفراد معدودون غلبتهم الجرأة والوفاء ، ودُفن كما يدفن عامة الناس ، ومُنعت الجرائد في الولاية العثمانية من تأييده .

— ٦ —

ما تعاليم السيد في كلمة ؟ وما أغراضه في جملة ؟
يقول لوثرروب ستودارد الأمريكي Lothrop Stoddard : « إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر في أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور كما كانت في قلب بطرس الناسك ، ولم يزل التعصب كامنًا في عناصرها ، وهي تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة .

« ومن أجل هذا يجب على العالم الإسلامي أن يتحد لدفع الهجوم عليه ليستطيع الدود عن كيانه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه^(١) أسباب تقدم الغرب والوقوف على عوامل تفوقه ومقدرته . »

ويقول « جولدزيهر » : « إن جمال الدين كان — كما يرى براون — فيلسوفًا ، كاتبًا ، خطيبًا ، صحفيًا ؛ وفوق ذلك كان سياسيًا ، يرى فيه محبوه وطنيًا كبيرًا ، وخصومه مُهَيِّجًا خطيرًا ؛ وكان له أثر بالغ في النزعات الشورية التي حدثت في عشرات السنين الأخيرة في الحكومات الإسلامية ، وكان يرمى إلى تحرير الممالك

(١) الاكتناه : الوصول إلى الكنه والحقيقة .

الإسلامية من السيطرة الأوربية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبي ، وإلى ترقية شئونها الداخلية بالإدارات الحرة المنظمة ؛ كما كان يرمى إلى جامعة تنتظم الحكومات الإسلامية ، ومنها إيران الشيعية ، لتتمكن بهذا الاتحاد من منع التدخل الأوربي في شئونها .

ويقول السيد جمال الدين عن نفسه : « لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفتني الأفغانى وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تنقف عقلى ، فأيران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب : من حجاز هو مهبط الوحى ، ومن يمن وتباعتها ونجد ، والعراق ، وبغداد وهارونىها ومأمونىها ، والشام ودهاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها ، وهكذا كل صُقع ودولة من دول الإسلام وما آل إليه أمرهم . فالشرق الشرق ؛ فخصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ؛ وتحريى دوائه ، فوجدت أقتل أدوائه داء انقسام أهله وتشعث آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف . فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم . »

ويقول الشيخ محمد عبده : « أما مقصده السياسى الذى قد وجه إليه كل أفكاره وأخذ على نفسه السعى مدة حياته — وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله — فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام على شئونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم العريزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده ، ويدخل فى هذا تقليصُ ظل بريطانيا فى الأقطار الشرقية . »

فيكادون كلهم يُجمعون على أن له غرضين واضحين :

(١) بث الروح فى الشرق حتى ينهض بثقافته وعلمه وتربيته وصفاء دينه ، وتنقية عقيدته من الخرافات ، وأخلاقه مما تراكم عليها ، واستعادة عزته ومكانته .

(٢) مناهضته الاحتلال الأجنبي حتى تعود الأقطار الشرقية إلى استقلالها مرتبطة بروابط على نحو ما ، لتتق الأخطار المُحدقة بها .

كان في حياته يحمل في يديه العلمين معاً ، فلما مات تفرق العلمان وتداولهما المصلحون بعدُ ، كلٌ منهم يحمل أحد العلمين — هذا أو ذاك — لا يجمع بينهما . فالشيخ محمد عبده — مثلاً — أكبر تلاميذه وأقدرهم ، خلفه في حمل العلم الثقافي لا السياسي . لقد تبين بعدُ أن اشتغاله بالسياسة في العروة الوثقى ونحوها إنما كان مدفوعاً إليه بقلب جمال الدين لا بقلبه هو ، ولذلك اقترح عليه بدل إنشاء الجريدة إنشاء مدرسة للزعماء كما تقدم . فلما استقل بنفسه كان عمله في بيروت عملاً تعليمياً صريحاً ؛ ولما عاد إلى مصر كان برّناجاً للتعليم والتثقيف بأوسع ما يستطيع وأتمّه ؛ ولذلك اقترح على أولى الأمر بعد عودته أن يعيّن ناظراً لدار العلوم أو أستاذاً فيها ، فخشوا من اتصاله بالتلاميذ لتاريخه الماضي ، وعينوه قاضياً أهلياً ليكونوا بمأمن من جانبه ؛ بل رأيناه يلعن في كتاباته السياسة وحروفها ومشتقاتها كراهية لها ، بل رأيناه يصرح بأن الواجب الأول على المصلح تثقيف الشعب وتهذيبه ، ثم الاستقلال يكون الخاتمة ؛ بل رأيناه يضع خطة إصلاحه بأن يتعاون مع الإنجليز ويصادقهم ، ويتفاهم معهم لينال منهم — بأقصى ما يستطيع — إعانتهم فيما ينشد من إصلاح داخلي تثقيفي . وهذا سبب ما كان بينه وبين « مصطفى كامل » والحزب الوطني من خصومة ؛ بل ربما كان هذا سبباً أيضاً فيما نلاحظه من بعض الفتور في العلاقة بينه وبين أستاذه السيد جمال الدين ، فقد كتب من مصر للسيد — وهو في الأستانة — كتاباً غفلاً من الإمضاء وتلميحاً لبعض الأشخاص من غير ذكر أسمائهم ؛ فهاج السيد وكتب إلى الشيخ محمد عبده جواباً من نار على هذا التصرف ، يؤنبه فيه على الجبن والخوف ، ويقول : « تكتب ولا تُمضي وتعتقد الألفاظ ؟ ... أمامك الموت ، ولا ينبجيك

الخوف . . . فكن فيلسوفاً يرى العالم العوبة ، ولا تكن صبياً هُلوعاً .
ولعل هذا آخر ما كان بينهما من تواصل .

وما كان بالشيخ محمد عبده من جبن ، ولكن الجسم للتهب يشعر بالجسم
المعتدل بارداً ، وقد كتب السيد جوابه هذا وقد ملكته الحدة ، وكم ملكته !
على كل حال اختط الشيخ محمد عبده لنفسه خطة اقتنع بها كل الاقتناع ،
وهي رفع أحد العلمين دون الثاني ، فأخلص لمبدئه ، وبذل في ذلك جهده وصحته
وعقله وماله ، واتجه إلى كل نواحي الثقافة يغذيها وينميها ويصلح بقدر ما يستطيع
إنسان أن يعمل .

أما الذين رفعوا العلم الآخر — علم مناهضة الحكم الأجنبي — فهم عبد الله
نديم ، ثم مصطفى كامل وفريد ، ثم سعد زعول ؛ فساروا على مثل دعوة السيد
جمال الدين ، مستخدمين ما استجد من أساليب ، وما استعمله الغرب من وسائل .
هذا في مصر ومثله في سائر أقطان الشرق ، من زعماء حملوا لواء الإصلاح
الثقافي ، وزعماء حملوا اللواء السياسي مما يطول ذكره ؛ وقد نعرض — فيما نكتب
بعد — لبعضه . ولو انتبه « السيد » اليوم من رقدته لحّد من الشرق سيرته ،
وإن كان أكبر الظن أنه يحتد عليه لبطنه ؛ فقد كان — رحمه الله — حاراً
حاد المزاج ، لا يرضيه من الإصلاح السير على الأقدام ولا ركوب القطارات ،
بل لا يرضيه بعض الرضا إلا ركوب الطائرات وحرب الدبابات . يقول الشيخ
محمد عبده في وصفه : إنه طموح إلى مقصده السياسي ، إذا لاحت له بارقة منه .
تعجل السير للوصول إليه ، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان . . . وهو شجاع
مقدام ، لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد^(١) المزاج ؛ وكثيراً ما هدمت
الحدة ما رفعته القفظة .

(١) حديد فيه حدة ، أي شدة واهتمام .

ثم كان أشبه الناس في سياسته بعلّ لا بمعاوية ، كانت سياسة معاوية عنوانها :
« إنا لا نصل إلى الحق إلا بالخوض في كثير من الباطل » . أما « على » فلا يريد
الخوض في الباطل ليصل إلى الحق ، بل لا يريد إلا الحق من طريق الحق ، وإلا
فلا كان . وهكذا كان جمال الدين . قال الشيخ محمد عبده : « ماذا كان يضر
السيد لو مهد لإصلاحه — وهو في الآستانة — بالسعى عند السلطان في إعطاء
أبي الهدى الصيادي خمسمائة جنيه ونيشاناً لابنه أو لأخيه ، فإذا رأى أبو الهدى
أن « السيد » يخدمه فيما أن يواتيه ، وإما ألا يناويه »^(١) ولكن أنى للسيد أن
يطلب هذا الباطل وهو يعتقد أن أبا الهدى سافل ذنىء إذا طلب له شيئاً فالشنق ؟
ولما كان السيد يحكى نخاصته إقناعه للسلطان بأن حادثة الخديو عباس
دسيسة ، وأن السلطان اقتنع بذلك ، وأخبره أن هذا من دسائس أبي الهدى ،
قال له عبد الله نديم : ليتك عندما صرح السلطان بذلك ذكرت له دسائسه وضرره .
فغضب عند ذلك جمال الدين ، وقال : « أعوذ بالله أن أكون من المنافقين ،
أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، أو أن أكون همّازاً مشاءاً بنميم »^(٢) .
وهكذا يريد الحق غاية ، ويريد الحق وسيلة ؛ والدنيا علمتنا أن سياسة
معاوية هي التي نجحت وأن سياسة الدنيا تقوم على المصالحة وأخذ شيء بترك
شيء . فمن أراد الحق كاملاً وإلا فلا ، فلينشد ذلك في المثل الأعلى للخلق
لا في السياسة ، أو فلينتظر حتى تخضع السياسة للخلق .

* * *

بقيت مسألة هامة في تاريخ السيد ، وهي اتهامه بالإلحاد ، وقد أشرنا إليها
من قبل . ولرمي السيد بالإلحاد تاريخ طويل ، فقد رمى به في الآستانة

(١) يناويه : يناوئه ، أى : يعاديه .

(٢) همّاز : يغمز ويميب . مشاء بنميم : يسمى بالوشاية ويشيع المعاييب .

عند زيارته لها أول مرة ، إذ خطب في دار الفنون خطبة ذكر فيها أن المعيشة الإنسانية أشبه شيء بيدن الحى ؛ وأن كل صناعة بمنزلة العضو ، فالملك كالخ ، والحدادة كالمضد ، والزراعة كالسكبد ... الخ ، ولا حياة للجسم إلا بالروح ؛ وروح المعيشة الإنسانية النبوة والحكمة .

فاتهموه بالإلحاد لهذا ، وشنعوا عليه بأنه يقول إن النبوة صناعة ، وشغبوا عليه ، حتى نصّح له بالخروج من الأستانة .

فلما جاء إلى مصر اتهمه بعض العلماء كالشيخ عليش وبعض العامة بالإلحاد ، والإلحاد في نظر هؤلاء وأمثالهم شيء هين . يكفي ألا يسير سيرتهم ، ولا يلبس لباسهم ، وأن يدخن السيجار ، ويجلس في المقهى ، ويلتف حوله بعض اليهود والنصارى ، ليحكموا عليه بالإلحاد . وكما أن عقيدة كل إنسان لها لون خاص ، فكذلك تصوره للإلحاد يتكيف بذهنه .

ثم لما ترجم سليم بك عنحورى للسيد جمال الدين في كتابه « سحر هاروت » رمى السيد أيضاً بالإلحاد فقال : « إنه برّز في علم الأديان حتى أفضى به إلى الإلحاد والقول بقدّم العالم ، زاعماً أن الجرائم الحية المنتشرة في الفضاء ترقى وتتحوّر^(١) إلى ما نراه من أجرام ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وهمّ نشأ عن ترقى الإنسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه هم المعقولات ... » الخ :

وقد قابله الشيخ محمد عبده وعاتبه على نشره مثل هذا القول من غير تحرّ وتدقيق ، فكتب سليم بك في الجرائد يصحح فيه قوله ، ويقول : إني قابلت الشيخ محمد عبده ، فأوضح بدلائل ناهضة وبراهين داحضة ، أن ما تتناقله الألسن من هذا القبيل ما كان إلا من آثار الحسد ، وأن السيد كان أثناء مناظراته الجدلية يشرح النحل والبدع وأقوال المعطلين شرحاً وافياً ، ثم يقيم الحجج على

(١) تتحوّر : تستدير

بطلانها ؛ فلعل سامعاً سمع منه هذا القول في مثل هذا الموقف فنسبه إليه ؛ وقال :
إنه لم يسمع من السيد هذا الكلام ، وإنما تلقاه عن بعض المصريين والسوريين .
ونقل كلاماً للسيد اطلع عليه في وجوب الدين ، وضرورة الاعتقاد بالألوهية ،
ومزايا الإسلام ؛ وختم مقاله بقوله : « إننا سارعنا لإذاعة هذا ، شأن المؤرخ
العادل ، وقياماً بحق الأدب ، وضناً بفضل هذا الرجل الخير من أن تناله ألسنة
من لا يعرفونه خطأ وافتراء . والله يتولى الصادقين » .

ثم رأينا ما اتهمه به « رينان » بعد ما جالسه في باريس فكتب كلمته
التي ذكرناها من قبل ، وهذا أدق موقف ؛ فرينان فيلسوف واسع الذهن
دقيق التعبير ، لا يلتقي الكلام على عواهنه ، خصوصاً وقد ورد في ردّ السيد جمال
الدين عليه ما يفيد أنه سلم للسيو رينان بأن الإسلام كان عقبة في سبيل العلم .
ولكن في رأي أن السيد عبر تعبيراً غير دقيق في تفرقة بين طبيعة الدين
الإسلامي وسيرة المسلمين ، خصوصاً أنه أخذ على رينان تقصيره في أنه لم يبحث
هل هذا الشر نشأ عن الديانة الإسلامية نفسها ، أو عن الصورة التي تصور بها
الإسلام ، أو عن أخلاق بعض الشعوب التي اعتنقت الإسلام ؟ وقراءتنا لرده
تشرنا بأنه وقع في هذا اللبس ، وأنه كان يدور حول فكرة أن للدين دائرة ،
وللعلم دائرة ، ويجب أن يسبح كل في دائرته من غير طغيان ، وأن الدين يجب
ألا يعارض العلم فيما ثبتت صحته علمياً — وهذه الآراء الواضحة في ذهننا الآن ،
والواضحة في تعبيرنا ، لم ترّد واضحة في رده ، فكان ردّاً مهوشاً ، كما كانت
محاضرة رينان نفسها كذلك .

وليس من شك في أن السيد كان حر التفكير قوياً على الجدل ، متشعب
طرائق الحجج ، فمن الممكن جداً أن يكون في مجالسه مع رينان تبجح^(١)

(١) تبجح : توسع وتبسط .

في بعض الأقوال التي من هذا القبيل ، والتي تحدث لكثير من كبار المفكرين في بعض اللحظات ، فحكم رينان عليه هذا الحكم الشامل خطأ .

ثم كان « السيد » ، كما يحكى عنه الشيخ محمد عبده وبعض خاصته ، متصوفاً يدين بعقيدة التصوفة ، وهي مبهمة غامضة تنتهي بوحدة الوجود ، والتعبير عنها قد يلتبس — إلا على الخاصة — بالإلحاد ، ومن أجل هذا رُمي محي الدين ابن عربي وأمثاله بالكفر لعدم الدقة في وزن الأقوال .

إن حياة « السيد » مملوءة بالدعوة الحارة إلى الدين ، وإلى التوحيد ، في كتاباته في « الرد على الدهريين » وفي العروة الوثقى ، وفي مجالسه الخاصة .

يذكر بعض خاصته أنه سمع رجلاً كبيراً تكلم كلمة في حق النبي . فأمر « السيد » من معه من الأفغانيين بضربه ، فضربوه حتى خرج يَرْحَف .

وحكى المخزومي مجلساً شهده ، إذ زار رجل جمال الدين في بيته في الأستانة وجرى الحديث فقال هذا الرجل : « إني قرأت كتب الفلاسفة فثبت لي أن الله غير موجود ولا يعتقد به إلا حيوان » . فضاق صدر السيد ولم يجبه ، ودعا الحاضرين إلى حديقة البيت وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج ، فتصايحت الديكة وغردت الطيور ، فقال السيد : « كيف لا يفضل أضعف حيوان أعجم يذكر الله إنساناً ناطقاً ينكر وجود الله ؟! كيف يجرؤ على إنكار واجب الوجود من يأكله الدود ؟! إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام فليتعظ بما تحته من رفات الأجسام ! » فخرج الرجل الملحد خجلاً من غير أن يؤدّع . لا يمكن أن تصدر هذه الكتابات وهذه الأقوال وهذه الغيرة من ملحد ، إلا أن يكون قد بلغ الغاية في البصنوع والنفاق . ولم يكن عيب جمال الدين نفاقه ، إنما كان عيبه إفراط في صراحته وعدم استطاعته كتمان ما يعتقد ، ويقول : « لا يكون الكمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم وقلّ كتمانهم » .

وأكثر متاعبه في الحياة كان سببه جهره بما يصح أن يكتم وإعلانه ما يجب أن يُسر ، فأخلاق مثل هذه تؤكد أنه لو كان السيد ملحداً يرى الحق والخير في الإلحاد لدعا إليه في صراحة وجرأة وشجاعة من غير ما مواربة ولا إيماء .

لقد كان يؤمن بالأصول ، ويترك لعقله الحرية في الفروع ، ويصل في ذلك إلى نتائج غريبة عن أذهان الجامدين التزمطين ، فيُزى بالإلحاد ؛ فكان ينفر من التقليد ويدعو إلى الاجتهاد ، ويذكر في مجلسه قول للقاضي عياض ويتمسك به راووه فيقول (السيد) : « سبحان الله ! إن القاضي عياضاً قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه ، وناسب زمانه . أفلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه وأصواب من قول القاضي عياض وغيره من الأئمة ؟ إذا كان القاضي عياض وأمثاله سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم ؛ فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا ؟ » ما معنى باب الاجتهاد مسدود ، وبأي نص سدّ ، أو أيّ إمام قال لا يصح لمن بعدى أن يجتهد ليتفقه في الدين ، ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه ١٩

« إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهدوا فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة من بحر ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده . »

ويرى أن التفرقة بين أهل السنة والشيعة أحدثتها مطامع الملوك لجهل الأمة ، وجميعهم يؤمنون بالقرآن ورسالة محمد ، فقيم الخلاف ؟ ولم القتال ؟ . ويقول . إن الأديان الثلاثة كلها أساسها واحد ، وإنما يوسع شقّة الخلاف بينها أئمة رؤساء الأديان بها .

وَيُفِيضُ فِي اشْتِرَاكِةِ الْإِسْلَامِ وَيُقَارِنُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اشْتِرَاكِةِ الْغَرْبِ ، فَيَرَى أَنَّ اشْتِرَاكِةَ الْغَرْبِ بَعَثَ عَلَيْهَا جَوْرَ الْحُكَامِ وَعَوَامِلَ الْحَسَدِ فِي الْعَمَالِ مِنْ أَرْبَابِ الثَّرَاءِ . أَمَّا الْإِشْتِرَاكِةُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْإِسْلَامِ فَلْتَحْمَةُ مَعَ الدِّينِ ، مُلْتَصِقَةٌ مَعَ الْخَلْقِ ، بَاعَثَ عَلَيْهَا حُبَّ الْخَيْرِ ، كَمَا فِي أَعْمَالِ عِمْرٍ وَأَبِي ذَرٍّ .

وَيَعْرِضُ فِي مَجْلِسِهِ لِلْحَدِيثِ عَنِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَالسَّفُورِ وَالْحِجَابِ فَيُطِيلُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ . وَخِلَاصَةُ رَأْيِهِ أَنَّ الْمَرْأَةَ فِي تَكْوِينِهَا الْعَقْلِيَّ تَسَاوَى الرَّجُلَ ، فَلَيْسَ لِلرَّجُلِ رَأْسٌ وَلِلْمَرْأَةِ نِصْفُ رَأْسٍ ، وَالتَّفَاوُتُ الَّذِي بَيْنَهُمَا لَمْ يَأْتِ إِلَّا مِنَ التَّرْبِيَةِ وَإِطْلَاقِ السَّرَاحِ لِلرَّجُلِ وَتَقْيِيدِ الْمَرْأَةِ لِلْبَيْتِ وَلِتَرْبِيَةِ الْجِيلِ ، وَمَهْمَتُهَا فِي هَذَا أَهَمُّ وَأَسْمَى مِمَّا يَقُومُ بِهِ الرَّجُلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الصَّنَاعَاتِ ؛ وَيَخْطِئُ مَنْ يَطْلُبُ مَسَاوَاةَ الرَّجُلِ بِالْمَرْأَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، فَلِكُلِّ وَظِيفَتِهِ ، وَعَلَى تَعَاوُنِهِمَا — كُلُّهُ فِي عَمَلِهِ — يَقُومُ الْمَجْتَمَعُ ، وَلَا مَانِعَ أَنْ تَعْمَلَ الْمَرْأَةُ فِي الْخَارِجِ إِذَا فَقَدَتْ عَائِلَهَا وَاضْطَرَّتْهَا ظُرُوفُهَا إِلَى ذَلِكَ ، وَلَكِنْ بِنَيَّْةٍ صَالِحَةٍ وَذِيلٍ طَاهِرٍ . ثُمَّ قَالَ : « وَعِنْدِي أَنَّ لَا مَانِعَ مِنَ السَّفُورِ ، إِذَا لَمْ يَتَّخِذْ مَطِيَّةً لِلْفُجُورِ » .

وَيَقُولُ : « إِنْ الدِّينُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَخَالَفَ الْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ ، فَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ الْمُخَالَفَةَ وَجِبَ تَأْوِيلُهُ . وَقَدْ عَمَّ الْجَهْلُ وَتَفَشَّى الْجُودُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَرَدِّينَ بِرَدَاءِ الْعُلَمَاءِ ، حَتَّى اتَّهَمَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ يَخَالَفُ الْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ الثَّابِتَةَ ؛ وَالْقُرْآنُ بَرِيءٌ مِمَّا يَقُولُونَ ، وَالْقُرْآنُ يَجِبُ أَنْ يَجِبَ عَنِ مَخَالَفَةِ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ خُصُوصًا فِي السَّكَلِيَّاتِ » .

وَالسَّيِّدُ وَاسِعُ الصَّدْرِ ، يَتَقَدَّرُ « شَبْلَى شَمِيل » فِي آرَائِهِ الْمُلْحَدَةِ الَّتِي جَاوَزَ فِيهَا مَذْهَبَ « دَارْوِين » ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقْدِرُهُ لَصْبَرُهُ عَلَى الْبَحْثِ وَجَرَائِئِهِ فِي الْجَهْرِ بِمَا يَمُنُّ عَلَيْهِ وَلَوْ خَالَفَ النَّاسَ . وَهَكَذَا وَهَكَذَا مِمَّا يَرَاهُ الْمُتَزَمِّتُونَ خُرُوجًا عَنِ الْمَأَلُوفِ ، فَمَا أَقْرَبَ مَا يَقْدِفُونَ بِكَلِمَةِ الْإِلْحَادِ ! .

سُنَّة مألوفة في الكون ، لا يأتي مصلح سابق لزمانه إلا رُمي بالزندقة أو الكفر أو الجنون ، ثم أودى بمن يسعى في الخير لهم ، ومن يضحي بسعادته لسعادتهم ، ولا يقدر حق قدره إلا بعد أن يهدأ الحسد بموته ، وتتجلى صحة دعوته بعد زمانه .

لقد قصدتُ الأستاذة سنة ١٩٢٨ بعد وفاته بإحدى وثلاثين سنة ، فرأيت واجباً أن أزور قبر هذا الرجل العظيم ، وأستعيد عنده ذكرى عظمته وسلسلة أعماله ، فسألت عنه الكثير فلم يعرفه ، ورأيت رجلاً أفغانياً يعمل خازناً لمكتبة الشهيد علي ، فوصف مكانه لي ، فذهبت مع صديقي « العبّادي » عصر يوم الأحد ٨ يوليه إلى « ماجقة » أو « متشكة » ، فوجدت في رُبوة على مدخل البوسفور مقبرة قد انتشرت فيها المدافن ، ودلنا شيخ المقبرة على مدفن السيد ، فعلمنا أن قبره كان قد تشعث ولم يُعَنَ به أحد ، وكادت تُضيع معالمه ، ولم يفكر فيه أحد من أهل الشرق الذين أفنى فيهم حياته ، إنما ذكره مستشرق أمريكي حضر إلى الأستاذة سنة ١٩٢٦ ونَقَب عن قبره حتى وجده ، فبنى عليه تركيبة جميلة من الرُخام ، وأحاطها بسُور من حديد ، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته ، وفي وجه آخر كتابة تركيية ترجمت لنا كما يأتي : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم ، الخير الأمريكاني المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦ » .

وقفنا على قبره ، وقلت : رقد هنا محيي النفوس ، ومحرر العفول ، ومحرك القلوب ، وباعث الشعوب ، ومزازل العروش ، ومن كانت السلاطين تغار من عظمته ، وتخشى من لسانه وخطوته ، والدول ذات الجنود والبنود^(١) تخاف من حركته ، والممالك الواسعة الحرية تضيق نفساً بحريته .

(١) البنود : الرايات .

هنا نأخذ من كان يشعل النار حيث كان ، في الأفغان ، في مصر ، في فارس ،
في باريس ، في لندرة ، في الآستانة .

هنا باذر بذور الثورة العرابية ، ومؤجج النفوس للثورة الفارسية ، ومحرك
العالم الإسلامي كله لمناهضة الحكومات الأجنبية ، والمطالبة بالإصلاحات
الاجتماعية . هنا من حارب الحكم الاستبدادي في مصر ، وناصر الدين في فارس
وانجلترا وفي باريس ، وحارب الجهل والامية والذلة في الشرق ، والجاسوسية
والنفاق في الآستانة ، ولم ينتصر عليه شيء إلا الموت .

لقد أجللناه وأعظمناه ، والتهبت نفوسنا لذكراه ، فكيف كان تحضره
ومرآه ، رحمه الله .

بعض أثر عنه :

جمع محمد باشا الخزومي بعض ما دار في مجالسه واستشار الأستاذ في اسمها ،
فقال : سمها « خاطرات » . فقال الخزومي : إن بعض الأصدقاء نهني إلى أن
هذه اللفظة غير صحيحة في اللغة ، والأقرب للصواب أن نسميها « خطرات »
أو « خواطر » فقال : قل « خاطرات » ولا تبال بمن فسد لسانهم ولا يصلحون
إلا للأجوف والمهموز ، ولا يحسنون جملة تنقُر حبة القلب أو تطرب السمع .

ولما جاء مصر أعجبه ترّ نامج الماسونية من دعوة إلى « الحرية والإخاء
والساواة » فانضم إليها ، وعرض عليهم في الحفل يوماً إعانة لأحد الإخوان ،
فسأل « الأستاذ » : هل الأخ مريض ؟ قالوا : لا . قال : هل هو صحيح البنية ؟
قالوا : نعم . فقال : « صحة البدن وذل السؤال لا يصح أن يجتمعا لإنسان » .

ولما أخرج من مصر ذهب بعض محبيه إلى السويس يحملون له مقداراً من
المال عرضوه عليه وسألوه أن يقبله قرضاً . فقال لهم : « أتم إلى هذا المال أحوج ،
والليث لا يعدّم فريسته حيثما ذهب » .

ولما استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الأستانة سنة ١٨٩٢ ووصل إليها ، كان في انتظاره الياور السلطاني ، فسأله : أين صناديقك أيها السيد ؟ فقال : ليس معي غير صناديق الثياب وصناديق الكتب . فقال الياور : حسناً ! أين هي ؟ فقال السيد : صناديق الكتب هنا (وأشار إلى صدره) ، وصناديق الثياب هنا (أشار إلى جيبته) .

وقد قال : « كنت أول عهدى أستصحب جُبة ثانية ، ولكن لما توالى النفي صرت أستثقل الجبة الثانية ، فأتيتك التي عليّ إلى أن تَخْلُقْ^(١) فأستبدل بها غيرها » . وكان يجالس السلطان عبد الحميد كثيراً ، فسئل عن رأيه فيه ، فقال : « إن السلطان عبد الحميد لو وُزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم : ذكاء ودهاء وسياسة ، خصوصاً في تسخير جلسه . . . ولا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام في ملكه من الصعاب من دول الغرب ، ويخرج المناوىء له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته ، مقتنعاً بحجته ، سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير . ولكن يالأسف عيب الكبير كبير ، والجن من أكبر عيوبه » .

وعرض عليه السلطان عبد الحميد منصب مشيخة الإسلام ، فأبى إلا أن يُعْمَلَ عمل أساسي يتغير به النظام الحاضر ، وقال : « إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذي راتب ، بل بصحيح الإرشاد والتعليم ، ورُبَّتْه ما يُحَسِّن من العلوم مع حسن العمل بالعلم »

وعاش جمال الدين عزَّاباً طويلاً حياته ، وكان كلما شكَّاه أحد كثرة العيال وقلة ذات اليد يعينه على قدر استطاعته ، فعرض عليه السلطان يوماً أن يزوجه جارية حسناء من قصر يلدز ، فامتنع السيد من ذلك ، فسئل : هل تؤيد رأى أبي العلاء :
هَذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدٍ

(١) تخلق : تبلى .

قال : كلا ، كيف يصح لعائل أن يعتبر الزواج جنائية وبه بقاء النوع واستكمال حكمة العمران ؟ أما أنا فعرفت بما تتطلبه الحكمة الزوجية من معاني العدل ، وعجزى عن القيام به ، دفعنى أن أتق عدم العدل ببقائى عزباً .

فقال له طبيب يهودى كان من خاصته : فهل تفادياً من الخوف من عدم العدل يجوز أن يخالف الإنسان طبيعته ؟ فتبسم السيد وقال له : « إن الطبيعة أحكم منك ، فهي تدبر نفسها ، ومن ترك شيئاً عاش بدونها . »

قيل له : إنك تقبل من السلطان عطاءه من المال ، فلم لا تقبل عطاءه من الجوارى الحسان ؟

قال : أما المال الذى يعطينيه فإنى أجد له — على قدر اجتهادى — أكفاه يقومون بأداء الواجب نحوه ، وأما الزواج بالجارية الحسناء فما أنا بالكفء لها ، ولست بوليها لأتحرى لها كوثها .

وكان السيد جمال الدين كثير الإعجاب بذكاء الشيخ محمد عبده وفضله . وكان كلما ذكره يقول : « صديق الشيخ » ، وكان السيد عبد الله نديم فى آخر أيامه يكثر من التردد على منزل جمال الدين ، فقال له يوماً : قد أكرت من الثناء على الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن لك صديق غيره ، وتنعت غيره بقولك صاحبنا ، و « فلان من معارفنا » فتبسم السيد جمال الدين وقال : « وأنت يا عبد الله صديقى ، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ أنه كان صديقى الضراء ، وأنت صديقى على السراء » فسكت النديم .

وكان جمال الدين يهزأ بمبدأ « داروين » الذى يُعَنَوَنُ « بتنازع البقاء » ، ويقول : إن المبدأ هو « تنازع الفناء » ويقول : إلى البقاء الذى ينبغى أن يطلب ولا يعتريه فناء ليس فيه تنازع ولا نزاع ، والتنازع القائم الآن إنما هو على أشياء تفنى ، والمتنزع والمنازع والمنزوع منه سواء فى المصير إلى الفناء ، فكان الأولى أن يقال : « تنازع الفناء » .

قيل له : وهل يُجَمِّع العالم المتمدن كله على مثل هذا الخطأ ؟
فقال : وما العالم المتمدن ؟ هل رأينا غير مدن كبيرة وأبنية شاهقة وقصور
مزخرفة ينسج فيها القطن والحرير بأصباغ كياوية مختلفة ألوانها ، ومعادن
ومناجم ، واحتكار تجارات أتت لهم بَرَوات ؛ ثم هل غيرُ التفنن في اختراع
المدافع المروعة والمدمرات والقذائف وباقي الخربات القاتلات للإنسان ، وتبارى
فيها تلك الأم الراقية المتمدنة النوم ؟

لو جمعنا كل تلك المكتسبات العلمية ، وما في مدنيات تلك الأم من خير ،
وضَعَفناه أضعافاً مضاعفة ووضعناه في كِفَّةٍ ميزان ، ووضعنا في الأخرى الحروب
وَوَيْلاتها ، وكانت كِفَّة العلوم والمدنية والتمدن هي التي تنحط وتَغُور ، فالرق
والعلم والتمدن على ذلك النحو إن هو إلا جهل محض ، وهمجية صرفة ، وغاية
التوحش ؛ فإلإنسان في ذلك أخط من الحيوان .

هل سمعت أن ثلثمائة ألف أفيى وقفت تجاهها مثلها وتقلبت بينها الأنياب
وقاتل بعضها بعضاً ؟ أو هل وقفت الأسود صفوفاً وتناهشت لحومها وسالت
دماؤها ؟ فليس ثمة مدنية ولا علم ، ولكن جهل وتوحش .

* * *

وللسيد جمال الدين كلمات حكيمة كان يقولها في مناسباتها .
كان إذا أقسم قال : « وعزة الحق وسر العدل » — الحقائق لا تزول
بالأوهام — من سَفِهَ الرأي أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمَشِيب
فقط — الفخر بالقول المجرد يبطله المجد بالفعل — لا يؤمن بِرُبُوبِيَّةِ القوة
إلا شبح الضعف — الأكفاء في العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء —
تطويل المقدمات دليل على سَقَمِ النتائج — من رَهَبَ الملوك لغير جَرِيرَةٍ فهو
الصُّعْلُوك — صاحب الحاجة إذا لم ينطبق بحاجته أولى بالخرَس — ألف قول

لا يساوى فى الميزان عملاً واحداً — إسراف الإنسان بصحته أضرت من إسرافه
بثروته — بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة — القبة الجوفاء لا ترجع
إلا الصدى — شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل — الأديب فى
الشرق يموت، حياً ويحيا ميتاً — قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام —
القوى من الشجر لا يعجل بالثمر — (اللغة) العربية وسعها البدو فى البرارى
والقفار ، وضيقها الحضّر فى المدن والأمصار — العلم قد يكون فى الأحداث ،
ولكن التجارب لا تكون إلا فى الشيوخ .

السيد أحمد خايم

(١٨١٧ — ١٨٩٨)

هو في الهند أشبه شيء بالشيخ محمد عبده في مصر بعد مفارقتة للسيد جمال الدين وعودته من نفيه ، الإصلاح عندهما إصلاح العقلية بالثقيف والتهديب ، والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر ، والاستقلال يأتي بعد ذلك تبعاً ؛ فلا استقلال لجاهل ولا مخرف ، إنما عماد الاستقلال العلم ، العلم بالدنيا وبالدين ، العلم بكل شيء أتت به المدنية الحديثة ، من طبيعة وكيمياء ، ورياضة وفلك ، ونفس واجتماع ، ونظام الحكم والإدارة ؛ ذلك كله إلى دين يحى القلب ولا يقيد العقل ، ويغذى النفس ولا يُشِلُّ التفكير ، والإسلام إذا فهم على أصوله كفيل بذلك ؛ فليس فيه ما يمنع الإنسان أن يصل في العلوم ونظم الدنيا إلى غايتها ، بل فيه ما يبعث على ذلك ويشجعه ، وفيه ما يحى القلب ، ويوجّه الإنسان في حياته وفي علمه وفي تفكيره إلى الخير . ثم كلاهما كان يرى أن السلطان في مصر وفي الهند في يد الإنجليز ، ولهم من القوة المادية من الأسلحة والذخائر في البر والبحر ، ومن القوة العلمية والسياسية ما لا تستطيع الهند ومصر مقاومته . قد يستطيعون المقاومة إذا اتحدوا ، ولكن كيف يكون اتحادهم مع جهلهم وضعف خلقهم ؟ بل كيف يكون ذلك مع فساد أصرائهم — إذ ذاك — وبحتم عن منافعهم الشخصية ولو على حساب الأمة ، — قالوا : إذا فالأولى مسألة الإنجليز والتفاهم معهم ، وأخذ ما نستطيع نلير الشعب منهم ؛ لنفهم الإنجليز أن عليهم واجب النهضة بالشعوب التي يحكمونها عقلياً كما ينهضون بها مادياً ، وأنهم مسئولون عن جهل الأمم التي يحكمونها ، كما أنهم

مستولون عن ققرها ، وأن العلم والثقافة وإنارة الأذهان في مصلحة المستعمر والمستعمر ، ولناخذ منهم ما نستطيع أن نأخذه من طريق الإقناع والمسالمة والمصالحة ، وما نأخذه نستغله في خير الشعوب وثقافتها خير استغلال ، والزمن — بعد — كفيل بإظهار النتائج .

ثم كلاهما عانى من المتاعب ما عانى الآخر من جهتين : فمسألة المستعمرين لا ترضى عادة — دُعاة الوطنية والاستقلال ، ويرون فيها خيانة . وقد يرى بعضهم أن لا مفاوضة ولا مطالبة ولا مسالمة إلا بعد الجلاء ، وكل من يطلب شيئاً دون هذا بائع لوطنه يستحق أن يهاجم ويُنتقد ويؤنب — ومن جهة أخرى هناك الطبقة الجامدة من العلماء التي ترى العلوم الحديثة التي أتت بها المدنية الأجنبية مفسدة ، والقول بأن قوانين الدنيا في الزراعة والاجتماع والصحة والمرض وكل شيء مبني على السبب والسبب كفر بالقضاء والقدر ، وإنكار سلطة المشايخ والأولياء والأضرحة زندقة . فهؤلاء وهؤلاء يشنون الغارة على مثل الشيخ محمد عبده والسيد أحمد خان ، فيختطونهم دعوتهم وسط هذه الأشواك الحادة . وقد يمدّ الأمراء دعاة الرجعية بوسائلهم للنيل إلى أقصى حد من المصلحين من هذا القبيل ؛ لأنهم نَقَمُوا عليهم الالتجاء إلى معونة الأجنبي دونهم ، ولو التجأوا إليهم — مع الأسف — ما نفَعُوم . كل ذلك كان في مصر وفي الهند ، لأن طبيعة الأشياء واحدة ، وقوانين الطبيعة لا تتخلف .

كانا على غير رأى السيد جمال الدين في الإنجليز والاحتلال ؛ كان السيد يكره الإنجليز ويشنع عليهم ما استطاع ، بحكم ما لقي منهم في الأفغان والهند ومصر وباريس ، حتى لقد عاتبه بعض أصحابه يوماً وقال له : إننا نراك عادلاً في حكمك على الأشخاص والأمم ، تذكر بالخير حسناتهم ، وبالشر سيئاتهم ، ولا نراك تفعل ذلك في الإنجليز ! قال السيد : « ليس من ينكر أن الإنجليز — كأمة —



السيد أحمد خان

من أرقى الأمم ، تعرف معانى العدل ، وتعمل بها ، ولكن فى بلادها ، ومع الإنجليز أنفسهم » ، ثم ذكر له ما فعلته فى الهند ومصر . ولخص رأيه مرة أخرى وقال : « إن الشرقيين تصرفوا فى أملاكهم وأراضيهم وبلادهم تصرف السفية المبذّر ، ثم قُضى عليهم أن يكون الحاكم لهم هو الغرب ، والغرب — فى الحقيقة — ليس من مصلحته إصلاح سيرة الشرق ولا منعه من السّفَه ، بل من أمانيه أن يتأدى الشرق فى غيته وإسرافه ، ليطول عهد الحجر عليه » . فلما كانت عقيدة جمال الدين هذا ، كانت سيرته فى حياته ما ذكرنا .

أما السيد أحمد خان والشيخ محمد عبده فيريان أن الإنجليز خصوم شرفاء معقولون ، يمكن التفاهم معهم ، وأخذ أشياء من أيديهم تدريجاً لمصلحة الأمة ، حتى إذا نَضِجت الأمة أمكنها الحصول على حقوقها كاملة ، حيث لا تستطيع أن تنال شيئاً منها مع الجهل والغفلة .



هو السيد أحمد خان ابن السيد محمد متقى خان من أسرة أرستقراطية نبيلة ، رحل أجداده من بلاد الغرب إلى هراة ومن هراة إلى دلهى فى عهد « أكبر شاه » . وقد ولد صاحبنا فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨١٧ ، وتوفى والده وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، بعد أن ثقفه ثقافة دينية على عادة أهل زمنه وبلده ، وقد جَرَتْ أسرته على عادة التخرج من الاتصال بالإنجليز وخدمتهم ، ولكنه خالف أهل بيته والتحق بخدمة الحكومة أميناً للسجلات فى القلم الجنائى هم دلهى ، ثم عين منصفاً (قاضياً مدنياً) فى « فاتح بور » من إقليم « أكرا » ثم منصفاً فى « بجنور » Bignaur ، وإذ هو فى هذا العمل فى هذه المدينة اندلعت نار الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ ، وقام الهنود بحركة عنيفة ، يخربون

السكك الحديدية ويزبحون الإنجليز حيثما وجدهم ، ويدمرون ما وصلت إليه أيديهم ، فكانت ثورة جائحة عنيفة أشد العنف ، وهاج الرأي العام على الإنجليز هياجاً شديداً . ولكن كان رأى السيد أحمد هادئاً متزاناً ، يخالف للرأى العام ، فرأى أن هذه الثورة لاتأتى بنتيجة ، وأن آخرة أمرها عودة الإنجليز إلى السيطرة ثانية من غير فائدة إلا ضحايا الطرفين ، وأن قتل الإنجليز — وخاصة المدنيين — عمل غير إنسانى . لذلك وضع خطة بذل فيها الجهد مع بعض أصدقائه لحماية الإنجليز من القتل ، وإنجاء من تصل إليه أيديهم منهم ، فنجوا على يده ويد أصدقائه كثير ، وضحى فى ذلك بالكثير من ماله وباضطهاد أقاربه ، حتى لقد طعن بعضهم بالخنجر بيد الثائرين ، وماتت أمه لهول الصدمة من وقع هذه الحوادث الأليمة . فلما هدأت الثورة عرف له الإنجليز فضله ، وحفظوا له جميله ، وكافاه مادياً وأدبياً . ومن ذلك الحين توثقت الصلة بينه وبينهم ، فاستخدمها فيما وضع من خطة إصلاح .

ومع هذا فقد وضع رسالة فى أسباب هذه الثورة باللغة الأردية وترجمت إلى الإنجليزية كان فيها قاضياً منصفاً ، لم يتحيز فيها للهند ولا للإنجليز ، ولم يرغ فيها عداوة عدو ولا صداقة صديق ، فرد على بعض الجرائد الإنجليزية فيما ذهبت إليه من أن الثورة سببها تهيج الأفغان أو الروس للهند ، وتدير المؤامرات والدسائس منهما ، وعد ذلك سخافة من القول لا قيمة لها ، وأن حركة الثورة حركة شعبية صادرة من صميم الشعب ، سببها أن كثيراً من المآسى يشعر بها الشعب من سنين ، ثم لاتصل إلى السلاطات العليا ، ولاتعلم بها حتى تعالجها ؛ فبينما الحكومة من جانبها تتبع خططها المألوفة من جهل سعيد بما يدور فى أذهان الشعب وما يشعر به من آلام ، إذا بالشعب من جانبه يتهم الحكومة بعلوها بمآسيه وسوء القصد فى تصرفها . كما أن الشعب يعتقد أن الحكومة تتدخل فى عقائده وشعائره الدينية ، وتؤيد —

ولو في الخفاء — حركات التبشير في البلاد .. إلى آخر ما ذكر من أسباب كان فيها صريحاً مخلصاً يقول ما يعتقد .

* * *

على كل حال إنما يهمننا منه دعوته إلى الإصلاح وعمله في سبيله .
لقد نظر فرأى أن بالهند نحو سبعين مليوناً من المسلمين فشا فيهم الفقر والجهل والبؤس والقلق ، من تعلم منهم فتعلم ديني عقيم ، لا يفتح نظراً ولا يبعث حياة . وهم خاضعون لرجال دين لا يفهمون من الدين إلا رسمه ؛ يريدون أن يخضعوا المدنية الواسعة لعقليتهم الضيقة ، ولا يعترفون بتغير زمان وتلاؤن حياة ، وتقدم علم ، يعيشون في ركود والعالم حولهم مأبج ، يرون أن المدنية الحديثة بعملها ونظمها ووسائلها ومقاصدها مدنية كفر لا يصلح للمسلم أن يستمد منها ولا أن يتعاون مع أهلها ، وإنهم إذا فتحو صدورهم لها أحاطت عقائدهم وأجرجتهم من دينهم . في كل بلد أو إقليم « مُلّا » ، وهذا الملا أو العالم الديني يتسلط على عقول أهله ، فإذا فتح المبشرون مدارس حرّم هؤلاء العلماء على المسلمين أن يرسلوا أبناءهم إليها ، ثم لا يفتحون هم مدارس مثلها ، بل إذا فتحت الحكومة مدارس فكذلك يحرمونها على أبناء المسلمين ؛ والمهندوس يرسلون أبناءهم إلى هذه وتلك فينتقفون ويصاحبون للحياة ويشغلون المناصب الحكومية ، والمسلمون بمعزل عن الوظائف ، لأنهم في مدارسهم الدينية البدائية بمعزل عن الحياة . فالمدارس مملوءة بالنصارى والوثنيين ، وفيها القليل النادر من المسلمين ؛ وكانت نتيجة هذا أن أعمال الحكومة المتنوعة — وخصوصاً المناصب الكبرى منها — أصبحت وليس في يد المسلمين منها إلا ما ندر .

وحركات الإصلاح الديني التي قام بها بعض رجال الدين كانت دعوات

سلبية أو قليلة القيمة العملية . ففي سنة ١٨٠٤ قام الحاج شريعة الله يؤلف حزباً إصلاحياً قوامه أن صلاة الجمعة لا تصح في الهند لأنها ليست دار إسلام ، ولذلك سمي حزبه « جماعة اللاجمعة » وما أكثر ما أخذت هذه المسألة من تفكيرهم ووقتهم ، وخلافهم وجدلهم ، ودخل فيها الملايين من مسلمي بنجاب .

وجاء مصلح آخر اسمه كذلك « السيد أحمد » (١٧٨٢ — ١٨٣١) فحج واعتنق مذهب ابن عبد الوهاب ، وجاء إلى الهند داعياً بدعوته من تحريم زيارة الأضرحة والشفاعة بالأولياء ونحو ذلك مما ذكرنا قبل ، وزاد على ذلك دعوته أن الهند دار حرب لا دار إسلام ، وأن الجهاد فيها واجب على المسلمين ، فاصطدم هو وأتباعه بالحكومة الإنجليزية ، وكانت خصومة ، وكانت ضحايا ، ولم تكن هناك نتيجة ذات قيمة .

لم يعجب السيد أحمد خان هذا كله ، وتساءل في حزم : ما علة هذا الجهل وضيق العقل والفقر وسوء الحال ؟ وأجاب في حماسة : إنه التربية . ومن ذلك الحين ابتداء يضع منهج التربية التي يريد بها . وصادف ذلك أن ثورة سنة ١٨٥٧ كشفت لعقلاء المسلمين في الهند حالهم ووجوب تغيير موقفهم ، وشعورهم بتخلفهم عن الطوائف الأخرى ، فتنغم تفكير « السيد أحمد » واستعداد الرأي العام المتنور ، فأنتج هذا التناغم حركة إصلاح تعد نقطة تحول في تاريخ المسلمين في الهند .

قال لقومه يوماً : « انظروا إلى إنجلترا ، لقد كانت ثروتها تتمشى يوماً فيوماً مع تربيتها ، كلما زادت تربيتها زادت ثروتها ، وقد كانت منذ قرن وأمامها من العقبات والصعاب التي تعوق التربية أكثر مما عندنا ، ولم يكن لها إذ ذاك سكك حديدية ولا آلات ميكانيكية للطباعة ولا نحو هذا ، إنما كان لها سعة نظر وقوة إرادة .

« لو أن الهند سنة ١٨٥٦ كانت تعرف العالم وتعرف قوتها وقوة خصها

من الإنجليز ، وتزن الأمور بميزان صحيح وتترك نتائج الأمور ، ما حدثت الحوادث الأليمة التي حدثت سنة ١٨٥٨ — ألا إن الجهل سبب لكل شر .
وأول ما بدأ به خطته في التربية إنشاؤه جمعية أدبية علمية في عليكره — حيث كان قاضياً بها سنة ١٨٦١ — كان الغرض منها نشر الآراء الحديثة في التاريخ والاقتصاد والعلوم ، وترجمة أهم الكتب الإنجليزية في هذه الموضوعات ، إلى اللغة الأردية . وقد كان يرى أن تعلم هذه العلوم باللغة الإنجليزية لا يكفي إلى في تثقيف عدد قليل لا يُجْزَى^(١) ، إنما الذي يفيد فائدة كبرى نقل هذه العلوم إلى لغة البلاد حتى يشترك في تفهمها والاستفادة منها أكبر عدد ممكن ، ولذلك كانت خطته التي بدأ بها وسار عليها ، نقل هذه الكتب الهامة من اللغة الإنجليزية إلى الأردية ، ولم يمنعه إعجابه بالإنجليزية ولغتهم وثقافتهم من أن يكون صلباً حازماً شديداً في طلبه نقل الكتب الإنجليزية للشعب ، لا نقل الشعب للغة الإنجليزية .

ولكن سرعان ما هاج عليه الرجعيون والمتزمتون من رجال الدين ، يتهمون بإفساد العقول وإفساد الدين وإفساد الوطنية ، واشتباك في حرب عوانٍ معهم ، انتهت بانتصاره بوضعه الحجر الأساسى لكلية فيكتوريا بغازى بور .

وحدث حادث كان له أكبر الإثر في إصلاحه ، ذلك أنه في سنة ١٨٦٩ ، وهو في نحو الثانية والخمسين من عمره ، تقرر إرسال ابنه « محمود » إلى إنجلترا — عضو بعثة — فاتهزها « السيوا أحمد » فرصة وسافر معه ؛ وحدث له على السفينة طرائف رويت عنه ، من أحاديث في الدين تحدث بها مع أصدقائه من الإنجليز تدلّ على غيرته على الإسلام مع سعة عقل ، وابتهج حين مروره على شاطئ جزيرة العرب لأنها مبعث النجاسة .

(١) يجزى : يكنى .

نزل إنجلترا وقابل كثيراً من عظمائها ، منهم توماس كارليل ، وقد حدثه « السيد » طويلاً في محمد صلى الله عليه وسلم ، ولعله كان لذلك أثر محمود في كتابة « كارليل » الفصل البديع عن محمد البطل في كتابه « الأبطال » . وأخذ « السيد » يدرس نُظُم التربية في إنجلترا ، ولفت نظره تربية الإنجليز للشعب أكثر مما لفت نظره تربيتهم للخاصة من المتعلمين . لقد دوّن إعجابه بخدمة المنزل تقرأ وتكتب ، وبربة المنزل لها رأى في السياسة العامة . وبالحوذى يقرأ الجريدة ويحتفظ بها ليتم قراءتها عند انتظار راكب . ونادى إذ ذاك بفكرته المتغلبة على ذهنه قائلاً : « إن الذين يريدون إصلاح الهند الحقيقي يجب أن يجعلوا نصب أعينهم نقل العلوم والفنون والآداب الأوربية إلى لغة البلاد الأصلية ، وأحب أن يكتب هذا الرأى بأحرف كبيرة جداً على جبال الهملايا لتذكره الأجيال القادمة . إن تقدم الغربيين إنما جاء من أنهم عالجوا الآداب والعلوم بلغتهم ، ولو كانت العلوم والفنون تعلم في إنجلترا باللغة اللاتينية أو اليونانية أو العربية أو الفارسية لظلوا جاهلين جهل الهند فما لم نهضم العلوم والفنون ونمثلها بلغتنا فسنظل في حالتنا السيئة » .

ولعل قارئ هذا يطفر ذهنه — إذا قرأ هذا النداء — إلى حالة البلاد العربية ، ويقول كما قال « السيد أحمد » : ما لم تتوحد اللغة العربية والعامية في الأم العربية وتنتقل العلوم والفنون إلى لغة الناس التي يتكلمون بها في بيوتهم وشوارعهم ومعاملاتهم وسمهم ، فلا أمل في إصلاح حقيقى . ورحم الله أستاذى « على بك فوزى » فقد زرتة في الأستاذة وجلست معه جلسات طويلة ، أستفسر فيها عن ثورة تركيا وتأثيرها ومحاسنها ومساوئها ، فقال لى مرة : « حبذا لو تعلمتم التركية ، لا لأن أديها رفيع المقام ، ولكن لتزوا كيف استخدم الأتراك لغتهم وآدابهم لإصلاح عقولهم وشئونهم » : وعقب على ذلك فقال : « لا أمل في إصلاح مصر ما دام هناك لغة للعلم ، ولغة للكلام ، فيما أن ترقى لغة الكلام ، وإما أن تنحط

لغة العلم حتى يتّحدا ، وحينئذ فقط يكون التفكير الصحيح والرقى الشعبي .
وكتب مرة أقدم أديبا مصرياً كبيراً لشرق كبير ، فسألني سؤالاً غريباً :
هل هو يكتب للخاصة أو للعامة ؟ فقلت : للخاصة ؛ قال : ومن من الأدباء
يكتب للشعب ؟ قلت : لا أحد . قال : وأسفاه !

واهتم « السيد أحمد » بدراسة نظام التربية في المدارس الشعبية وفي الجامعات
الإنجليزية ، وكان مما قاله : « إن الطفل في مدارس إنجلترا يتربى ويتثقف ،
وأما في مدارس الهند فيتعلم ، وشتان بين التربية والتعليم ، وإن الشباب
في الجامعات الهندية يفقد أخلاقه بسكناه في أوساط المدن مع المغريات المتعددة ،
كما أنه ليس في هذه الجامعات عناية بالأخلاق والآداب والدين ؛ وأسأتذتها
ومدرسوها يعتقدون أن واجباتهم تنتهي بانهاء دروسهم ؛ وآمال الشبان ومطامعهم
محصورة في وظائف حكومية ، ومن غير تفكير في واجب لأنفسهم ولا لأمتهم . »
يجب تغيير كل ذلك ، ووضع منهج لمسلمي الهند غير المنهج الذي
يسرون عليه .

عاد « السيد أحمد » من إنجلترا وهو عاقد العزم على إصلاح حال المسلمين
في الهند عقلاً ودينياً ولغة وخلقاً واجتماعاً ، سواء في ذلك خاصتهم وعامتهم ، مصمم
على أن يغزو الجهل والجمود بكل ما يستطيع من قوة ، وأن يحمل المسلمين بكل
الوسائل على أن يتقبلوا المدنية الحديثة في علومها وفنونها قبولاً حسناً ، ويستخدموها
في ترقية حياتهم ؛ وأن يبذل الجهد في التوفيق بين الإسلام والمدنية ، فالإسلام
في جوهره وأصله معقول واسع الصدر لأحكام العقل ، غير مناهض لما يثبت العلم ،
فإذا نقي مما لحقه ، وليس منه ، أمكن أن يقبل المسلمون على العلم الحديث من
غير حرج .

جعل من أول خطته بعد عودته أن ينشئ في الهند جامعة تكون للمسلمين
كأكسفورد وكبريدج في إنجلترا، تُربى الخاصة، ثم هم يربثون العامة؛ وما زال
يُكثِّد ويسعى ويجمع المال ويكافح العقبات توضع في سبيله، وأخيراً فاز بإنشاء
كلية عليكره المشهورة، وحدد لها أغراضاً ثلاثة :

- ١ — أن تعلم المسلمين الثقافة الغربية والشرقية في غير تعصب ولا جهود .
- ٢ — أن يُعنى فيها بحياة الطلبة الاجتماعية، فيجدوا فيها سكناً يقيمهم شرور
المدن ومفاسدها، فيطمئن الآباء — حين يرسلون أبنائهم إليها — إلى أنهم في بيئة
صالحة لخلقتهم، مرقية لأدابهم .

٣ — أن يُعنى في نظام الكلية بتربية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق
معاً، وبعبارة أخرى يكون الغرض منها « التربية » لا التعليم فقط .
وتم بناؤها واستقبلت طلبتها تعلمهم على المنهج الذي اختطه، ونجحت في
خلق جيل من المسلمين جديد مثقف ثقافة واسعة، مع سعة في العقل وسماحة في
الدين؛ وانتشر خيرٌ يجرها في أقطار الهند يحملون رسالة جامعتهم ويضيئون ما حولهم،
وأصبحت كلمة « عليكره » لا تدل فقط على كلية أو جامعة، وإنما تدل أيضاً على
نوع من العقلية الراقية، والصِّبغة الخلقية والاجتماعية الخاصة .

لقد أخذ الوطنيون المسلمون على خيرٍ يجي هذه الجامعة وطلبتها أنهم لا يشتركون
في الحياة السياسية مع فضلهم، وسعة عقولهم وغزارة علمهم، حتى إنهم لا يضربون
يوم تضرب الجامعات الإسلامية لغرض سياسي، ولكن هذه الصِّبغة هي التي
صبغ بها « السيد أحمد » طلبته، إقبالاً على العلم وبعده عن السياسة .

فلما فرغ من هذه الجامعة أخذ يعمل في اتجاه آخر، فأنشأ مجلة دورية سماها
« تهذيب الأخلاق » عالج فيها المشاكل الاجتماعية والدينية في جرأة وصراحة،
وأخذ يفسر القرآن، ويدعو إلى أن القرآن — إذا فهم فهمًا صحيحًا — اتفق

مع العقل ، وأن النظر الصحيح فيه يوجب الاعتماد على روحه أكثر من الاعتماد على حرفيته ، وأنه يجب أن يفسر على ضوء العقل والضمير .

وتطرق أكثر من ذلك ، فقال : إن الوحي كان بالمعنى دون اللفظ ، ذاهباً في ذلك مذهب بعض علماء المسلمين المتقدمين الذين حكى قولهم الشيوطي في الإتيان ، إذ قال : « وذكر بعضهم أن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة ، وأنه صلى الله عليه وسلم علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب » ، وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك » (١) .

إذ ذاك هاج عليه كثير من رجال الدين ، وهيجوا عليه العامة ، وتعرضت حياته للخطر ، وأراد أحدهم أن يقطعنه مرة بخنجر فنجأ منه بأعجوبة ، ومع هذا ظل ثابتاً جريئاً في دعوته كما هو لم يتزحزح ، ولم يدأج ولم يمار (٢) . بل ربما كان بعد ذلك أقوى وأصرح فيما يقول وما ينشر ، لا يعبأ بنقد ولا تهديد بقتل ، ولا بأى ضرب من ضروب التخويف .

وكما كانت ناحيته الدينية جريئة خطيرة ، كذلك كانت ناحيته السياسية ، فكان يرى أن الغرض الذي يجب أن يرمى إليه السياسي الهندي هو أن تكون الهند كلها أمة واحدة ، وأن الإسلام والهندوكية والنصرانية يجب أن تكون عقائد دينية في نفوس معتنقيها فقط . وهذه العقائد كلها يجب ألا تؤثر في الوطنية ؛ فيجب أن يكون لكل طائفة عقيدتها الخاصة بها ، أما وطنيتها فتكون عامة تشترك فيها كل الطوائف . أما النزاع الطائفي الديني ، والنزعة إلى تقسيم الهند على حسب الأديان ونحو ذلك ، فكلها أفكار باطلة ، وليس يؤدي إلى الاستقلال الحق إلا حصر الدين في العقيدة ، وتعميم الشعور بالوطنية بين كل الأفراد وفي كل الملل ،

(١) وردت هذه العبارة في الإتيان ص ٤٤ من الجزء الأول — المطبعة الكسطينية .

(٢) يداجي : يداري . يماري : يهادل ويبتازع .

وقال : « في قطر كالمهند تتقسم الطبقات ، وتتوزع النزعات الدينية الحادة ، ولم تنشر فيه التربية الصحيحة التي تعد الناس كلهم سواء في الحقوق والواجبات ، أرى ، بل أعتقد أن الانتخاب والتمثيل في شتى المجالس ضرره أكبر من نفعه . »
ولهذا رفض أن يشترك في المؤتمرات السياسية والأحزاب على اختلاف ألوانها ، فأغضب رجال السياسة كما أغضب رجال الدين ، ولم يعبأ بهؤلاء ولا هؤلاء .
ووجه كل هم في أحب الأعمال إليه ، من اشترك في المجلس الأعلى للتعليم ، والمجلس الأعلى للخدمة الاجتماعية ، والإشراف على سير كلية عليكره .

ثم كانت له فكرة عظيمة نافعة ، وهي أن يجمع مؤتمراً كل عام يجتمع فيه قادة المسلمين من الأقاليم الهندية المختلفة ، كل عام في مدينة ، يلقون فيه الخطب والمحاضرات عن الشؤون الإسلامية وأمراض المسلمين وعلاجها ، ويصدرون القرارات التي يرونها نافعة في ذلك . وكان الغرض الذي يرمى إليه « السيد » بث روح الائتلاف بين المسلمين في البلاد الهندية ، وتبادل الآراء في خير الوسائل لترقيتهم ، والتعاون على الأعمال المفيدة من إنشاء المدارس أو النهوض بها أو نحو ذلك . وقد نُفذت الفكرة ونجح المشروع ، ورأس « السيد » المؤتمر خمس سنوات قبل أن يتوفاه الله ، ثم استمر يجتمع بعد حياته برئاسة بعض أصحابه وأتباعه .
لقد سيطرت روحه على المؤتمر في حياته وبعد مماته ، وهي روح تدعو إلى الهجوم على المدنية الغربية ، وأخذ كل شيء بحسن فيها ، وخصوصاً العلوم والآداب « إن النور اليوم يأتي من الغرب بعد أن كان يشرق من الشرق ، فيجب أن نأخذ من أوربا علومها ومدنيتها ، ونسير مع الزمان في مضمار الحياة العصرية ، وذلك لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ، إنما يفقدهم ذلك الجهل لا العلم » ، « إن التعليم كان في الزمن الماضي دينياً محضاً ، لا يعبأ بالدنيا وما فيها ، وقد تطرف في الأولى وأخل بالثانية ، فحبذا الجمع بين الدين والدنيا » . « إن العلم

أَتَمَّذْ شَكْلًا جَدِيدًا ، فلم تَصُدْ طَبِيعِيَّاتِ أَرِسْطُو ، ولا نَظَرِيَّاتِ ابْنِ سِينَا ، ولا جَبَرِ الْخِيَّامِ ، ولا كِيَمِيَاءِ جَابِرِ بَكَاةٍ ، وَهِيَ لَا تَصْلُحُ لِلدِّرَاسَةِ إِلَّا مِنَ النَّاحِيَةِ التَّارِيخِيَّةِ .

وَاهْتَمَّ الْمُؤْتَمَرُ بِالتَّرْبِيَةِ وَشُؤْنِهَا ، يَنْتَقِدُ التَّعْلِيمَ وَمَنَاجِجَهُ وَيَقْتَرِحُ الْإِصْلَاحَ ، وَيَضَعُ نُصْبَ عَيْنِهِ كَلِيَّةً عَلَيْهِ كَرِهَ « حَتَّى تَصِلَ إِلَى دَرَجَةٍ تَسَاعِدُ عَلَى تَرْقِيَةِ النَّشْءِ وَتَهْذِيبِهِ ، وَحَتَّى تَصِلَ إِلَى دَرَجَةٍ تَكُونُ فِيهَا مَنَبَعُ الْعُلُومِ وَمَحَطُّ الرِّحَالِ لِلطُّلُبَةِ مِنْ جَمِيعِ الْأَقْطَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْبَعِيدِ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَنْبَغَ فِيهَا أَمْثَالُ ابْنِ سِينَا وَابْنِ رُشْدٍ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْعُلَمَاءِ السَّابِقِينَ ، يَنْشَأُونَ فِي مَهْدِ الْعُلُومِ الْحَدِيثَةِ ، وَيَبْحَثُونَ فِيهَا وَيَنْهَضُونَ بِهَا ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ النَّاشِئِينَ بِمُسَاعَدَةِ الْمُبَاحِثِ وَالتَّجَارِبِ الْكِيَمِيَاوِيَّةِ وَالطَّبِيعِيَّةِ وَالْفَنُونِ الْمَصْرِئَةِ وَالْقَوَاعِدِ الطَّبِيعِيَّةِ يَعِيدُونَ لَنَا سَالِفَ مَجْدِنَا الْقَدِيمِ ، فَيَكُونُ فِيهِمْ ابْنُ مُوسَى جَدِيدٌ يَخْتَرِعُ آلَاتَ جَدِيدَةٍ ، وَطُوسِيٌّ آخَرٌ يَكْتَشِفُ كَوَاكِبَ وَيَحْدُدُ دَوَائِرَهَا وَيَضَعُ كِتَابًا فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ الْحَدِيثَةِ ، وَهَكَذَا .

« وَالَّذِي نُرِيدُهُ أَنْ يَنْشَأَ أَوْلَادُنَا فِي عَالَمٍ مِنَ الْحُرِّيَةِ بَعِيدِينَ عَنِ الْمَضَارِّ وَالْأَوْهَامِ الْفَاسِدَةِ وَالْعَادَاتِ السَّخِيفَةِ الَّتِي تُحَيِّطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ » .
عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ ، فَإِذَا شِئْتُمْ أَنْ تَتَعَلَّمُوا وَتَسْتَفِيدُوا فَانْسَلَخُوا مِنْ كَثِيرٍ مِنْ عَادَاتِكُمُ الْقَدِيمَةِ وَأَخْلَاقِكُمُ الْوَحْشِيَّةِ ، وَاهْتَدُوا بِنُورِ الْعِلْمِ فِي طَرِيقِ حَيَاتِكُمُ الَّتِي تَسِيرُونَ فِيهَا .

« يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَشَارِكُ الْأُمَمَ الْغَرِبِيَّةَ فِي مَعَارِفِهِمْ وَأَنْ نَزَاحِمَهُمْ فِي مَسَاعِيهِمْ بِالْمَنَاقِبِ وَالْأَقْدَامِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُونَهَا لِكَسْبِ عِلْمٍ أَوْ اخْتِرَاعٍ عَمَلٍ ، وَلَا مُنْقِذَ لَنَا مِنْ بَرَأَيْنِ^(١) الْفَقْرِ وَمُخَالَابِ الْجَهْلِ إِلَّا اقْتِطَافُ عُلُومِهِمْ وَإِدْخَالُ مَدَنِيَّتِهِمْ ،

(١) الْبَرَائِنُ : هِيَ السَّبَاعُ وَالطَّيْرُ بِمَزَلَةِ الْأَصَابِعِ لِلْإِنْسَانِ .

ليكون هناك شيء من التكافؤ بيننا وبينهم ، حيث لا حافظ لنا من الهلاك في هذا المزدحم الشديد إلا التكافؤ .

هذه أقوال من أقوال أصحابه وأتباعه الذين حملوا الراية بعده في المؤتمر الهندي الإسلامي ، وكلها من روحه ومستمدة من تعاليمه^(١) .

لقد ظل حياته يكافح في سبيل المسلمين في الهند كفاحاً شديداً ، وهو صابر على رميه بأشنع التهم من كفر وإلحاد وفقدان وطنية ، وأنه آلة إنجليزية ، شجاع في مقابلة كل ما يقف في سبيله يجتاحه اجتياحاً ، يرى أن المسلمين مَرْضَى لا يشعرون بمرضهم إلا إذا ذاقوا طعم العافية ؛ فقراء لا يشعرون بفقرهم وسوء مسكنهم وغذائهم إلا إذا أكلوا الطعام الهنيئ ، وناموا على الفراش الوثير^(٢) في المسكن الفسيح ، فعَمِلَ على أن يذوقوا العافية والغنى ليدركوا ما كانوا عليه من مرض وققر ، وكذلك كان .

فقد رأى مسلمو الهند ناشئة جديدة عاقلة مفكرة مهذبة تصلح للحياة ، ورأوا كلية عليكره تُنتج في البلاد حركة فكرية بديعة ، وتؤلف الكتب القيمة في أسلوب جديد قويم ، وأخذت الحياة تدب بين المسلمين بعد خمودها ، فأمنوا إذ ذاك بأن « السيد أحمد » مصدر نعمة وبركة ، لا كارثة ونقمة ، وإن اختلفوا معه في بعض آرائه .

ثم كانت له جولة إصلاح عظيمة في اللغة الأُردِيَّة ؛ لقد كانت هذه اللغة قبله كاللغة العربية في عهد الظلام : عشق وغرام ومديح ، وأسلوب منركش الظاهر فارغ الباطن ، فنقلها إلى آفاق واسعة ، وأصبح من موضوعاتها السياسة والاجتماع

(١) انظر طائفة كبيرة من خطب المؤتمر نشرت في جريدة المؤيد سنة ١٩٠١ وستة ١٩٠٢ .

(٢) الوثير : اللين .

والأخلاق والدين والتاريخ والأدب في أسلوب متين فيه القوة والسلاسة والصفاء والسعة ، غزير المعنى ، خال من التصنع .

لقد بدأ « السيد » حياته في اللغة الأردنية شاعراً . فكان شاعراً عادياً لم يلفتِ النظر إليه ، فلما اتجه إلى النثر ملك ناصيته وفتح فيه فتحة مبيناً ، وبدأ ذلك في جريدته التي أنشأها وسماها « سيد الأخبار » ؛ فلما أنشأ بعدُ جريدة « تهذيب الأخلاق » بلغ في ذلك الغاية . واثمَّ به كثير من الكتاب وأصحاب الجرائد ، فعالجوا بهذه اللغة موضوعات لم تكن تعالج فيها من قبل ، وبذلك أخذ الأدب الأردني يشق طريقه إلى التقدم . يقول هو في ذلك :

« لم آلهُ جُهداً^(١) في ترقية العلم والأدب باللغة الأردنية على صفحات جرائدي المتواضعة ، واتخذت في ذلك أسلوباً يجمع بين السهولة والجزالة ، لا تعقيد فيه ولا تكلف ، تجنبت فيه الألفاظ الرنانة ، والاستعارات والكنائيات الوهمية التي تنحصر في الشكل ولا تتصل بالقلب ، وجهدتُ في تشويق القارئ إلى ما أكتب فيه ، ونقل مشاعري وعواطفِي إلى مشاعره وعواطفه » .

وتعددت موضوعات كتاباته ، فطرق كل موضوع ، وعالجه معالجة من يُلقى عليه ضوءاً كاملاً ، لا يتركه حتى يكون واضحاً جلياً في جميع جوانبه .

ثم وجه الناس إلى العناية بهذه اللغة وأدبها ، ونقل كثيراً من خير الآداب الأجنبية إليها . وكان له رأي في الترجمة إلى اللغة الأردنية بديع ، وهو عدم التقيد بالحرفية في الترجمة ، ويرى أن هذا أسلوب واهٍ ضعيف ؛ وإنما الواجب أخذ الأفكار وعرضها عرضاً جديداً بطريقة تتفق وذوق الهنود وتلائم أفكارهم . ولم تكن اللغة الأردنية تشتمل على مصطلحات علمية ، فجاء في صياغة اللغة صياغة تتناسب مع العلم ، ووضع ما استطاع من المصطلحات ؛ وسار على هذا النهج طلبته .

(١) لم آلهُ : لم أقصر أو أبطل

قال الأستاذ شبلى النعماني — عالم الهند العظيم — . « طالما كان النزاع بيني وبين السيد أحمد شديداً في آرائه الدينية ، وطالما فنّدت آراءه ، ومع هذا لا أنكر فضل أسلوبه العالي الذي استخدمه في شرحه أفكاره ، فكان أسلوباً رائعاً منقطع النظير ، مملوءاً بالفكاهة الحلوة ، والتنادر الطريف . »

حدث مرة أن « مولوى على بنخش » نقدّه نقداً مرّاً ، ثم ذهب إلى مكة بقصد الحج وأخذ فتوى من علماء مكة بتكفيره ، فكتب السيد أحمد في « تهذيب الأخلاق » :

« ما أعجب إلحادي . قد جعل مني كافراً وجعل منه حاجباً مؤمناً ! إني لفي شوق شديد لأن أرى فتواه . إنه كما قال الأول : إذا خُرب بيت الأوثان قام على أنقاضه بيت الإيمان . إن إلحادي كالأمطار ، تخرج أحسن الورود في البستان ، وأحسن السكّال^(١) في الوديان . »

ولما صدر الأمر بإغلاق جريدة « تهذيب الأخلاق » كتب في آخر عدد منها : « طالما طرقتُ باب النّيام ليستيقظوا ، فإن فعلوا ذلك ما أبغى ، وإن تحبّطوا عند انتباههم وترنّحوا يميناً ويسرة فرحلة لا تستوجب الرضا ، ولكنها مع ذلك تستوجب الأمل في يقظة المستقبل ، وليتها تكون . »

« وعند ما ترى الأم طفلها مريضاً تلحّ عليه أن يشرب الدواء المرّ ، وهو يلحّ : دعيني يا أمّاه قليلاً ، فسأشربه بنفسى . »

« وأنا كذلك سوف أطرق باب النّيام دائماً ليستيقظوا ، وسأصيح بالأطفال المراضِ : اشربوا اشربوا ، حتى يتجرّعوا . »

« لا أكِلْ ولا أَمَلْ » .

ونخل كذلك يدق الباب . ويلحّ في شرب الدواء ، حتى أدرك الناس أخيراً

(١) السكّال : العشب .

جداً أنه قام بعمل جليل في لغة قومه وعقليتهم وتعليمهم وتربيتهم ، مهما عايناه في بعض تعاليمه الدينية ، وبُعْده عن التدخل في السياسة القومية .

فلما زار البنجاب في آخر حياته استُقبل استقبال الملوك الظافرين ، والغزاة الفاتحين ، بل المصلحين الناجحين ، وأنساء نعيم الآخرة شقاء الأولى .

ولما بلغ الحادية والثمانين من العمر أسلم روحه خالقه ، فبكاه الأوربيون والهندوس والمسلمون على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وأشد ما بكوه من أجله ، شجاعته التي لا تُحد في تنفيذ خطته ، وصراحته البالغة في الجهر برأيه ، وعدم اعتداده بنقد الناقدين على اختلاف ألوانهم ، وإصراره على ألا يسمع إلا لصوت ضميره ؛ ينقد الإنجليز في ترفعهم ، والمواطنين في تخلفهم ، ورجال الدين في جمودهم ، ورجال السياسة في تخيلهم ، على حد سواء ؛ ويبكونه أكثر من ذلك لأنه مصلح عملي ، لا يكتفي بالنظريات والمبادئ يثيرها ، ثم يهدأ ضميره لأنه قد أدى واجبه ، بل لا يزال يسمى ويُدَّح وراء مبادئه حتى يخرجها في بناء وفي طلبة وفي معمل وفي مؤتمر وفي مجلة وفي درس ؛ وهي ميزة ندر أن تكون في المصلحين ، ولذلك كانت نتيجته في إصلاحه عملية كسيرة ؛ فلو رأيت مسلمي الهند أيام سلمهم ، ورأيتهم أيام تسلمهم لوجدتهم قد ارتفعوا درجات في العلم ، وفي الفكر ، وفي الخلق ، وفي اللغة ، وفي الصلاحية للحياة ؛ حتى لو قلنا : إن تاريخ المسلمين في الهند قد تمور واتخذ اتجاهًا جديدًا في حياته وبحياته ، لم نعد الصواب .

ثم نرى في بعض المصلحين عيباً كبيراً ؛ وهو أنهم لا يرتبون من يحمل علمهم ، ويكمل خطتهم ، وكثيراً ما يكون سبب ذلك اعتدادهم بأنفسهم مع شخصيتهم القوية التي لا تستطيع لشخصية عظيمة أخرى أن تظهر بجانبهم ، فتلتف حولهم الشخصيات الضعيفة التي تتقن للملق والنفاق ، وتغذى بأقوالها وأعمالها

عظمتهم واعتدادهم بأنفسهم ، وتنفّر منهم الشخصيات القوية ، لأنها ترقى في نفسها نداءً أوشبه نداء ، لأن كرامتها تأبى أن تنزل عن رأيهم ، أو تتصنع النفاق للقرب منهم ، فإذا مات مثل هؤلاء مات إصلاحهم إلا من الرموس أو ثنايا كتب التاريخ — ولم يكن « السيد أحمد » من هذا الطراز ، فهو قوى جبار في اعتناقه آراءه ومبادئه والجهر بها والعمل عليها ، ولكنه سمح النفس مع الناقد الشريف ، باذر الحب للنفوس حوله حتى تنمو وتقوى ، مشجعاً لأتباعه وتلاميذه أن يروا رأيهم ، ويستعملوا حقهم في صراحتهم ، كما يستعمل حقه في صراحته . ولذلك كان حوله وبعده من يكمل خطته ، ويسلك منهجه ، ويحمل رايته ، ويصلح ما أخذ عليه ، من مثل سراج على ، والسيد أمير على .

السيد أمير علي

أما « السيد أمير علي » فمصلح عمليّ من جنس « السيد أحمد » بل ربما كان أكثر منه تقديراً للحياة الواقعية ومواجهتها .

لقد قابل « السيد أحمد » في إنجلترا ، ثم قابله في الهند ، وطالما تجادلا لاختلاف وجهة نظرهما في إصلاح مسلمي الهند ؛ فالسيد أحمد يرى أن الإصلاح وسيلته التربية والتعليم فقط ، من غير انغماس في أية ناحية من النواحي السياسية ؛ والسيد أمير علي يرى أن التربية وسيلة صحيحة ، ولكن لا بد بجانبها من علاج الشئون السياسية للمسلمين في الهند ، ووضع خطة لها إزاء خطة الهندوكيين ، وإلا ضاع المسلمون بجانب الهندوكيين . لا بد من وضع غرض سياسي وتنظيم خطة وتحديد مطالب ورسم طرق السير . والسيد أحمد يأبى ذلك ويقول : لا شيء إلا التربية . ولهذا سار كل منهما على مبدئه ، فالسيد أمير علي يؤسس سنة ١٨٧٨ « الجمعية الوطنية الإسلامية » للدفاع عن حقوق المسلمين وتحديد الوضع السياسي لهم ، ويدعو « السيد أحمد » للعمل معه فيأبى .

وأخيراً جدّاً وفي آخر حياة « السيد أحمد » يؤمن بصحة نظرية السيد أمير علي ، بفضل حوادث الهندوكيين ، فيؤسس « جمعية الدفاع الإسلامية » .

يمتاز « السيد أمير علي » بثقافته الغربية والشرقية الواسعة . فقد تعلم العربية والفارسية ، ثم اتصل في شبابه بأدباء الإنجليز في الهند ، فدرس الآداب الإنجليزية دراسة عميقة . لقد قرأ بامعان أكثر روايات شكسبير ، والفردوس المفقود للملتن ، وحفظ شيللي ، وقرأ لكينس ، وبيرون ، ومور ، وكل روايات ولتر سكوت ، وكتاب جيبون في أسباب سقوط الدولة الرومانية ، إلى غير ذلك .

هذا إلى دراسته للقانونية وحصوله على درجة جامعية فيها من الهند قبل سفره إلى إنجلترا ثم ذهابه إلى إنجلترا عضو بعثة ، وثقافته الواسعة هناك ، ودراسته الأدبية والتاريخية لتغذية نفسه ؛ ثم كان له من بروز شخصيته ، ونبالة نفسه ، واعتداده بأنه شريف النسب ، تنمى أمرته إلى النهى العربى ، ما جعله يظهر فى الأوساط الإنجليزية ، ويؤكد صلات الصداقة بينه وبينهم ، ويتعرف الحياة الاجتماعية الإنجليزية أدق معرفة .

كل هذا مكن له فى شق طريقه إلى الإصلاح .

وكان حسن استعداده الأدبى ، ودراسته الآداب الإنجليزية فى سعة وعمق ، مما مكن له فى السيطرة على أسلوب إنجليزى أدبى ممتاز ، استخدمه فى نشر كتبه الإسلامية المملوءة حماسة وغيره على الإسلام .

فى أواخر سنى دراسته فى إنجلترا أصدر كتاباً عن « محمد وتعاليمه » كان له صدى بعيد فى الأوساط الأوربية والهندية . وقد قال عنه المستشرق أسبورن Osborn : « إن هذا الكتاب يستحق الإعجاب حقاً ؛ وقد كتبت بأسلوب يدل على ملك كاتبه لخاصية اللغة الإنجليزية ، أسلوب قل من يستطيع أن يجاريه من الإنجليز المثقفين ، أسلوب خلا من العيوب التى وقع فيها مثقفو الهنود ويجب أن يهنا مسلمو الهند بأن يكون منهم من بلغ هذه الدرجة ، ومن المستحيل على من فاتحه أعماله هذا الكتاب ألا يكون له فى مستقبله أثر فعال عميق فى قومه . أما موضوع الكتاب فإننا نخالفه فى كثير من مسائله . وسنعرض وجهة نظرنا ووجهة خلافنا فيما بعد » .

واستعمل قلبه البليغ هذا فى كتابيه الكبيرين « مختصر تاريخ العرب » . و « روح الإسلام » ، وفى الأول تلخص تاريخ المسلمين ، وعنى بوصف حالتهم الاجتماعية فى أسلوب سهل جذاب ؛ وفى الثانى عنى بوصف الدين الإسلامى ،



السيد أمير علي في ثيابه الجامعية

وأبان أن تعاليمه تدعو إلى التطور والرقى المستمر ، ومقدمته من أبداع ما كتب عن الإسلام ، وقد أفرغ فيها — كما قال — قلبه .

ثم كتبه المختصرة في الدعوة إلى الإسلام .

ونشر هذه الكتب بالإنجليزية البليغة كان له أثر كبير لم يُسبق إليه ، وهو تعريف الأوربيين بالإسلام ومحاسنه من مسلم متحمس ، إذ لم يكونوا يسمعون عن الإسلام إلا من مستشرقين .

ولما عاد إلى الهند خدّم القضاء بمنصبه وتأليفه في القانون الإسلامي ، وخاصة في الأحوال الشخصية ، مستعملاً فيها مرونته العقلية ، متأثراً بمدرسته من أن له ولأمثاله الحق في الاجتهاد في الأحكام .

ثم قاد الحركة السياسية الإسلامية في الهند ، ودافع عنها ، ولقى في ذلك عناء شديداً ، وكان في كثير من الأحيان يُضطَّهَدُ من المحافظين الإنجليز ، وإن كان يشجع من أحرارهم ، ويكره من الهندوكيين لاصطدامه معهم في إصلاح المسلمين ، ويخاصم من كثير من المسلمين أنفسهم لأنه متزوج إنجليزية ، ويتبع النمط الإنجليزي في معيشته الخاصة .

ومع هذا سار في طريقه في الإصلاح والعمل ، يؤلف الجمعيات المختلفة لذلك ، ويقول في بعضها : « إن غرضه ترقية الشعور الطيب بين الهنود على اختلاف طبقاتهم وعقائدهم ، وفي الوقت عينه حماية مصالح المسلمين ، وتبصيرهم السياسي بشئونهم » .

هذه هي الدعوة التي كان يدعو إليها دائماً ، يُسالم الهندوكيين والإنجليز ما سألوه وما حفظوا حقوق المسلمين ؛ فإذا تعدى أحد عليهم دافع في شدة وإخلاص ، فهو يقول في إحدى خطبه : « إن المسلمين في الهند لم حقوق سياسية واضحة أمام الحكومة وأمام الهندوكيين ، فلم تُجَبْ هذه المطالب أخشى

أن تنقلب مطالبهم إلى عصبية حادة . إن مطالبهم حقة ، وهم لا يطلبون غير ما فيه العدالة ، إنهم يطلبون بتمثيلهم السياسى تمثيلاً يتفق وعددهم وأهميتهم وتاريخهم ، تمثيلاً عادلاً . إن المسلمين يأتون أن يمتاز عليهم الهندوكيون فى أى حق من الحقوق السياسية ، فإذا سُوِّىَ بين الجميع فالمسلمون يرحبون بالإصلاح .

واستعمل نفوذه وقلبه ولسانه فى إنهاض المسلمين لإدراكهم حقوقهم والمطالبة بها ، سواء منهم من كان فى الهند ، ومن كان فى إنجلترا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى منازلته من أراد انتقاص حق المسلمين ، وكتاباتة الكثيرة القوية لسانة الإنجليز فى الهند ، وكبار ساستهم فى إنجلترا ، وردّه على الجرائد الإنجليزية كالتيمس والجازيت وغيرها . واستمر ذلك فى صراحة وجرأة حتى أبلغ يوماً على لسان صديق له « أن حكومة الهند وعدت بثقتها به » .

ونشطت سياسته أيضاً فى مناصرة الدولة العثمانية بعد خروجها من الحرب الماضية مهزومة ، فطالب بالإبقاء على كيائها ، وحرّك الرأى العام المسلم فى الهند للعطف عليها والتأييد لها ، وكتب فى ذلك وخطب ؛ وله موقف لا ذع فى جمعية من الجمعيات ، إذ اقترح خطيب أن تكون الآستانة مدينة حرة ، وتكون مركزاً لعصبة الأمم ، فرد عليه فى بديهة حاضرة بقوله : إن فلسطين أولى بذلك ، لأنها « مدينة السلام فى الأرض » والدعوة إلى الخير العام للناس ، منذ نحو ألفى عام . وإلى جانب حياته العلمية والسياسية النشيطة ، كان نشاطه فى إصلاح الحياة الاجتماعية لمسلمى الهند . وأهم ما التفت إليه من الإصلاح دعوته لإصلاح الأوقاف ، من مطالبته بالاستيلاء عليها من الحكومة ، وإصلاح وجوه الصّرف فيها وتنظيمها ، وقد لاقى فى ذلك عناء شديداً ؛ ثم دعوته إلى إصلاح المرأة وتعليمها وقد رأس المؤتمر الإسلامى الذى أسسه السيد أحمد حان فى بعض السنين

بعد وفاة السيد أحمد ، وكان مما دعا إليه فيه هاتان الدعوتان : قال في مؤتمر سنة ١٩٠٠ : « إن بالأوقاف وخيراتها انتشرت العلوم ، وتقدمت المعارف ، وأدت وظيفة نافعة في جميع الأقطار الإسلامية ، وكان لها نفع عظيم في البلاد الهندية ، ولكن تغيرت الأحوال وخرجت أوقاف كثيرة من يد المسلمين إلى أيدي الغير وتلاعبت بها الأيدي . . . ولهذا أدعو المسلمين إلى السعي في هذا الموضوع ، طالباً من الحكومة أن تُعنى بمسألة الأوقاف وإحاطتها بما يحفظها ، فهي نخر المسلمين وحصنهم الحصين شجاة الفقر والأيام العسيرة . . . » الخ .

وقال عن المرأة : « لقد أتى على المسلمين زمن كان النساء فيه يلقبن بأُمهات الرجال » ، فهل يمكننا الآن أن ننتعنه بهذه الصفة ؟ كلا ، إنهن آلة في أيدي الرجال يوجهونهم كيف شاءوا — وإذا كنا نريد أن نرتفع في سلم المدنية والارتقاء وأردنا أن يحترمنا الناس ، فلا بد لنا من تربية بناتنا حتى يصلن إلى أن يكنَّ « أمهات رجال » — إني أعتقد أن تربية البنات يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تربية البنين ، لأننا إذا أهملنا النصف المكون لحياتنا الاجتماعية ساءت النتيجة ؛ إذ ينفر الجزء المتعلم من الجزء الجاهل ، ويبعد عن مصاحبته ومعاشرته ما استطاع ، ويحاول أن يسير في تيار لا يُرضى الشرف ، أو ينحط بفكره ليعاشر ذلك الشريك المنحط في حياته .

ولذلك أرى من الضروري أن يسعى مسلمو الهند في تعاليم بناتهم من هذا الوقت ، وأن يضعوا أمام أعينهم النموذج الذي يسرون عليه إلى الأمام . الخ الخ .

ومن أنبل أعماله الأخيرة ما كان منه أيام الحرب بين إيطاليا وتركيا والعرب في طرابلس ، فقد علم أن جمعية الصليب الأحمر تُعنى أكثر ما تُعنى بالجرحى من المسيحيين ، وليس من يقوم بجرحى المسلمين ، فسعى لتأليف جمعية تجمع المال من الخبثين وتنظم وحدات علاجية لجرحى العرب والترك ، واستمر يكافح في هذا

للعمل سنين ، وعندما سأله المُشْرِف على فِرَقِ العلاج : هل وظيفته فقط أن يُعْنَى
بمُجَرَّحِي المسلمين ؟ قال له : « إن وظيفتك الأولى أن تعنى بمُجَرَّحِي العرب والترك ،
ولكن هذا لا يمنعك أن تمد يد المعونة لجرحى النصارى واليهود في ساعات
الضيق والحرَج . »

وهكذا كان عمله وعمل جمعيته في مساعدة الجرحى والبائسين في حرب
البلقان وفي الحرب العالمية الأولى .



لقد كان أمم ما يمتاز به السيد أمير على « الإخلاص للعقيدة » ، عقيدته
في دينه ، وعقيدته في قومه ، وعقيدته في وطنه . ورأى أن مواهبه في لسانه وفي
قلمه ، فصَّلتُهما صِلةً لا تبلغ بهما الغاية ، فهو في لسانه خطيب بارع ، وفي قلمه بليغ
ساحر ؛ فلما أن بلغ بهما هذا المبلغ وضعهما في خدمة عقيدته ، يكتب عن الإسلام
وعن محمد ؛ فتصل كتابته إلى كثير من الأوربيين الذين لم يسمعوا عن الإسلام ومحمد
إلا التافه من القول ، وتصل إلى مواطنيه قَيَّرُونَ معلومات مألوفة قد عُرِضَتْ
عَرَضاً جديداً حتى كأنها جديدة ، ويوم وصل إليهم كتابه عن « محمد » وقفوا
الدراسة في المدارس يوماً احتفالاً بهذا الكتاب واعترافاً بحسن أثره .

ثم يستعمل لسانه وقلمه في خدمة قومه من المسلمين فيحركهم ويجمع شملهم
ويدفعهم لطالبتهم بحقوقهم ، فيفقد بذلك كثيراً من المال كان يصح أن ينهال
عليه ، ومن ألقاب الشرف كان يمكن أن بناها بمركزه ومواهبه وجاهه ، ولكنه
كان راضياً بما في يده مع راحة ضميره ، وكارهاً طعم الغنى والألقاب مع عصيان
الضمير ، وهو من تأليفه ودفاعه وإصلاحه وثمره عمله في غنى وشرف لا يساويهما
أى غنى أو شرف .

لقد تقدم إلى قبره يوم مات كثير من أصدقائه من الأوربيين والمواطنين

يحملون أكاليل الزهر ، من بينها إكليل من جمعية كان يرعاها شبكت به بطاقة كان مكتوباً فيها :

« بمجهود هذا الراقد كم طعم جائع ، وكسي عار ، وصبح مريض . وبفعاله كم اطمأن شارد وضمت أم طفلها إلى صدرها لولاه لهلك ، ووجد الفلاح اليأس الذي خربت الحرب أرضه ما أعاد إليه أمله ، وأسعفه بالمال يمهّد أرضه ويبذر بذره ويستعيد بذلك رزقه . »

ولو استطعنا إكمال البطاقة لقلنا : « وبقلمه ولسانه كم حييت نفوس ، وتنبت عقول ، واهتدى ضال ، وأصلح فاسد ، واستقام معوج ، واستردت للمسلمين حقوق ، وتعلمت بنات سعد بهن أزواج ، وسعدت بأبنائهن الأمة . »

غير الدين باشا التونسي

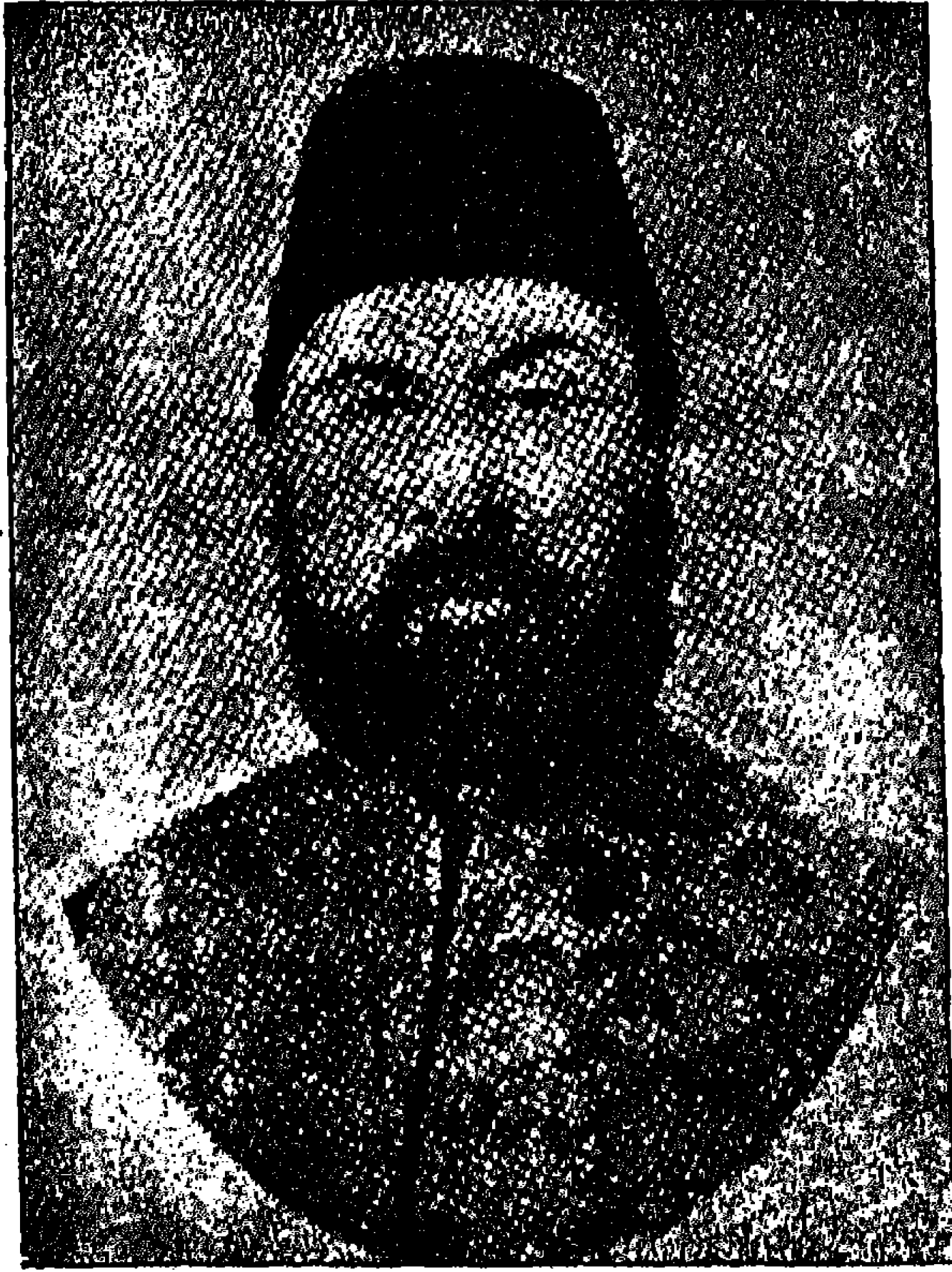
(حوالى سنة ١٢٢٥ — ١٣٠٧ هـ = نحو ١٨١٠ — ١٨٧٩ م)

عَقَلَ فرأى نفسه فى الأستانة فى أسرة غير أسرته ، فى بيت تحسين بك
نقيب الأشراف ، ليست سيدة البيت له أمّا ، ولا تحسين بك أبّا ، ولا أبناء
البيت إخوة ، وإنما يسمع همسا أنه عبد مملوك على معنى غامض لم يفهمه أولاً ؛
أين وُلد ؟ وأين أسرته ؟ وكيف أتى إلى هذا البيت ؟ سؤال محيّر كسؤال
ابن الشُّبُل البغدادي :

فماذا الامتنان على وجود لغير الموجدين به الخيار ؟
وكانت أنعمًا لو أن كَوْنًا نُخَيِّر قبله أو نستشار
وقول أبى العلاء :

ما باختيارى ميلادى ولا همرى ولا حياتى ، فهل لى بعدُ تخيير ؟
ونظر فرأى تحسين بك يوماً يعرضه على رجل يفحصه كما تُفحص السلعة ،
ويصعد فيه نظره ويصوب ، ويختبره من فرقه إلى قدمه ، ثم يدفع مالا فى يد
تحسين ، وينتقل هو إلى يده ، وهذا يركبه مركبًا يُبجر به إلى تونس ، وإذا به
فى بيت جديد هو بيت أحمد باشا ، باى تونس .
ما هذا الغموض كله ؟

تكشف له البحث بعد ذلك عن مأساة ؛ فهو شركسى الأضل ، من أسرة
أباطة ، خُطف وهو طفل على أثر غارة أو فتننة أو هجرة ، وبيع عبدًا فى سوق



خير الدين باشا التونسي

الرقيق بالآستانة ، فاشتراه تحسين بك ، وهذا باعه إلى أحد وكلاء باى تونس الذى أنفذه لشراء السرارى^(١) والعبيد .

مأساة تبعث الأسى والحزن ، قد حرمته أن يتذوق عطف أبيه وأمه ، وينعم بحريته ، وهى لا يعوضها شيء فى الوجود ، حتى لو نعم فى قصر تحسين بك أو قصر باى تونس ، فما هذا النعيم ؟ .

وبيت تحقق الأرواح^(٢) فيه أحب إلى من قصر مُنيف
وكل أكل فاخر وملبس باهر ونعيم باذخ لا يساوى شيئاً بجانب نظرة
ينظرها تحسين وأهله ، وبابى تونس وبلاطه ، إلى هذا الفتى على أنه رقيق
اشترى بدنانير معدودة .

كان هذا كل ما وصل إلى علمه عن طريق اليقين ، ورجح عنده فيما بعد أن له أخاً فى مصر يشغل منصباً كبيراً فى الدولة المصرية ، ويمتلك ثروة طائلة ، فأبت على خير الدين كرامته وإبائوه وظنونه — وما قد يعقب ذلك من تفسيرات تؤله — أن يكاتبه ويخبره ، وفضل أن يحتفظ بذلك السر لنفسه وأقرب الناس إليه

* * *

ومن قديم عُرِف الشراكسة فى العالم الإسلامى . وهم قبائل بدوية تسكن البعثة الشمالية الغربية من بحر قزوين وجزءاً من ساحل البحر الأسود ، وكان عددهم كبيراً ، فلما احتلت روسيا أخيراً بلادهم تفرق كثير منهم فى تركيا وآسية الصغرى ، وقد انتشر الإسلام بينهم وكاد يعمهم من نحو ثلاثة قرون .

وفى الشراكسة فضائل البداوة من الشجاعة والكرم ، ويمتازون بالنظافة

(١) السرارى : الإماء يتخفون فى البيوت .

(٢) الأرواح : الرياح .

والجمال . عرف عنهم ذلك فكان الصغار والفتيان والفتيات يُخطفون أو يباعون ،
ويُصدّرون إلى المملكة الإسلامية من عهد العصر العباسي الأول .
ولا تنسى مصر أنها حُكمت بدولة المماليك الشرا كسة من سنة ٧٢٤ إلى
سنة ٩٢٣ هـ فاقتنى منهم سلاطين مصر عدداً وافراً ، واستخدموهم في أعلى مناصب
الدولة وعهدوا إليهم في الشئون الحربية ، فأمسكوا بزمام الحصون والقلاع ، وعرفوا
بالإخاء ومعاونة بعضهم بعضاً ، فلما أتيت لهم الفرصة تغلبوا على الدولة ، ومُلكوا
على البلاد ؛ أولهم السلطان برقوق ، وظل الحكم فيهم إلى أن انهزم طومان باي
أمام السلطان سليم ، وكان مع طومان باي هذا أربعون ألف شركسي ، ذابوا
كلهم وذووقوا ربهم ومن أتى بعدهم في الأمة المصرية ، فكانوا عنصراً من عناصر
دمها . كما لا ننسى أن من أهم أسباب الثورة العراقية أول أمرها اعتقاد الضباط
المصريين أنهم مغبونون إذا قيسوا بالضباط الشرا كسة لترقيتهم دونهم .

* * *

كانت تونس حين نُحِل إليها خير الدين كسائر بلاد الشرق ، مقراً
لحضارة قد هَرَمَت ، ذهبت رُوحها ولم يبق إلا رسمها .
الحياة العلمية فيها أشبه بما كان في مصر قبيل عهد محمد علي ، كتاتيب بُدائية
منتشرة في القرى والمدن غايتهما تحفيظ القرآن ، وقلما يبلغون هذه الغاية ، ويستطيع
التلميذ بفضل مناهج الدراسة فيها أن يقضى عشر سنين وأكثر من غير أن يُحسن
القراءة والكتابة ، وكل ما يبلغه النجيب منهم أن يحفظ القرآن أو بعضه .
وعلى رأس هذه الكتاتيب جامع الزيتونة ، وهو صورة مصغرة من الأزهر
في ذلك العهد ، تُقرأ فيه علوم الدين من تفسير وحديث وفقه وعقائد ، وعلوم اللغة
من نحو وصرف ومعان وبيان ، في كتب مقررة ، لها متون وشروح وحواش ،
ويُقضى الوقت في تفهم تعبيراتهم وإيراد الاعتراضات عليها والإجابة عنها ؛ فالعلم

شكل علم لا علم ، والنجاح جدل لا حقائق ، والناجح في الامتحان الذي يستحق أن يسمى « عالماً » أقدرهم على الجدل وحفظ المصطلحات الشكلية . أما الجميع فسواء في عدم التحصيل ؛ إذ أمست الحياة الخارجية ، فالمنافسة العنيفة في أن شرب الدخان حلال أو حرام ، والغيبة أشد حرمة أم سماع الآلات الموسيقية ، و « خيال الظل » تجوز رؤيته أو لا تجوز ؛ وجزء كبير من السكان بدو لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين ، ولا يصل إليهم شيء من علم إلا في بعض أما كن أنشأ فيها الصوفية زوايا تعلم الناس شيئاً من الدين ؛ ولجاليات الأجنبية من فرنسية وإيطالية وإنجليزية مدارس تعلم أبناءها وقليلاً من أبناء البلاد اللغات والجغرافية والتاريخ والحساب والجبر والهندسة ، فتخرج من هم أقدر على فهم الحياة ، فإذا انغمسوا فيها تحولت مالية البلاد إلى أيديهم .

عماد أهلها الفلاحة ، وآلاتها وأساليبها هي بعينها ما كانت عليه في القرون الأولى قبل الإسلام وقبل الرومان ، وساهم بعض الأوربيين في الزراعة ، فطعموا الأشجار وبخروها ولقحوها ، فدرت عليهم من الأرباح ما لم ينله سكان البلاد . ثم قبض هؤلاء الأجانب على الأسواق الخارجية ، وخاصة في أكبر غلة البلاد ، وهي زيت الزيتون ؛ فمن ناحية أنشؤا المعاصر تدار بالبخار ، ومن ناحية وضعوا أيديهم على ما ينتجونه وما ينتجه الأهالي ، واحتكروا التجارة إلى الخارج إلا القليل النادر من أهل البلاد . وكان التونسيون يصنعون نوعاً من النسيج اسمه « الشاشية » ، وكانت مصانعها كثيرة ، وكانت مصدر رزق لكثير منهم ، ولكنها كانت تصنع بالآلات القديمة ، فلما تقدمت الصناعة في أوربة ، وكانت الآلات تدار بالبخار وتنتج نتاجاً كثيراً من الشاش هذا ، رخص سعره ، وأصبحت الصناعة في تونس بضربة قاضية ، حتى لم يبق من مصانعها التي تبلغ ألفاً غير ثلاثين ؛ وناهيك بما يجره ذلك من الفقر والخراب ؛ كما زاحت « الجزمة » ، « البلغة » وقضت

عليها ، واختل الميزان التجارى فكثُر الوارد وقلَّ الصادر ، وتغلب الفرنسيون والإيطاليون على الشوق وأمسكوا بزمامه .

وكان مما أضعف التجارة سوء أدوات النقل وفساد الطرق ، فهم ينقلون غلاتهم على الإبل والخيول والبغال ونوع من العربات البدائية ، وتنقل القبائل البدوية غلاتها في قوافل ، فإذا كان الشتاء وأمطرت السماء تشعثت الطرق فتعطلت الحركة .

وأما إدارة البلاد فقوضى أى فوضى ؛ الحاكم حاكم بأمره ، وأحب الناس إليه من يجمع له المال من حله وحرامه ، ولا ضبط فى دخل ولا خرج ، والعدل والظلم متروكان للمصادفات ، فإن تولى بعض الأمور عادل عدل ، وكان العدل موقوتاً بحياته — ولما يكون . ونظام القضاء والجيش والإدارة والضرائب وجباية المال وإنفاقه على النمط العتيق البالى ، وكثير من الأمور تنفذ بالأوامر الشفوية ، لا مرجع لها ولا يمكن الحساب عليها .

وكانت تونس إذ ذاك تحت حكم البايات ، والباى فى تونس لقب كالخديوى فى مصر ، وكان الباي يتبع الدولة العثمانية تبعية ضعيفة ، فيساعدوها فى حروبها ، ويحمل إليها مقدراً من المال وكثيراً من الهدايا ، وإذا حدث مُشكلة دولية فى تونس تدخلت الدولة العثمانية لفض النزاع ، وأرسلت مندوباً من قبلها ليشرف على الحل . أما فيما عدا هذا فولاية تونس شبه مستقلة ، والباى حرّ التصرف .

ولكن فرنسا كانت قد استولت على جارتها « الجزائر » ووضعت نصب عينها لإضعاف علاقة تونس بالدولة العثمانية شيئاً فشيئاً ، وتوثيق علاقاتها هى بها شيئاً فشيئاً ، وانتهاز الفرص للتغلب عليها نهائياً .

وكان باى تونس الذى ملك خير الدين هو الباي أحمد باشا الذى كان والياً من (١٢٥٣ — ١٢٧١ هـ) وقد أنعم عليه السلطان محمود بالخلعة السنية ورتبة

المُشِيرِيَّة . ونحن نعلم أن السلطان محموداً هذا قد ألبأته الظروف القاسية وضغط أوربة ومطالبها وضعف حال دولته الداخلية ، إلى أن يجتهد في تنظيم الدولة على أسس جديدة يقتبس فيها من نظم أوربة وقوانينها وإدارتها . وكان مما فعل أن أرسل إلى الباي أحمد هذا يطلب إليه أن يدخل الأنظمة الحديثة في تونس وخاصة في الجيش ، فطلب الباي الإمهال قليلا والتدرج في التغيير بسبب عادات البلاد وتقاليدها وعقليتها ، ثم أخذ فعلا في تنظيم الجيش .

* * *

في هذه البيئة كلها التي وصفناها وصفاً موجزاً جداً وضع الشاب خير الدين قدمه في تونس ،

— ٢ —

تربى في قصر الباي أحمد — وكان من حسنات الباي أن اهتم بتعليمه ليعده رجلاً من رجاله ، والتعليم كله في تونس كان مصبوغاً بالصبغة الدينية ، فكان البرنامج الذي أعد له أن يتعلم القراءة والكتابة ويحفظ ما استطاع من القرآن ويُجَوِّدُهُ^(١) وشيثاً من الفقه والتوحيد ؛ فتقدم في كل ما تعلمه ، وأخذ هو بعد ذلك يتوسع في العلوم الشرعية بمخالطة العلماء والاستفادة منهم ، وفي علوم اللغة والمرانة على الكتابة ومطالعة كتب التاريخ . وعُرف في بيئته بالتدين ومحافظته على أداء الشعائر وتوقير الشريعة ورجالها ، وإلى ذلك نَزَعَ إلى تعلم الفرنسية فأحسن تعلمها ، فكان يجيد العربية والفرنسية والتركية .

وحدث أن الدولة العثمانية كانت قد اتجهت إلى تنظيم شئونها وخاصة جيوشها

(١) يجوده : يتلوه على أصول علم التجويد ، وبه تعرف مخارج الحروف والملا وما إلى ذلك .

— كما أشرنا قبل — وكتبت إلى ولاياتها بذلك ، ومنها تونس ، فأخذ الباي أحمد ينظم جيشه ، وكتب إلى فرنسا يسألها المعونة في ذلك ، فأرسلت إليه بعثة من الضباط الفرنسيين وعلى رأسها القومندان كامبنون الذي صار فيما بعد وزيراً للحرية الفرنسية في حكومة جامبينا .

فالتحق خير الدين بالجيش التونسي يتعلم من هذه البعثة ، ومن ذلك الحين دخل في السلك العسكري ، وكان هذا يوافق مزاجه الشرکسى ، فكان رئيساً لفرقة من الفرسان ، وما زال يرقى حتى كان أميراً للواء الخيالة سنة ١٢٦٦ . أفادته التربية الأولى أن يكون متديناً مثقفاً مطلعاً على أحداث الماضي ، قريباً من نفوس العلماء ، وخاصة الشعب ، وأفادته التربية الثانية حب النظام وقوة الحزم وسرعة البت^(١) . وصلابة الرأي .

ثم اضطرت الظروف بعد إلى مزاوله الأمور السياسية والانغماس فيها . قد كان في أيامه هذه ثلاث شخصيات مشهورة ، هي التي تدير دفة الحكم وتظهر على المسرح : الباي أحمد باشا ، مصطفى خزنة دار ، ومحمود بن عياد . فالباي أحمد — مؤلى خير الدين^(٢) — وال طموح يحب رقى بلاده ، فيأخذ في تنظيم الجيش ويشجع نشر العلم ، ويخصّص المرتبات للعلماء ، ويؤسس مكتبة نفحة في جامع الزيتونة ، ويعيد تنظيم الإدارة الحكومية على أسس حديثة بتحديد اختصاص ، ولكن فيه إسراف وإفراط في الترف وقلة نظر للعواقب وخضوع لبعض الظالمين من رجال دولته الماليين ، لحاجته إليهم فيما يُشرف من مال ؛ ونقطة الضعف هذه جعلته يتغاضى عما يأتون من مفسد خطيرة . ومصطفى خزنة دار وزير العمالة « المالية والداخلية » رجل مغربي الأصل ، جاء

(١) البت : الفصل في الأمور .

(٢) مولاه : سيده .

تونس وسنه دون العشر، فرباه أحمد باشا كما ربى خير الدين، وارتقى في الوظائف حتى صار وزيراً؛ وهو شخصية غربية، لين بسام، لا يقول «لا» لمن طلب منه شيئاً ولو مستحيلاً، يرضى بالوعد ظاهراً ويضمير عدم الوفاء باطناً، عفت اللسان «متدروش» يحافظ على الصلوات ويقرأ الأوراد ويقوم الثالث الأخير من الليل، وهو مع ذلك شريرة في جمع المال، لا يتورع عن السرقة والغصب ومشاركة السارقين والفاصبين. تولى الوزارة نحو خمسة وثلاثين عاماً أثقل فيها كاهل^(١) الشعب بالضرائب والمظالم، يفعل ذلك كله نهائياً وتهجد ليلاً، يختاس المال ويعمر المساجد؛ بدأ حياته سميحاً كريماً وختمها بخيلاً شحيحاً؛ زوّج بنته من خير الدين لما تنبأ له بمستقبل باهر، وبسط سلطانه على الباي أحمد بحيله وأساليبه، غشى بصره فلم يعد يرى ظلمه وفساده، وحارب بكل قوته من تقرب إلى الباي أو من مال إليه الباي، حتى يضمن دوام نفوده؛ يحبذ للوالى كثرة الإنفاق في الإصلاح وغير الإصلاح، ويشجعه على الإمعان في الترف والإفاضة في البذل، حتى يأمره بحاجته إليه وحتى يتخذ من كل ذلك وسائل لاستنزاف مال الشعب، بعضه له وبعضه للوالى.

ومحمود بن عياد يدُ مصطفى خزنة دار التى يقبض بها ويسرق بها ويستغل بها، وشريكه فى المغام والمظالم، وظيفته جمع الضرائب على اختلاف أنواعها، وشراء جميع ما تحتاجه الحكومة وما يحتاجه الوالى؛ وظل على هذا عشرين عاماً؛ ذكى خبيث ماهر، يغالى فى الضرائب ويتخذ كل الحيل حتى لا تصل مظلمة إلى سمع الوالى، فإذا وصلت احتال حتى ترفض. استطاع أن يجمع من الثروة من هذه الأبواب ثمانين مليوناً.

رأى من بعيد أن الشعب بدأ يعلو أئنه، وأنه يوشك أن يفتضح هو وشريكه

(١) الكامل : أعل الظهر بما يل العنق .

فهرَّباً أموالها إلى فرنسا، وادعى ابن عياد المرض وزعم أنه مسافر إلى باريس للتداوى، فلما وصل إليها أعلن عدم العودة؛ وطلب أن يتجنس بالجنسية الفرنسية فأجيب إلى طلبه .

ومع هذا كله فقد بلغ من فجوره أن ادعى على الحكومة التونسية أن له مبالغ طائلة قبلها (٦٠ مليون قرش تونسى = ٤٠ مليون فرنك) نظير مشتريات اشتراها لها لم تدفع ثمنها، وأخذت المسألة دوراً خطيراً، إذ أصبح المدعى فرنسى الجنسية تحميه حكومة فرنسا وتطالب بحقوقه .

هنا أتجه الباي أحمد إلى خير الدين ليذهب إلى باريس، ويخاضم ابن عياد ويبين فساد زعمه ويثبت أن عليه — لاله — ديوناً يطالبه بها، وكانت قضية هامة لو حُكم فيها لابن عياد لوقعت تونس في الإفلاس، وزاد من خطرهما ما كان تحت يده من مكاتبات ومستندات رسمية دبرها هذا الماكر تدييراً محكماً .

وظلت هذه القضية في باريس أكثر من ثلاث سنوات من سنة ١٢٦٩ — ١٢٧٣ هـ، وخير الدين فيها يرافع ويدافع، وابن عياد يملأ فرنسا دويماً، ويساعده على ذلك ما ينفقه عن سعة، ويشترى الدور والأماكن في فرنسا؛ وعلى خير الدين أن يقاوم كل هذا .

وأخيراً كلفت لجنة القضايا بوزارة الخارجية الفرنسية دراسة هذا الخلاف ورفع تقرير عنه، وشكلت لجنة تحكيم يرأسها الإمبراطور نابليون الثالث، وأصدرت حكماً وهو يقضى بتخفيض مطالب ابن عياد من ستين مليون قرش إلى خمسة ملايين، كما ألزمته بأن يدفع للحكومة التونسية ١٤ مليون قرش في ذمته لها، ويدفع مبالغ أخرى، فكان مكسب تونس من هذه القضية نحو ٢٤ مليون فرنك . وفوق ذلك قام خير الدين في هذه السفارة بأعمال أخرى، أهمها أنه لما حدثت حرب القرم ١٢٧٠ هـ ١٨٥٣ م أرسل الباي أحمد لمساعدة الدولة العثمانية

١٤ ألف جندي بأدواتهم الحربية وأسطولاً من سبع قطع ، وهذا أثقل كاهل تونس ، فأرسل الباي إلى خير الدين بباريس مجوهرات لبيعها ، وفوضه في أمر ثمنها ، فلم يقبل خير الدين هذا التفويض ، وظل يراجع الباي فيما يُعرض من ثمن ، حتى أنكر عليه كثرة الاستشارة وأمره بالبيع فوراً فباع .

ولم يكف ثمن هذه المجوهرات ، فكلفه الباي أن يعقد قرضاً من فرنسا ؛ وكانت هذه مسألة خطيرة لم يستطع ضمير خير الدين أن يحتملها ، ولا سيما أن الباي قد أصيب بالشلل وقربت منيته ، فاطل وماطل ، وأخذ يبعث بالاستفهام تلو الاستفهام حتى مات الباي ولم يتم عقد القرض ، فكانت محمّدة من محامده ذكرها له أهل تونس والباي الجديد المشير محمد باشا ، وأنعم عليه برتبة فريق سنة ١٢٧٢ . أفاده بقاءه في باريس هذه المدة اطلاعاً على الدنيا الجديدة ومعرفة بنظمها واحتكاكاً برجال السياسة وفهما لأغراضهم ، ووضع عينه على أسباب رقي الأمم وقارن بينها وبين تونس ، لم تأخرت وكيف ترتقي ، مما كان له أثر كبير في حياته المستقبلية ، كما أفادته علو شأنه في أمته وثقتها به وأملها فيه .

ومما يؤسف له أنه بعد هذه الفضائح كلها بقي مصطفى خزانة دار المقتصب الكبير وصهر خير الدين في منصبه في الوزارة .

عاد خير الدين إلى تونس فعينه الباي محمد باشا وزيراً للحربية سنة ١٢٧٣ ، وظل في هذا المنصب إلى سنة ١٢٧٩ ؛ وفي هذه الفترة قام بإصلاحات كثيرة ، فأصلح ميناء « حلق الوادي » وهو أعظم ميناء لتونس ، وأمر بأن يقيد كل شيء يعمل في وزارته ، وكان هذا النظام أول ما دخل في تونس .

وأنشأ مصنعاً بخاريّاً لبناء السفن وإصلاحها ، ووسّع الطرق ونظمها . ولكن أهم من ذلك كله أن الدولة العثمانية وولايتها التابعة لها والرتبطة بها — ومنها تونس — مالت إلى اقتباس النظام النيابي تحت تأثير الضغط الأوربي وظهور فساد

الحكم الاستبدادى ، وميل خواص الشعوب الشرقية إلى إصلاح الحال وإدخال
الفظم الحديثة — فكان خير الدين العقل المنظم لهذه الحركة . ومن له النصيب
الأكبر فى وضع القوانين لمجلس شورى منتخب .

وصدر الأمر به سنة ١٢٧٧ وانتخب أعضاء المجلس ، وكان خير الدين
الرئيس الفعلى له بجانب وزارته للحربية .

ولكن هذا المجلس اصطدم بطائفتين لهما خطرهما : فرجال الدين لم يرضوا
عنه ، لأن بعض أحكام القانون سياسية لا شرعية ، ولأن القانون يقضى بالحكم
بالأغلبية وقد ترى الأغلبية ما لا يرضى الدين . وأصحاب السلطان وعلى رأسهم
الوالى ومصطفى خزنة دار لم يرضوا عنه فى باطن نفوسهم ، لأنه يساهم سلطانهم ،
فأراد خير الدين أن يكون السلطان الحق للمجلس ، وأراد أن يكون المجلس ستاراً
شرعياً لتصرفهما وأداة طيعة لتنفيذ أغراضهما . أراد حقيقة وأراده لعبة ، أراد
من كل عضو أن يقول ما يعتقد فى صدق وإخلاص وجراءة ، وأراد من كل
عضو أن يتحسس رأيها فيعبر عنه ، فكان النزاع وكان الخصاص .

عرض على المجلس رغبة شركة فرنسية بأن تقوم بمد ماء زغوان إلى قرطاجنة
ثم توصيله إلى الرسى والحاضرة ، وفى هذا المشروع فوائد ومضار . وتجادل
الأعضاء فيه ، منهم من يحبذه لفوائده ، وبعضهم يرفضه خوفاً من تغلغل النفوذ
الفرنسى ، ويرغبون أن يدبروا الأمر لتقوم بالحكومة التونسية نفسها ،
واشتد الجدل وملت الأغلبية إلى الرفض ، وهنا قال الوالى : لقد وعدت قنصل
فرنسا وعداً قاطعاً بالموافقة على المشروع . فكان خير الدين جريئاً إذ قال : فلم
جمعنا إذاً لتأخذ رأيتنا ، وكان يكفى سماع هذا الخبر من سيادتكم ؟ .

وأرادوا أن يُعترف فاضل الأوقاف على الإصلاحات العسكرية ، واستندوا
إلى فتوى من أحد العلماء المالكية ، فعارض خير الدين فى هذا وأوضح وجهة

نظره ، بأن الشئون العسكرية لها مخصصات في مالية الدولة ، ولا يصح أن تمتد الأيدي إلى فاضل الأوقاف إلا إذا عجزت مالية الدولة واستنفدت في وجوها العادلة ، أما إذا كانت تُبعثر هنا وهناك ويُصرف منها على الترف والشهوات فلا يصح أن تمتد الأيدي إلى فاضل الأوقاف .

وناحية ثالثة لم يكن يُرضيها النظام الشورى ، وإقامة العدل ، وهى الحكومة الفرنسية إذ ذاك ، لأن شمول العدل والنظام الشورى واستقرار الأمور يضيع على فرنسا مطمحها فى الاستيلاء على البلاد ، فكان ممثلو فرنسا يحرّضون الباي على التلاعب بالمجلس الشورى . ولما حضر نابليون الثالث إلى الجزائر وتوجه إليه باي تونس وقدم له نسخة من قانون الشورى الذى وضعه ، قبلها منه بالشكر ظاهراً ، نقدّها أمام رجاله سرّاً وقال : « إن العرب إذا استأنسوا بالعدالة والحرية لم نسترح معهم فى الجزائر » . وهكذا اتجهت سياسة فرنسا فى هذه البلاد إلى التظاهر بتشجيع حركات الإصلاح والعمل سرّاً على إحباطها .

هكذا كل يوم مشكلة وكل يوم نزاع ، والإصلاح مستحيل مع هؤلاء ، فاستقال خير الدين ، وقال : « لقد حاولت أن أسير بالأمور فى طريق العدالة والنزاهة والإخلاص فذهب كلّ مسعى سُدى ، ولم أشأ أن أخدع وطنى الذى تبثّنى بتمسكى بالمناصب . ورأيت أن الباي وعلى الأخص وزيره الرهيب العظيم الجاه مصطفى خزنة دار لا يلجآن إلى التشريعات الإصلاحية إلا لتبرير سيئاتهما تبريراً قانونياً ، فقدمت استقالتي سنة ١٢٧٩ من رئاسة المجلس ومن وزارة الحرية وعدت إلى حياتى الخاصة » .

لم يشأ أن يشور بعد اعتزاله ، ولا أن يكون حزباً يناضل فى سبيل تحقيق العدالة ، فذلك ما لم يتفق ومزاجه ولم تهيا له البلاد ، ثم هو تربطه بركنى الاستبداد روابط تقيد حريته ؛ فالباي مولاه ، ومصطفى خزنة دار صهره ، وموقف البلاد

إزاء المطامع الأجنبية دقيق ؛ لهذا كله اعتزل وسالم ، ونقضَ يده من العمل الرسمي مع الإلحاح عليه في العودة ، ولكنه لم يقطع علاقاته الشخصية بالبائى والوزير ، واستمر على هذه الحال تسع سنوات حَفَلَتْ بأمرين جديرين بالذكر : الأول سفره سفيراً من البائى إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا والسويد وهولندا والدانمارك وبلجيكا في مهمة خاصة ، فكنته هذه ورحلته السابقة — كما يقول — من دراسة الأسس التى قامت عليها المدنية الغربية وبنيت عليها الأمم الكبرى قوتها ونفوذها . والثانى تأليفه كتاب « أقوم المالك ، في معرفة أحوال المالك » .

عكف خير الدين أثناء اعتزاله الوزارة على وضع كتاب سماه « أقوم المسالك ، في معرفة أحوال المالك » وسميت ترجمته الفرنسية « الإصلاحات الضرورية للدول الإسلامية » وكان في ذهنه عند تأليفه أن يحدِّدَ حَدُّوَ تاريخ ابن خلدون ، يؤلفه بروح العصر ، ومطالب العصر ؛ فاشتمل أيضاً على مقدمة وتاريخ . فأما المقدمة فقد أراد منها البحث في حالة البلاد الإسلامية وأسباب انحطاطها بعد ازهارها وكيفية إصلاحها .

وأما التاريخ فقد عرض فيه حال الممالك الأوربية ، لا من ناحية تعاقب ملوكها وتسلسل حروبها ، ولكن من ناحية وصف كل دولة في إدارتها وجيوشها ونظام الحكم فيها ، ومالياتها وكيفية ضبطها ، وقوتها البرية والبحرية . وقد وصف — على هذا المنوال — الدولة العثمانية وفرنسا وإنجلترا وروسيا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال وهولندا والدانمارك وبلجيكا وسويسرة واليونان ، ثم وصف جغرافية أوربة الطبيعية الخ ، وكان أهم ما يقصد من ذلك أن يضع أمام القارئ

العربي صورة لنهضة أوربة وأسبابها وطريقة الحكم فيها ، حتى يقتبس المسلمون منها ما يصلح لهم ، وحتى يثير عندهم الرغبة في الاقتداء بهم والعمل على منوالهم ، وقد أودع خلاصة ما رأى في سياحاته وما قرأ وما فكر .

وأهم ما يعنيننا الآن مقدمته التي تشرح حال المسلمين وحاجتهم إلى الإصلاح وطريقته ؛ وهو فيها ينعى^(١) على المسلمين كراهيتهم الأخذ بأساليب المدنية الغربية في الإصلاح ، واعتقادهم أن كل ما صدر عن أوربة حرام ، ويعلمون ذلك بعمل مختلفة ؛ كأن يقولوا إنها مخالفة للشريعة الإسلامية ؛ أو يقولوا إنها إذا ناسبت الأم الغربية فلا تناسب الأم الشرقية ، لأن كل أمة لها موقفها الاجتماعي وعقليتها وتاريخها ؛ أو أن يقولوا إن المدنية الغربية بطيئة الإجراءات وخاصة في طريق القضاء ، أو أن يقولوا إن النظم الغربية تستلزم التوسع في الإدارة وتقسيم الأعمال ، وهذا يستلزم كثرة الوظائف والموظفين ، وليس هناك مال يكفي لكل هذا ، فلا بد إذاً من فرض ضرائب جديدة ، والبلاد فقيرة وأهلها لا يهتمون بزيادة الضرائب .

وقد وقف نفسه للرد على هذه المزاعم :

فأما الزعم الأول فالتمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى ، والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمصالح الدنيوية ، فليس بالناس يعرف الحق ، ولكن بالحق يعرف الناس ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها ، وسلمان الفارسي لما اقترح على النبي صلى الله عليه وسلم حفر خندق في غزوة الأحزاب أخذ برأيه ولم يكن ذلك معروفاً عند العرب ، والمسلمون الأولون أخذوا علوم اليونان ومنها المنطق واستفادوا منها ، وقال الغزالي : من لا معرفة له بالمنطق لم يوثق بعلمه ، وأبو بكر الصديق قال لخالد عند إرساله لقتال أهل الردة في اليمامة : « إذا لاقيت القوم فقاتلهم

(١) ينمى : يعب .

بالسلاح الذي يقاتلونك به ، السهم للسهم ، والرمح للرمح ، والسيف للسيف «
ولو أدرك هذا الزمان لقال المدفع للمدفع والبارجة للبارجة والمدرعة للمدرعة .
ولا يمكن الاستعداد لمنازلتهم بمثل سلاحهم إلا بالعلم وأسباب العمران . ثم
نقول لهؤلاء الذين لا يستحسنون ما تأتي به المدنية الغربية : لماذا تنكرونها فقط
في التنظيم ونتائجه والإدارة وضبطها والعدل وإقامته ، ولا تنكرونها فيما تتنافسون
فيه من الملابس والأثاث والمخترعات وأسباب الترف ؟ فالذين صنعوا أدوات
الزينة والنعيم هم الذين صنعوا الأسلحة واخترعوا العلوم والمعارف . أنفتح
الباب للأخذ منهم فيما لا ينفع وتغلقه أمام ما ينفع ؟ أنصد عن الأخذ عنهم
ونتركهم يستغلون زراعتنا ومواردنا وينعمون بها ، ثم نكتفي منها بفئات
موائدهم ؟ إنهم ما وصلوا إلى استغلالنا إلا بمعارفهم ، ولم ترتق معارفهم إلا بالعدل
والحرية ، فكيف يسوغ لعاقل أن يصد عن ذلك ويغض عينه ولا يسمح به ،
استناداً إلى خرافات وأوهام ؟ وقد قال بعض المؤلفين في السياسة الحربية : « إن
الامة التي لا بحاريتها جاريتها في معداتها الحربية ونظمها العسكرية ، توشك أن
تقع غنيمة في أيديهم » وإنما خص النظم الحربية بالذكر لأنها موضوع كتابه ،
وإلا فالحكم عام في كل مرافق الحياة .

« ومن دواعي الأسف أن هذه النظرة إلى المدنية الغربية لا تزال تؤثر
في بعض البيئات في الأمم الإسلامية وإن اختلفت درجاتها في الإصغاء إلى هذه
الدعوة كالتخويف من تعليم المرأة ومن الاستعداد من التشريع الحديث .
ولعل هذا من الأسباب التي جعلت النصارى والمسلمين إذا اجتمعوا في قطر واحد
كان النصارى أسبق إلى تشرب المدنية الغربية والاستفادة منها ، ثم يأتي
بعض الناس فينسبون ذلك إلى طبيعة الإسلام ، والإسلام لا يمنع أن يقتبس
الصالح من الأمر حيث كان ومن كان » .

أما هؤلاء الذين يقولون إن المدنية الغربية لا تناسب الأمم الإسلامية لموقفها الاجتماعي ، فنقول لهم : إن أوربة عندما بدأت نهضتها كانت أسوأ حالا منا ؛ والأمة الإسلامية — كما يشهد المنصفون — لها من عقليتها واستعدادها وسابق مدنياتها ما يمكنها من السير في هذا المجال إذا أُذِكَّتْ حريتها الكاملة . فالحرية والطموح غريزتان في المسلمين تأصلتا فيهم بآعاليم دينهم ؛ غاية الأمر أنه من الواجب على القادة الذين يضعون لهم أسس حريتهم ونظم إدارتهم أن يراعوا ظروفهم ، وأن يقدموا لهم من ذلك ما يستطيعون هضمه ، ثم يوسع هذا شيئا فشيئا بنمو أسباب التمدن .

أما القول ببطء الإجراءات ، فإن كان سببه إعطاء الحوادث حقها من التأمل حتى يتضح عند الحاكم وجه الحق ، بالإفساح للمتخاصمين أن يذُتُوا بحججهم ، فلا يصح أن يشكو منه جاهل أو متجاهل ، وهذا خير ألف مرة مما يجري الآن من الإسراف في الحكم من غير تمحيص ومن غير إبداء أسباب . وإن كان سببه تقصير الموظفين أو قصورهم ، فما على الحكومة إلا أن تختار الأكفأ وتدرّبهم ، وكذلك الشأن في الأمور السياسية الكلية ، لا بأس من البطء فيها إذا كان البطء لتحري الصواب ومعرفة وجه الحق . ومع هذا فقد يحدث البطء والتخلف أول الأمر ، فإذا مرّنت الأمة عليه أسرع السير في شئونها .

وأما الخوف من زيادة الضرائب فالأمر بالعكس ، لأن الحكم الشورى يجعل الضرائب لا تفرض إلا حيث المصلحة ، وبرضا أهل الحل والعقد . على حين أن الحكم الاستبدادي يجعل فرض الضرائب شهوة من شهوات الحاكم المستبد . ثم إن تنظيم الدولة وشئونها بضبط دخلها وخرجها يزيد في مصادرها فتتعم الأمة بمالياتها ، وإذا فرضت ضريبة فلأنها تفيد أكثر مما تضر ، لا كما هو حاصل الآن من وضع إيراد الدولة تحت تصرف الحكام يصرفون منه على شهواتهم

من غير حساب ، فإذا أسرفوا وأتلفوا لم يجدوا إلا باب فرض ضرائب جديدة .
الحق أن الأمم الإسلامية لا تصلح إلا بالنظام الشورى الذى يقيد الحاكم ،
وبأن نستمد من النظم الغربية والمدنية الحديثة ما يصلحنا . والحق — أيضاً —
أن الذين يقفون أمام هذه الدعوة إلى الإصلاح إما جهالة لا يعرفون كيف تقدم
العالم وكيف أصلح عيوبه وأسس نظمه ، ثم يدعوهم الجهل إلى الاستئمان لنظمهم
المعينة وطرقهم المعوجة ، ويرون أن الإصلاح بدعة من بدع آخر الزمان ؛
وإما قوم يعلمون وجوه الإصلاح ومزاياه ، ولكنهم يريدون أنها تسلبهم منافعهم
الشخصية التى تتوافر لهم بالاستبداد والفوضى ولا تتوافر بالنظام ، فيحاربونها
تحت ستار ما يزعمون من أضرار ، وما يمتثلون من أسباب ، وهم فى باطن
أنفسهم يعرفون أنهم كاذبون .

إن العدل والحرية هما ركنا الدولة ، وهما اللذان كانا فى المملكة الإسلامية
فأزهرت ثم فُتِدا فذُبُلت ، ولم يكونا فى الدول الأوربية فانتابها الضعف والفساد ،
ثم كانا فصلح حالما ؛ وليس جو أوربة أحسن الأجواء ، ولا أرضها أصلح
الأراضى ، وإنما بلغ أهلها ما بلغوا بالتقدم فى العلوم والصناعات واستخراج كنوز
الأرض بعلوم الزراعة ، وكسب المال بعلوم التجارة ؛ وهذا كله لم يكن إلا وليداً
للعدل والحرية ، وهذه قوانين طبيعية لا تتخاف . عدل وحرية يتبعهما عمران ،
وظلم واستبداد يتبعهما خراب .

ثم إن العدل والحرية يجب أن يوضع لهما من النظم ما يضمن وجودهما
ودوامهما . وليس هناك ضمان إلا بالمجالس النيابية ، فقد يكون فى الملوك من يحسن
تصرفه بدون مشورة ، ولكن يكون ذلك موقوتاً بوقته ، يزول بزواله ؛ فوجب
أن يحاط الملوك بأهل الحل والعقد ، يشاركونهم فى كليات السياسة ، ويكون

الوزراء مسئولين أمامهم . وكل ما أصاب الأمم الإسلامية إنما أصابها من ترك الأمر فيها إلى مشيئة حاكمها وخضوع الوزراء لإشارته . وقد قال ابن العربي في الضرائب التي تؤخذ من الناس عند فراغ بيت المال : إنها يجب أن تؤخذ جهرًا لا سرًا ، وتنفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأى الجماعة لا بالاستبداد . وقد كنت أتحدث مع كبير من أعيان أوربة فأنتهت في مدح ملكه وتضلعه من أصول السياسة وصواب منهجه ، فقلت : فلم إذا تخاصمونه في الحرية السياسية ؟ فقال : من يضمن لنا بقاء استقامته واستقامة ذريته من بعده ؟

وقد اقتبس بعد ذلك من أحد مؤرخي نابليون قوله : « إن نابليون أخطأ — مع عظمتة — لاستبداده ، ويجب على الأمة الفرنسية أن تتعلم من غلطاته . وإن ما ينبغي أن يستخلص من كل تاريخه أنه لا يليق بأيّ فرنسي أن يهدل حريته لأي أحد ، كما لا ينبغي له الإفراط في حريته حتى تنتهك حرمتها » . وقد أيد خير الدين نظرتة هذه بالرجوع إلى التاريخ ، فاستشهد بالملكة الإسلامية ، بم تقدمت وبم تراجعت ، وبأوربة ، بم تأخرت وبم نهضت وبم نمت . وحمل المسلمين تبعة تأخرهم ، ولكنه لم يهمل نقد أوربة إزاء الدول الإسلامية في تصرفاتها ، وخاصة في مسألة « الامتيازات الأجنبية » استناداً إلى عهود قديمة مضى وقتها ؛ ولم تكف بالعهود ، بل توسعت في تفسيرها ما شاءت لها قوتها . وهذا كله مخالف للقانون الأساسي البديهي ، وهو أن من دخل مملكة فلا بد أن يخضع لأحكامها ، فإذا ادعى أن المملكة الإسلامية متأخرة في نظمها فهناك من هم أكثر تأخرًا منها ، وأوربة لا تطلب امتيازات فيها . وإذا ادعى كراهية بعض عوام المسلمين للنصارى وحيثهم^(١) عليهم أمكننا الادعاء بحق كراهية بعض النصارى للمسلمين وحيثهم عليهم ؛ فلا مبرر إذا لهذه الامتيازات .

يضاف إلى ذلك ما تقوم به بعض ممالك أوربة من وضع المراقيل في سبيل تنظيم الممالك الإسلامية لشئونها ، وإدخال وسائل الإصلاح التي تراها ، وإيقاع الدول الإسلامية في حيرة بين مطالبة لها بالإصلاح وإعاقة للإصلاح .

ثم من أهم العوائق في تقدم المسلمين وجود طائفتين متعاندتين : رجال دين يعلمون الشريعة ولا يعلمون الدنيا ، ويريدون أن يطبقوا أحكام الدين بحذافيرها بقطع النظر عما جدّ واستحدث ؛ ورجال سياسة يعرفون الدنيا ولا يعرفون الدين ، ويريدون أن يطبقوا النظم الأوربية بحذافيرها من غير رجوع إلى الدين . فنقول للأولين : أعرفوا الدنيا ؛ ونقول للآخرين : أعرفوا الدين . فاعتزال العلماء شئون الدنيا ثم تحكمهم ضرر أي ضرر . وجهل رجال السياسة بأصول الدين ضرر مثله . والواجب امتزاج الطائفتين وتعاونهما . فهناك أصول الدين يجب أن تراعى ، وهناك أمور لم يُنصَّ عليها تقتضيها مصالح الأمة يجب أن تقاس بمقياس المنفعة والمضرة ويعمل فيها العقل .

ثم أبان الأسس التي بُنيت عليها المدنية الحديثة التي يمكن اقتباسها ونشرها في المملكة الإسلامية ، كالحرية بنوعها ، وهما : الحرية الشخصية وهي « إطلاق التصرف للإنسان في نفسه وكسبه ، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ، ومساواته لأبناء جنسه في الحقوق والواجبات » ، والحرية السياسية وهي المشاركة في نظام الحكم والمداخلة في اختيار الأصلح — ثم تأسيس القوانين بنوعها ، وهي قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية ، وقوانين حقوق الأهالي فيما بينهم — ثم مسئولية الوزراء أمام الأمة في مجلسها الشورى الخ .

وختم ذلك بإبداء رأيه في أن إيجاد هذه النظم من لوازم وقتنا ، وكل من وقف في سبيلها عديم الأمانة والنصيحة لدولته ووطنه .

هذه زُبدة ما في المقدمة التي تبلغ نحو مائة صفحة ، ومنها نعرف وجهته في الإصلاح . ونعود بعد ذلك إلى متابعة حياته .

— ٤ —

بعد أن ترك خير الدين الوزارة وتخلّى عن الكفاح وانصرف إلى التأليف خلا الجوّ لمصطفى خزنة دار ، يثقل كاهل الشعب بمظالمه ومغائمه . والباي محمد الصادق باشا الذي تولى سنة ١٢٧٦ رجل كَيِّن سهل ناعم ، لا يحب أن يواجه صعوبة ولا يسمع بمشكلة ، يسلم الأمور لوزيريه ولا يسأله عما يفعل ، ولا يهتم منه إلا أن يواليه بالمال الكثير الذي يصرفه في ترفه . والمجلس النيابي الذي أنشئ وجد فيه مصطفى خزنة دار عائقاً لتصرفاته واستبداده ، فألغاه وألغى كل ما تبعه من نظم ، وعادت الأمور إلى مجراها الأول ، واستردّ الوزير حريته في فرض الضرائب وطرق تحصيلها .

وما زال مصطفى خزنة دار يستنزف موارد البلاد حتى نَضَبَ مَعِينُهَا^(١) فأتجه إلى أوربة يستدين منها . وفي أقل من سبع سنوات بلغ الدين (١٥٠ مليون فرنك) .

ووقعت البلاد في شرٍّ مَحْنَةٍ ؛ فمن ناحية ثار الشعب من ضرائب تضاعفت ، بل بلغت في بعض الأحيان ثلاثة أمثالها ، إلى جَوْر وفساد في التحصيل والتوزيع أسلما إلى الإفلاس ، حتى بلغ الحال آخر الأمر أن لم يكن في خزانة الدولة مرتبات أسرة الباى ولا مرتبات الموظفين ورجال الجيش ولا فوائد الديون ، وحتى اضطرّ أوساط الناس إلى إخراج نساءهم لجمع العُشْب وعروق الأشجار للاقتيات بها . ومن كان عنده قليل من المال أخفاه حتى لا يصادر ، وتظاهر بالفقر ، وكان يغلى القمح في الماء ليلا من غير طحن حتى لا يتهم بالرخاء ، وفشا المرض والموت إلى أفظع

(١) المئين : الماء الجارى .

حد ، ومن ناحية أخرى تدخلت الدول الأوربية تريد المحافظة على ديونها .
واقترحت فرنسا تشكيل لجنة مالية ووافقتها إنجلترا وإيطاليا ، وصدر مرسوم
من الباي سنة ١٢٨٦ بتشكيلها من فرنسيين وإنجليز وإيطاليين ، يرأسها موظف
تونسي ، وجعلت مهمتها توحيد الدين وتحديد الفوائد وإدارة المرافق التي
خصصت لهذا الدين .

وهكذا كانت رواية واحدة مثلت مرة في مصر ، ومرة في تونس ، لم
يختلف فيها إلا أشخاص الممثلين .

عند ذاك أتجه الباي إلى خير الدين يطلب منه أن يرأس هذه اللجنة فاعتذر ،
فألح عليه حتى قبل ، وحمل مهمة شاقة في الداخل والخارج ، ومُنح لقب وزير ،
ومن الغريب أن الباي احتفظ بمنصب الوزير الأول لمصطفى خرنه دار ، الذي
أسلم البلاد للدمار ! وليس لهذا سبب إلا ضعف الباي وشله أمامه كما يشلُّ
المصفور أمام الثعبان .

واجه خير الدين مشاكل من أعسر الأمور ؛ فاللجنة المالية المختلطة تريد
أن تضع يدها على كل شيء في الدولة ، لأن كل شيء متصل بالمال ، حتى المعلم
في المدرسة والقاضي في المحكمة ، ولو فعلت لأضاعت استقلال البلاد بتاتا .

ومشكلة ثانية ، وهي كيف ينفذ هذا الشعب بعد ما احترق بالجوع والفقر
والمرض وفقدان الثقة بالحكومة ؟

ومشكلة ثالثة ، وهي بقاء مصطفى خرنه دار رئيسا للوزارة ، وهو البشرة
في المال كشرهه في حب السلطة والجاه . ومن ذاق لذة ذلك لم يفتح عنه اختياراً ،
وهو بطبيعته وتاريخه عدو كل إصلاح ، غيور ممن يشاركه جاهه .

فأما المشكلة الأولى فاستطاع خير الدين — بالمفاوضات الطويلة مع اللجنة
ومع الدول — أن يحصر دائرة نفوذها في موارد محدودة ، وأن ينظم ميزانية الدولة

ويضمن للدائنين دفع الفوائد في حينها ، إلى غير ذلك من وسائل تعهد بها ونفذهما في ضبط وأمانة .

وأما المشكلة الثانية فقد رأى كثرة الضرائب قد أضاعت الزراعة وجعلت البلاد خراباً ، ولم يزرع الناس إذا كان نتاج زرعهم ليس لهم ، وكان زارعهم وغير زارعهم يستويان في الفقر ، تخفف من الضرائب ، ونظم طرق تحصيلها ، وأخذ بالشدة من تلاعب فيها ، وشجع غرس الزيتون والنخيل ، فأعفى كل من غرس منهما جديداً من الضرائب عليها مدة عشرين عاماً ، وأرجع من فرّ من الأهالي لكثرة مطالب الحكومة ، وأسقط ما عليهم ، وأمر بالنظر في شكايات من نُكِب من الناس على يد الحكومة السابقة ، ورد ظلامتهم ، ووضع صندوقاً كبيراً في ميدان تونس يضع فيه كل متظلم ظلامته وأعفاه من التصريح باسمه ، وجعل مفتاح الصندوق معه ، هو الذي يفتحه بنفسه ، وهو الذي يقرأ الظلّامات ويوقع فيها بما يراه من تحقيق العدل .

وأما المشكلة الثالثة فقد ظل في نزال^(١) مع مصطفى خزنة دار حتى زادت فظائمه وانكشفت ، وألح الناس بوجوب عزله ، وسقط سقطة ضبطتها اللجنة المالية ، فعزل من منصبه سنة ١٢٩٠ ، وأقام الناس لذلك من الزينات والأفراح في جميع بلدان القطر ما لم يُسمع بمثله ، وأصدر خير الدين قراراً بمحاكمته على ما اتهم به فحوم ، وألزم بدفع خمسة وعشرين مليون فرنك .

وبذلك ختمت حياة مصطفى خزنة دار السياسية ، وهي حياة تعدّ مأساة الأمة ، من ناحية موت الضمير في رجل وُكِّلَتْ إليه شؤون البلاد في أوقات حرجة ملأى بالمطامع الدولية ، ومن ناحية خنوع الشعب لهذا الرجل ومظالمه مدة تزيد على ثلاثين عاماً ، من غير أن يكون هناك رأى عامٌ يزلزله وينجيّه ،

(١) نزال : هراك .

وقوة الاحتمال في مثل هذه الأحوال رذيلة من أكبر ما تُمنَى^(١) به الشعوب .
من ذلك الحين كان خير الدين هو الوزير الأول ، أطلقت يده فيما يرى من
إصلاح ، ولا يغفل يده إلا مطامع الدول .

تولى إصلاح القطر من جميع نواحيه السياسية والزراعية والتعليمية
والاقتصادية والمالية والإدارية والقضائية .

فسلك من قناصل الدول مسلكاً حازماً صريحاً ، يُضغى إلى طلباتهم المعقولة
ويرفض غير المعقولة ، مع ذكر الأسباب المفصلة للرفض ، فلا يُدَاهِنُ ولا يُرَائِي .
ولذلك احتراموه ولو خالفوه ، وقد يضعون العقبات في سبيله باطلاً ، ولكنهم
يُجاملونه ظاهراً .

وقسم الأراضي الزراعية إلى مناطق ، وتحرى اختيار الأمناء لجلب الضرائب ،
ومن سهل عليه دفع الضريبة نقداً فعل ، أو محصولاً فعل ، ونكل بمن ثبتت
عليه الخيانة من الجباة ، ونظم العلاقات بين الملاك والمزارعين وبين الملاك
والحكومة . وألغى الضرائب غير المعقولة وغير المستطاعة ، وأبطل الحملات
العسكرية لتحصيل الضرائب بالقوة ، لأنها كثيراً ما كانت تؤول إلى أعمال
السلب والنهب ، فعادت للناس طمأنينتهم ، وعادت للحكومة هيبتها واحترامها ،
وانصرف الناس إلى الزراعة بعد أن كانوا ينصرفون عنها . ولما ترك الحكم كانت
مساحة الأرض المستغلة مليون هكتار ، وكانت حين تسلم زمام الحكم ستين ألفاً .
وفي التعليم أنشأ مدرسة عصرية تعلم فيها العلوم العربية والشرعية ، وبجانبها
الثقافة العصرية مع تعليم اللغات التركية والفرنسية والإيطالية ، وأصلح التعليم
بجامع الزيتونة ، وجمع الكتب المبعثرة في المساجد ، وكون بها مكتبة كبيرة ،
ووهب لها من عنده ألفاً ومائة كتاب مخطوط ، ونظمها تنظيماً حديثاً ، وحسن

(١) تمنى : تصاب .

مطبعة الدولة ووَكَّل إليها نشر الكتب العلمية والأدبية ، وأصلح إدارة « الرائد التونسي » وهي الصحيفة الرسمية للحكومة ، وشجع على نشر المقالات فيها ، كان ينشر فيها أفكاره السياسية ، وألزم الموظفين بقراءتها ، والتفت إلى الناحية الاقتصادية ، فنظم الجمرک ورفع ضريبة الاستيراد ٥ ٪ وخفض ضريبة الإصدار ، وأنشأ الخافر الجمرکی لمنع التهريب . ونظم الوظائف الحكومية وعيّن مرتباتها ؛ كما حدّد مرتبات القصر ، ووضع ميزانية الدولة على أساس صحيح ، وضبط المكاتبات في الدواوين ، وأنشأ السجلات للصادر والوارد ، ورتّبها حتى يسهل الرجوع إليها .

وجدّ في إحياء الصناعات المغربية كالنقش على الجصّ والقباب ، وكان يأتي بمهرة الصناع من البلاد ، وَيَعْمَدُ إليهم بتعليم طائفة من الشبان . ونظم الأوقاف وكانت فوضى في البيع والشراء وصرف الرّيع ، بعد أن كانت قد آلت أعيانها إلى الخراب ، فجمعها في إدارة واحدة ، وجعل عليها السيد محمد يرم ومعه مجلس يُعِينُهُ في تنظيمها .

ونظر فرأى الناحية التشريعية والقضائية في البلاد مضطربة ، والأجانب لا يخضعون لقانون البلاد ، وليس من السهل إقناعهم بالخضوع ، إذ ليس في البلاد قانون ، فكان لكل من المذهب الحنفي والمالكي قاض مطلق الحكم في الحوادث ، وقد يحدث أن الحادثين المتشابهين يقضى فيهما قضاءان مختلفان . ومن المبادئ التي يدين بها الأجانب أن تكون القوانين معروفة قبل الأحداث ، ليست مجالا للاجتهاد ولا التلاعب ، فعهد خير الدين إلى مختصين بدراسة القوانين المعمول بها في الدولة العثمانية وفي مصر وفي أوربة ، وأن يستخرجوا منها قانونا يناسب القطر التونسي ، واستمرت اللجنة في عملها ، ولكن خرج الوزير من الوزارة قبل أن يتم .

هكذا نقل البلاد من حالة كَرْب وضيق وظلم وفوضى إلى حالة أمن ورخاء ،
وضبط ونظام ، ورقى في كل مرفق من مرافق الحياة ، وكأنه بذلك كان يستمل
نهضة مصر فيدخلها معدلة في بلاده .

أما المشاكل الدولية التي كانت أمامه فمعقدة مشتبكة ملتوية : فرنسا تنظر
إلى تونس نظرة الصائد نشر شبكته ، تحاول أن تجرد من كل حادثة منفذاً لتدخلها ،
فإذا لم تجرد الحادثة خلقتها خلقاً ، وتدعى أن لها الحق فيما لها فيه حق وما ليس لها
فيه حق ، وتصطنع الرجال تمنّيهم المناصب الكبيرة حتى منصب الباي ، إذا هم
أعانوها وفسحوا الطريق أمامها لبسط حمايتها .

وإيطاليا ليست أقل من فرنسا مطمعا . ولما حدثت الحرب بين فرنسا
وألمانيا سنة ١٢٨٨ هـ — ١٨٧١ م ، وخرجت منها فرنسا منهزمة اشتدت مطامع
إيطاليا وجدت في سعيها لتوسيع نفوذها ، فكانت تونس مسرحاً لتسابق
الدولتين ، كل تدبر دسائسها ، وكل توعز إلى جرائدها بما يتفق ومصلحتها .
وسط هذه المطامع والتذر بالخطر رأى خير الدين أن يضرب الدولتين بعضهما
ببعض ، وأن يقوئ الصلة بين تونس والدولة العثمانية ، لأن تونس لا تستطيع
القيام بنفسها ، فرسم خطة توثيق الصلات وتحديد العلاقات بينهما ، وكانت
علاقات غامضة غير محدودة ، فسعى سعيًا متواصلاً ، وخاطب الباب العالي في هذا
للشأن وشرح له وجهة نظره ، فأجيب إليه طلبه . وطلب الباب العالي إرسال
مندوب إلى استامبول للمفاوضة في هذا الأمر ، فوقع الاختيار على خير الدين
نفسه ، فسافر وفافض ونجح في استصدار فرمان يحدد هذه العلاقة ، ويقرر أن
تونس إيالة عثمانية ولوايها الحق في تولية المناصب الشرعية والعسكرية والملكية
والمالية لمن يكون أهلاً لها ، وفي العزل عنها بمقتضى قوانين العدل ، وفي إجراء
المعاملات المعتادة مع الدول الأجنبية ، ما عدا الأمور السياسية التي تمس حقوق

الدولة العثمانية ، كأصول السياسة والحرب وتغيير الحدود ، كما تتضمن إقرار الوراثة في العائلة المالكة ، مع المحافظة على الخطبة للسلطان وضرب السكة^(١) باسمه ، وإجراء الأمور الداخلية في البلاد على قوانين الشرع ومراعاة قواعد العدل التي يقتضيها الوقت والحال ، والتي تؤمن الناس في النفس والعرض والمال . وقد صدر هذا فرمان سنة ١٢٨٨ ، واستقبله الأهالي بالسرور .

وأخذ الباب العالي على عاتقه السعي في موافقة الدول عليه ، ولكن مشاكله واضطراب أموره الداخلية والخارجية حالا دون إتمامه ، وأبت فرنسا الموافقة عليه لأنه يعوقها عما تنويه لتونس .

هذه خطة خير الدين ، لإصلاح في الداخل في كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ، وإصلاح في الخارج بربط البلاد بالدولة العثمانية ربطاً وثيقاً يناهض به أطماع فرنسا وإيطاليا . ولكن عودنا التاريخ ألا يأتي مصلح بمثل ما أتى به خير الدين إلا أودى .

بعد أن سار شوطاً بعيداً في طرق الإصلاح كانت تتجمع عناصر مختلفة تعاديه ، وتضع العراقيل في سبيله ، وتشيع الأخبار عن خيافته وسوء قصده ، وتفسر بالشر بعض ما يأتي من الخير ، وتجتسم بعض ما يرتكب من أخطاء ، ولا بد لكل مصلح من أخطاء .

فالباي (محمد الصادق) كان مصطفى خزنة دار الناهب السارق الخائن أحب إليه من خير الدين النزيه العادل الحازم ؛ فهذا لم يكن يعطيه من المال إلا ما تقرر له في الميزانية ، وذلك يعطيه ما يشتهي ليأخذ لنفسه ما يشتهي ؛ وهذا حازم لا يجيز

(١) السكة : الأداة التي تضرب عليها النقود المعدنية .

من الأمر إلا ما وافق العدالة ومصلحة الشعب ، وذلك يقبل الشفاعة والرجاء ولو على حساب العدالة ومصلحة الشعب ؛ وهذا جاذ خشن الملمس ، وذلك ناعم هين لين ، والأمراء من مثل « الباي » يرضيهم المظهر ومن يجيب رغباتهم ، أكثر مما يرضيهم المخبر ومن يقدر التبعات .

لذلك كرهه الباي وعاداه ، ولكنه رأى تعلق الناس به فجاراه وداراه ، وخالفه سرّاً ووافقّه جهراً .

ثم هناك أعوان مصطفى خزنة دار الدين كانوا يأكلون من فُتات مائدته ، ويسرقون درهماً إذا سرق ألفاً ، ويكسبون بالوساطة والشفاعة ، وينهبون من الضرائب غير المضبوطة ، قد رأوا خير الدين يسدّ في وجوههم الباب ويحصنه بالعدالة ، ويضع من النظم ما يفقرهم ليغني الشعب ، — هؤلاء الذين لا يعجبهم النور ، وإنما يعجبهم الظلام ، قد كرهوه أيضاً ، وأخذوا يدشّون له الدسائس وينصبون له الشبّاك .

وهؤلاء أيضاً فئة اشترت ذممهم إيطالياً أو فرنسا ومنتهم الأمانى بالمناصب والمغانم إذا هم أعانوها في خطتها ، دبّروا لها الاضطراب الذي يمكن من سلطانها ، وخلقوا الأحداث التي تتركن عليها في تدخلها .

وهذه فرنسا كرهت أشدّ الكره من خير الدين ما يقوم به من حركات لربط تونس بالدولة العلية ربطاً محكماً ؛ فهي تريد عزّلتها ليسهل الاستيلاء عليها ، حتى إنه في إحدى سفرات خير الدين إلى استامبول ركب السفينة من ميناء تونس وقبل أن تُقلع أعلن أن قادماً أتى لزيارته ، وإذا هذا القادم هو القومندان المساعد لبارجة فرنسية كانت راسية في الميناء ، فسأله : هل يعتزم السفر ؟

أجاب : نعم . فقال : إن قائده يرجو منه أن يؤخر سفره يومين أو ثلاثة حتى يتلقى التفصيل التعليمات من باريس .

خير الدين : أنت رجل عسكري مثلي تعلم أني لا أستطيع مخافة أمر حكومتى إلا إذا خالفت واجبى ، ولست أملك حرية الاختيار بين طاعتي للواجب ، ومجاملتي لقائدك ، وإذا فأنا راحل في الساعة التي حددتها .
الضابط : في هذه الحالة أحذرك وأندرك بأن قائدى — مع الأسف — سيمنعك بالقوة .

خير الدين : كان الأولى أن تبدأ مهمتك بهذا الكلام ، ولست في منزلة تجعلنى أتلقى الأوامر من قائدك ، ولست مغيراً لقرارى ، والحكومة التونسية مطلقة الحرية في تصرفها . وسأمنحك الوقت الكافى للعودة إلى بارجتك وتبليغ قائدك ما قلت ، وستقوم الباخرة في موعدها ، وإذا كان قائدك سينفذ تهديده فإنى أعرف كيف أقابله بالمثل وبالوسائل التي أملكها وأحمله تبعه ما يحدث .
وتحركت السفينة في المساء وطاردها البارجة الفرنسية ترسل الإشارات بالوعيد وتأسر بالوقوف من غير جدوى حتى الصباح ، واستمر في طريقه ، وعادت البارجة الفرنسية .

كل هذه القوى تجمعت لمعاكسته في وزارته ، وانهزت الفرصة لاثامه بما يسقط منزلته . وربما كان أهم ما وجه إليه من تهمة أمران :
(١) اتهمه خصومه السياسيون بأنه منح امتيازاً لشركة فرنسية بمد خط حديدى بين تونس والجزائر ، وهو يعلم مطاعم فرنسا ويعلم امتلاكها للجزائر ، فمد هذا الخط يمكنها عند إرادتها احتلال تونس أن تغزوها من الجزائر . وفي ذلك خطر أى خطر ، وقد أطنبوا في هذه التهمة ، وأحكوا خططهم ، وأرادوا أن يضربوا عصفورين بحجر ؛ فمن ناحية يسيئون سمعته عند المواطنين الوطنيين ، ومن ناحية يشوهون منزلته عند الدولة العثمانية التي تعتقد أنه رجلها ، يعمل لصالحها وصالح تونس بربط العلاقة الوثيقة بينهما .

وكان دفاع خير الدين وحزبه عن التهمة أن لهذه المسألة تاريخاً ، وهو أنه في عهد وزارة مصطفى خزنة دار طلبت شركة إنجليزية مد خط حديدي بين تونس ومينائها « حلق الوادي » فأجيب إلى طلبها ، وأنشأته فعلاً ثم باعتها إلى شركة إيطالية ، وبعد مدة وجيزة طلبت شركة إنجليزية أخرى مد خط يسير من تونس إلى داخل البلاد حتى سوق العرب ، ثم يمتد إلى « كيف » مركز الصناعة الزراعية في البلاد ، وينتهي في منتصف الطريق بين ولاية تونس وحدود الجزائر ، فنصحت الشركة الامتياز لأن الباي ومجلسه كانا متفقين على أن من مصلحة البلاد الإكثار من مد الخطوط لتسهيل المواصلات . ولكن هذه الشركة لم تنجح في جمع رأس المال لهذا الخط ، فطلبت مساهمة الحكومة بنسبة الربع في النفقات ، فلم تُجب إلى ذلك ، وطلبت مهلة بعد مهلة دون أن تبدأ في العمل ، فسقط الامتياز من نفسه .

وفي وزارة خير الدين طلبت شركة فرنسية الإذن لها بمد خط بين تونس والجزائر ، فرفض خير الدين بحجة أن المسألة تتصل بالحدود ، والباب العالي وحده هو صاحب الحق — بمقتضى فرمان — في التصرف في هذا الشأن ، فلا يمكنه أن يتفق مع الشركة بدون استشارته ، ورأت الشركة أن هذا يورطها ، وأقل ما فيه أن طلبها من الباب العالي ذلك اعتراف منها بسيادته على تونس ، فعدلت مطالبها وطلبت أن تحمل محل الشركة الإنجليزية في مشروعها بالشروط نفسها ، وهذا يجعل الأمر في يد الحكومة التونسية لأنه لا يصل إلى الحدود ، وعرض خير الدين الأمر على مجلس الوزراء ، فأجاب طلب الشركة .

وبعد ثمانية أشهر من اعتزاله الحكم عرضت الشركة تكملة الخط إلى حدود الجزائر ، فأجيب إلى طلبها .

قال خير الدين : إنه لم يسمح بمد الخط إلى الحدود ، وإنه لو لم يسمح لفرنسا

بما سمع به لا جلترا المنشآت عن ذلك مشكلة دولية لم يكن فيها موقفه قويا ، ثم إن مد الخطوط الحديدية من مصالح الدول ، ومن الخير أن تنشئها الدولة أو الأهالي ، وليس ذلك في الإمكان ، فالحكومة فقيرة تبتلع أكثر ميزانيتها فوائد الديون ، والأهالي فقراء جهلاء أو أغنياء لا علم لهم بالشركات ، ولا قدرة لهم على إدارتها ، فلم يبق إلا منحها للشركات الأجنبية أو عدم إنشائها بتاتا .

والحق أن مركز خير الدين فيه بعض الضعف . فتعديل الشركة مطلبها واقتصارها على جزء من الطريق يُفهم منه البدهاة أنها تريد وضع رجلها في مركز تثبُّ منه إلى الحدود كما حدث فعلا . فالخزم كان يقتضى المنع بتاتا ، إذ من الواضح أنها جرأت مطلبها على دفعتين بعد أن طلبته دفعة واحدة ، والنتيجة واحدة .

وكانه أحس بضعف حجته هذه فحاول أن يريح ضميره بعد سقوط تونس إذ قال : « على أن الفرنسيين عند غزوهم تونس أنزلوا قواتهم في طبرق وبنزرت ، واجتازوا منها الحدود إلى تونس ، دون أن يعتمدوا على السكة الحديدية المذكورة التي كانت في بداية إنشائها » .

كما قال : إن إنشاء هذا الخط ليس هو الذي أضاع تونس ، ولا عدم إنشائه كان يحميها ، لأن مركز تونس لم يكن يحميه إلا الضمير الأوربي الذي كان يوجب المحافظة على وحدة الدولة العثمانية . وما دامت أوربة سمحت لفرنسا بالانقضاض على فريسة هيئة كتونس فخط الحديد لا يقدم ولا يؤخر . وهذا ضرب من اليأس لا يصح أن يتسرّب إلى نفس المصلح .

ونقده بعضهم بأنه أيام وزارته الثانية جاء فرأى قوانين الشورى ملغاة ، فلم يعمل على إعادتها وإصلاح ما كان قد ظهر من عيوبها ، بل حكم البلاد حكما استبداديا وإن كان عادلا ، وهو هو الذي طالما مجد الشورى في كتاباته وفي مقدمة

كتابه ، وطالما قال : إن الحاكم الذى يحكم بأمره وإن كان عادلا ليس لعدله ضمان ، إذ هو موقوف بوقته ، فكان واجبا عليه — وقد ملك زمام الأمر — أن يعيد الحكم النيابى ويقويه فى البلاد ، حتى يذوق الناس لذته ويفهموا فائدته .

وكانت حجته فى الرد عليهم أن الحكم النيابى فى المملكة الإسلامية لا يتيسر إلا بأحد أمرين : رغبة الملك أو الأمير فى ذلك ، أو قوة رأى العام وثورته للمطالبة بهذا الحق ، على الرغم من رغبة الملك أو الأمير ، والأمران مفقودان فى تونس ؛ فالباى يكره الحكم النيابى ولا يطيقه ، والرأى العام جاهل خاضع ، وليس يفهم مزايا الحكم النيابى إلا أفراد معدودون ليس لرأيهم قوة التنفيذ . وهب أن الباي قبل النظام النيابى أليس فى إمكانه إلغاؤه — كما حدث — عند سنوح الفرصة مادامت الأمة ليس فيها من يحميه ويمرص عليه ، والعالمون بالأمور يرون أن حجته فى ذلك واهية ؛ فعندما أسندت إليه الوزارة كان قويا ، وكان الباي والناس يرون فيه المنقذ الوحيد لما آلت إليه الحال ، فلو تشدد فى عدم قبوله الحكم إلا بالنظام النيابى لاضطر الباي أن يجيبه إلى مطلبه ، وفى مدته كان فى إمكانه تدعيمه حتى يألفه الناس ويطمئنوا إليه ، ويشعروا أنه حاجة ضرورية من حاجاتهم .

وعلى الجملة فهذا خير الدين بماله وما عليه ، حكم البلاد مرة ثانية حكما استبداديا ولكنه عادل ، وتولى أمر البلاد وهى فوضى فى كل ناحية من نواحيها ، فعالجها بحزم وضبط وقوة ، وقبض بيد من حديد على المفسدين والمتلاعبين ، ودفع البلاد إلى الأمام بأقصى ما يستطيع من قوة ، وعالج فى كياسة التيارات السياسية فى أخرج أوقاتهما ، ولكن كان شأنه فى ذلك شأن كل مستبد عادل ، يزول فيزول بزواله كل إصلاح ، وترجع الأمور إلى ما كانت عليه من اضطراب وفساد .

لقد سمع الباي إلى الوشاة فصدا عنه ؛ وأوسع الطريق أمام الدسائين يدسون

له ويشيرون الأراجيف^(١) حوله حتى بالمتناقضات ؛ ففريق يقول إنه يريد تسليم البلاد لفرنسا بدليل مسألة السكة الحديدية ، وآخرون يقولون إنه يريد تسليم البلاد للدولة العلية وسلبها استقلالها بدليل مساعيه المختلفة في هذا الطريق . وقد نصح له بعضهم في هذا الموقف بأن يشرك معه الوزراء في تصرفاته ، وتحمل المسئوليات معه ، وأن يقسم الإدارة إلى أقسام ، ويجعل على كل قسم رئيساً يلقب بوزير يتحمل المسئولية في اختصاصه ، ولا يرجع إليه هو إلا في الأمور المهمة ، وبذلك توزع الأعباء والمسئوليات ، ولكنه كان من الأشخاص الذين ضعفت ثقتهم بكل من حولهم ، وشك في كل الرجال الذين ناصروا العهد الماضي ، ولم يؤمن إلا بالله ونفسه . فخشي أن هو فعل ذلك أن يتلاعب من يسند إليهم العمل فيما يتولونه ويعقدوا له من المشاكل أكثر مما يحلون ، فرفض هذا وظل قابضاً على زمان كل الأمور .

نجحت دسائس الدساسين فباعدوا بينه وبين الوالى ، وزاد الأمر سوءاً أن الدولة العثمانية كانت قد دخلت في حرب مع روسيا ، وطلب الباب العالى المعونة من الولايات ومنها تونس ، فتراخى الباي عن إجابة هذا الطلب ، وتحمس خير الدين ودعا الأهالى إلى التطوع فتطوعوا ، وأرسل ما تطوعوا به إلى الباب العالى ، فازداد الباي نفوراً منه لأنه لم يكن يسره الارتباط الوثيق بين تونس والدولة العثمانية .

وكان أخشى ما يخشاه الباي هياج الأهالى لعزله ، لتعلقهم به وإظهار تعلقهم به في المناسبات المختلفة اعترافاً منهم بحميلة . فلما كثرت الإشاعات حوله انتهز الباي الفرصة وأشعره بعدم رضاه عنه ، فقدم خير الدين استقالته قبلها الباي ، وكان ذلك سنة ١٢٩٤ ، وأمر الباي الموظفين بتجنبه حتى خاصة أصدقائه ، وقد

(١) الأراجيف : الأخبار الكاذبة السيئة .

استأذن الوزراء الباي في زيارة خير الدين عقب استقالته فلم يأذن لهم ، وأرصدت حول داره العيون^(١) ، فكان في حقيقة الأمر معتقلاً ، ولما سئم هذا العيش استأذن في السفر إلى أوربة لمداواة أعصابه ، فامتنع الباي أولاً ورضى أخيراً ، ثم طلب العودة على أن يؤمن على حريته الشخصية من غير أن يتدخل في الأمور السياسية ، فلم يُرَدَّ على طلبه بقول ولا رفض ، فحضر بنفسه من غير أمان وضيق عليه أكثر مما كان .

— ٦ —

قضى خير الدين — بعد اعتزاله الوزارة — أعواماً سوداً ، فقد كان أشبه بسجين لا يزور ولا يُزار ، ولم يتجه إلى التأليف يتسلى به كما فعل في العهد الماضي ، إذ كان في المرة الماضية شاباً آملاً ، فأمسى في هذه المرة شيخاً يائساً ، يرى كل ما بناء من إصلاح وما وضعه من خطط يهدم على يد الباي وأعوانه حجراً فحجراً ، وفرنسا تتقدم للقضاء على استقلال البلاد خطوة بخطوة ؛ ثم إذا هو ضاق صدره بما يرى ، وتهدمت أعصابه مما يفكر ، سافر إلى أوربة يظن أن فيها سعة من ضيق ، فإذا هي ضيق فوق ضيق ، لا يلبث حتى يشعر بالحنين إلى بلاده ، فعل هذا مرتين ، فكان يستشفى من داء بداء .

وأخيراً وصلت إليه برقية من كبير الأمراء يأمره فيها بالحضور إلى الأستانة ، فأطلع عليها الباي فتردد في الإذن له ، وشاور قناصل الدول فأشاروا عليه بأن يسمح له ، فسافر في شهر رمضان سنة ١٢٩٥ ، وكان سفيراً حزيناً تعطف عليه قلوب الناس ولا يتيسر لهم وداعه ، لأن الباي أمر أن لا وداع ، وترك أسرته وماله في حماية من لا يوثق بهم في الحماية ، وقد كان له أملاك كثيرة : ثلاثة قصور أهداها إليه

(١) العيون : الجواسيس .

البايات المتعاقبة جزاء له على خدمته أيام رضاهم عنه ، وغابة من شجر الزيتون أهداها إليه الباي أحمد ، ومنزل كبير به مياه معدنية أهداه إليه الباي محمد ، وضيعة كبيرة منحها له الباي محمد الصادق ، وقد أراد أن يبيع كل هذه الأملاك لعزمه على الاستقرار في الأستانة ، فعرضها على الحكومة التونسية فأبت شرائها ، فأمر وكيله أن يعلن الأهالي التونسيين بخفض أسعارها ، فلم يتقدم أحد خوفاً من الباي ورجال حكومته ، فلما اضطر إلى بيعها للفرنسيين بعد سنة من إعلانه نقدوه نقداً مرّاً ، فكان الأمر كما قال أبو العلاء :

عَنبٍ وَخمرٍ في الإِناءِ وَشارِبٌ فمن المَلُومُ : أعاصِرُ أم حَاسِي (١)

* * *

وصل إلى الأستانة فوجد في انتظاره سليمان باشا مندوب السلطان عبد الحميد وحمدى باشا كبير الأمناء وعلى فتواد بك السكرتير الأول للسلطان ، وتوجه إلى قصر يلدز وقيد اسمه فدُعِيَ للمقابلة في المساء نفسه ، وتحدث معه السلطان طويلاً ، واستبقاه للعشاء ليكتنه كنهه ويذنه بموازينه .

وأمر السلطان فأعد له جناح في قصر من قصوره الكبيرة ، وأرسل سليمان باشا إلى تونس ليعود بأسرة خير الدين .

وسرعان ما عُيِّنَ وزير دولة ، فكان يدعى لحضور مجلس الوزراء عندما يجتمع لبحث المسائل الخطيرة ، ولم يمض شهر حتى سمع من كبير الوزراء أن السلطان يرشحه لوزارة العدل ، فرجا منه ورجا من كل من توثق فيه الجاه أن يسعى لعدم إتمام ذلك فلم يقد شيئاً ، فذهب لمقابلة السلطان نفسه وتوسل إليه أن يُعْفِيَهُ من ذلك فقبل رجاءه وأعفاه .

وكانت أكبر حجة له في الاعتذار أنه لا يستطيع خدمة البلاد — وخاصة

(١) الحاسي : الشارب .

من طريق الوزارة — إلا إذا عاش فيها زمناً طويلاً ، عرف أهلها ودرس شئونها وتعرف كُنْه^(١) أمورها ووجوه الإصلاح فيها .

هذا ما كان يقوله . وأما ما يبطنه فهو أنه يرى أيضاً أن الدولة العثمانية أصبحت من المرض بحيث لا يُرْجَى لها علاج في وضعها الحاضر ، ثم هو دائم الحنين لتونس إذ صارت وطنه يأنس بها ويستوحش من فراقها ، ويفضل أن يكون فرداً آمناً فيها على أن يكون وزيراً في غيرها .

هذا الذي كان يعتذر في إلحاح عن الوزارة يُدْعَى إلى يلدز في الصباح المبكر يوم ٤ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م = ١٢٩٥ هـ ويقابل السلطان فيخبره أنه عُيِّن رئيساً للوزارة ، ولما أراد أن يعتذر أبلغه أنه أمضى الرسوم ولم يعد في الإمكان إلغاؤه بحال .

أصبح خير الدين صديراً أعظم في أيام تواجه فيها الدولة العثمانية شدائد من أخطر الأمور وأشدّها تعقيداً وارتباكاً .

فتركيا في حرب مع الروس ومنهزمة أمامهم ، وجيوش الروس تتقدم وتهدد العاصمة نفسها . والأسطول البريطاني في مياه البسفور . وحالة البلاد الداخلية من مالية واقتصادية ونفسية من أسوأ الحالات ، حتى كان أصحاب الخايّز يفضلون إغلاق مخابزهم على التعامل بنقود متدهورة تكاد تكون فاقدة القيمة ، و ٣٨٠٠٠٠٠ مهاجر لا مورد لهم ولا مُعِين يزحفون على العاصمة . ومعاهدة سان ستيفانو التي عقدت في برلين سنة ١٨٧٨ كانت طويلة الذيل تتطلب عقد معاهدة بين تركيا وروسيا في الأمور الخاصة بهما . وأبى الروسُ الجلاء عن أراضي الدولة العثمانية حتى تتم المعاهدة ، وأبى الإنجليز سحب أسطولهم حتى تجلو الجيوش الروسية . ومشكلة قبرص معلقة ، والحالة مرتبكة مع النمسا لاحتلالها البوسنة ، ومشكلة الأرمن قائمة .

(١) كنه الأمور : باطنها وحقيقتها .

في هذا الأتون المستعر^(١) وُضِعَ خير الدين ليطفي النار . وأى قدرة تستطيع إطفاءها من غير حرائق ؟ . لقد كانت سياسته « إنقاذ ما يمكن إنقاذه » . فبذل كل ما يستطيع من رأى وجهه حتى كان الاتفاق مع روسيا ، ووضعت ضمانات تكفل مصالح المسلمين في بلغاريا ورومللى الشرفى ، وخفضت التعويضات الحربية تخفيضاً كبيراً ، وانسحبت الجيوش الروسية إلى بلغاريا ورومللى ، كما انسحب الأسطول البريطانى من بحر مرمرة ، وسوّى الخلاف بين تركيا والنمسا بما حفظ لتركيا كثيراً من حقوقها . وحلت مشكلة الأرمن التى استعصت على الحل نحو عشر سنوات إلخ إلخ ، وبسياسته حقاً أنقذ ما يمكن إنقاذه .

وفى أيام وزارته هذه كانت مشكلة مصر الكبرى فى آخر عهد الخديو إسماعيل ، فإنه لما اضطربت الحالة المالية والسياسية فى مصر عرّضت إنجلترا وفرنسا على التدخل فى شئونها تدخلاً آخر جديداً ؛ فأرسلتا إلى قنصليهما فى مصر ليطلبا من الخديو إسماعيل نزوله عن العرش لأكبر أبنائه « توفيق » فأبى إسماعيل محتجاً بأن ذلك من حق الباب العالى وحده ، مؤملاً أن يرفض هذا الباب العالى مطلب الدول . وزاد الأمر سوءاً أن قنصلى ألمانيا والنمسا انضما فى رأى إلى قنصلى إنجلترا وفرنسا ، فكانت هذه مشكلة جديدة أمام خير الدين فى الأستانة ، إن هو أجاب فقد سمح للدول الأوربية بالتدخل فيما ليس من حقها ، وإن هو رفض خشى أن تتجمع هذه الدول وتُصمَّم ، وتفعل بالقوة أكثر مما تصل إليه بالمفاوضة ، وتقطع العلاقة الباقية بين مصر والدولة العثمانية ، وتنتهز الفرصة السانحة فتلتهم إحداها مصر والأخرى تونس إلخ .

حار خير الدين طويلاً بين الرايين هو ووزراؤه وسلطاناه ، وأخيراً كان من رأيه أن يطأطئ الرأس قليلاً أمام العاصفة ، ويشير على السلطان بخلع إسماعيل ،

(١) الأتون المستعر : الموقد المشتعل .

ولكن يجب أن يعمل شيئاً آخر مع هذا ، وهو أن يتلافى الأسباب التي جرّت إلى هذا التدخل الأجنبي ، فيسلب بعض الحقوق التي أعطيت للخديوى مصر ، كالاستدانة وعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية ، فينتهز هذه الفرصة لتعديل فرمان مصر . ولكن أبت إنجلترا وفرنسا ذلك ، لأن هذا يزيد في تبعيّة مصر للدولة العثمانية ، ومن مصلحتهما أن تكون حقوق مصر أوسع وسلطتها أكبر للنتيجة المنتظرة .

وصدر الأمر بعزل الخديو إسماعيل ، وكثر الأخذ والردّ في مسألة تعديل فرمان حتى خرج خير الدين من الوزارة ، فأجابت الوزارة التي تلتها مطالب الدول في إصدار فرمان المعتاد مع بعض التعديلات .

* * *

ثمانية أشهر قضّاها رئيس وزارة كانت أعباؤها تساوى ثمانين عاماً . ولولا ما عهد إليه من حل المشاكل ما بقى هذه الأشهر الثمانية ، ففيه من الصفات ما لا يتفق ومراج السلطان عبد الحميد : حرّ الفكر ، واسع النظر ، متحمّس في تحقيق الإصلاح ، مرهف الحس في العدالة وما يتعلق بها ؛ يرى أنه وقد عين رئيساً للوزراء يجب أن يتحمل المسؤولية ، فيصرف الأمور كما يرى هو وزملاؤه ليتحمل نتائج رأيه ؛ فأما أن يأمره السلطان ويتحمل هو المسؤولية فليس حقاً ولا عدلاً ، السلطان يريد عبداً مأموراً ، وهو يريد نفسه حراً مستولاً ؛ لهذا نفرّ منه السلطان كما نفرّ منه الباي من قبل .

وتألّب عليه أيضاً رجال الدين^(١) ، إذ كره منهم ضيق عقلهم وتعرضهم لما ليس من شأنهم ، وتدخلهم في أمور من السياسة لا يحسنونها ، وكرهوا هم منه الوقوف أمامهم وضغطه عليهم .

(١) تألبوا عليه : تجمعوا .

لكل هذا عُزِلَ خير الدين بعد ثمانية أشهر في قسوة ، وما كان أقربَ
مآتمه من عُرْسِه ! وأدرك عبد الحميد أن قد خابت فراسته فيه ، وظل بعد ذلك
نحو عشر سنين في مقاعد النظارة . لا يمثّل على المسرح شيئاً . وكل ما يرى
مأس لا ملهاة فيها .

ومات وهو في الآستانة في سنة ١٨٨٩ م — ١٣٠٧ م عن نحو سبعين عاماً ،
ودُفِنَ في جامع أيوب ، وخلف تاريخاً في الإصلاح حافلاً ، وكفاحاً للفساد
طويلاً ، وذنبة أنه لم يجد مَوَاتِيًّا^(١) من الشعب ولا مؤازراً من السلطان .
لقد كان مصلحاً اجتماعياً وسياسياً من جنس مدحت باشا ، غير أن الفرق
بينهما كالفرق بين السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ؛ فمدحت يصلح ، فإن
عجز عن الإصلاح ثار ودبّر الانقلاب ، وخير الدين يصلح ، فإن عجز عن
الإصلاح رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إني قد بلغت » .
وكانت فضائله التي تكون شخصية الجراءة في قول الحق ، وعمله من غير
خوف ، وصلابته فيما يعتقد من غير انحناء ، وحريته في تفكيره من غير جمود ،
وقوة كواهله^(٢) على حمل الأعباء من غير تبرّم . فرحمه الله .

(١) مواتياً : معواناً يوافقه .

(٢) الكواهل : جمع كاهل ، وهو أعلى الظهر بما يلي العنق .

على بابنا مبارك

(١٢٣٩ - ١٣١١ هـ = ١٨٢٣ - ١٨٩٣ م)

« برّ نبال » الجديدة قرية صغيرة كسائر قرى الفلاحين بمصر تابعة لمركز (دكرنس) من مديرية (الدقهلية) تقع على البحر الصغير ، بها أربع حارات ، ومرافقها الاجتماعية : مسجد للصلاة ، وكتاب لتعليم القرآن ، ودكان لعطار ، ومعملان لتفريخ الدجاج ، وأربعة أنوال يدوية لنسج الصوف ، ودكانان لصبغ الثياب البيضاء صبغة زرقاء ، وضريحان لوليين يستشفى بهما الأهالي لقضاء الحوائج ، وأربع مضاف لكل حارة مضيئة ، تقام فيها مآتم الحارة وأفراحها واحتفالاتها في الأعياد والمواسم ، وباعة صغار لبيع الخضروما إليها ، وبعض صنّاع يقومون بصناعة ساذجة كنجان للسواق ونوّتي للعراكب تجرى في البحر الصغير ؛ وفي الجهة القبليّة منها جبانة لدفن الموتى ، وحولها الأراضي الزراعية ليس فيها من الأشجار إلا نخلتان .

يسكن حارة من حاراتها أسرة تتكون من نحو مائتي شخص يعيش أفرادها كسائر الفلاحين بيئاتهم ودواجنهم وأدواتهم الزراعية ، وعلى رأسهم الشيخ مبارك ، وكان يقوم بكل الشؤون الدينية في القرية ، فهو إمام مسجدتها وخطيبه وهو (مأذونها) يعقد عقود زواجها ، ويسجل صيغ طلاقها ، ويُستفتى في المسائل الدينية تعرض لأهلها ، ورث ذلك عن أبيه وجدّه حتى سُميت الأسرة بأسرة (المشايخ) وتزوج الشيخ أكثر من زوجة ، رزق منهن أولاداً كثيرين ؛ إحداهن رُزقت سبع بنات وابناً واحداً سماه علياً ، وكلهم يعيش على الدّخل للثافه والرزق القليل .



علی باشا مبارک

في هذه البيئة ولد على مبارك ، ووقعت عينه أول ما وقعت على هذه المشاهد الطبيعية والاجتماعية . ولعله يوم ولد وبُشِّرَ به أبوه وسُلمَ له في يده ليبارك عليه وأذن في أذنه أمِّل فيه أن يكون حلقة في سلسلة (الشايع) يرث الإمامة والخطابة والإفتاء لأهل القرية عن أبيه كما ورثها أبوه عن جده وكما ورثها جده الأذن عن جده الأعلى . ولو جرت الأمور مجراها المألوف لكان هذا ، فما ظنك بطفل فقير من أسرة فقيرة في (برنبال) البعيدة عن مراكز المدنية والحضارة إلا أن يسعده الحظ فيكون إمام مسجد ؟! ولكن للقدر شئونه والله تصرفه .

على هذا المنهج أرسله والده إلى كُتَّاب (برنبال) وقيمه إذ ذاك رجل أحمى شديد عنيف ، وافق اسمه مسماه ، فكان يُسمى أبا عُسْر ، كان له الفضل في أن يكرِّه (عليًا) في التعلم والحفظ .

وشاء الله أن تُنكَب هذه الأسرة جميعها بما كانت تنكب به أسر كثيرة في البلاد إذ ذاك ، فكثيراً ما كان يهمل الفلاحون زراعة أرضهم شعوراً منهم بأن غلتهم ليست لهم ، وإنما هي مطمع الحكام : يطمع الحاكم الأعلى في الحاكم الأدنى . ويطمع الحاكم الأدنى فيمن دونه ، وهكذا حتى يصل إلى الفلاح ، فإذا عجزت غلة الأرض عن أداء الضريبة أخذت الأرض منه وأعطيت لغيره ، وكان هذا العطاء مصيبة كبرى على من يُعطى لشعوره بأنه إنما يعطى ليسخر ، يسخر في الأرض وزراعتها لتكون غلتها لغيره ، ولذلك كانوا يعبرون عن إعطاء هذه الأرض تعبيراً صحيحاً صادقاً ، إذ يقولون : (رُميت عليه الأرض) وهذا ما أصاب أسرة الشيخ مبارك ، فقد رُميت عليها أرض ، فلما جاء المحصولون يحصلون الضرائب لم تكف الزراعة فباعوا بها ثمنهم وأثاث منازلهم ، ثم رأوا أن لا بد لهم بعد ذلك أن يهجروا البلد . وتنقل الشيخ مبارك وأسرته في البلاد إلى أن نزل على عرب في (الشرقية) يسكنون اثلثيام ، يسمون عرب (السباعنة) فأقاموا له خيمة مثل

خيامهم ، ورأوا فيه ما يسد مطالبهم الدينية ، فكان مرجعهم في الفتيا وإمامهم في الصلاة ، كما كان في بلدته (برنبال) . فلما استقر به الحال فرغ للتفكير في تعليم علي ، فأرسله إلى كتاب في قرية قريبة من الخيام ، ولكن لم يكن يتيسر له أن يذهب كل يوم إلى الكتاب ويعود فكان يسكن مع سيدنا ويزور أباه مرة كل يوم جمعة . ولم يكن حال هذا الفقيه خيراً من حال (أبي العُسر) وإن كان اسمه (أبا الحضِر) فكان عليّ يجتهد في إرشائه بما يستطيع أن يحمله إليه كل أسبوع ليخفف عنه . فلما توالى عليه العُنف كره الكتاب بتاباً بعد أن كان قد حفظ القرآن .

هنا حدثت الأزمة ، فعليّ لا يريد الكتاب بتاتاً . وماذا لقي منه إلا الضرب ؟ ثم ماذا يكون مصيره لو نجح في الكتاب ؟ أليس إلا أن يكون كأبيه إمام مسجد ومفتي قرية ؟ وهذا مطلب لا يقنعه ولا يرضيه ، وأبوه مصمم على الكتاب . واصطدمت الإرادتان فغلبت إرادة عليّ .

ولكن أفهمه أبوه وإخوته أنه لا بد أن يتعلم شيئاً ما ، وكان إذ ذاك في البلاد طبقة من الكتاب الصغار يكتبون للناس في مطالبهم وأغراضهم أو يمسخون^(١) الأرض لهم . ففضل أن يكون صبياً لأحد هؤلاء ورضى أبوه بهذا الحل ، فهو يلتحق تلميذاً لكتاب من هؤلاء ويتنقل بينهم ، ولم يكن حظه معهم خيراً من حظه في الكتاب ، فالضرب هو الضرب والبؤس هو البؤس . ومنهم من يأجره أجراً قليلاً ثم يأكل عليه أجره ؛ ومنهم من يسأله : كم الواحد في الواحد ؟ فيقول : اثنان . فيرميه بأداة أمامه على رأسه فيشجّه . فهذه أيضاً حالة لا تنفع . فيهرب من أمه وأبيه لضغطهما عليه في العمل بما لا يرضيه ويهيم على وجهه متنقلاً في البلاد ، وأبوه يلاحقه ، ويتعرض أثناء ذلك للإصابة بالكوليرا أحياناً وللسجن

(١) يمسخون : يقيسون .

بسبب وشاية أحياناً . وأخيراً شاء القدر أن يسعى له السَّجَّان ليكون كاتباً صغيراً عند مأمور كبير . وشَفَّعَ له في ذلك حسن خلقه وجودة خطِّه . كان هذا الموظف الكبير « عنبر أفندى » مأمور زراعة القطن بأبى كبير . فلما وقع عليه نظر على مبارك وقع في حيرة شديدة ، إذ رآه أسود حبشياً ، وعهده بالحاكم أن يكون أبيض تركياً ، فما الذى أهله لهذا المنصب الكبير ، وكبار الناس يخضعون له ويمثلون أمره ويملون قدره ؟ وإذا كان هذا الأسود قد بلغ هذا القدر . . فلم لا أبلغه وأنا على الأقل وَسَط بين الحبشى والتركى ؟ ولكن ما السرّ في بلوغ هذا الأسود هذا المنصب ؟ أغز صَعُب عليه حله ، وكلما سأل عنه أحداً أجابه إجابة لا تقنعه ؛ وقد سأل أباه يوماً — بعد أن رضى عنه — عن السبب فى ذلك ، فأجابه بالقضاء والقدر ، وأن الله إذا أراد شيئاً فلا رادّ لمشيئته ، وقد شاء أن يكون هذا العبد الأسود حاكماً مطاعاً فكان ، ولكن هذا أيضاً لم يُقْنِعْهُ .

وأخيراً أخذ يتحرّى السبب من خدام المأمور ، فعرف أن هذا العبد كان مملوكاً لسيدة من كبرى السيدات وقد أدخلته مدرسة قصر العيني فتعلم فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك ، وأن هذه المدرسة تُخرج الحكام — إذ ذاك — وضع يده على سر الأمر ؛ فهناك مدرسة لتخريج الحكام وهى لا تتقيد بالأتراك ، فقد كان هذا العبد الأسود تلميذاً فيها ، فإذا استطاع أن يصل إلى الدخول فى هذه المدرسة أصبح حاكماً كعنبر أفندى . ولكن كيف السبيل ؟ — أصبحت هذه المسألة شُغْلَهُ الشاغل ، وهمّة بالليل والنهار ، وسؤاله المتكرر ممن يأنس منهم المعرفة — أين مدرسة قصر العيني ؟ وما هو الطريق إليها ؟ وما المسافة بين كل مرحلة وأخرى ؟ وكيف يأخذون التلاميذ لها ؟ وهكذا ، ثم يكتب كل هذا فى ورقة معه ، وقد صم على أن يحتال للدخول فى هذه المدرسة بأية وسيلة .

وكان أهم ما عرفه عن هذه المدرسة أن مفتشاً يمر على مكاتب القرى

من حين إلى حين يختار أنجب التلاميذ وأذكاهم فيلحقهم بمدرسة قصر العيني .
هذا هو عليّ مبارك يترك العمل عند عنبر أفندي ويلتحق بكتاب ينتظر
المفتش ، ويحاول أبوه مراراً أن يصدّه عن ذلك فلا يفلح ، ثم إذا بالمفتش يحضر
ويختار عليّ مبارك فيمن يختارهم ، وإذا هو تلميذ بمدرسة قصر العيني يُمنّي نفسه
الأمانيّ في أنه سيكون حاكماً كعنبر أفندي ؛ وعمره إذ ذاك نحو اثنتي عشرة
سنة كانت حافلة بالمغامرات الغريبة ، والمفاجآت العجيبة ، والصبر على البؤس
والفقر والغربة .

دخل عليّ مبارك مدرسة قصر العيني ، ولكنه سرعان ما شعر بخيبة الأمل ،
فلم يجد المدرسة هي اللجنة التي وُعد المتقون ، وإنما هي النار التي يشقى بها
المجرمون ؛ وكانت المدارس المدنية إذ ذاك في أول العهد بها ، لم يستقرّ أمرها
ولم تنظم شئونها ، فلم تعجبه في علمها ، إذ لم يجد هندسة ولا حساباً كما قيل له ،
وإنما كان أكثر الوقت يُصرف على تعليم المشي العسكريّ ، ولم يجد أكلاً
يُرضيه — وهو الفقير القنوع — فكان يفضل عليه الجبن والزيتون يشتريهما
من ماله الخاص ، ولم يجد نظافة يطمئن إليها ، فنومه على حصير قذر ، يلتحف
ليله بنسيج من الصوف الغليظ حتى أصيب بالجرب وبكثير من الأمراض .
وإذ ذاك تبخّرت كل آماله ، وزاره أبوه في مرضه ، وحاول أن يسرقه ، وفكر
هو أيضاً في أن يفرّ معه ، وما منعه إلا ما سمعه من أن من فرّ قبض عليه
وعُذّب هو وأهله عذاباً شديداً ، فسلم الأمر لله واستمر في المدرسة . ثم من الله
عليه فنقل إلى مدرسة الهندسة بأبي زعبل لتُخلى مدرسة قصر العيني
لتعليم الطب .

وكانت المدرسة الجديدة خيراً من القديمة ، ففيها علم كثير يُرضى نهمه^(١) ،

(١) نهمه : لذة رغبته .

ولكنه يقع في مشكلة عويصة ، فعقله لا يستسيخ الهندسة ولا النحو بتاتا ، ويسمع للمدرس كأنه يسمع تعاويد سحرية لا يفقه لها معنى ، ثم تبين أن المشكلة مشكلة المعلم لا مشكلة التلميذ ، فكانت في نفسه عقدة منعتة من فهم الهندسة ، إذ سمعهم يُسمّون مثلثا ا ب ح وآخر د ه ، فاختلط عليه الأمر ، ولم يدر لِمَ سمي هذا المثلث بهذا الاسم دون ذاك ، حتى رُزق بمعلم حسن التدريس ، جمع التلامذة المتخلفين في فصل ، وشرح لهم الهندسة من أولها شرحا جليا واضحا ، وأبان أن هذه التسمية للمثلثات وسائر الأشكال ليست إلا مواضعاً^(٢) للشرح والتفسير ، فالمثلث ا ب ح أو د ه أو أى حروف كانت ليست إلا أسماء اصطلاحية يُسمى بها الشكل ؛ فأنحلت عقيدة عليّ مبارك ، وتفوّق على سائر التلاميذ في الهندسة ، وكان أول فرقته دائماً . ولم يرزق في النحو مارزق في الهندسة ، فظل مُعَمّي عليه .

ثم اختاروا من مدرسة أبي زعبل خير التلاميذ وأدخلوهم مدرسة المهندسخانة ببولاق ، فكان عليّ مبارك أحدهم ، درس فيها كل فروع الهندسة وما إليها حتى آتمها .

ولما اعتزم محمد علي باشا إرسال بعثة إلى فرنسا اختار المتفوقين من هذه المدرسة فوق الاختيار عليه فيمن اختير ، فها هو ذا في باريس بعد برنبال والقاهرة ، لا يعرف أى كلمة في اللغة الفرنسية ، والمدرسون فرنسيون لا يعرفون كلمة عربية ، فضايق بالأمر ، ولم يجد حيلة إلا أن يجمع الكتب الفرنسية الموضوعة للأطفال ويستعين بمن يعرف الفرنسية من زملائه ، ويسهر على حفظها ليلا ، حتى تمكنت منه عادة السهر الطويل والنوم القليل . وهي عادة لازمتها طول حياته ، وبعد ثلاثة أشهر استطاع أن يتابع الدروس تلقى باللغة الفرنسية ،

(١) مواضعات : اصطلاحات .

ويفهمها ويتفوق فيها . وتصل مُنَمَّعَتُهُ الحسنة إلى أولى الأمر في مصر — لقد درس سنتين في باريس الهندسة المدنية ، ورس سنتين في « مِتَز » الهندسة الحربية ، وتمرَّن في ذلك نحو سنة أخرى ، فكانت إقامته في فرنسا نحو خمس سنين رأى فيها المدارس والجامعات ونُظُم التعليم وحالة البلاد الاجتماعية ، وأخذ من كل ذلك على حسب استعدادة ودقة نظره . ولم ينس أبدأ وهو في باريس ومِتَز أبويه في عرب السماعنة أو برنبال ، فقد رُتِّب له مائتان وخمسون قرشاً ليصرف منها على شئونه الخاصة غير مسكنه ومأكله وتعليمه ، فنزل عن نصفها لأبويه منذ فارق القاهرة إلى أن عاد ...

لقد سافر إلى فرنسا في عهد محمد علي باشا وعاد في عهد عباس الأول ، كان عهد عباس هذا عهد انكماش في التعليم ، إذ لم يكن يَرْضَى عن الحركة العلمية في البلاد بل كان همه بناء القصور لا فتح المدارس ، بل ولا الاحتفاظ بالموجود ، فألقى الكثير منها ، وخَفَضَ ميزانية التعليم حتى بلغت خمسة آلاف جنيه . وكان أُمَيْلَ إلى تعليم أولاد الأثراك دون المصريين ، فعهد إلى علي مبارك في إدارة البقية الباقية القليلة من المدارس .

وكان طريفاً أن يزور يوماً أبويه في برنبال — بعد أن عاد إليها — وكان قد مضى عليه أربعة عشر عاماً لم يَرِ أهله ولا بلده ، إذ كانت المدرسة في مصر تُكَنَّة عسكرية قاسية النظام ، من كان فيها لا يزور ولا يزار ، فأمضى سِنِي الدراسة في مصر كسِنِيهِ في فرنسا ، لا يرى أهله ، حتى أُتِيحت له الفرصة فعَرَّجَ على برنبال لابساً بَزَّتَهُ^(١) العسكرية على النمط الفرنسي ، متقلداً سيفاً . وكان وهو في الطريق يسترجع أحداث الماضي : كيف كان في الكتاب ، وكيف كان يُضْرَب ، وكيف كان يَهْرُب ، وكيف قسا عليه الكتبة الذين التحق بخدمتهم ،

(١) بَزَّتُهُ : ثيابه .

وماذا تحمل من المشاق حتى وصل إلى مدرسة قصر العيني ، وكيف كانت حياته في باريس ومتاز ؟ ودق الباب ليلاً فأجابته أمه : من ؟ فقال : عليّ مبارك ، فلم تصدق ونظرت إليه من خرق الباب ، وسألته أسئلة تتعرّف منها صدقه ، حتى إذا فتحت الباب ورأته وقعت مغشياً عليها ، ثم أفاقت وهي تهذى ، تبكي وتضحك وتزغرد . ثم يخرج من جيبه عشرة (بنتو) لتقيم الولائم وتدعو معارفها من أهل البلد . وكلهم مغتبط بما أنجبت برنبال من حاكم من الحكام .

توالى علي « عليّ مبارك » أيام بؤس وأيام نعيم ، وكانت الحالة في مصر غير مستقرة ، وكل الموظفين وخاصة كبارهم رهن بإشارة الحاكم ورهن بما يحاك حوله من دسائس ، فيوماً يرضى فيرفع إلى السماء ، ويوماً يغضب فيُنزله إلى الخضيض ، والبيت الحاكم منشق على نفسه ، إذا تقرب أحد إلى بعضه غضب عليه بعضه الآخر ، يرضى محمد علي باشا وإبراهيم باشا عن الشيخ رفاة الطهطاوى ، فإذا جاء عباس غضب عليه وأخرجه من إدارة مدرسة الألسن وعيّنه ناظراً للمدرسة ابتدائية تنشأ في الخرطوم ، ويرضى عباس الأول عن عليّ مبارك ويقربه إليه ، ويعهد إليه في تنفيذ أمور كثيرة ، فإذا جاء سعيد باشا غضب على عليّ مبارك وأعاد الشيخ رفاة الطهطاوى وقربه إليه .

ولما غضب سعيد باشا على « عليّ مبارك » ألحقه بالفرقة الحربية التي سافرت لمساعدة الدولة العثمانية في حربها مع روسيا ، فأقام ببلاد تركيا (الأستانة والأناضول) نحو سنتين لقي فيهما عناء كبيراً وشقاء جماً فاحتمله في صبر وثبات ، ومع هذا فقد استطاع في هذه المدة أن يتعلم اللغة التركية ويجيدها . وعاد إلى مصر يُوظف حيناً ويُطرد حيناً ، فإذا طُرد فكر في الأعمال الحرة ، فاشتغل تاجراً أحياناً ، يشتري من « المزاد » بعض السلع المدرسية التي تباعها الحكومة بعد أن قللت من مدارسها ويبيعها بربح يكفل له رزقه ، ويشغل أحياناً مهندساً حراً ،

يضع « تصميات » منازل لمن شاء ، وصمم أحيانا على أن يعود إلى أهله في برنبال يعمل عمل الفلاحين ويعيش معيشتهم وعلى الله العوض فيما تعلم . وفي كل مرة لا يلبث طويلا حتى يُستدعى لوظيفة ، ولا يلبث في وظيفة طويلا حتى يُطرد . ولما جاء إسماعيل باشا أعيدت الحياة العلمية وتوسّع فيها ، واستقر الحال بعلّ مبارك في درجة ما ، فكان هذا العهد أبرك عهوده ، وأخصبها وأكثرها إنتاجا — لقد عمل على مبارك أعمالا كثيرة تتصل بما اختصّ به من هندسة مدنية وحربية ، فقد عهد إليه في « تصميم » شوارع وفتحها و « تصميم » ترع وإنشائها ، وبناء جسور واستحكامات ومساجد وغير ذلك من أعمال هندسية عظيمة ، ولكن كل ذلك لم يكن سرّ عظمته وصحيفة خلوده ، إنما كان ذلك في شيء لم يتعلمه ولم يتلقه عن أستاذ ، هو إصلاحه للتعليم في مصر بالوسائل المختلفة ، وبناءؤه في ذلك بناء ضخما يعد دعامة النهضة التعليمية في مصر — لقد أريد له أن يهندس المباني والاستحكامات فهندس هو طرق التربية والتعليم ، ووضع تصميماتهما ، ووقف على تنفيذها في دقة وإحكام ، حتى عدّ من كبار المصلحين .

لم يتعلم في مصر ولا في فرنسا البيداجوجيا ولا السيكولوجيا على معلم مختص ، وإنما تعلمها من حسن استعداده وصدق نظره ، ومن دروس في التربية الفاسدة تلقاها في الكتاب حين يُضرب وفي مدرسة قصر العيني حين يُعذب ، ومدرسة أبي زعبل حين يُلقى عليه الدرس فلا يفهم ، هذا إلى طبيعة خيرة توحى إليه بالرحمة بالناس والإشفاق عليهم والألم من جهلهم . لقد وصف هو نفسه ، إذ عهد إليه مرة في إدارة مدرسة فقال : « كنت ألفت للتلاميذ ، في ما كلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم ، وكنت أباشر ذلك بنفسى ، حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب ، وألاحظ المعلم كيف يُلقى الدرس وكيف يؤدب

التلامذة ولا يمضى يوم إلا وأدخل عند كل فرقة وأتفقدا أحوالها ، مع التشديد على الضباط والخدمة حتى الفراشين فى القيام بما عليهم ، فامتنع بذلك عن التلامذة مضار عمومية ومفاسد كثيرة ؛ ولم أكتف بذلك بل رتبت على نفسى دروساً كنت ألقياها على التلامذة . . . وكان ما يحصل للتلامذة ومعلميهم من المكافآت والثناء والتشويق والترغيب داعياً لهم لزيادة الجد والاجتهاد ، وجرت بين المعلمين المودة والألفة ، وتربّت الأطفال على الأخوة ، وغرس فيهم حبّ التقدم وشرف النفس والعفة ؛ واكتفيت فى تأديب من فرط منهم بالنصيحة واللوم ، وانقطع الشتم والسفّه ، وكاد يمتنع الضرب والسجن ، وبالجملة كانت أغراضى فيهم أبوية ، أنظر للجميع من معلم ومتعلم نظر الأب لأولاده . وإلى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كل راع فى رعيته ، حتى يحصل الغرض من التربية . وقد تحقق لى نتيجة ما صرف من الهمة فى تربيتهم والشفقة عليهم ، حتى إنه لما تولى سعيد باشا ودُعيت للسفر مع العساكر لمحاربة المسكوف مع الدولة العلية خرج جميع التلامذة كبيرهم وصغيرهم من المدرسة قهراً عن ضباطهم لوداعى ، وجعلوا يبكون وينتحبون انتحاب الولد على والده ، حتى بكى عيني لبكائهم ولكن انشرح صدرى لمشاهدة ثمرات غرسى ، وآثار تربيتى ، فحمدت الله .

* * *

كان التعليم المدنى الذى أنشأه محمد على فى مصر تعليم أساسه الجيش : فالمدارس الحربية لتخريجه ، ومدرسة الطب لتطبيبه ، والهندسة لتصميماته ، والمدارس الصناعية لإمداده ، والبعثات لسدّ حاجاته ؛ فإن جاءت من كل ذلك فائدة لغير الجيش ، فبالتبّع لا بالقصد ، حتى إن المدارس كانت تُكَنّاتٍ عسكرية فى نظامها ومأكلاها وملبسها ، ورتبُ المعلمين والنظار والمديرين رتب عسكرية ، فملازم وصاغ وأميرالاي وميرمران إلخ ؛ حتى الطلبة فى البعثة فى باريس لهم بيت يقيمون (١٣ - زعماء الإصلاح)

فيه يَدَار إدارة عسكرية . وكل أنواع التعليم على هذا الوجه في القاهرة والإسكندرية فقط ، أما المدن الأخرى والأرياف فليس لها حظ من هذا التعليم . وبجانب هذا التعليم تعليم آخر يبتدئ بالكتاب ، وهو منتشر في القاهرة والمدن والقرى وينتهي بالأزهر ، وهذا التعليم لا تُعنى به الحكومة ولا تتدخل فيه ولا يُهمها أمره ، وكل ما فعله عباس الأول وسعيد أن ضيقا التعليم المدني ، حتى إذا جاء إسماعيل بدأ يتغير هذا النظام ، ويُنظر إلى التعليم نظرة أخرى غير النظرة الحربية . وكان من أكبر العاملين على هذا على مبارك — فلو قلنا إنه حوّل التعليم من وجهة حربية إلى ثقافة شعبية ، كان ذلك وصفاً مجازاً صادقاً .

رأى أن عماد التعليم الشعبي الكتاتيب في المدن والقرى ، وهي في حالة يرثى لها^(١) ، فكثير منها إما في دُكان أو « حاصل » أو في حجرة مظلمة بجانب مراحيض المسجد ، والتلامذة يختلط صحيحهم بمريضهم وقد يكون المرض مُعدياً ، فأقرع وأبرص وأجرب ومحموم ينشرون العدوى في الأصحاء . يجلسون على حصير بال ويشربون بكوز واحد من زير واحد ، ويأكلون في الظهر من صحن واحد ؛ وفقه الكتاب كثيراً ما يكون أعمى لا يُحسن أن يرعى التلاميذ ، ولا أن يدبر شئونهم ؛ وكل كفايته أنه يحفظ القرآن ويحفظه من غير فهم ، لا علم له بالدنيا ولا بالدين ، ووسائل التأديب عنده ليست إلا السب والضرب .

بدأ على مبارك — وقد عهد إليه في إدارة التعليم في عهد الخديو إسماعيل — يُصلح هذه الحال ويدخلها تحت الإشراف الحكومي ، بعد أن كانت الحكومة لا تُعنى إلا بالمدارس الحربية ، وما يُعَد لها . فقبض بيديه عليها ، وأرسل من يحصى كل كتاتيب القطر ويصف حالة كل كتاب من صلاحية بنائه وعدم صلاحيته وعدد تلاميذه وحالة فقيهه وتبعيته لأوقاف أو لا ونحو ذلك ؛ وقسمها بحسب

(١) يرثى لها : تستوجب الرحمة والإشفاق .

ذلك إلى ثلاث درجات : جيدة ومتوسطة ورديفة ، ووضع لها « لائحة » تسمى « لائحة رجب » — وهو تاريخ صدورها — تُعدّ بحق خطوة خطيرة في تاريخ التعليم في مصر ، عالج فيها كل المشاكل التي صادفته من مراعاة الأمور الصحية وتدير المال اللازم ورفع مستوى الفقهاء — وقد ساهم « المؤدين » — وبرامج التعليم ووسائل تشجيعه وإشراف الأهالي والمديريات في حمل بعض الأعباء المالية والتعليمية وتحويل بعض الكتاتيب الكبيرة الصالحة إلى مدارس ابتدائية ، ووجه في تنفيذ ذلك كل قواه ، وكثيراً ما كان يُعهد إليه — إلى إدارة المدارس — في إدارة الأشغال وإدارة الأوقاف فيكون ناظر هذه جميعها (وزيرها) فيسخر الأشغال لإصلاح مباني المدارس والكتاتيب ، ويعصرف من مال الأوقاف على التعليم ، حتى انتقل التعليم به نقلة جديدة .

نعم ليس كل الفضل في ذلك له وحده ، فقد كانت البلاد تتوق^(١) إلى إصلاح التعليم ، وقد طالب به مجلس الشورى ، وكان هذا الإصلاح يتفق وما رسم الخديو إسماعيل من رغبة في تمدن البلاد ولكن كان فضل على مبارك أن يأخذ الفكرة الخيالية ، فيحوّلها إلى حقائق واقعية ، ويدرسها دراسة علمية ، ويضع خططها وتصميمها كما تعود ذلك في التصميم الهندسي ، ويبرزها إلى الوجود ويرعاها بعنايته .

إلى جانب الكتاتيب وفتحها وتنظيمها والمدارس وإنشائها شغلت مسألة المعلمين كيف يصلحهم ؟ فقد كان يقوم بتدريس اللغة العربية في المدارس رجال من الأزهر ، والتعليم في الأزهر إذ ذاك على أسلوبه في القرون الوسطى ، يُعلم الكتب ولا يعلم العلم ، وغاية النابغ منهم أن يحسن فهم عبارة الكتاب لا فهم موضوع الكتاب ، وهذا يؤدي إلى أنه لا يحسن تطبيق ما تعلم ، فأكثرهم

(١) تتوق : تتشوق .

لا يُحسن قراءة صفحة ولا أن يكتب موضوعاً ، ولا أن يقيم وزناً لبیت من شعر ، كما وصفهم بذلك عبد الله باشا فكرى فى مقال كتبه ، فكيف يصلحون بعد لتعليم الناشئة ؟

إذ ذاك فكر على مبارك فى إنشاء مدرسة يؤخذ لها من خيرة طلبة الأزهر بامتحان ، ويُختار لها خيرة العلماء من الأزهر وغيره ، ويعلم طلبتها العلوم الدينية واللغوية وشيئاً من علوم الدنيا كالرياضة والجغرافية والتاريخ والطبيعة والكيمياء ، فكان من ذلك كله مدرسة دار العلوم . أمامها المواد الأخرى كالمهندسة والحساب واللغات فقد رأى أن يأخذهم ممن أتموا دروسهم فى المدارس العالية كالمهندسخانة ومدرسة المحاسبة والإدارة بعد أن يقضوا مدةً مُعَيَّدين لأساتذتهم .

وفكر فى الثقافة العامة بجانب التعليم فى المدارس ، فكان له من ذلك ثلاثة أشياء :

(١) قاعة للمحاضرات يحضرها كل من شاء ، يحاضر فيها كبار الأساتذة من مصريين وأجانب ، فيحاضر مثلاً الشيخ حسين المرصنى فى الأدب وإسماعيل بك الفلكى فى الفلك والشيخ عبد الرحمن البحر اوى فى الفقه ومسئو بروكش فى التاريخ العام وأحمد ندا فى النبات ، فإذا حاضر محاضر باللغة الأجنبية أُلقيت محاضراته بعد ذلك باللغة العربية ، وهذه المحاضرات يومية ما عدا أيام الجمع ، وكل محاضرة ساعة ونصف ساعة ، وبعض الموضوعات محاضرتان كل أسبوع وبعضها محاضرة واحدة .

(٢) إنشاء مجلة سميت « روضة المدارس المصرية » رأس تحريرها الشيخ رفاة الطهطاوى ، وذكر فى أول عدد منها أن مدير المدارس وهو على باشا مبارك « جعلها ملحوظة بنظر نظارته لا يندرج فيها شيء إلا بإشارته » وطلب من الأساتذة أن يمدّوها بالمقالات ، وكان يُنشر فيها بعض ما يلقى فى قاعة المحاضرات

وكان في العدد الأول منها مقال لعلّ مبارك موضوعه « إنشاء دار الكتب الخديوية » .

(٣) إنشاء دار الكتب ، وقد كانت الكتب قبل ذلك متفرقة في المساجد أو الأماكن المهجورة عرضةً للسرقة أو التلف ، فجمعها في مكان واحد ورتبها وسهّل الاستفادة منها وجعل لها قاعة مطالعة .

فكان من ذلك كله حركة علمية شعبية ساعدت على النهضة المصرية .
وأعانه على نجاحه في خطّطه ما كان يلقى من عطف وتشجيع من الخديو إسماعيل ، فهو يقر مقترحاته ويبدل المال لتنفيذ مشروعاته .

* * *

وناحية أخرى لها قيمتها في حياة عليّ باشا مبارك ، وهي مجهوده الكبير في التأليف والتشجيع عليه ، فقد نهضت البلاد في التعليم كما بينا ، فكان لا بد من حركة في التأليف والترجمة تسيرها ، وقد قام بقسط وافر في هذا الباب الشيخ رفاعه الطهطاوى ، فقام عليّ باشا مبارك بنصيبه الوافر أيضاً ، فألف في مهنته الخاصة ، وهي الهندسة ، كتباً للطلبة ، وألف كتباً أخرى في الثقافة العامة أهمها خِطَطُه لمصر المسماة « بالخِطَط التوفيقية » يصف فيها القاهرة وحاراتها وشوارعها ومساجدها ومدارسها كما يصف مدن مصر وقراها مرتبة على حروف الهجاء .
وإذا ذكر قرية ذكر ترجمة من نبغ منها أو كانت له شهرة في ناحية ما ، وذكر في ذلك كله أقوال المتقدمين والمتأخرين ، فكان كتاباً جليل النفع عظيم القدر أكمل به خِطَط المقرئى وما حدث للقاهرة والمدن والقرى المصرية من تغيير بعده إلى يوم تأليفه ، ووقع الكتاب في عشرين جزءاً أو خمسة مجلدات . كما ألف كتاباً سماه « علم الدين » وهو قصة لشيخ تربى في الأزهر وتعلّم له مستشرق إنجليزى تعلم منه اللغة العربية ودعاه الإنجليزى أن يزور معه إنجلترا فاجى الدعوة ، وكانا كلما مرا

على شيء من القاهرة إلى الإسكندرية سأل الإنجليزى الشيخ علم الدين فأجابه ، وبعد الإسكندرية انقلب الشيخ تلميذاً والإنجليزى معلماً ، يسأل الشيخ عن كل ما يجهل فيجب الإنجليزى . وملاً الكتاب بمعلومات قيمة عن الشرق والغرب ومظاهر الحضارة الأوربية ، وكان غرضه من هذا الكتاب تفتيح أذهان الشرق لما فى الغرب . فالشيخ علم الدين فى أول القصة رجل أزهرى جامد لا يعرف شيئاً من شئون الدنيا ، فلما ساح فى أوربة اتسع ذهنه ومرت عقله ورقيت أحكامه على الأشياء ، ورأيناه يحضر دار التمثيل وينظر إلى المسرح بالمنظار . ومن طرائف على مبارك أنه وهو وزير المعارف الخطير لم يستنكف أن ينظر إلى الأطفال فى بدء تعلمهم للقراءة والكتابة ولم تعجبه طريقة تعليمهم ، فأخذ نفسه بتأليف كتاب من جزئين ، يعلم فى أولها حروف الهجاء وكيف تتركب ، ويضع ثانيهما للتمرين على المطالعة السهلة فى موضوعات مفيدة ، إلى غير ذلك من الكتب . كما كان يستحث العلماء على التأليف فى الموضوعات النافعة على أسلوب جديد يقرب المعلومات إلى الأذهان ، وكان من أكبر من ساعده فى تحقيق أغراضه فى التأليف عبد الله باشا فكرى .

* * *

وكان بيته فى الحمية الجديدة نادياً عجيب الشأن ، يجتمع فيه كل ليلة طلبة المدارس وأساتذتها من كل نوع حتى تمتلئ بهم الدار ، ويتنقل هو بينهم يخاطب كل جماعة منهم فى شأن من شئون العلم يتناسب معهم ، فيخاطب الطلبة فى حالة مدارسهم ومقدار تحصيلهم للدرس ، وما يشكون منه من نظم التدريس وما يقترحون لإصلاحها ، ويخاطب المدرسين فى تدريسهم وانتقاداته عليهم ، ويستحثهم على التأليف فى الموضوعات التى يقترحها وما ينبغى أن تكون عليه الكتب فى أيدي الطلبة ، ويلتمس الفرص ليشرح لهم الأخطاء التى يقع فيها

الطلبة ويقع فيها الأساتذة وتأخر الشرق وأسباب تأخره وتقدم الغرب وأسباب تقدمه إلى غير ذلك . حدثني عبد العزيز باشا فهمي ، قال :

« كنت يوماً في بيت علي باشا مبارك ، والناس تموج في بيته ، والحجر مزدهج بالزوار ، وعلي باشا يتصدر حجرة منها ، فحضر مصطفى باشا رياض وكان ناظر النظار إذ ذاك ، فأخذ يخوض في الناس حتى وصل إلى علي باشا مبارك فقال له : « ما هذا يا باشا ؟ » فقال له : « يا دولة الرئيس إنا في بلد يهاب الناس فيه أن يخاطبوا معاون إدارة أو مأمور مركز أو أى موظف حكومي ، فإذا نحن جرأناهم علينا وخاطبناهم وخاطبونا ، أمكنهم أن يخاطبوا الموظفين في غير هيبة ، وتعودوا أن يطالبوا بحقوقهم ، وقالوا : إنا نجالس الناظر (الوزير) ونخاطبه ، فلم لا نخاطب من هو أقل منه منزلة ؟ » .

لم تكن خطط علي باشا مبارك في التعليم في المثل الأعلى ، ولا كانت خالية من العيوب ، ولكنها كانت خطوة مباركة صالحة لأن ترقى مع الزمان ، ويصلح ما ظهر فيها عند التنفيذ من أخطاء ، كما حدث ذلك فعلا في وزارة رياض باشا من بعد ، ولكن ساءت الحال في مصر بتدخل الأجنبي بدعوى حماية الدين ، كما أسلفنا في ترجمة جمال الدين الأفغاني . وجاءت الثورة العراقية وأعقبها الاحتلال الإنجليزي فقبض الإنجليز على التعليم ، وصبغوه الصبغة التي يريدونها .

لم يشترك علي باشا مبارك في الثورة العراقية ، إذ كان مزاجه ليس مزاجاً ثورياً بحكم منشئه وتربيته — عكس مزاج الشيخ جمال الدين ، الثوري العنيف — وكان مبدؤه الطاعة التامة لولي الأمر ، مهما كان . أطاع عباساً الأول وسعيداً وإسماعيل وتوفيقاً ، وخدمهم في إخلاص ؛ ولعله — كبعض المصلحين — يرى أن إصلاح التعليم خير أنواع الإصلاح ، بل هو خير من الإصلاح السياسي ، ويرى

أن الإصلاح السياسى ما لم يرتكز على الإصلاح التعليمى فلا بقاء له ولا قيمة — لذلك لا نرى له إصبعا ما فى الثورة العراقية . ولقد اتهم كثير من عقلاء الأمة بمشايعة عرابى باشا ، كعبد الله باشا فكرى والشيخ محمد عبده ، وغضب عليهما الخديو توفيق ، ولكن لم يتهم على باشا مبارك فى شيء ما ، ولم يفقد رضا توفيق باشا وعطفه ، وإنما فقد رضا عرابى باشا وحزبه ؛ وكل ما أثر عنه فى الثورة العراقية أنه تبرع يوما بشيء من ماله لهذه الحركة ، ولكن لعل ذلك كان تحت تأثير ضغط شديد عليه من الشبان المتحمسين . وزاده إيمانا بحياده أنه لم يكن يؤمن بنجاح الثورة العراقية ، على حسب ما كان يرى من ظروفه المحيطة به التى تمكنه من الاطلاع على شئون مصر والشرق والغرب . وقد روى الشيخ محمد عبده أنه حضر مجلسا فى بيت على باشا مبارك كان فيه سلطان باشا — وقد أخذ سلطان باشا يُشيد بذكر قوة الجيش المصرى وما يمكن من زيادة عدده — فرد عليه على باشا مبارك بأن حالة البلاد المالية لا تتحمل هذه الحرب ولا تساعد على النجاح فيها . ثم رأيناه فى أثناء الثورة يذهب إلى بلده ويعمل فى إصلاح أرضه ؛ وعلى كل حال فالإنسان مطالب أن يعمل وفق ما يهديه إليه عقله وما يتناسب ومزاجه . وقد كان مزاج على مبارك مزاجا هادئا ناسبه أن يوجه أكثر قوته لإصلاح التعليم ، ففعل . وربما كان أساس نجاحه شدة غيرته وقوة إخلاصه وعمق رغبته فى خدمة وطنه .

وبعد الاحتلال الإنجليزى لمصر ألقت وزارة مصطفى رياض باشا وعهد فيها إلى على مبارك فى نظارة المعارف ؛ ولكن ما أبعد الفرق بين الحالين ، وما أشد الاختلاف بين العهدين — لقد كان فى العهد الأول قبل الاحتلال حرا طليقا يفكر كما يشاء ويفعل ما يشاء ويدبر المال لمشروعاته كما يشاء ، لا يقيد فى ذلك كله إلا عرض الأمور على ولي الأمر ليقره عليها ويتلقى نصائحه فيها . أما فى هذا العهد فليس حرا ولا طليقا ، لا يفكر إلا إذا سمح له المستشار الإنجليزى بالتفكير ،

ولا يفعل إلا في الدائرة المحدودة التي خطها المحتلون ؛ وقد عبر هو عن ضيق صدره في ذلك بأسلوبه الناعم الهادي ؛ إذ يقول في هذه الحقبة : « وأنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح ، بقدر الإمكان ، والله المستعان » .

اصطدم بعد ذلك بالقيود التي قيدت بها المصالح الحكومية ، وخاصة القيود المالية التي وضعها مستشار المالية ألفرد ملنر (لورد ملنر فيما بعد) فتتجى عن منصبه ، وكانت قد كبرت سنه ؛ فلزم بيته ، حتى مات عن نحو سبعين عاماً .

، عما كان على باشا مبارك والشيخ رفاعة الطهطاوى وعبد الله باشا فكرى الفرسان الثلاثة في ميدان العلم في مصر في ذلك العصر ، وأركان النهضة العلمية المصرية ، ولكن كان لكلٍ طابع ولكل ميزة ؛ فعلى باشا مبارك يهتم بالمسائل الكلية في سياسة التعليم وتنظيمها وتخطيطها وتنفيذها ، وإذا نظر إلى الجزئيات فلتطبيق الكليات عليها ؛ والشيخ رفاعة ينظر إلى المسائل الجزئية ويُعنى بإصلاحها وتنفيذها ؛ فإذا عهد إليه في إدارة مدرسة بث الروح فيها ، ثم هو يؤلف ويترجم ويبحث تلاميذه على التأليف والترجمة ، وبهذا أمد البلاد هو وتلاميذه بطائفة من الكتب النافعة كانت عماد النهضة ؛ وعبد الله باشا فكرى كاتب شاعر أديب مؤلف له قيمته في معرفة ما يناسب عصره من التأليف فيؤلف فيه ، كان تلاميذ المدارس يتعلمون الأدب من مقامات الحريري والنحو من كتاب شرح الشيخ خالد على الأجرومية ؛ فألف كتبه على نمط جديد ، وكان تلاميذ المدارس الابتدائية لا يجدون ما يطالعونه فألف لهم (الفوائد الفكرية) ثم كان أكبر عون لعلى باشا مبارك فيما ألف من كتب — فلكل من الفرسان الثلاثة مزية ، ولكل فضل . رحمهم الله جميعاً .

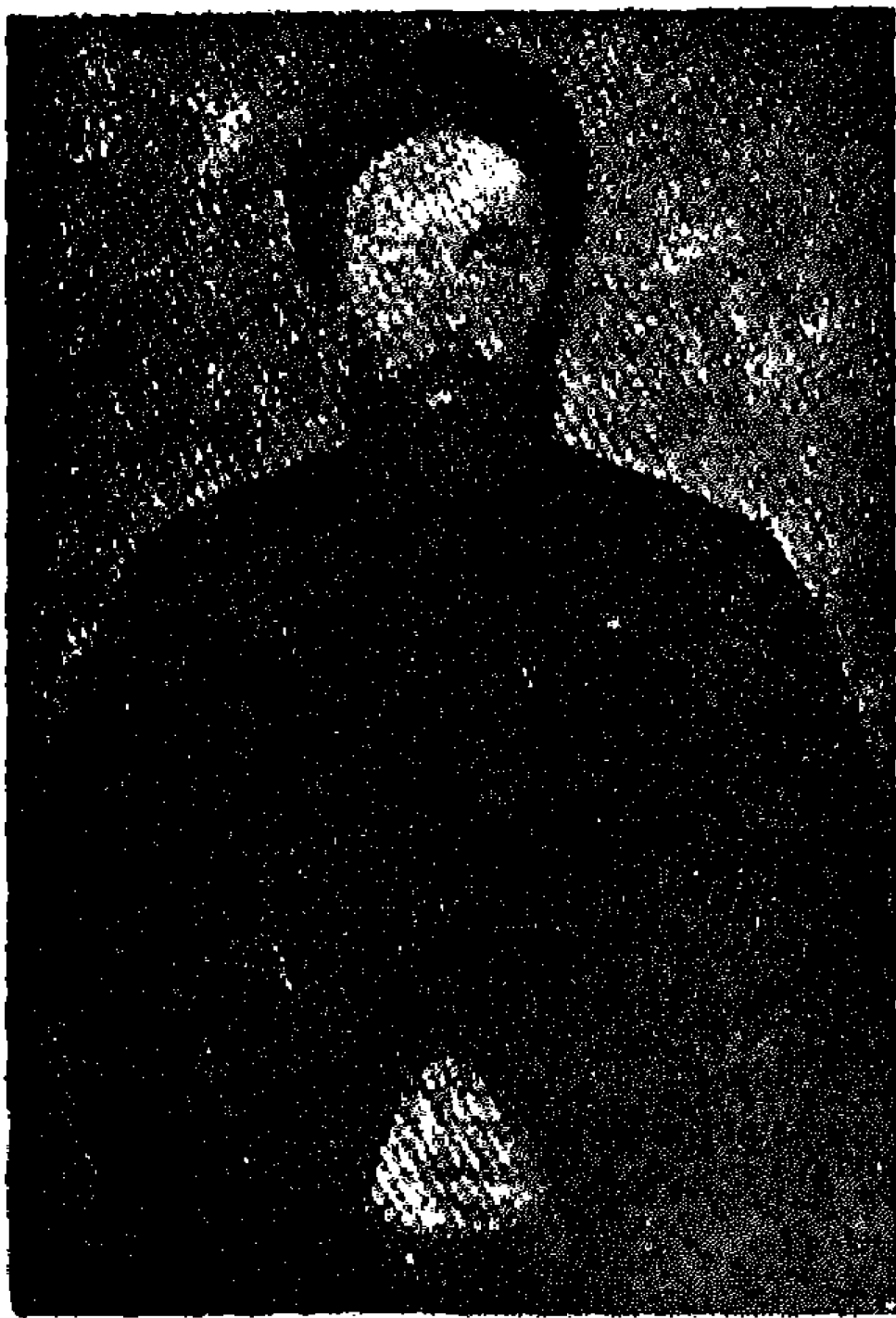
عبد الله نديم باشا

(١٢٦١ - ١٣١٣ هـ = ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م)

إن كان يستحق الإعجاب مَنْ نبغ - والظروف له موالية - من أسرة عريقة في المجد أو الغنى أو الجاه ونحو ذلك مما ييسّر للأبناء أن يتعلموا ، ثم يشقوا لهم طريق الحياة وطريق المجد ، فأولَى بالإعجاب من ينبغ والظروف له معاكسة ، لا حَسَبَ ولا نسب ، ولا غِنَى ولا جاه ، بل ولا القوت الضروري الذي يمكن الفتى من أن يجد له وقت فراغ يشغف فيه نفسه .

قد يدعو إلى شيء من الإعجاب منظر شجرة يانعة ضخمة مثمرة ، تعهدتها بستانيتها بكل ما يصلحها ، من وضع في المكان المناسب ، والغذاء الكافي ، والرئى المتوافر في أوقاته ، ولكن أدعى إلى الإعجاب بذرة طُرِحَتْ حيثما اتفق ، فذُت جذورها بنفسها تجذت في حصولها على غذائها ، فقد تجده وقد لا تجده ، وتعاكسها الطبيعة فتكافحها وتتغلب عليها ، ثم هي آخر الأمر تكون أينع ما كانت شجرة وأضخمها وأوفرها إثماراً . كذلك كان من النوع الثانى « عبد الله نديم » ، كل الدلائل تدل على أنه سيكون نجاراً أو خبازاً ، ولو تنبأ له متنبئ متفائل لقال إنه سيكون نجاراً ماهراً ناجحاً ؛ فأما أديب يملأ الدنيا ويقود رأى العام ويحسب حسابه فى كل ما يخطه قلبه أو تنطق به شفتاه ، فلا يدور بخلد أحد حتى فاتح الرمل والضارب بالحصى .

هذا أبوه أصله من الشرقية ورحل منها إلى الإسكندرية وعمل فيها نجاراً للسفن بدار الصناعة (الترسانة) ، ثم لم يعجبه هذا العمل ، فأتخذ مخبزاً صغيراً



عبد الله النديم

يصنع فيه الخبز ويبيعه ، ويحصل من ذلك على الكفاف^(١) من العيش .
فما بالك بأسرة من هذا القبيل ، مسكن متواضع ، وخبز إن توافر فإدام^(٢)
غير متوافر ، وملبس لا يراعى فيه إلا أن يستر الجسم ولا يلفت النظر ، وصحة
ترك البت فيها للقضاء والقدر .

ولكن « عم مصباح » والد عبدالله رجل جاد في عمله ، قنوع بكسبه ،
مستقيم — بالضرورة — في حياته ، من بيته إلى مخبزه إلى مسجده . أرسل ابنه
إلى الكتاب على باب حارته كما يفعل الناس من مثل طبقته ، يرسلون أولادهم
إلى الكتاب زمناً ما ، فإذا اشتد مَثْنُهُمْ^(٣) وقوى جسمهم أخذوهم إلى دكاكينهم
في مثل صناعتهم التي تُتوارث كما يُتوارث المال .

ولكن عبد الله تفوق في الكتاب ، وظهرت عليه ملامح الذكاء ، فأراد
أن يستمر في تعلمه ولم يمانعه أبوه . وكانت الطريقة المعبدة^(٤) لذلك أن يرسل
الوالد ابنه إلى الأزهر ، ولكن أين مال الأسرة الذي يحتمل ذلك ؟ !
على أنه في الإسكندرية — قريباً من بيتهم — مسجد هو صورة مصغرة
من الأزهر ، يدرس فيه المشايخ ما يدرس في الأزهر وعلى نمطه ، وذلك هو
مسجد الشيخ إبراهيم باشا .

فدرس فيه عبد الله نديم ما شاء الله أن يدرس ، ولكنه كان تلميذاً خائباً
في هذه الدراسة ، لا يصبر على جفافها ، ولا يقدر على حل ألغازها ، ولا يتحمل
العناء في تفهم كتب نحوها وفقها فكان لا يواظب على درسه ولا يبدى به اهتماماً .
وحُبِّب إليه نوع من الدراسة غير منظم ، يوافق مزاجه ، ويناسب استعداداته ،

(١) الحفاف : مقدار الحاجة .

(٢) الإدام : ما يصنع به الخبز من ضرور المأكّل .

(٣) المثن : الظهر . (٤) المعبدة : الميسرة المذلة .

وهو أن يصاحب الناشئين في الأدب وَيَفْشَى مجالسهم ومجالس أساتذتهم . وما كان للأدب درس منظم ولا هو يُعَدَّ علماً ولا فناً ، وإنما هو « هواية » كذى الصوت الجليل يَهْوَى الغناء ويقلد فيه من سبقه ، ولا درس ولا فن ؛ ومثل هذا يُنظر إليه من أهل العلم بالنحو والفقه نظرة استخفاف وازدراء ؛ وقد عهدنا هذا في أيام دراستنا بالأزهر ، أيام كان الشيخ سيد المرصفي يُحَلِّقُ حلقة لدراسة الأدب ، فكان هذا عَجَباً من العجب ، ينظر طلاب الفقه والنحو ومشايخهم إلى حلقاته شَرّاً^(١) .

كان عبد الله نديم يغشى هذه المجالس الأدبية التي ليس لها منهج ؛ فيسمع شعر الشعراء وزجل الرجالين ، ونوادير المتماجنين ، وقصائد الراوين ، فيصغى إلى كل ذلك في فهم كأنه كله آذان ؛ ويدرك من غير وعى أن هذا بابه وهذا فنه ، وأنه إنما خلق لذلك لا للنحو ولا للصرف . فاشتاق نفسه أن يسلك هذا المسلك ويسير في هذا الطريق ؛ وقد مُنح حافظه لاقطة ، وقدرة على التقليد فائقة ، فأخذ يحاكي بعد ما اختزن ، ويغنى بعد ما سمع ، فطوراً يوفق فيستدعي ذلك إعجاب أمثاله ، وطوراً يُخَذِّل فيستخرج ضحك أقرانه ، ومن كل ذلك كان يتعلم .

وإلى جانب هذا تعلم درساً في منتهى القيمة ، درساً تعلمه « حافظ » ولم يتعلمه « شوقي » ، وتعلمه « يرم التونسي » ولم يتعلمه « توفيق الحكيم » ؛ درساً قل أن يفقهه الأدباء مع عظيم خطره وكبير أثره ، ذلك هو أن نشأته في صميم الأحياء الشعبية مع رهافة حسه ، ويقظة نفسه ، وفقره وبؤسه ، علمته أن يحيط إحاطة واسعة بلغة الشعب وأدبه ، من أمثال وحكايات ووجوه معاملات وصنوف تصرفات ، فرسم ذلك كله في نفسه لوحات كان لها أكبر الأثر في حياته الأدبية المستقلة ؛ والنفس الحساسة الفنانة تختزن حتى حفيف أوراق الأشجار ، وههههه

(١) نظر إليه شَرّاً : أى بجانب عينه ، إعراضاً أو غضباً .

الأغصان ، وديب النّمال ، وحلاوة البسات ، وأدق مجالى الجمال والقبح ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك فى فنها متى آن أوانه .

ولكن مَرَحَى^(١) بذلك كله ، تَبّاً للحياة المادية . هل يكسب من ذلك « عبد الله نديم » قرشاً ، وهل يستطيع « عم مصباح » أن يحتمل هذا الهذر طويلاً ؟ لقد احتمل الإنفاق عليه فى الكتّاب ، لأنه طفل والكتّاب خير من البيت ، واحتمله يدرس فى « جامع الشيخ » لأنه كان يرجو فى ابنه أن يكون شيخاً معتمداً وعالمًا مفخماً ، يُتَقَرَّبُ إلى الله بتقبيل يده والتمسّح بثوبه . فأما هذا اللغو الفارغ الذى يسمى شعراً ونثراً فهو عبادة الشيطان لا عبادة الله ، ولست أتقرب إلى الله بالإنفاق على عبدة الشياطين .

لقد نفَضَ أبوه يَدَه منه ، فأخذ عبد الله نديم يبحث عن وجه للكسب ، فاتجه اتجهاً غريباً ، هو أن يتعلم فن الإشارات التلغرافية ثم يتكسب منه ، وكذلك كان ، فتعلمه واستخدم بمكتب التلغراف ببها .

ثم نقل إلى مكتب القصر العالى حيث تسكن والدته الخديو إسماعيل ، وقد كان قصراً من أنخم القصور ، يقع على النيل فيما يسمى الآن « جاردن سیتی » خدام وحشم وموسيقى وطرب ، وما شئت من ألوان النعيم والترف ، وقد تعلم منه عبد الله نديم كيف يعيش الأمراء والسادة ، كما تعلم فى بيته وحارته فى الإسكندرية كيف يعيش الفقراء والعبيد .

وعاد إليه فى القاهرة شوقه إلى الأدب ومجالس الأدباء ، وكان حظ القاهرة فى ذلك أوفى ؛ ففيها — مثلاً — مجلس محمود سامى البارودى ، وكان مجلساً عامراً يُسَمَّرُ فيه السمر اللذيد : فأدب قديم يُعرض ، وأدب حديث يُنشد ، وعرض للمعنى الواحد صيغ صياغات مختلفة ، ونقد قيم لهذا ولذالك ، يتخلله نوادر فكهة ،

(١) مَرَحَى : كلمة إعجاب بمن أصاب المرئى .

وأحاديث في الأدب حلوة . اتصل عبد الله نديم بهذا المجلس وأمثاله ، وتوثقت الصلة بينه وبين كثير من أدباء مصر إذ ذاك ، وأخصهم سبعة ، أولع بهم واستفاد من معارفهم وأدبهم : شاعر مصر محمود سامي البارودي ؛ وشيخ الأدباء عبد الله باشا فكرى ؛ والسيد على أبو النصر البليغ الشهير ؛ ومحمود صفوت الساعاتى ؛ الواسع الاطلاع ، الكثير المحفوظ ، المتفنن فى الطرائف الأدبية ؛ والشيخ أحمد الزرقانى الكاتب الأديب ؛ ومحمد بك سعيد بن جعفر باشا مظهر الشاعر النائر ؛ وعبد العزيز بك حافظ عاشق الأدب والأدباء الكريم الوفى .

وكان الذى أرشده إلى هؤلاء الأدباء وعرفه بهم ، وأحكم الصلة بينه وبينهم ، الشيخ أحمد وهبى أحد المولعين بالشعر ، الناظمين له ، والحرر بالوقائع المصرية فى بعض أيامه .

فأتم على هؤلاء وأمثالهم دراسته ، وشرب من منهلهم ، وارتوى من بياضهم ؛ فهو فى النهار تلغرافى ، يتقبل الإشارات ويرسلها ، وبالليل أديب يتقبل نماذج الأدب ويحاكيها .

ولكن لم يمهله الحظ ، فقد غلط فى عمله فى القصر العالى غلطة سببت غضب خليل أغا عليه ؛ ومن خليل أغا ؟ هو كبير أغوات الوالدة (أم إسماعيل) ، وكان القصر مملوءاً بالأغوات ، يقومون بشئون القصر ، ويستقبلون المدعوّات ويصحبونهن إلى باب الحريم ؛ ونال كبيرهم خليل أغا من النفوذ ما لم ينله ناظر النظار ولا الأمراء والوجهاء ، لحظوته عند الخديو إسماعيل ووالدته ، وإشارته حكم ، وطاعته غنم ، يخضع له أكبر كبير ، ويسعى لخدمته أعظم عظيم ، رأيه نافذ فى الدواوين والمصالح ، يتحكم فى مصر والسودان ، ويأتمر بأمره كبار الموظفين والأعيان ، حاز الثروة الضخمة والجاه العريض ، كأنه كافور الإخشيدي فى أيامه ، حتى إنه لما عُقد عقد زواج الأنجال فى القصر العالى حضره النظار والعلماء

وكبار الأعيان ، فكان يرأس الجميع « خليل أغا » . كان من خصاله أنه يذبح ويسبّح ، ويفصّب ويبنى مدرسة .

فما عبد الله نديم إذا غضب عليه خليل أغا العظيم ؟ ! إذا غضب عليه غير خليل أغا فصل من وظيفته ، ولكنه إذا غضب عليه خليل أغا ضرب وطرده ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت .

سُدَّتْ في وجهه أبواب الرزق في القاهرة كما سُدَّتْ في الإسكندرية ، وانتهى به الأمر إلى أن ينزل على عمدة من عمد الدقهلية يقيم عنده ويعلم أولاده ؛ ثم ما لبث أن تخاصم مع العمدة . فأما العمدة فيرى أنه آكله وأسكنه مقابل تعليم أولاده ، وأما عبد الله نديم فيرى أن هذا حق الضيف ويبقى له أجر التعليم . واختلقت وجهة النظر ، وتشادّا ثم تسابّا ، وغلّى مرّجل عبد الله نديم . فكان ذلك نعمة على أدبه إذ انفجر المرّجل وتدفّق عبد الله نديم بصوغ في هجاء العمدة أدباً لا ذعاً ، تدفعه عاطفة حادة ، فعرف نفسه أديباً ، وعرفه من حوله لسنّاً يملك ناصية القول .

واتصل أمره بعين من أعيان المنصورة ذى مروءة ، فاستدعاه وأكرمه ، وفتح له دكاناً يبيع فيه المناديل وما إليها ، فاتخذ دكانه متجراً للمناديل ومجمعاً للأدب ، يجتمع فيه بعض أصحابه يتذاكرون الأدب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتبادلون النوارد . وبين هذا وذاك تأتي شارية لمنديل ، أو شارٍ لعصابة .

وكانت هذه العادة فاشية في المدن ، فقد يكون التاجر ذا ثقافة فقهية أو أدبية فيتخذ أصحابه من دكانه مكاناً للبحث في الفقه أو الحديث في الأدب ، إذ لم تكن قد غزتنا المدنية الأوروبية فعلمتنا التخصص ، وأن مكان التجارة للتجارة فقط ، وأما الحديث في العلم والأدب فله مكان آخر . وقد أدركنا في أول زماننا شيئاً من هذا ، فكانت بعض الدكاكين مدارس ، وخاصة في الأدب ، لأن الأدب

لم يكن يُدِيرَ رزقا ، إنما هو فنّ للتمعة ، وكثير من أدباء عصر عبد الله نديم كان من هذا الطراز ، فحسن أفندى عبد الباسط — الأديب الشاعر الهجاء — كان في بعض أيامه يفتح دُكان عِطارة في الزقازيق ، ويجمع به في دكانه أدباء الزقازيق وظرفاؤها ؛ والشيخ أحمد وهي الشاعر الأديب كان له دُكان طرايش بالنعورية ، وكانت مجتمع الأدباء والشعراء . ولكن أكثر هؤلاء لم ينبجسوا في تجارتهم ، فالأديب فنان ، والفنان — في الغالب — سَمَحٌ يُقدِّر الذوق الفني أكثر مما يقدر الدرهم والدينار ، والتجارة تحتاج إلى الضبط والدقة ، والعناية بالإيراد والصرف ، والفنان — عادة — طليق لا تُطبق نفسه القيود والحدود . على كل حال وجد عبد الله نديم بعد برهة دكانه وليس فيها مناديل ولا جوارب ، ولكن جماعة يتناشدون الأشعار ، ويستهلكون ولا يُغنون ، فأغلق دكانه وطوّف بالبلاد ينزل ضيفا على هواة الأدب ؛ إلى أن نزل بطنطا ، وصادف مولد السيد ، فكانت له حادثة ظريفة لفتت إليه الأنظار وشهرته بين الناس .

وكانت البيوت أعظم شأنا من الدكاكين في أنها مجتمع الأصدقاء من ذوى العلم والفن ، يسمرون فيها السمر اللذيذ ويتحدثون الحديث الطريف ؛ هذا بيته مُنتدى الأدباء وهذا بيته مجمعُ الفقهاء ، وهكذا ، فيكاد كل رجل يعرف مكانه من هذه البيوت على حسب ذوقه وميله ، ويكثر ذلك في طبقة الأوساط والأغنياء من ذوى الميل العلمى والفنى . وأدركتُ في حارتنا المتواضعة ثلاثة بيوت من هذا القبيل ، كان صاحبُ أحدها قاضيا شرعيا كبيرا ، فكان بيته منتدى الفقهاء والعلماء يتسامرون عنده في الدين والفقه . والثانى موظفا ظريفا يسمر عنده أصحابه بالأخبار والفكاهات ، ليلةً يدعون قارئاً جميل الصوت ، وأحيانا فكها حسن الحديث . والثالث دقّاقاً يضرب على الدفّ في الأفراح ، فكان عنده كثير من هواة الآلات الموسيقية ، يحيون عنده الليالى الملاح حتى الصباح . فما بالك

بالموسرين إذا شُغِفُوا بأدب أو علم أو فن ، وكانوا كراما يفتتحون بيوتهم للهواة من أمثالهم ، يجدون فيها الطعام الشهى والفن الشهى ؟ !

كان بيت شاهين باشا كنج بطنطا — وهو مفتش الوجه البحري إذ ذاك — من هذا القبيل ؛ كرم حاتمى ، وذوق أدبى ، وظرف نواسى ، فتعرف به عبد الله نديم ، فوجد فيه شاهين باشا قُبْحَ منظر ، مع طلاقة لسان ، وخفة رُوح ، وسرعة بديهة ، فغطى ذلك على قبح منظره ، واتخذ له نديما .

— ٢ —

كان مرةً يجلس في قهوة أيام المولد الأحمدي سنة ١٢٩٤ هـ ومعه طائفة من أصحابه ، منهم السيد على أبو النصر الشاعر ، والشيخ أحمد أبو القرج الدمنهورى الأديب الماخن ، فطلع عليهم اثنان من « الأدباتية » .

والأدباتية طائفة من الشحاذين يستجذون بأدبهم العامى وطلاقة لسانهم في الشعر ، وحضور بديهتهم ؛ عُرِفُوا بالإلحاح في الطلب ، فإذا رددتهم أى رد أخذوا كلمتك على البديهة ، وصاغوا منها شعراً يدل على استمرارهم في طلبهم ، واستغواء ممدوحهم ؛ وقد جمَعُوا إلى طلاقة لسانهم وحضور بديهتهم منظرهم المضحك في ملبسهم وحركاتهم ، فزُرَّ خارج العامة ، وطَبَّلَتْ تحت الإبط ، وحركاتٌ يدورُ معها زرَّ العمامة كأنه نحلة ، وتحريك لعضلات وجوههم كأنهم قردة ، وهكذا . وسمُّوا « أدباتية » بجمع « أدباتى » وهى لفظ سُخْرِية لأديب . فرَّ هذان الرجلان من طائفة « الأدباتية » على الحاضرين حتى وصلا إلى عبد الله نديم ، فقال أحدهما :

أنعم بقرشك يا جندى وآلا اكسنا امال يا أفندى

أحسن أنا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جوعان

فأجابه عبد الله نديم على البديهة :

أما الفلوس أنا مديشي وانت تقول لي ما مشيشي

يطلع علي حشيشي أقوم أملتص لك لودان

فرد « الأدباتي » ، ورد عبد الله نديم ، وظلا كذلك نحو ساعة ، ثم غلب « الأدباتي » فانصرف مهزوما .

ونقل السيد على أبو النصر القصة إلى شاهين باشا كنج ، فاستظرفها جدًّا ، وخطرت له فكرة طريقة أيضًا ، أن يقيم حفلاً عامًا ، يدعو فيه كبار « الأدباتية » والزجالين ويدخلون في مساجلة مع عبد الله نديم ، فيكون منظراً لطيفاً ، ومحفلاً ظريفاً . ففعل ونصب مُرادقاً أمام بيته ، وأحضر رؤساء هذا الفن ، وشرط عليهم أنهم إن غلبوا كافأهم ، وإن غلبوا ضرب بهم ، فرضوا ، واستمرت المساجلة نحو ثلاث ساعات ، غلب فيها النديم ، فكانت الحادثة سبب شهرته بين الأدباء والظرفاء .

لقد أخذ بعضهم عليه — فيما بعد — هذا الحادث وعيروه به ، وقالوا إنه رضى أن يقف موقفاً يساجل فيه المستجدين ، وأن يكون « أدباتياً » مثلهم ، ينازلهم ويغال بهم على مَلَأٍ^(١) من الناس ، فمثل المصارعين أمام « الزفة » ، ولا يرضى لنفسه هذا الموقف إلا وضيع النفس ساقط المهمة .

والحق أن وضع المسألة هذا الوضع فيه كثير من التزمّت^(٢) والتعنّت ، كالذى تعرّض على مسامعه الفكاهة الحلوة فينتقد فيها خطأ نحويّاً أو لفظاً لغويّاً ، وكن ينتقد الشيخ الوقور على ما كان منه أيام الصبا ، والغنى الواسع الثراء على ما كان منه أيام البؤس والشقاء ؛ فالمسألة لم تعد أن تكون طرفة لطيفة ، وفكاهة

(١) ملأ : جمع من الناس .

(٢) التزمّت : التخرج والتوقر .

ظريفة ، وقوانين الظرف تبيع من البجبة في مجالسه ما لا تبيحه مجالس الجدد والوقار .

أخيراً عاد إلى مسقط رأسه بالإسكندرية سنة ١٨٧٩ م في نحو الخامسة والثلاثين ، وهو أكثر خبرةً بالدنيا فيما لقي من عظماء ووجهاء وأدباء ، وفيما رأى وسمع وعمل في القصر العالي أيام كان موظفاً في تلغرافه ، وفي التجارة أيام تاجر وأفلس ، وبأخلاق الفلاحين أيام كان يعلم أولاداً أحد « عَمدَم » ؛ ولكنه دخلها كما خرج منها صِفر^(١) اليدين .

عاد فرأى في الإسكندرية منظراً جديداً لم يكن أيام كان بها ، كانت المجالس الأدبية يومَ فارقتها تتحدث في غزل أبي نواس ، ووصف البُحْثَرِي ، وهجاء ابن الرُّومِي ، ومدح الشعراء في إسماعيل ، وفكاهات الشيخ علي اللبثي ؛ فإذا انتقلوا من ذلك فإلى سن عارضٍ شعرٍ هؤلاء من المُحدثين ، وما أنشأه الناشئون من سُمَارِ المجلس في مثل هذه الأغراض ؛ ولما عاد إليها وجد المجالس تتحدث في حالة البلاد ووقوعها في أسر الدين ، وفي الدول وتدخلها ، ورأى جمعية سرية تسمى « مصر الفتاة » يجتمع أعضاؤها فينقدون هذا كله في صراحة وحماسة ؛ والأدب يتحول فيأخذ شكل الكلام في الأمة ومصالحها ، وآلامها وآمالها ، ويحتل ذلك مكان غزل أبي نواس ، وشعر صريع الغواني ؛ والنفوس بفضل تعاليم « جمال الدين الأفغاني » وصحبه ثائرة تتطلع إلى نوع من الأدب غير الذي كان ، وتجد غذاءها في الصحف السياسية والمقالات النقدية ، فيشتغل في الصحافة من هذا النوع « أديب إسحق » و « سليم نقاش » في جريدتهما « مصر » و « التجارة » ، ويمدُّهما جمال الدين وتلاميذه بمقالاتهم وإرشاداتهم .

(١) الصفر : الخالي .

فأعد عبد الله نديم نفسه للأدب الجديد والمطلب الجديد ، وانغمس في هذا التيار ، وحوّل قلمه في هذا الاتجاه ، يُمدّد هذه الصحف بمقالاته في مثل هذه الموضوعات فلقى من النجاح ما لفت إليه الأنظار ، وكان له فضل كبير في إدراك أن الكتابة في الموضوعات السياسية إنما يناسبها أسلوب متدفق سريع مرسل لا يقيد السجع إلا قليلا ، لينسجم وحركات النفس المتحمسة النائرة .

وفكر مع بعض أصحابه من أعضاء جمعية « مصر الفتاة » أن يحولوها من جمعية سرية إلى جمعية علنية ، تعمل جهاراً في الأعمال المشروعة ؛ وجدّ هو وصحبه يجمعون المال لها من أعيان الإسكندرية ، وسموها الجمعية الخيرية الإسلامية ، (وهي غير الجمعية القائمة الآن بهذا الاسم) . وكان من أهم أغراضها إنشاء مدرسة تعلم الناشئة على نمط غير النمط الجاف الذي تسير عليه مدارس الحكومة إذ ذاك ، فيضيفون إلى تعليم مبادئ العلوم بث روح الوطنية والشعور القومي في الأمة ، وقد كان هذا غرضاً جديداً دعا إليه الشعور القومي الذي كان في طور التكوّن .

وتمّ ذلك كله ، فجميع المال ، وأنشئت المدرسة ، وجعل عبد الله نديم مديرها ، وافتتحها بخطبة رنّ صداها في الثغر ، وكان ذلك في آخر أيام إسماعيل ، وأقبل عليها كثير من أبناء الفقراء والأيتام ، ووضع لها برّ نامج يحقق الغرض ، وتكفل هو بتعليم الإنشاء فيها والأدب ، وأخذ يمرّن الطلبة على الخطابة والتمثيل ، وعلى الجملة نفخ فيها من روحه ، ولعلها أول جمعية مصرية إسلامية في مصر أسست لمثل هذا الغرض .

ثم وثّق الصلة بين المدرسة والقصر ، وكان الخديو إسماعيل قد عزل وحلّ محله الخديو توفيق ، فتقرب النديم إليه واستزاره المدرسة فزارها ، ورجا منه أن تُنسب

الرياسة الوليَّ عهده « عباس » . فقبل . وأُغرم بتعليم التلاميذ الخطابة ، فكان يتهمز كلَّ فرصة لإقامة الحفلات يخطب فيها ، ويحضّر الخطب لتلاميذه ليخطبوها . ثم يُمرّتهم أن ينشئوا الخطب بأنفسهم ، ويصحّ خطأها ويرشدهم ، فأسس بذلك نُخبة يحسنون التحرير ، ويحسنون القول . ولم يكتب بذلك ، بل خرج بالمدرسة إلى ميدان الحياة العامة ، فكان يحضّر بعض الروايات التمثيلية في نقد بعض العيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه في بعض الملاهي العامة ؛ من ذلك أنه أنشأ روايتين اسمهما « الوطن وطالع التوفيق » و « العرب » ومثلهما في « تياترو زيزينيا » ، حضرهما الخديو توفيق ، ونجح فيهما نجاحاً أعلى ذكره .

ولكن ظهر فساد في الجمعية نسبوه إليه ، ففصل من المدرسة ومن الجمعية .

عند ذاك اتجه إلى إنشاء صحيفة ، وحبّب إليه ذلك سابقة اتصاله بصحيفتي أديب إسحق وسليم نقاش ، ومَرَّانته على الكتابة فيهما ، وشعوره بأن الناس أعجبوا بما كتب ، وأنه كان يكتب فيستغل أصحاب المصحف مقالاته مادةً ومعنى فلا يؤجرونه على ما كتب ، وكثيراً ما يَضُثُّون عليه حتى يذكر اسمه في ذيل مقالاته ، بل يتركون القارئ يفهم أنها لهم ومن إنشائهم .

فأخرج صحيفة سماها « التنكيت والتبكيت » ، وفي هذا الاسم دلالة على غرضه وأسلوبه ، فهو يرمى إلى تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه ، في أسلوب قد يكون لاذعاً وقد يكون مضحكاً .

وظهر العدد الأول منها في ٦ يونيه سنة ١٨٨١ ، ودعا فيه الكتاب أن يُوافوه بمقالاتهم ونتاج قرائمهم على النهج الذي رسمه : كونوا معي في المشرب الذي التزمته ، والمذهب الذي انتحلته ، أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادى بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ، لتعاون بهذه الخدمة على

مخو ما صرنا به مثلة^(١) في الوجود، من ركوب متن الغواية، واتباع الهوى .
الذين أضلانا سواء السبيل .

وفي الحق أن هذه الصحيفة كانت عجبا في موضوعاتها وأسلوبها .
انظر العدد الأول ، تجد تنكيئا وتبكيئا لأكبر المصائب التي كان يحسها
ذلك العصر : مقال عنوانه « مجلس طبي لمصاب بالأفرنجى » ، وهى قصة شاب
صحيح البنية ، قوى الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف الشكل ، فى رقة الفاظ
وعذوبة كلام ، وفى عزة ومنعة لا يشاركه فيها مشارك ، يلتفت حوله أهله يعزّونه
ويؤازرونه حتى لا تمتدّ إليه يد عدوّ ، ولا حيل محتال . وبينما هو فى ذلك تسلى
إليه أحد الماكرين يتظاهر بالصلاح والتقوى ، ويضمر الختل والغدر ، فأسلمه
إليه أهله انخداعا به . فعرضه هذا الماكر على الأسواق يريه من الغواني من
تعارض الشمس بحسنها ، وتكسيف البدر بنورها ، فناع حيناً ، ولكنه رأى
أهل بيته قد وقعوا فى مثل هذه الغواية ، وانغمسوا فى مثل هذه الضلالة ، فسار
سيرهم ، وترك التفار والإباء ، وسار فى الطريق الذى رسمه المنافق الخادع ،
فما سار فيه حتى أصيب بالداء الأفرنجى (الزهرى) فاصفر وجهه ، وارتخت
أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه
بقبايح تنفر منها الطباع ، وتمكن الداء منه ، وسرى فى دمه وعروقه ، فصار
يقلب طرفه لعله يجد من قومه من ينقذه من مرضه .

واجتمع الأطباء من قومه يفحصون الجسم ، ويشخصون مرضه ، ويقفون
على أصله ، ويركبون الدواء ليقف سريان الداء ، وتعلق بهم أهل المريض
يسألونهم الإسراع فى معالجته ، والاجتهاد فى دفع مصابه ، فطمأنهم الأطباء
ونصحوا لهم بالهدوء والتحرّز ممن كانوا السبب فى الداء . حتى لا يفسدوا العلاج ؛

(١) المثلة : ما حدث لقوم من عذاب يكوّنون به عبرة لمن بعدهم .

وابتدأوا يعملون بمشورة الأطباء ويبذلون الجهد في معالجته .

وواضح أن هذه قصة رمزية ، أراد أن يصور فيها شعور الناس في هذه الفترة بعد ما كان من الإسراف ، ووقوع مصر في الديون الباهظة ، وتدخل الدول الأجنبية ، من مراقبة ثنائية وإنشاء صندوق الدين ، وما إلى ذلك ، كما يصورها ألم الناس من هذا المرض الأفرنجي ، وأملهم في النجاة منه بسعي عقلائهم ، وتفكير أولى الرأي فيهم ، كل ذلك في أسلوب روائي مفهوم .
قد كانت هذه المسألة هي صميم المسألة المصرية ، ومشكلتها الكبرى ، فبدأ بها على هذا النحو ، وعالجها هذا العلاج ؛ وكان بارعا في التورية بكلمة « الداء الأفرنجي » .

وبلى ذلك مقال في « عربي تفرنج » يصف فيه شابا من صميم الفلاحين ، تعلم في مصر ، ثم في أوربة ، وعاد إلى بلاده يسفّه أباه لما قابله على المحطة وقبّله ، كيف يقبّله ، ويطلبه أن يسلم عليه بيديه فقط ، ويكتفى أن يقول له « بُنْ أَرِيْفِيه » وينسى لغته ، حتى اسم البصل ، فهو لا يعرف إلا أن اسمه « أونيون » — ويحتم هذا بالمعزى من القصة ، وهو أن لا أمل في مثل هؤلاء إلا إذا حافظوا على لغة قومهم وعاداتهم ، وصرفوا علومهم في تقدم بلادهم .

ثم يقص قصة موسرين اجتمعوا في بيت أحدهم ، دخل عليهم فوجدهم ساهمين^(١) لا يتكلمون ولا يتحركون ، فظنهم يفكرون في أمر خطير شغل أذهانهم ، وعقد لسانهم ، كتفكيرهم في تقدم الصنائع في أوربة ، وكيف يفعل ذلك في مصر ، أو يفكرون فيما يزيد ثروتهم ، ويضمن التقدم في عملهم ؛ ثم يتبين بعد ذلك أنهم إنما اجتمعوا لتعاطي « الكيف »^(٢) ، وقالوا ما لنا وللدنيا وما جرى فيها ، وما لنا وللصحف والتلغرافات ، ونحن كلنا بحمد الله في غنى عظيم ،

(١) ساهمين : عابسين .

(٢) « الكيف » : الخدر .

عندنا الخدم الذين يقومون بأعمالنا ، وقد خلف لنا آباؤنا من المال ما لا تُفنيه الأيام — فلا نخرج من بيوتنا إلا للمسامرات بالمدح عكات والنكات اللطيفات . ثم قصة ترمى إلى نقد ما كان يجري بين العامة من اجتماعهم في القهوة ، وسماعهم للقصاص (الشاعر) ، واتقسامهم إلى معسكرين : متعصب لعنترة ، ومتعصب لزُغبة ، وما كان من أحدهم — وقد ختم القصاص الليلة بوقوع عنترة أسيراً — إذ ذهب إلى ابنه وأيقظه من نومه وأمره أن يقرأ في الكتاب حتى يخلص عنترة من الأسر ، وإلا مات كمدأ ، فلما لم يطعه ابنه ، وأفهمه أن هذا تخريف في تخريف ، نزل عليه بعصاه حتى أذماه ، والجنون فنون .

وبلى هذه قصة تمثل الفلاح الجاهل ، والمرايى الماكر ، إذ أراد الفلاح أن يقترض منه مائة جنيه ، فأعطاه سبعين ، وكتب عليه « كمبيالة » بمائة وعشرين وحسبها كما يأتى : المائة فائدتها عشرون ، تخضع من المائة فيكون الباقي سبعين ، وتضم الفائدة فيكون عليه مائة وعشرون ؛ ويقتنع الفلاح بذلك لجهله بأبسط مسائل الحساب . ثم يقدم الفلاح للمرايى قطنًا وقمحًا ثمنهما الحقيقي ١٢٥ جنيهًا ، يحسبهما المرايى بأربعين ، ويغالطه أغلاطًا مضاعفة حتى يجعله مدينًا بمائتي جنيه وعشرة ؛ كل ذلك والفلاح في غفلة لا يدري ما يصنع به — فإذا عوتب المرايى على ذلك قال : ماذا أصنع ! إن الفلاح حمار ، وأنا أريد أن أكون غنيًا كبيرًا في خمس سنين !

ثم قصة غنى كبير بنى بيتًا فخما ، وأثنى أثاثًا بديعًا ، وكان من أثاثه مكتبة كبيرة ، فلما أتم ذلك كله عرضه على الزائرين ، فسأله أحدهم عن المكتبة وما تحوى ، ليعرف أى نوع من العلوم والفنون يهوى ، فقال الغنى صاحب البيت : لقد دخلت بيت فلان وفلان فرأيت في مضيقة كل منهم خزانة كتب عليها ستارة خضراء وبجانها منفضة من الريش ، والخدام كل يوم ينفضها

ويمسح الزجاج والخزانة ، فعلمت أن هذا طراز جديد في بناء البيوت وتأثيثها ،
فقلدتهم في ذلك ، ولا علم لي بعلم أو فن . « وهكذا أصبح الكل نائماً في
غفلة التقليد » .

* * *

نعم ، هذا كله في العدد الأول من صحيفة « التنكيت والتبكيت » ، نقد
للسياسة العامة للبلد ، ونقد للعيوب الاجتماعية الخاصة . كل ذلك في أسلوب
يسترعى الانتباه ، فقد التزم اللغة البسيطة السهلة عن تفكير وروية ، فقال في
فأتمتها : إنه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، مزخرفة
بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا معربة عن
غزارة علم وتوقد ذكاء ؛ ولكن أحاديث تعودناها ، ولغة ألفنا المسامرة بها ،
لا تلجئ إلى قاموس الفيروز ابادي ، ولا تلزم مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ،
ولا تضطر لترجمان يعبر عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر معانيها ؛ وإنما هي
في مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفي بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر
عليه ، و « نديم » بسامرك بما تحب وتهوى .

ثم هو يدرك أن في الناس خاصة وعامة ، وكل يجب أن يقصد إلى تغذيته
بالأدب ، وإشعاره بوجوه النقد ؛ لذلك يختار موضوعات الخاصة فيكتبها باللغة
الفصحى كموضوع « الداء الأفرنجي » ، فهو موضوع دقيق لا يقدره قدره
إلا الخاصة ، أما الفلاح والمراي وسماعو القصاص فمكتوبة للعامة ، فيجب
أن تكتب بلغتهم العامية . وهو في اللغة العامية ماهر كل المهارة ، يعرف أمثالهم
 وأنواع كلامهم ، ويضع على لسان الخادم والسيد ، والمرأة والرجل ، والفقير
والغني ، والمماكر والمغفل ، ما يليق به ، في دقة وإحكام وظرف .

ثم هو قد فطنَ لشيء جليل القدر ، وهو أن التعليم والنقد من طريق القصص أجذب للنفس وأفعل في النقد ، فأكثر منه بل كاد يلتزمه .
لذلك كله نجح في صحيفته ، ووصل نداؤها إلى أكبر عدد ممكن ، فمن كان قارئاً قرأ ، ومن لم يكن قارئاً سمع ففهم .

ولم يكتب بذلك ، بل نراه في عدد تال يلتفت التفاتة لها خطرها في الإصلاح السياسى والاجتماعى ، وهى أن من أهم أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة ، واقتصارها — تقريباً — على خطب المساجد ، وهى خطب لا تمس الحياة الواقعة بحال من الأحوال ، وإنما هى عبارات دينية محفوظة ، ومعان متكررة مألوفة ، لا تحرك قلباً ولا تضىء حياة .

فكتب مقالا قوياً في قيمة الخطابة وأثرها في تاريخ الإسلام ، ودعا إلى أن يحضر خطب المساجد أعرف الناس بشئون الحياة ، وأقدرهم على التأثير ، وأن تشرح هذه الخطب الموقف الحاضر في وضوح ، وتبين الأخطار المحيطة بالامة في جلاء ، وأن يتبرع القادرون بقدر من المال يخصص لهذا الغرض ، ويتفقوا مع ديوان الأوقاف ليسمح بإلقاء هذه الخطب في المساجد ، ثم تطبع وتنتشر في أنحاء البلاد ، ليصل صداها إلى كل قرية وبلدة ؛ وأعلن استعداداه للاشتراك في إعدادها ؛ ووضع خطبة نموذجية توضح غرضه ، تتضمن المحافظة على حقوق البلاد ، والنهي عن الظلم والبغى ، والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار التى تظهر دلائلها في الأفق ، والاتحاد مع المواطنين من غير نظر إلى اختلاف الدين ، والتذكير بمجد مصر السابق ، والالتفاف حول الخليفة والحديو ، والتحذير من تمكين الأجنبي من وضع يده على سياسة البلاد ، والتحرز من إتيان عمل يتخذ وسيلة لتدخله ، ومعاملة النزلاء الأجانب بالحسنى ، من حفظ حقوق تجارتهم ، وعدم الإساءة إليهم .
هذه هى المعانى التى رأى أن الحاجة ماسة إليها في ذلك الوقت (فى أول

حكم الخديو توفيق قبيل الثورة العرابية) ، صاغها صياغةً دينيةً تناسبُ صلاة الجمعة فبدأها بالحمد لله ، والثناء على رسوله ، وختمها بالخديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . — وقد حقق « الراديو » أخيراً فكرة عبد الله نديم في إذاعة الخطبة شكلاً ، ولكن لما تحقق فكرته موضوعاً . و انتهت هذه الصحيفة على هذا الوضع .

لم يكن في مصر إلى أواخر عهد الخديو إسماعيل رأى عام يشعر بظلم ، وإن شعر فلا ينطق ، لأن عنف الاستبداد أزماناً طويلة أمت الشعور وأخرس الألسن ؛ حتى تدخلت الدول الأجنبية في شئون مصر المالية ، فبدأ الشعور يتنبه ، وغداه الخديو إسماعيل نفسه وجراًه ، لإحساسه بثقل التدخل وخشيته من عاقبته ؛ فأول معارضة من مجلس شورى النواب للحكومة كانت بإيعاز منه ، ولولا ذلك لم يجرؤ ومظاهرة الضباط ومهاجمتهم لنظارة المالية لتأخير رواتبهم كانت بتدبيره ليتخلص من وزارة نوبار التي تمالى^(١) الأجانب في هذا التدخل ؛ واجتماع أعيان البلاد في دار السيد البكرى ، ووضعهم اللائحة الوطنية — التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربة وضمائها وعدم تدخل ممثليها في شئون البلاد — كانت فكرة بثها الخديو في أذهانهم ؛ وكان هذا أول ما أشعر الناس بقوتهم وحاجة الحاكم إليهم ، ونبه الرأي العام إلى أنه يستطيع أن يقف الظلم ويطالب بالحقوق . وأن من حقه مراقبة الولاة والحكام ورفع صوته بنقدهم ؛ وهذا الشعور إذا وجد في أمة كان لا بد له من قادة يشعرون شعور الناس ، ويصوغونه صياغة قوية يلهبون بها شعور من شعر ، وينبهون بها من لم يشعر ، فكان ذلك في السيد جمال الدين

(١) تمالى : تناصر .

ومدرسته ، وجاء الخديو توفيق ونواة الرأي العام قد غرست ، وتتابع الأحداث الخطيرة يغذيها وينميها ، والنفوس مستبشرة بتوليته ، فقد كان ستمحارحيا ؛ وكان قبل عزل إسماعيل يتصل بالسيد جمال الدين ويحبذ آراءه في الإصلاح ، فلما تولى قرّبه إليه وقال له : أنت موضع أمل في مصر ، ودعا شريف باشا لتشكيل الوزارة ، « وصرح برغبته في تحقيق آمال الأمة ، وإخراجها من الحالة السيئة التي هي فيها بالاقتصاد في نفقات الحكومة ، والاستقامة في الوظائف العامة وإصلاح القضاء والإدارة ، وتوسيع نظام شورى القوانين وإصلاح المحاكم والمجالس ، والسعى لتعميم التربية والتعليم ، وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم » .

ففرح الناس وتهللوا لهذه الوعود القيمة وتفتحت آمالهم ، ولكن الحكم الشورى لم يرض طوائف كثيرة — لم يرض الحاشية ، وكان السيد جمال الدين أشار على الخديو توفيق بتغيير حاشية إسماعيل ، فأغضبهم عليه . قال الشيخ محمد عبده : « ووكيل دولة فرنسا أخذ يسعى في إقامة الموانع دون إعطاء حق النظر في تصحيح الميزانية ، وتقرير الأمور المالية ، ودعا وكيل إنجلترا إلى مساعدته في إقناع الخديو بضرر هذه الأوضاع الجديدة » فتغير رأى الخديو توفيق في ذلك كله فاستقال شريف باشا ، ونفى السيد جمال الدين ، وأخذت الأمور مجرى آخر كان سبباً من أسباب الثورة .

ثم جاءت وزارة رياض باشا بعد وزارة شريف . وفي تاريخ مصر الحديثة كان شريف باشا دائماً رمز الحكم الشورى ، ورياض باشا رمز الحكم الاستبدادى ، وكلاهما كان يلتفت حوله كثير من الخاصة ؛ فحول شريف جماعة ترى أن الحكم الشورى هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد من الفوضى ، والأمل الوحيد في وقف كل سلطة عند حدها ، والباعث الوحيد للأمن والحرية في نفوس

الأفراد ؛ وحول رياض جماعة ترى أن الحكم الشورى لا يصلح إلا إذا نضجت الأمة وعرفت شئونها ومجاري السياسة حق معرفتها ، ورُزقت من الشجاعة في القول والجد في العمل قدراً صالحاً ، وإلا كان الحكم الشورى نقمة . والأمة لم تبلغ هذا الحد . وكان الجدال والنزاع يدور على الفكرتين في الصحف والمجالس ، وعلى كل حال فقد كان هذا درساً لتتوير الرأي العام في السياسة ، وتفتيح الأذهان للنظر في المسائل العامة .

وكانت شخصية رياض شخصية معقدة — ذكي ، خبير بالإدارة ، قوى العزيمة ، صبور على العمل ، معتد بنفسه ، لا يرى بجانب رأيه رأياً ، وإذا وثق بشخص لم يسمع فيه قول قائل ، وإذا أساء الظن بإنسان فإلى النهاية ؛ نزيه ، يحب الخير لمصر ، ولكن حسبما يرى هو وبالطريقة التي يراها ، قليل الثقة بالمصريين ممتلئ عقيدة بأنهم مملوون عيوباً ، كبير التعظيم للأجانب ، معتقد بقوتهم ، يرى أنه لا يستطيع الحكم إلا بالاعتماد عليهم أو على أقوام ، لا يرى بأساً من إغضاب الخديو وإغضاب الأمة في سبيل إرضائهم ، ومع ذلك يبذل أقصى جهده في أن ينال منهم أقصى ما يستطيع لخير أمته — شديد الحب للحكم لا يعتزله إلا مُكرهاً . فكانت أخلاقه هذه من عوامل التمهيد للثورة العرابية .

ألقى الشُّخْرة العامة ، كإقامة الجسور على النيل ، وحفر الترع من غير أجر ، والشُّخْرة الخاصة ، كعمل الفلاحين في أرض سيدهم من غير مقابل ؛ ونفذ ذلك في غير هوادة ، فأغضب بذلك الأعيان ؛ وأعطى السلطة العامة للمديرين ، فأساءوا السيرة ، وضيق على الصحف ، وعطل بعضها ، فعمل أصحابها سرّاً بعد أن كانوا يعملون جهراً ، وسافر بعضهم إلى أوربة يصدر الجرائد في الطعن عليه ؛ وعارض الخديو في أن يمنح الرتب والنياشين لمن يراهم أهلاً ، كما عارضه في كثير من رغباته

فغضب الخديو عليه ، وعاقب « رياض » المدير الذى سخر الأهالى فى حفر ترعة خاصة بالخديو . وتصرف ناظر الحرية فى وزارته تصرفات أغضبت رجال الجيش المصريين ، فطلب إعرابى وأصحابه تشكيل مجلس عسكرى لتحقيق الشكايات ، فقال رياض إلى إجابة مطلبهم ، ولكن أشيع عنه أنه هو الذى يمانع فى ذلك ، فغضبوا عليه — كل ذلك وهو لا يريد أن يتخلل عن الحكم . تلبلت الأفكار واضطربت ، وكلها تتفق فى وجوب تغيير الحال ، وإن اختلفت أسباب غضب كل طائفة ، فالأعيان يحبون رجوع سلطتهم فى تسخير الناس ، والضباط المصريون يريدون العدل بينهم وبين الشراكسة ، وبعض ذوى رأى يرون أن هذا كله تأييد لوجهة نظرهم فى أنه لا يُصلح الأمور إلا نظام الشورى والخديو ناظم على رياض لخشونته ؛ وبعض الأجانب لا يسرهم ما قام به رياض من ضبط الأمور المالية . كل ذلك هياً للثورة العرابية .

وتطورت مطالب العرابيين من عدل بين الضباط ، إلى تغيير شكل الحكومة من نظام استبدادى إلى نظام شورى ، إلى التهييج على الخديو توفيق ، إلى المناداة بعزله لانتجائه إلى الدول لحمايته ، إلى الدعوة للجهاد فى سبيل صدّ المغيرين . واتسعت الحركة ، من حركة محصورة فى الجند والضباط ، إلى حركة وطنية واسعة تشمل العلماء والأعيان والتجار والزراع وغيرهم ، واندس وسط الحركة من يعمل لصالح أمير ليحل محل الخديو توفيق ، فجاعة تعمل لصالح الأمير حليم ابن محمد على ، ومن هؤلاء صاحب جريدة « أبو نضارة » ومنهم من يعمل لحساب الخديو إسماعيل لإعادته ، ومن هؤلاء راتب باشا السردار ، وهكذا .

فى هذا الجو الذى صورناه صورة صغيرة جداً عمل عبد الله نديم ، واختزنه العرابيون ، فكان خطيب الثورة وكاتبها ومُشعلها .

اتخذ جريدة « الطائف » بدل « التنكيت والتبكيت » ، ونقل مكانها

من الإسكندرية إلى القاهرة ، وبدأها عيفة قوية ؛ تنقد تصرفات الخديو إسماعيل في جرأة بالغة ، وتشرح بؤس الفلاحين في السخرة والعذاب المهيّن الذي يلقونه من الرؤساء ، وما شاهده بنفسه من أحداث ، وكيف يخرّج الناس قتلى من الجوع والبؤس ، والإعياء والضرب ، وكل رئيس يريد أن يغال حُظوة مَنْ فوقه بالمغالة في التعذيب .

وكان عبد الله نديم في هذه الصحيفة يعبر عن آراء النواب في ضرورة الإصلاح عن طريق الحكم النيابي . وقد كتب سلطان باشا رئيس النواب إلى إدارة المطبوعات أن تعتبر جريدة « الطائف » لسان النواب المعبر عن أفكارهم ، فاعترفت الإدارة بذلك ، ونشر هذا رسمياً بأمر نظارة الداخلية ؛ ولكن لما رأت إدارة المطبوعات عنفه وتهيبجه عطلمته شهراً .

أصبح « الطائف » في الثورة العرابية لسان الدعاية لها ، يذمّ من عاها ، ويشجع من والاها ، ويلقب « عرابي » بحامي حى الديار المصرية ؛ ويتطور بتطورها فينقد الأوربيين وتصرفاتهم ؛ وينقد الخديو توفيق لارتمائيه في أحضانهم ، في أسلوب لاذع وتهكم ساخر ، فإذا كانت الحرب نقلَ جريدة « الطائف » إلى المعسكر يحرّض الجنود على القتال ، ويحرّض الشعب على تقديم المئونة ، وينشر خبر التبرعات ، وكلما اشتد الأمر اشتد في تهيبجه . وقد قلّت صفحاتها لاشتداد الظروف : من أربع إلى اثنتين إلى واحدة ؛ وهو يهرّج في أخبار الحرب ، فيقلب أخبار هزيمة المصريين إلى أخبار انتصار ، وانتصار الإنجليز إلى أخبار هزيمة ، وظل كذلك حتى تمت الهزيمة ، وتم التسليم . هذا عمله في الصحافة ، وإلى جانب ذلك كان عمله في الخطابة .

فقد طاف في كل مجتمع يخطب ، وأعطى من ذلاقة اللسان ما يستدعى العجب ، فما هو إلا أن يحرك لسانه حتى يتدفق وتنهل عليه المعاني والألفاظ

انهيالا . وقد نشر في البلاد فن الخطابة ، وعلم كثيراً من الناشئة أن يخطبوا في المحافل ، وأعطى لهم المثل بمقدرته وكفايته ، وبدأ ذلك أيام كان يعلم الإنشاء والأدب في مدرسة الجمعية الخيرية في الإسكندرية . فلما أعلن الدستور في أول عهد توثيق (٧ فبراير سنة ١٨٨٢) ، سرت في النفوس هزة فرح لا تقدر ؛ وأمل الناس أن الحكم النيابي سيصلح كل مفاصد الماضي ، ويرسم كل وسائل السعادة للحاضر والمستقبل — واشتاق الناس أن يسمعوا الكلام الكثير في هذا الموضوع ؛ فكان عبد الله نديم وصحبُه وتلاميذُه الذين يُغَنُّون للناس بآمالهم ؛ فأقيمت الحفلة تلو الحفلة يُدعى إليها النديم وفرقته ليخطبوا ؛ والنديم هو قُطْب الرِّحَى : يخطب أولاً ، وكلما خطب خطيب وتناول موضوعاً قام النديم بعده يعقِّب عليه ، ويتخذ من كلامه موضوعاً يُطنَّب فيه ؛ وفي هذه الحفلات يحضر النظار وكبار الضباط والعلماء والنواب والأعيان ؛ فتطرب نفوسهم لهذا طربهم من عبده الحمولى ومحمد عثمان .

هذه حفلة تقيمها جمعية المقاصد يفتتحها « النديم » بقصيدة ، ثم يشكر الجمعية على احتفالها بالدستور ، ويتلوه إبراهيم اللقاني فيبين الفرق بين عهد الاستبداد وعهد الشورى ، فيعقِّبه النديم يكمل موضوع الفروق بين العهدين ؛ ثم يقوم الشاب مصطفى ماهر — باشافيا بعد — فيتكلم في الحث على الاجتهاد في العلوم والفنون ، ويستحث الأغنياء على إنشاء بنك أهلى يحمى الأهالى من استغلال المرابين ، ويمحتم ذلك بالدعوة إلى الألفة والاتحاد ، فيقوم بعده النديم يتكلم في هذا الموضوع ؛ ثم يقوم الشيخ محمد عبده فيبين مزايا الحكومة النيابية ؛ ويطلب بوجوب أن يكون النواب من المتعلمين ، ويحث على تعميم التعليم ، وعلى احترام حرية القول والكتابة ، وسن القوانين المبينة لحقوق الأفراد وواجباتهم ؛ ويقوم « النديم » بعده معقِّباً على قوله ؛ ثم يقوم أديب إسحق فيتكلم في شعور النواب

وتضامنهم مع النظار في كل ما يجلب الخير للبلاد ، ويتلوه النديم ؛ ثم يقوم فتح الله أفندي صبرى (فتحى باشا زغول) فيخطب في الحث على الاتحاد والثبات ، وينتهى هذا الاجتماع .

وتتكرر أمثال هذه الاجتماعات ، ويقال فيها مثل هذه الخطب ، ويقوم بالدعوة إليها كبراء البلد ؛ وكلها على غرار الحفلات السابقة ، عمادها عبد الله نديم وإن اختلفت بعض الموضوعات ؛ كدعوة إبراهيم اللقاني إلى التمسك بأسباب القوة والاتحاد ، والحث على مجانبة الخوف والجبن ، وخطبة فتحى زغول في الأخذ بالمبادئ التي تُمدّن البلاد ، والدعوة إلى إنشاء جمعية تفتح مدارس ليلية يتعلم فيها من لم يسمح له عمله بالتعلم .

ويُدعى عبد الله نديم إلى حفلة في الإسكندرية على هذا الطراز . وكل هذه الحفلات تُوصف في جريدة الوقائع المصرية ، ويُذكر فيها خلاصة ما دار فيها من خطب ، فتنتشر في البلاد .

فلما عُطل الدستور ، وتطورت الأمور ، وكانت الثورة العرابية ، تحولّت خطبُ عبد الله نديم إلى موضوع الثورة ، وكان يخطب في كل مجتمع : في الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفي حفلات « الأفراح » ، فما يكون مجتمع لغرض من الأغراض إلا ويطلعُ عليهم عبد الله نديم ، وجماعة من ناشئته يَغْتَلُونَ المكان العالي ويخطبون في موضوعات الثورة ، حتى كان إذا سئل محمد عثمان « المغنّى » : أين تغنّى الليلة ؟ يقول : « في الفرح القلاني مع عبد الله نديم » . وهو في هذا الموقف لا يتحرّج من التهريج ، فيقول مثلاً في بعض خطبه : إن طوابى الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها يبلغُ سرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الآستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر . فكيفما جالت الأساطيل الإنكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا ، فيصفق الناس . ويخطب « فتحى زغول »

فيقول النديم : ألا تعجبون لما أبدى هذا التلميذ في خطبه من العلم والبيان والتفنن في المواضيع ، مع أن جلادستون خطيب انجلترا لا يتناول إلا موضوعاً واحداً ؟! ويخطب مصطفى ماهر فيقول النديم : أشهدكم أيها الناس أن أمة يكون هذا مقدار استعداد التلميذ فيها لا يغلبها أحد في أمرها .

على كل حال كان عبد الله نديم لسان الأمة في عهده بخطبه ، وقلمها بصحفه ، ينتقل في الأقاليم ولا يكل ولا يمل ، وينشر آراءه ومشاعره في أكبر عدد ممكن من الأمة . وبذلك كله ساعد على نمو رأي عام مصري يؤمن بالحكم الشورى ، ويتطلع إلى الإصلاح في الأمور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فإن كان السيد جمال الدين رسول الخاصة في هذه المعاني ، فعبد الله نديم كان رسول العامة ، قطر المعاني التي يدعو إليها جمال الدين إلى الشعب ، وأوصلها إلى التاجر في متجره ، والفلاح في كوخه ، والتلميذ في مدرسته . كان السيد جمال الدين بحكم أرسقراطيته في نشأته وثقافته ، والبيئة التي تحيط به ، ولغته في كلامه وكتابته ، معلم الخاصة ؛ وكان عبد الله نديم بحكم ديمقراطيته في النشأة والعلم والبيئة واللغة معلم العامة .

لسنا الآن بصدد الحكم على الثورة العراقية وما نفعت وما أضرت ، والمستولين عنها ، والمآخذ عليها ، وإنما كل ما يعنيننا الآن أن نقول : إنه إذا تبخرت أقواله التي دعت إليها ثورة الثورة ، وتبخرت أنواع تهريجه وتهويشه ، بقي لنا جانب كبير من جوانب نفع عبد الله نديم في هذه الحركة ، وهو إيقاظ الشعور في الشعب بحقه في الشكوى من الظلم ، والمطالبة بالعدل ، وإفهامه أن الحاكم يجب أن يكون مسئولاً أمامه ، وأن هناك نوعاً جديداً من الحكم غير الذي أُلِّقَ : من رجوع الأمور كلها إلى إرادة الحاكم يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، وهذا النوع الجديد هو حكم البلاد نفسها بنفسها ممثلاً في نوابها ، وأن مصر

للمصريين لا للدولة العلية ، ولا لأية دولة أجنبية . وهذه معانٍ قد كانت عند خاصة الخاصة ، فنشرت الثورة وعبد الله نديم في العامة . ولئن أخفقت الثورة فيقظة الرأي العام — إلى حدّ ما — وشعوره بنفسه ، وتنبهه لحالته الاجتماعية والسياسية لم يتحقق ، ويتجلى ذلك على الأخصّ إذا قورن بينه وبين حالته من قبل .

— ٤ —

اتتهت الثورة العرابية بالإخفاق والهزيمة المنكرة ، وكانت الهزيمة الخلقية أقسى من الهزيمة الحربية ؛ فقد ذل أكثر قواد الحركة ، وتنكّر لهم أكثر من كان يناصرهم ، وبدأت السّمايات^(١) تدبّ ، وكل من كانت له خصومة مالية أو عائلية سعى في الإيقاع بخصمه ، يتهمه بعمل من أعمال الثورة ، وامتلات المجالس المشكلة للنظر في الدعاوى والتهم ؛ وأخذ كثير ممن اشتركوا في الحركة يتبرءون مما قالوا وما فعلوا . وإن استطاع كثير منهم أو حاول تبرئة نفسه ، فعبد الله نديم ليس بمستطيع شيئاً من ذلك ، نُخطبه لا ينساها أحد ، وأقواله مسجلة عليه في جريدة « الطائف » ، فلا بد إذا حوكم أن يُحكم عليه بأشدّ العقوبات ، وكان أغلب الظنّ أنها الإعدام .

لقد فكر عرابي هو ومن معه أن يطلبوا العفو من الخديو ، وكتبوا رسالة وبعثوها مع وفد إلى الإسكندرية لتقديمها إليه ، ثم بذالهم أن يغيّروا بعض نصوصها ، فبعثوا بصيغة أخرى مع عبد الله نديم ، فلما وصل إلى كفر الدوّار علم أن الخديو رفض العريضة الأولى وأمر بالقبض على بعض رجالها ؛ فعاد « النديم » إلى القاهرة ، وأيقن بالهلاك ، فأعدّ العدة للهرب والاستخفاء ؛ وإذا به « قصّ

(١) السّمايات : الوشائات .

ملح ذاب « ؛ تجدد الحكومة وتضع له الأرصاد^(١) ، وتوجه كل قوة للبحث عنه ؛ ويبعث كل من سلطان باشا ورياض باشا منشوراً لرجال الإدارة بالجد والنشاط للقبض عليه ؛ وتعلن مكافأة ألف جنيه لمن يرشد عنه ، والعقوبة القصوى لمن يخفيه ، فيذهب كل ذلك سدى ، مدى نحو عشرة أعوام ؛ وهو في كل أموره يحتال حيلة أين منها حيلة أبي زيد السروجي في مقامات الحريري ؟ ويمثل روايات أين منها الروايات البوليسية المعروفة ؟ .

لقد أعيا الحكومة أمره ، فأصدرت عليه حكماً غيابياً بالنفي المؤبد من القطر المصري .

ها هو ذا أول مرة يذهب إلى « بولاق » ويستخفي عند صديق له وفي أياماً حتى يخف عنه الطلب ، فيخرج وقد لبس « زعبوطاً » أحمر ، واعتم بعمامة حمراء وربط عينيه بمنديل ، وأطال لحيته ، وأمسك عكازاً طويلاً ، وتصنع أنه من مشايخ الطرق ، ونزل في سفينة مع خادمه إلى بنها ، فلم يفتن له أحد . وجزع خادمه وكان أمياً ، وأراد أن يرجع إلى أهله ، فأيقن « النديم » أنه إذا عاد انكشف أمره ، فأخذ يقرأ الجريدة يوماً ، ثم تصنع الفزع وقال : « لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . فسأله الخادم عما أفزعه ، فقال « النديم » : إن الحكومة قد جعلت لمن يرشد عنى ألف جنيه ، ولمن يأتيها برأسك خمسة آلاف . تخاف الخادم ، وأخذ يبالي في التنكر أكثر من سيده ، واستراح من هذا الباب ، وظل معه طول مدة الاستخفاء . وقال هو عن نفسه في هذه الفترة : « خرجت من مصر مستخفياً فدرت في البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواى التي أدعياها ، من قولى إني مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى ؛ وأصلح لحيتى لإصلاحاً يوافق

(١) الأرصاد : أى الجواسيس .

الدعوى أيضا ، فأطيلها في مكان عند دعوى الشيخة ؛ وأقصّرها في آخر عند دعوى السياحة — مثلا — وأبيضها في بلد ، وأحمرها في قرية ، وأسودها في غربة . فأحيانا كان اسمه الشيخ يوسف المدني ، وأحيانا الشيخ محمد الفيومي ، وأحيانا سى الحاج على المغربي ، وهكذا . وأحيانا كان يجتمع بمن يعرفهم فيثير عجبهم ، لأن المقدرة مقدرة « النديم » ، ولكن يختلف في الشكل والصوت واللهجة ، فيقولون : سبحان الله جلّ من لا شبيه له .

وساعد على نجاحه في هذا الاستخفاء أمور ، منها : مهارته في حيله ، وإتقانه لما يدعى ، فإذا ادعى أنه مغربيّ تكلم بلسان مغربيّ محكم ، أو مدنيّ فكذلك . ادعى مرة — وهو في القرشية — أنه عالم يمنيّ ، وذاعت شهرته في العلم والأدب حتى بلغت القاهرة ، فأرسل إليه رياض باشا « سعد زغلول » ليسأله عن معنى مثل ورد ذكره في بعض الجرائد ولم يفهم معناه ، فقابله على أنه عالم يمنيّ وفسّره له ^(١) .

وكان من مهارته في استخفائه أنه رأى جدّ الحكومة في طلبه ، فاستعان برجل من الفرنسيين يعرفه ويثق به ، فأشاع عنه أن النديم هرب إلى « ليفورنو » في إيطاليا ، ونقلت هذا الخبر جريدة « الأهرام » وصدّق الناس ذلك ، وعنفت الحكومة رجال الضبط على إهمالهم حتى تمكن من الخروج ، نفخت عنه الطلب ، ولم يكن كل ذلك إلا خدعة . وكتب صاحب جريدة « المحروسة » مرة بعد استخفائه بسنتين : إنه « قد تعددت الأقوال في مقرّ عبد الله النديم ، فمن قائل إنه التجأ إلى البلاد الإيطالية ، ومن قائل إنه فرّ إلى طرابلس الغرب ، ومن زاعم أنه أتى

(١) هذا المثل هو « بعلّة الورشان يأكل رطب المشان » والورشان : طائر يشبه الحمام ، والمشان : نوع من أجود التمر . وأصله أن جماعة عهدوا إلى خادم لهم أن يحفظ تمرهم ، فكان يأكل رطبه ويزعم أن الورشان أكله ، فقليل المثل . وهو يضرب لمن يظهر شيئا والمراد منه شيء آخر .

السودان واتصل بالمهدى وصار له نديما ، وقال قوم إنه سارع في السفر إلى « سيلان » للاجتماع بعرايى ، والحقيقة فيما نعلم أنه أتى باريس في الأيام الأخيرة ، ونشر فيها مقالة أتى فيها على ذكر الحرب العرايية ، وتدد بالمصريين ، ونسب إليهم الضعف والجبن « إلخ .

ومنها عطف بعض الناس عليه ، وإيمانهم بأن المروءة تقضى عليهم — وقد نزل بساحتهم — أن يُخفوا أمره إذا علموا ، وأن يساعدوه على الاستخفاء مهما أغروا بالمال ، كالذى كان من عمدة « العتوة » بمديرية الغربية ، وهو الشيخ محمد الهمشرى ، فقد نزل عنده وعرفه بنفسه ، فأكرم مثواه ، وأقامه في داره أكثر من ثلاث سنوات في مكان منعزل له باب خاص ، وزوجه ، وزوج خادمه ، فلما توفى دعت زوجته أكبر أولادها ، وقالت له : هل تطمع في المكافأة أو تكون كأبيك شهماً تحفظ الجار وتحمى اللاجئ ؟ فوعدها بأن يكون كإبيه في حفظه ، ووفى بذلك ، حتى أحس « النديم » بوشاية واش ، فخرج من عندهم حامداً مروءتهم . وصادفه مرة مأمور مركزى شركسى^١ ، والنديم في تنقله بين البلاد ، فعرفه ، فصرف جنده ثم اختلى به ، وقال : لا ضرورة لتنكرك فقد عرفتك ، وأعطاه ما معه من نقود ، ورسم له خطة السير في طريقه حتى لا يُضبط .

وكان في أول أمره شديد الحنين لأبيه وأمه وأخيه ، لا يعرف ما صاروا إليه ، شديد الشوق لمعرفة كتبه وتأليفه وأوراقه التي تركها في بيته بالإسكندرية ، ثم وسط الصديق الفرنسى أن يتعرف كل ذلك ويأتيه بالأخبار . فعرف الفرنسى أن أسرته تشتت والناس تنكروا لهم ، والأرصاد وضعت حولهم ، وأن أباه يقيم عند قريبة له في الريف ، وأن كتبه وتأليفه التي أنفق فيها تسعة عشر عاماً ، عندما ضربت الإسكندرية وهاجر منها أهلها وضعها أبوه في ثلاثة صناديق كبار وشحن بها عربة من عربات السكة الحديدية ، فلما وصلت إلى كفر الزيات ازدحم

على القطار المسافرون من المهاجرين ازدحاما هائلا ، فلم يسع رجال المحطة إلا أن يرموا جميع ما بالعربة في النيل ، ومنها الصناديق الثلاثة وفيها كل ثروته العقلية . ثم لما هدأت الأحوال وخف عنه الطلب كان يتصل بأبيه وأخيه اتصالا منظما . وتأتى عليه أزمات ثم تنفرج ، فهذا عيد الأنحى وهو في « برية المنيرة » يسكن وسط الحقول ، لا يساكنه أحد إلا زوجته ، ولا يجد القوت الضروري ، ويأتيه خادمه الذى يسكن بعيداً عنه يشكو له البؤس والفقر وعدم القوت في يوم العيد ، فما هو إلا أن يبعث له رجل من أهل البر والمروءة بما يملأ بيته قمحا وعسلا وسمنا وثيابا ، كما يبعث الأطلس والحرير للبس زوجته ، وشيئا من ذلك للخادم وزوجته . وأتيح له من الفراغ ما مكنه من إكمال نفسه بالدراسة والتأليف ؛ فكان إذا اطمأن في قرية قرأ ما تصل إليه يده من الكتب ، وكانت مكتبته في هذه الأيام مكتبة خفيفة يسهل حملها إذا دعا داعى الرحيل السريع ؛ فكانت تفسير القرآن لأبي السعود ، وقاموس الفيروز ابادى ، و« الوافى » في المسألة الشرقية لأمين شمىل ، وجغرافية ملطبرون الذى ترجمه الشيخ رفاعه . وألف فيما يعن له في الدين والتاريخ ، فكان هذا نعمة عليه لم يستطعها في أيامه الأولى . كتب لصديق له في هذه الفترة يقول : « إن سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة ؛ لاعتقادى أن لكل شدة مدة ، متى انتهت جفت الأحوال ، وحسنت الحال ؛ فترانى فكرى كليى ، وقلمى ندى — تارة أشغل بكتابة فصول في علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم بها لله المنّة ، وحينئذ أشغل بنظم فرائد ، في صورة قصائد ، ووقتا أكتب رسائل مؤتلفة ، في فنون مختلفة ، وآونة أكتب في التصوف والسلوك ، وسير الأخبار والملوك ، وزمنا أكتب في العادات والأخلاق ،

وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان ، على سفينة تاريخ الزمان ، ويوما أشتغل بشرح أنواع البديع ، في مدح الشفيق ... وقد تملى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ، فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام الحنة ، وسيلة للمنة . أترانى كنت أكتب هذه العلوم ، في ذلك الوقت المعلوم ، وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين وفي حجرها ثالث وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربى عشرة وليس له تابع ، أشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال ، وأقضى ليلي في دراسة الأحوال ، مشغلاً بمجالس الجمعيات الخيرية ومدارسها التعليمية ، وزيارة الإخوان ، ومراقبة أبناء الزمان ، وقد نسيت الأهل والعيلة ، وربما نسيت الطعام يوماً وليلة ، فكنت كآلة يحركها البخار ، لا سكون لها ما دام الماء والنار . فمتى كنت أنظر للمخلفات ، وأكتب هذه المؤلفات ؟

ولو أن نار مصيبتى في الغير أصلاه الزفير
لكنها في ساحة من فوقها جو مطير
هو صدق إيماني وصبرى للقضاء بلا نكير
ووقوف جيش عزيمتي في باب مولاي البصير

وكان في رحلته برّاً بخادمه « حسين » الذي غير اسمه فسماه « صالحاً » ، وزوجه ، وعلمه القراءة ، والكتابة ، وحفظه جملة سور من القرآن ، وعلمه الفقه والتوحيد ، واتخذ صاحباً .

وتواردت عليه أيام بؤس ومحن يشيب منها الوليد ، تفضب عليه زوجته وتلطمه على فمه ، حتى تكاد تسقط ثناياه ، وربما رأى — مع هذه الحال — أن إظهار نفسه للحكومة أهون عليه ، ثم يرضاها ويصالحها ؛ وأحياناً تتخاصم زوجته مع زوجة خادمه وتشتد الشحناء ، وتهدهه كلتاها بأن تفضح أمره ، فيتدارك كل ذلك بحيله ؛ وأحياناً يشعر بالخطر يهدده ، فيشتد في الحذر والاستخفاء ، حتى لقد

استخفى مرة في قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم ، يرشح الماء من أرضها لقربها من ترعة ، ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صغير يضاء بالجاز فيملاً الحجرة دُخاناً ، ويستمرّ فيها نحو تسعة أشهر ، وأحياناً يبلغ به سوء الحال مع الرغبة الشديدة في الكتابة أن يصنع الخبر من هباب^(١) القرن ، ويضيف إليه بعض قرظ السنط ، ويتخذ أقلامه من الحجناء^(٢) . وهو على كل ذلك صبور ، يعزّيه أن يجد من أهل المروعة ما يخفف كربته ، ويضدّ جُرحه . « فمحمد معبد » الحلاق « بشباس الشهداء » يُؤويه في بيته ، ويفره بفضلته ، وينفق عليه ما يحرم منه أسرته . و « أحمد جوده » الفلاح يصاحبه في انتقالاته في الظلام الحالك ، ويعرض نفسه من أجله للمخاطر .

لشدّ ما أتعب نفسه في استخفائه ، وأتعب الناس معه ، ولكن ما أكثر ما أمتعهم أيضاً بأحاديثه وفكاهاته ، ووعظه وسمره .

وأخيراً نزل « بالجميزة » فعرفه عمدتها وكتّم أمره ، ولكن رجلاً اسمه حسن الفرارجي — كان جندياً ثم استخدم جاسوساً — عرفه فكتب إلى السراي وإلى الداخلية ، فأمرت بالقبض عليه ، وذهب وكيل حكام العربية ومعه قوة من الجند فالتفوا حول البلدة . وأراد « النديم » الهرب بحيلة القديمة فلم يستطع ، فاستسلم . وكان من حسن حظه أنهم لم ينتهبوا إلى أوراقه . وكان في بعضها هجاء شديد للخدّيو توفيق لو اطلعوا عليه لتغير مجرى حياته . وكان القبض عليه في صفر سنة ١٣٠٩ هـ . واستخفاؤه في ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ . وأرسل إلى طنطا للتحقيق معه ، وكان وكيل النيابة إذ ذاك قاسم بك أمين ، فأحسن معاملته ، وأمر بأن ينظف مكانه في السجن ، ويضاء كما يريد ، وأن يمكن

(١) الهباب : التراب .

(٢) الحجناء : نبات معروف بمصر .

من شرب القهوة والدخان كما يشاء ، وأمدّه بالمال من عنده . وكان هم التحقيق متجهاً إلى معرفة من آواه ؛ وهل كانوا يعرفونه أو لا يعرفونه ؟ ولكنه أنكر كل الإنكار أن يكون أحد من آواه يعرف حقيقته . ثم صدر أمر الخديو توفيق بالعفو عنه وإبعاده عن مصر إلى أى جهة شاء . فاختار يافا ونزل بها ، فأكرمه أهلها ، واتخذ بها داراً جعلها منتدى للأدباء والعلماء ، وطوّف في فلسطين يشاهد آثارها ، ويحجّ إلى مزاراتها ، ويمتلى حسن طبيعتها .

ثم مات توفيق وتولى عباس ، فعفا عنه ، وسمح له بالعودة إلى مصر سنة ١٨٩٢ فعاد وفكر طويلاً فيما يفعل وأين يتجه ، وتردد بين مصر والإسكندرية ، وأخيراً عيّن اتجاهه ، وقرر أن ينشئ بالقاهرة مجلة « الأستاذ » ، فكان صفحة جديدة في باب جهاده .

كانت الظروف التي تولى فيها الخديو عباس ظروفًا دقيقة ، شاب ناشئ في الثامنة عشرة من عمره ، دُعي من (فيينا) حيث يتعلم ليتولى الحكم في مصر ، ومصر قد انتهت ثورتها العرابية واطمأن الإنجليز إلى احتلالها ، ووضعوا أسس نظامها ، وتمكنوا من وضع أيديهم على كل شأن من شئونها ؛ وعباس الشاب لقّن آراء الاستقلال والشعور بالوطنية والعزم على العمل لتسترد مصر ما فقدت ؛ وهو يعيب على جده إسماعيل إسرافه ، ويعيب على أبيه توفيق استسلامه ، وعلى رجال المعية ضعفهم ، وشباب الأمة يبلغه هذا الشعور فيجاوبه ، فيتوجه الخديو لصلاة الجمعة في المسجد الحسيني فيقابله الشعب في حماسة ، « ويتقدم الطلبة وغيرهم من المحتشدين بالسكة الجديدة — نحو العربية الخديوية ويقصّون جياها ويحرقونها بأنفسهم » ، ويغيّر الخديو رجال المعية بغيرهم ممن هم أقرب إلى نفسه ومبادئه ،

وفي ذلك الوقت كانت فرنسا تشعر بخطتها في سياستها الماضية التي آلت إلى ضعف نفوذها في مصر ، فأخذت تبحث عن طريقة لاسترداد بعض ما فقدت ، فرأت أن يكون من هذه السبل الالتفاف حول « عباس » .

وتركيا كذلك تأسف هذا الأسف ، وتتجه هذا الاتجاه — وكل هؤلاء وهؤلاء يطالبون بالوفاء بوعدها بالجللاء عند صلاح الأمور .

والحكومة الإنجليزية تلوح في البرلمان الإنجليزي من طرف خفي بالنصح لعباس أن يتبع سياسة والده في مسألة الإنجليز والتحالف معهم .

وأخذ الخديو عباس يتصل بالشعب ويوسع نفوذه من طريق الرحلات في المديرية ، ومقابلة الأعيان والعلماء ، وزيارة المعاهد والمدارس ؛ كما أخذ يميل إلى مباشرة الأعمال بنفسه بالاتصال بالمديرين ، وتكليفه المختصين كتابة التقارير عن نظم التعليم والجيش ونحو ذلك ؛ فبدأ شيء من الجفاء بينه وبين اللورد كرومر ، وتسرب ذلك إلى الشعب .

عند ذلك بدأت تظهر في البلد تيارات مختلفة ، وبدأت توضع بذور الأحزاب المختلفة ، وبدأت تتجلى بوضوح اتجاهات الصحف المختلفة .

هذه تؤيد الحركة الوطنية وتناصر الميول الخديوية ، إما عن إخلاص ، وإما رغبة في الكسب ، وإما خدمة للسياسة الفرنسية . وهذه تؤيد السياسة الإنجليزية ، إما رغبة في الاستفادة ، وإما عن عقيدة أيضاً .

وظهر أثر ذلك في الجدال في المجالس والمناظرة في الصحف .

في هذا الأفق المملوء بالسحب ، ظهر « عبد الله نديم » ثانية ، وقد سمح له الخديو عباس بدخول مصر ، فكث قليلا يتعرف الأحوال ، ويدرس ما فاتته من شئون مصر مدة غيابه ، ثم صبح عزيمته على تحديد الغرض وإنشاء جريدة « الأستاذ » ، قال عنها : « إنها جريدة علمية تهذيبية فكاهية » ، تصدر يوم

الثلاثاء من كل أسبوع ، وظهر العدد الأول منها في أول صفر سنة ١٣١٠ هـ —
٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ م ، يتولى هو تحريرها ، ويتولى أخوه إدارتها . وقد
كتب في أول عدد منها أنها لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية . أما السياسة
من حيث هي فنّ فإنها تدخل في موضوعها العلمى .

كانت أول أمرها تُعَدُّ امتداداً لجريدته « التبكيك والتنكيك » من حيث
موضوعها وأسلوبها ، فهي تُعْنَى أكثر ما تُعْنَى بنقد العيوب الاجتماعية في المجتمع
المصرى ، وفيها مقال أو نحو ذلك في شئون الإصلاح السياسى من وجهة عامة ؛
ثم هي تحرّر باللغة العربية الفصحى في المقالات السياسية الإصلاحية ، وباللغة
العامية في الموضوعات الاجتماعية .

والطلع على ما كتبه في هذا العهد يرى أنه بعد رجوعه من منجبه قد فوجئ
بموجة من الانحلال الخلقى في البلاد : إفراط لم يكن معهوداً من قبل في شرب
الخمر ، وعدم اكتراث الشارين بنقد الناقدين ، وانتشار للخمّارات في المدن
والبلاد والقرى ، وابتزاز الأروام للأموال عن طريقها — وشعور النساء بالحرية ،
فنّ يكثرن من الخروج في الشوارع متبرجات بزيتهن . ثم الحشيش والمعاجين
والإفراط فيها والاحتفاء بمجالسها . ثم استعمال كلمة الحرية وسيلة للانهماك في
اللذات والشهوات . وأعجب من ذلك السقوط في تقليد المصرى للأوربى تقليداً
أعمى في لى لسانه بالقول ، والتشديق باستخدامه كلمات أجنبية أثناء حديثه
بالعربية ، ولُبس الضيق المحمك من الثياب الإفرنجية . فنقد كل ذلك في أسلوب
قوى جرىء ، واتهم الأوربيين بتشجيعهم هذه الأمور حتى يسقط الشرق
وتنحل أخلاقه . ونقد كذلك مناهج التعليم في البلاد ، وخلوها من بثّ الروح
القومية والعصبية المصرية . وحثّ أبناء البلاد على إنشاء الجمعيات الخيرية التي
تسدّ هذا النقص ، ونحو ذلك .

وعجب مما رأى من أن كثيراً من أولى الرأى فى الأمة أصابتهم الدهشة والرعب من الاحتلال ، فانطووا على أنفسهم ، ولزموا دورهم ، فإن تكلموا فى الشئون العامة فمن وراء حجاب ، وتركوا الناس مبلبلّة أفكارهم ، مضطربة نفوسهم ، لا يعرفون أين يتجهون ؛ فدعا إلى خروج ذوى الرأى من عزلتهم ، واختلاطهم بالرأى العام فى المجامع العامة ، يخطبون فيهم ، ويشرحون ما حدث وما يحدث ، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم .

فى كل ذلك كتب « عبد الله نديم » فى الأعداد الأولى من « الأستاذ » — ووجد النفوس مستعدة لهذه الدعوات كأنها حائرة تنتظر الدليل ، ضالة تلتبس المهادى ، فانتشر « الأستاذ » انتشاراً فاق ما كان يتوقع ، فقد كان يطبع منه حول ثلاثة آلاف ، كأكبر جريدة يومية إذ ذاك ، وأعيد طبع الأعداد الأولى منه . وقد حاول مرة أن يحرر الجريدة كلها باللغة العربية الفصحى ، فأتته رسائل الاحتجاج الكثيرة تذكر له خطأه ، لأن المرأة تسمع مقالاته فى بيتها ، والعامى يسمعها وهو فى مصنعه ومتجره ، والفلاح فى حقله ، وكلهم يستفيد من نقده ، وكثير يتعظ بنصحه . فنزل عند رأيهم ، وأعادها كما كانت عربية فصيحة فى بعضها ، عاميّة فى بعضها .

ثم نرى نغمته تعلو شيئاً فشيئاً فى الميدان السياسى ، ومناصرة الحركة الوطنية ، ومؤازرة الخديو عباس ، ومناهضة الاحتلال ، حتى بدا ذلك واضحاً فى العدد الصادر فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ ، فيفتتح العدد بمقال جرىء عنوانه : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » ؛ وهى كلمة كانت تتردد على لسان بعض الأوربيين يخاطبون بها الشرقيين ؛ ويقع المقال فى ست وعشرين صفحة من أقوى ما يكتب ، يصف فيها حالة الغرب وحالة الشرق ووسائل الاستعمار ؛ وما إلى ذلك ؛ ويندد بالغربيين فى أساليبهم ، وبالشرقيين فى غفلتهم ؛ ويشرح ما تفعله الحكومات الغربية

لترقية شعوبها ، وما تنشره في أمم الشرق لانحلالها ، وما يفعله المصريون في تحاذلهم وتواكلهم^(١) ، ويدعو إلى الالتفاف حول الخديو ومطالبته بالمحافظة على حقوقه الشرعية . ويحتم المقال بقوله : « وبالجملة فقد بلغ السيلُ الزُبى^(٢) » . فإن رفونا هذا الخرق ، وشدنا أزرَ بعضنا ، وجمعنا الكلمة الشرقية ، مصرية وشامية وعربية وتركية ، أمكننا أن نقول لأوربا : نحن نحن ، وأتم أتم ؛ وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ^(٣) بالأجنبيّ فريقاً بعد فريق ، حقّ لأوربا أن تطردنا من بلادنا ، وتصدق في قولها : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

واستمر على هذه النغمة كذلك في الأعداد التالية . والمطلع على الحوادث التي كانت تجري في تلك الأيام يرى أن علو هذه النغمة كان صدّى لما يحدث من أزمات . ففي هذه الأيام بعينها اشتد الجفاء بين الخديو عباس واللورد كرومر ، ففي ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ أقال الخديو مصطفى باشا فهمى منتهزاً فرصة مرضه ، وعهد إلى حسين نخري باشا في تشكيل الوزارة ، فعارض اللورد كومر في أن تعين الوزارة من غير أخذ رأيهِ . واشتد الأخذ والرد ، وأنذرت إنجلترا الخديو إنذاراً شديداً ، و انتهت المسألة باستقالة حسين نخري وتعيين رياض باشا حسبما أشار اللورد كرومر . وانتشر الخبر في الشعب ، فأقبلت الوفود على الخديو في ١٨ يناير تلقى الخطب في تأييده في موقفه ، وظهر أثر ذلك واضحاً في الجرائد التي تناصر الحركة الوطنية ؛ فكان هذا هو السبب فيما نرى من حرارة مقالات النديم في تلك الأيام وما بعدها ، ومناصرته للخديو ، ومنازلته للجرائد المخالفة في قوة ووضوح .

(١) تواكلهم : اتكال بعضهم على بعض .

(٢) الزبى ، جمع زبية ، وهى : المكان المرتفع من الأرض لا يملؤه ماء .

(٣) اللياذ : الالتجاء .

وهو — مع هذا — يتوسع في اقتراحات الإصلاحات الاجتماعية ، فينقد علماء الأزهر في انزوائهم وعدم معرفتهم بالدنيا وما يجري فيها ، ويضع برّنا مجاً واسعاً لإصلاح الأزهر ، كما ينقد الزراعة في مصر وتأخرها ، ووجوب إصلاحها على أساس علمي صحيح ، وفوضى اللغة العربية ، ووجوب إنشاء مجمع يحفظ كيائها ويكمل نقصها ، والخرافات والأوهام ، والطرق الصوفية وما يجري فيها من مخازر وعيوب ... الخ .

ثم علت نغمته طبقة أخرى ، فأخذ ينقد الإنجليز صراحة في سياستهم في الهند ومصر ، ويسبّ من يلوذ بهم ، ويهيج الناس على المبشرين وطرق التبشير . ويقول : إن السياسة تؤيدهم وتلعب ألاعيبها من ورائهم ، فتألبت عليه الجرائد المخالفة له في مذهبه من إنجليزية وعربية وحذّرت منه ، وقالت إنه يعدّ البلاد لفتنة بين المسلمين وغيرهم ، ويزن المصريين بعضهم وبعض ، ويحرك الضغائن بين المصريين والأجانب ، ويهيئ لثورة كالثورة العراقية ، ونصحت لأولى الأمر من الإنجليز أن يأخذوا حذرهم منه وإلا ساءت العاقبة . وشهرت به بعض الجرائد الإنجليزية كالتيمس ، والديلي نيوز ، وقالت إنه متعصب للدين ، مقبح لجميع أعمال الأوربيين ، وإنه ثوري مهيج ، وأيدتها المقطم ، ودافع عنه المؤيد والأهرام والوطن ، وبعض الجرائد الفرنسية ؛ ولم يأل هو جهداً في منازلة خصومه والتشهير بهم ، وإعلان عدم المبالاة بما يجري له ، فقد لاقى العذاب ألواناً في أيام استخفافه ، فكل ما سيناله هين بالقياس إلى ما لقي ، وأعاد نشر قصيدة له في ذلك كان قد أنشأها في نخبته ، منها :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا فإن عدنا إلى خطب شفيينا

لنا جلد على جلد يقينا فإن زاد البلا زدنا يقينا

إذا ما المجد نادانا أجينا فيظهر حين ينظرنا حيننا

يغنيننا فيلهينا التفنى عن الباكي وينسينا الحزيننا

ولسنا الساخطين إذا رزئنا نعم يلقى القضا قلباً رزيننا
إذا طاش الزمان بنا حلمنا ولكننا نهيننا أن نهيننا

وأخيراً طلب اللورد كرومر من الخديو عباس نفيه فأطاع ، ولم يستطع أن
يحمي من كان يحميه ، وودع « الأستاذ » قراه في آخر عدد منه صدر في
١٣ يونيه سنة ١٨٩٣ . فكان عمره أقل من عام ، ولم يذكر في وداعه السبب
الحقيقي الذي من أجله أغلق « الأستاذ » ونفى صاحبه ، بل قال إن سبب ذلك
المرض وحاجته إلى الاستشفاء ، وقال في آخر وداعه : وما خلقت الرجال
إلا لمصابرة الأهوال ، والعامل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلال ،
وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلاً :

أودعكم والله يعلم أنني أحب لقاءكم والخلود إليكم
وما عن قلبي كان الرحيل وإنما دواع تعدت فالسلام عليكم
وكان ينشر ملحقاً « للأستاذ » هو صفحات من كتاب ألفه وهو في الخبا
اسمه « كان ويكون » جمع فيما بعد ، ولم يتم نشره ، كان يريد من تدوينه عرض
خلاصة أفكاره الدينية واللغوية والسياسية والأدبية والتاريخية والإنسانية ،
ملتزماً فيه حرية الفكر ، وعدم التعصب لدين أو جنس ، ذا كراً فيه ما شاهده
في مصر من أحداث ، مبيناً ما وراءها من علل .

ووضعه على نمط قصصتي ، إذ كان له صديق فرنسي أتى من باريس قبل الثورة
العربية ، وتعلم العربية والتركية ، وأقام في مصر متتبِعاً حوائها ، وعرف عبد الله
نديم في الإسكندرية سنة ١٢٩٢ هجرية ، وتوثقت بينهما الصلة ، وكانت له ضيعة
قريبة من البلدة التي اختبأ فيها « النديم » فاتصل به في مخبئه ، وكان الفرنسي
يزوره ويخدمه في قضاء أغراضه ، وكثيراً ما يدور الحديث بينهما في الدين والسياسة

فبنى كتابه « كان ويكون » على هذا ، ودون فيه ما كان يدور بينهما من حديث وجدل ؛ وأكثر ما نشر كان في أصول الأديان ، وتاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام ، يتخلل ذلك بعض أخبار عن أحواله في مخبئه ، وبعض نظرات سياسية . ومما يؤسف له أن إقبال جريدة « الأستاذ » حال بينه وبين نشر القسم السياسى والتاريخ المصرى من الكتاب ، وما نشر منه يدل على نظر عميق واطلاع واسع وسماحة دينية لطيفة ، وعاطفة جياشة بحب الخير لمصر والشرقيين .

— ٦ —

خرج « النديم » إلى يافا ، حيث كان قبل العفو عنه ، ورتبت له الحكومة المصرية خمسة وعشرين جنيا شهريا يعيش بها ، على شرط ألا يكتب شيئا في الجرائد يتصل بسياسة مصر .

وما لبث أربعة أشهر في يافا حتى وشى به الوشاة بأنه يطعن في سياسة الدولة العلية ، ويلعن السلطان ، فصدر الأمر بإبعاده أيضا .

فأخذ يذرع الأرض لا يعرف أين يستقر ، فلا مصر تقبله ، ولا أى أرض من أراضي الدولة العثمانية تحله ؛ ونزل الإسكندرية أياما حتى تحل مشكلته .

وقد كان كثير من أحرار العثمانيين إذ ذاك قد سافروا إلى أوربة ومصر ، وأنشأوا الجرائد يطالبون بالدستور وبإصلاح الدولة ، وينقدون السلطان نقداً مرًا .

فكان من سياسة عبد الحميد في بعض الأوقات أن يسترضى هؤلاء الناقمين ، ويحبب إليهم الإقامة في الآستانة تحت سمعه وبصره ، ويجرى عليهم الرزق الواسع ، ويسند إليهم بعض المناصب ، فيتقوا أذاهم ، ويستجلب رضاهم . فاحتشد في الآستانة

من أرباب القلم واللسان عدد كبير ، منهم السيد جمال الدين الأفغانى وغيره من أدباء الترك وشعرائهم وساستهم ؛ فكان أن الغازى مختار باشا أشار على الدولة العلية أن تعامل عبد الله نديم هذه المعاملة فقبلت . وسافر إلى الآستانة ، وصدرت

الإرادة السلطانية بتعيينه مفتشاً للطبوعات بالباب العالى بمرتبة ٤٥ جنيتها مجيدياً ، مضافة إلى الخمسة والعشرين التى يتقاضاها من مصر — ينفق كل ذلك على نفسه وإخوانه ، ومن يبرّه من أهله وأقاربه ؛ ومن أيام المنصورة عُرف بأنه صنّاع القلم واللسان ، وأخرق اليد^(١) .

دخل الأستاذة ، فدخل القفص الذى دخل فى مثله جمال الدين الأفغانى ، وغاية الأمر أن قفص جمال الدين ضيق من ذهب ، وقفص النديم واسع من حديد ، يختلفان بمقدار الخطر من كل منهما ومكانته وحسبه ونسبه ؛ فالسيد جمال الدين ينحصر له بيت نغم ، ويجعل تحت أمره عربية وخدم وحشم ، ويجزى عليه ٧٥ ليرة فى الشهر ، وتعرض عليه مشيخة الإسلام فيأبى ؛ وعبد الله نديم يعين مفتشاً للطبوعات بخمسة وأربعين ليرة ، ولايت ولاخدم — ولا غرو فالسيد جمال الدين سيّد فى طبعه وحسبه ونسبه ، كان يعدّ نفسه قريناً للشاه والسلطان ، لا يقلّ عنهما إلا بما شاء القدر من تحليتهما بالملك وعطّله منه ، وعبد الله نديم يرى أنه من الشعب وابن الشعب وخادمه ، لا يمتاز إلا بما منحه الله من ذكاء ولّسن . إذا دعا السيد جمال الدين إلى الإصلاح شعر بأنه يخطب الناس من أعلى مكان يشرف عليهم ، وهو غضوب وقور ؛ وإذا دعا « النديم » شعر بأنه واقف فى وسطهم يضحك لهم ويضحك منهم ويصلحهم . ولهذا كان جمال الدين جليلاً يُسمع لقوله فى رهبة وخشية ، وينصح الناس وكأنه يضربهم بالسياط ؛ وكان النديم محبوباً يقابل بالابتسام ، ويُقبل قوله فى فرح ومرح ؛ ولذلك كان أسف الناس فى مصر على فراق النديم أكثر من أسفهم على فراق جمال الدين ، لأن سؤدد^(٢) جمال الدين فى الخاصة وسؤدد النديم فى العامة .

(١) أخرق : أحرق : لا يحسن التصرف ؛ وأخرق اليد : كناية عن الإسراف .

(٢) السؤدد : السيادة وعلو المقام .

وعجيب أن يقبل « النديم » (وظيفة) مفتش للمطبوعات ، وهو الذى كان ينال الأذى دائماً من إدارة المطبوعات ؛ وأن يرضى أن يتحكم فى الصحف ، وهو الذى كان يأبى أن يتحكم فيه أحد ؛ وأن يكون أداة لتقييد الحرية ، بعد أن كان داعيةً لتأييد الحرية !! ولكن يخفف من هذا أن « الوظيفة » كانت صورية تحضنة ، وكان الغرض منها أن يُمنح المكافأة فى مظهر غير ضيع .

ها هو ذا فى الآستانة قد عطّلت كل مواهبه ، فلا خطابة ولا كتابة ، ولا تهيج ولا تحميس ، وهو فى وسط يكاد يخنق منه ، لا يفرّج عنه إلا مجلس السيد جمال الدين ، يحادثه ويسامره ، وكلّ يشكو إلى صاحبه قصصه .

ولكن أننى لصاحب هذا اللسان أن يهدأ ؟

لقد وقع فى الخصومة مع أبى الهدى الصيادى كما وقع فيها معه السيد جمال الدين ؛ ولكن السيد عفّ اللسان فى الخصومة الشخصية ، أما « النديم » فويل لمن عاداه .

كان أبو الهدى عجيباً من العجب ، إذا أرّخت الدولة العثمانية فى عهد عبد الحميد احتل كثيراً من صفحات تاريخها ، وكان مستتراً وراء الصفحات الباقية ، يرنّ اسمه فى كل أنحاء المملكة من مصر وسورية والعراق وتونس والجزائر ، ويتقرب إليه الولاية فى حلّ كل عظمة — أثبت به القدر أنه على شيء قدير .

سورى من حلب ، فقير المال والحسب ، دفعته المقادير إلى الآستانة ، وكان ماهراً ذكياً وسيم الحياء ، ماضى العزيمة ، قادراً على معرفة نفوس الناس ومن أين تُؤتّى ، فتغلّب على عقل السلطان عبد الحميد بأحلامه وتفسيراته ، والطرق ومشيعتها ، فربط نسبه بأعلى نسب ، فهو قرشى هاشمى علوى ، وهو فى الطريقة رفاعى له الأتباع الكثيرون ؛ لا يعبأ بالمال يأتيه على كثرته فينفقه ويستدين ، لأن عزّ الجاه والسلطة عنده أقوى من عزّ المال .

له أعين تأتي له بكل الأخبار ، فيستغلها أمره استغلال . لم يقف عند الدين والولاية والصوفية ، بل مد نفوذه إلى الشئون السياسية والإدارية والعسكرية . يحلم فلا حد لحلمه ، ويبطش فلا حد لبطشه . سُمِّيَ « مستشار الملك » و « حامي العثمانيين » و « سيد العرب » . استمال كثيراً من الأمراء والوجهاء والأعيان والعلماء والأدباء ، فكانوا عوناً له على كل ما أراد . يبطش بهم حين يريد البطش ، ويؤلف بهم الكتب حين يريد شهرة العلم ، وينظم بهم القصائد حين يريد الأدب والشعر ، إلى كرم وسماحة وحسن حديث .

الدنيا كلها يجب أن تسخر لشخصه ، وأن تخضع لأمره ، والحق ما أتى من طريقه ، والباطل ما أتى من طريق غيره . عدو كل إصلاح ، وخَصِيم كل حُرٍّ . كم له من ضحايا في السجون ، وفي أعماق البحار ، وفي ذل الفقر ، وفي بؤس المنفى . تملّقه الأمراء ، وتهابه العظماء .

وكم أنفذ أمره وأبطل أمر السلطان ، وكم تدلّل على عبد الحميد فاسترضاه ، وبالع في الطلب فأوفاه^(١) !!

هذا أبو الهدى الصيادي الذي لم يتحرّز عبد الله نديم أن يخاصمه وينازله ؛ ويطلق فيه لسانه ، ووضع فيه كتاباً سماه « المسامير » ، لم يُنشر في حياته ، وهو كتاب لا يشرف الصيادي ولا عبد الله نديم ، لأنه استعمل فيه أسلوباً وضعيفاً وهجاء فيه هجاء مُقذعاً .

وبلغ أبا الهدى أمر هذا الكتاب المخطوط ، فأبلغ السلطان عبد الحميد أن فيه أيضاً هجاء له . فُبُحث عنه طويلاً من غير جدوى ، واستطاع « جورج كرتشى » الذي كان متصلاً بالسيد جمال الدين و « النديم » أن يحتفظ به ويخفيه ويفرّ به إلى مصر ، ثم يطبعه .

(١) أوفاه : شح له به كاملاً .

لم تطل حياة « النديم » في الأستانة طويلا ، فقد أصيب بالشلل ، واشتدت عليه العلة ، فمات في العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ ؛ واحتفل بمجنازته احتفالا كبيرا مشى فيه السيد جمال الدين — الذي لحقه إلى ربه بعد أشهر — ودفن في مدفن يحيى أفندى في « باشكطاش » .

وكانت أمه وأخوه قد علما بشدة مرضه ، فسافرا إليه ، ولكن لم يدركاه إلا ميتا ، ووجدوا متاعه وأثاثه وكل شيء له قد نهب ؛ فعادا وليس في يدهما إلا الحزن والأسى .

مات في نحو الرابعة والخمسين من عمره ، فلم يكن بالعمر الطويل ، ولكنه عمر عريض ، فطالما غذى للناس بقلمه وهيجهم بأفكاره ؛ وأضحكهم وأبكاهم ، وحير رجال الشرطة ، وأقلق بال رجال السياسة ، ونازل خصومه من رجال الصحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل ، ولا على أى حال كان ، حتى هدأه الموت الذى يهدى كل ناثر .
مهما أخذ عليه فقد كان عظيما !

فتح للناس في جريدتيه « التبكيث والتفكيث » و « الأستاذ » أبوابا من الإصلاح الاجتماعى كانت مغلقة ، فى التعليم والزراعة ، واللغة والصناعة ، والأخلاق وما إلى ذلك ؛ فسار المصلحون على أثره .

وكانت الجرائد المشهورة فى عهده « المقطم » و « الأهرام » و « المؤيد » ، و « النيل » ؛ وكان لها ثلاثة اتجاهات : منها ما يسالم الاحتلال ويؤيده ؛ ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية ويؤيد من ورائها السياسة الفرنسية ؛ ومنها ما يؤيد الحركة الوطنية والنزعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية ؛ وكل منها يعرض وجهة نظره فى شيء من الهدوء والرزانة والوقار . فلما طلع « الأستاذ » دعا إلى أن مصر للمصريين ، لا لتركيا ولا للأوربيين ، وناصر الحركة الوطنية

والالتفاف حول الخديو أمير البلاد ؛ ودعا الذين غلبهم الخوف بعد الاحتلال أن يبرزوا من مكانهم ، ويمسحوا الخوف عنهم ، ويتصلوا بالجمهور ليوقظوه ؛ ودعا إلى تأليف الأحزاب حتى يكون لكل جريدة حزبها ، ولكل حزب برنامج . ولم يسلك سبيل الهدوء كما سلكه معاصروه ، بل كان حاداً عنيفاً ، والحلّة منه استتبعت الحلّة من الجرائد الأخرى ، والغضب يبعث الغضب ، والصوت العالي يبعث في الردّ عليه الصوت العالي ؛ فتميزت الجرائد بعضها عن بعض في وضوح وجلاء .

وكانت هذه الحلّة وهذا الجدل المتتابع في المسائل العامة أكبر موقظ للرأي العام النائم ، يفهمه موقفه وما يضره وما ينفعه ، وأى غاية يريد منه هؤلاء وهؤلاء ، ومواطن ضعفه ، وكيف السبيل إلى قوته ؛ وللنديم الفضل الكبير في ذلك . وكانت جريدة « الأستاذ » هي الأستاذ لمصطفى كامل ، تعلم منها الاتجاه والنغمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف . نعم كان في « النديم » شيء من التهريج كالذي رأينا قبل . وكان من تهريجه أنه كان في أول أمره يرتدى الثياب الإفريقية ، فلما ظهر بعد الاستخفاء لبس الجبة والقفطان ، واعتم بعمامة خضراء ، وادعى أنه شريف إدريسي ينتسب إلى الحسن بن علي ؛ وكثير من الواقفين على الحقيقة ينكر ذلك ؛ وربما دعا إلى هذا شعوره بمركب النقص ، من حيث نشأته للفقيرة المتواضعة ، وما مرّن عليه من التصنع أيام الاستخفاء ، وحالة الوسط الذي عاش فيه من أنه لا يمجّد إلا إذا الثراء أو ذا الحسب — ومع هذا فالعظيم يقدر بكماله لا ببعضه .

كانت عظمته في ذكائه وقوة لسنّه . قال فيه المرحوم أحمد باشا تيمور : « كان شهي الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز ، لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر فرأيت رجلا في ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ،

وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا .

كان السيد جمال الدين يُعجَب بقوة حجة النديم في المناظرة والجدل ، وسرعة بديهته ، وشدة عارضته^(١) ، ووضوح دليله ، ووضعه الألفاظ وضماً محكماً بإزاء معانيها إن خطب أو كتب .

ثم هو شجاع لا يخاف ؛ يَلْذُه مواجهة العظماء ومنازلة الكبراء في غير خوف ولا وَجَل ، إلى تواضع مع العامة ومضاحكتهم ومؤانستهم وملاطفتهم ، لا يعبأ بالقول ولا يخاف البطش ، فإذا نازل أحداً وسلط عليه لسانه كانت الكارثة ؛ نازل الخلدوي توفيق والاحتلال ، وأبا الهدي الصيادي ، ولكل جاهه وسلطانه الذي أذل أعناق الكثيرين ؛ كل ذلك وهو فقير يعيش من يده إلى فمه ، ما أتاه أتلفه ، وما وصل إلى يده بدده ، معتمداً على ربه الذي يرزقه كما يرزق الطير تغدو خفاصاً وتروح بطاناً^(٢)

ضعيف الجسم كثير العلل ، وربما كان ذلك هو السبب في موت أولاده جميعاً في طفولتهم ، فقد رُزق قبل الاستخفاء بمحمد ، وعثمان ، وإلياس ، وفاطمة ، وعائشة ، وسُكينة ، وخديجة . كما رُزق أيام الاستخفاء بحفصة ورَياً . وكلهم لم يعيش طويلاً . ومع هذا فهو — على مرضه — دائب العمل دائم الحركة ، لا يعتريه كلال ولا ملل . يودُّ أن يخلد اسمه بالعمل ، بعد أن حُرِمَ تخليد اسمه بالولد . أعدّ نفسه إعداداً عظيماً بكثرة الخبرة وسعة التجربة . فكان كما حدثت عن نفسه : « أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن

(١) شدة المارضة : قوة البيان لاسرعة البديهة .

(٢) خفاص : ضامرة البطون لخبرها من الطعام . بطان : عظيمة البطون لامتلائها بالطعام .

الصغيرة . وأدركت ما هم فيه من جهالة ، وهم يتألمون ، وماذا يرّجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين ، وألمت بما انطبع في صدورهم من أشعة الغربيين . وصاحبت جمّاً من أفاضل الشرقيين المتعلمين في المغرب ، وعرفت كثيراً من الغربيين ، ورأيت أفكارهم — عالية أو سافلة — فيما يختص بالشرقيين ، والغاية المقصودة لهم ؛ واختلطت بأكابر التجار ، وسبّرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة . وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة خنساً ووطناً وديناً ؛ واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلّقت بمطالعة الجرائد مدة ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلّخت^(١) حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونة — واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء كسائي نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصّبا ، وتوجّني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء . فصورتي تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين .

وربما كان أعظم شيء فيه ثباته على مبدئه . باع نفسه لأمته حسبما يعتقد الخير لها ، ولم يتحوّل عن ذلك على كثرة من تحوّل في مثل مواقفه . هؤلاء زعماء الثورة العرابية حاولوا أول أمرهم أن يُنكروا ما فعلوا ، فلما لم ينفعهم إنكارهم وعوقبوا عادوا وخضعوا ، وعاشوا في مسالمة ومهاودة . أما هو فلم ينكر ما قال . ولقى في مخبئه الأحوال . وكان جديراً بمن لقي ذلك كله أن يهدأ ، وإذا هداً فلا لوم عليه . ولكنه ظل يجاهد ، ويُنفى فيجاهد ، ويُعفى عنه فيجاهد ، ويحذر فلا يحذر ، ويطمع فلا يطمع ، حتى لقي مولاه .
رحمه الله .

(١) فلح الأرض : شقها ، يعني أنه اشتغل بالفلاحة .

السيد عبد الرحمن الكواكبي

(١٢٦٥ — ١٣٢٠ هـ = ١٨٤٨ — ١٩٠٢ م)

— ١ —

من بيت في « حلب » يعتز بنسبه وحسبه وعلمه وجاهه وماله ؛ فأسرة الكواكبي كانت فيها نقابة الأشراف في حلب ، ولها مدرسة تسمى المدرسة الكواكبية ، وأبوه أحد المدرسين في الجامع الأموي بحلب والمدرسة الكواكبية فيها . تعاون على تربيته بيته وما في تقاليده من عزة وإباء وشيم وأنفة من الصفائر ؛ وخالة له تعهدته بعد وفاة والدته وهو صغير ؛ وكانت من نوادر النساء في الشرق ؛ عُرِفَت بالأدب والكياسة وكبر العقل . فطرته التي فطر عليها ميل إلى الحق ، وحب الخير ، والاستجابة للتربية الصالحة .

كل هذا جعل منه رجلا يستعصى على ناقد الأخلاق نقدُه : مؤدب اللسان فلا تؤخذ عليه هفوة ، يزن الكلمة قبل أن ينطق بها وزنا دقيقا ، حتى لو أُلقي عليه السلام لفكر في الإجابة ؛ متزن في حديثه ، إذا قاطعه أحد سكت وانتظر حتى يتم حديثه ، ثم يصل ما انقطع من كلامه ، فيؤدب بذلك محدثه ؛ تزيه النفس لا يخذلها مطمع ولا يغريها منصب ؛ شجاع فيما يقول ويفعل ، مهما جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشريد ؛ وهو — مع أنفته وعزته وصَلَفه^(١) على الكبراء — متواضع للبائسين والفقراء ، يقف دائما بجانب الضعفاء ؛ يشع على من يجالسه الاتزان والتفكير الهادي ، وحب الحق ونصرة المبدأ ، والتضحية للفضيلة .

(١) صلفه : زهوه وتكبره .

تعلم كما كان يتعلم ناشئة زمانه الدينيون ، لغة عربية ودين في مدرسة أسرته بحلب — « المدرسة الكواكبية » — وكانت مدرسة تسير على الطريقة الأزهرية فيما يُقرأ من كتب ، وما يتبع من منهج ، ولكنه أكمل نفسه بقراءته بعض العلوم الرياضية والطبيعية ، وأحضر له والده من علمه الفارسية والتركية ، وطالع بنفسه كثيراً من الكتب التاريخية ، وعنى بدراسة قوانين الدولة العثمانية .

فلما أتم دراسته انغمس في الحياة العملية ، وتنوعت أعماله ، وتباينت اتجاهاته ؛ فمن محرر لجريدة رسمية ، إلى رئيس كتاب المحكمة الشرعية ، إلى قاض شرعي في بلدة من البلاد السورية ، إلى رئيس البلدية . ثم هو بين الحين والحين يعتزل الوظائف الحكومية فينشئ لنفسه جريدة في « حلب » اسمها الشهباء ، أو يشتغل بالأعمال التجارية ، أو يقوم بمشروعات عمرانية ، ومن كل ذلك يستفيد خبرة وتجربة بالحياة . وفي كل الأعمال الحكومية والحرية يصطدم بنظام الدولة ، وباستبداد الحكام ، وفساد رجال الإدارة ، فينازلم وينازلونه ، ويحاربهم ويحاربونه ، وينتصر عليهم حيناً ، وينتصرون عليه حيناً ، وسلاحه دائماً النزاهة والعدل والاستقامة ، وسلاحهم دائماً الدسائس واتهامه بخروجه على النظام ، ودعوته للشغب ، وما شاكل ذلك مما هو عادة الظالمين . وكانت البلاد التي يعيش فيها موبوءة بحكم « عبد الحميد » لا يستطيع أن يعيش فيها حرّ صريح ، ولا ينجح فيها تاجر نزيه ، ولا موظف جرىء مستقيم ، وهذا النوع من الحكم عدو كل كفاية ، وقاتل كل نبوغ !

ارتفع شأنه في بلده ، فكان يقصده أصحاب الحاجات لقضائها ، والمشاكل حلها ، ورجال الحكومة أنفسهم يستشيرونه فيما غمض عليهم ، وهو في كل ذلك جرىء فيما يقول ، لا يقرّ ظالماً على ظلمه ، ولا يسالم جائراً لمنصبه أو جاهه . من أجل هذا غاضب « عارف باشا » وإلى « حلب » وأخذ يعدد سيئاته وينقم عليه



السيد عبد الرحمن الكواكبي في لباسه البدوي

تصرفاته ، ويحرّض الناس على رفع صوتهم معه بالشكوى منه لرؤسائه في الأستانة ، فانتقم « عارف باشا » لنفسه ، فزوّر على « الكواكبي » أوراقا ، واتهمه بأنه يسعى لتسليم « حلب » لدولة أجنبية ، وحبسه وطلب محاكمته ؛ فبذل الكواكبي ورجاله جهداً كبيراً ليحاكم في ولاية غير ولاية « حلب » ؛ وحوكم في بيروت فحكم ببراءته ، وظهرت خيانة الوالى ومكايدُه فعزل .

وكان من أعداء « الكواكبي » أيضاً « أبو الهدى الصيادي » الذى سبق وصفه في ترجمة « عبد الله نديم » لأن « الكواكبي » أبى الاعتراف بصحة نسبه . ولاعتداء « أبو الهدى » على يثهم بأخذ نقابة الأشراف لنفسه منهم ، فكان « أبو الهدى » أيضاً يدُسّ له ، ويفرى ولاية الأسر به .

فكان من نتيجة محاكمته على التهمة التى اتهمه بها « عارف باشا » ، ومن معاكسة « أبو الهدى » وأعوانه له حتى فى تجارتِه ، أن خسر ألوف الجنيهات من ماله ، فاحتمل ذلك بنفس قوية لا تجزع ولا تتحول .

وأنصح صفحة فى تاريخ حياته قوة شعوره بفساد حال المسلمين ، وتخصيص جزء كبير من حياته فى تعرف أحوالهم فى جميع أقطار الأرض ، وتشخيص أمراضهم وتلّس العلاج لهم . فعكف على مطالعة تاريخهم فى ماضيهم وحاضرهم ، وما كتبه الكتاب المحدثون فى ذلك فى الكتب والمجلات والجرائد ، ودرس أحوال المسلمين فى المملكة العثمانية . ثم رحلته إلى كثير من بلاد المسلمين ؛ فساح فى سواحل إفريقية الشرقية ، وسواحل آسية الغربية ، ودخل بلاد العرب وجمال فيها ، واجتمع برؤساء قبائلها ، ونزل بالهند وعرف حالها ، وفى كل بلد ينزلها يدرس حالتها الاجتماعية والاقتصادية ، وحالتها الزراعية ، ونوع تربتها وما فيها من معادن ونحو ذلك ، دراسة دقيقة عميقة . ونزل مصر وأقام بها ، وكان فى نيته رحلة أخرى إلى بلاد المغرب يتم فيها دراسته . ولكنه عاجلته منيته .

نشر نتيجة دراسته في مقالات كتبت في المجلات والجرائد ، ثم جمعت في كتابين : اسم أحدهما « طبائع الاستبداد » ، والآخر « أم القرى » : الأول في نقد الحكومات الإسلامية ، والثاني أغلبه في نقد الشعوب الإسلامية .

لقد كان الحديث في مثل هذه الموضوعات التي مسّها « الكواكب » في « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » من الموضوعات المحرّمة ، لأنها تمس نظام الحكم من قريب ، وتفهم الشعوب حقوقهم وواجباتهم ، وتفهمهم على مناحي الظلم والعدل ، وتهيئهم للمطالبة بالحقوق إذا سلبت ، والقيام بالواجبات إذا أهملت ، وهذا أبغض شيء لدى الحاكم المستبد . لذلك رأينا الشرق من بعد ابن خلدون أغلق هذا الباب ، ولم يفتحه أيّ باحث بعده ، وصار كتاب ابن خلدون مقدمة بلا نتيجة . والعلوم التي حوِّظ عليها واستمرت دراستها ، هي علم النحو والصرف واللغة والفقه ، لأنها لا تمسّ الحاكم من قريب ولا بعيد ، ولا تفهم الناس أين هم من حاكمهم وأين حاكمهم منهم . والأدب مدّاح للملوك والحكام ، يجعل ظلمهم عدلاً وفسادهم صلاحاً ، فإذا أعطاهم الحاكم قليلاً مما سلبه من أمتهم هللوا وكبروا ، وعجبوا من كرمه الخائى ، وسخائه الذي لا نظير له . والمؤرخون لا يؤرخون إلا شخصه في حياته وأعماله وحروبه وزوجاته وأولاده ، أما الشعب فلا شيء إلا أن يكون مزرعة للحكام . وأحبّ علم إلى الحكام المستبدّين وأدعاهم لنصرته هو ما لا يتصل بالحكم ونظامه ، ورجال الدين المقربون هم الذين يدعون إلى التسليم بالقضاء والقدر ، ويستطيعون أن يولدوا المعاني من مثل « السلطان ظلّ الله في أرضه » . أما علم الاجتماع وعلم السياسة والاقتصاد فلم يعرفه الشرق بعد ابن خلدون بتاتاً .

كان هذا في الشرق ، على حين أن الغربيين بدأوا بعد ابن خلدون يبحثون في المجتمعات بحثاً واسعاً ، يتعرفون علل الجماعات وأمراضها وأنواع الحكومات

ومزايها كل شكل وعيوبه ، ويتحررون من القيود ، ولا يعبثون بالتضييعات في سبيل الحريات ، ويبني لاحقهم على ما وصل إليه سابقهم .

وبلغ الضيق في الشرق منتهاه في عهد السلطان عبد الحميد ، ولكن شدة الضغط تولد الانفجار ، والقسوة تفتق الحيلة . وتوالى الاضطهاد يولد البغضاء ، فكثر في هذا العهد الجمعيات السرية تعمل لتحرير البلاد العثمانية من الظلم ، وتعمل لوضع نظام ديمقراطي لا يكون فيه السلطان الحاكم بأمره ، وفر كثير من العثمانيين إلى أوربة يدرسون نظم الحكم الأوربي وما وصلت إليه أوربة من البحوث الاجتماعية ، وأخذوا يكتبون ذلك في جرائد ومجلاتهم التي يحررونها خارج الحدود العثمانية ، ومنها تنسرب إلى البلاد نفسها . وأخذت مصر بعد انفصالها من حكم العثمانيين تؤوي الأحرار ، وتؤيد القول في نقد نظام الحكم ، وظهرت في الجرائد والمجلات مقالات بالعربية في تشریح أحوال الجماعات وأصول الحكومات ، وترجم إلى العربية « أصول النواميس والشرائع » لمنتسكيو . وبدأت موجات البحث الاجتماعي في أوربة تصل إلى الشرق من طريق الترجمة وطريق المثقفين في أوربة .

في هذا الوسط طلع الكواكب ، وكان ظهوره بكتابه جرأة كبيرة . لقد استفاد مما نقل عن الغرب ، ولم يكن يعرف لغة أوربية ، إنما يعرف العربية والتركية والفارسية ؛ فاستفاد مما نقل إليها ، ومما كان يترجم له في هذا الباب خاصة . وقد ظهر أثر هذا الاقتباس في كتابه « طبائع الاستبداد » . أما كتابه « أم القرى » فبحث مبتكر يدل على كبر عقله ، وقوة تفكيره ، وسعة اطلاعه ، وصدق غيرته على العالم الإسلامي .

أما كتاب « طبائع الاستبداد » ، فقد نشره — أولاً — مقالات في بعض الصحف عند ما كان في مصر سنة ١٣١٨ هـ ، ثم جمعها في كتاب وقال في أوله :

« إنى نشرت فى بعض الصحف أبحاثاً علمية سياسية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها ما درسته ، ومنها ما اقتبسته ، غير قاصدٍ بها ظالماً بعينه ، ولا حكومةً مخصصة ، إنما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين ، عسى أن يعرف الشرقيون أنهم هم المتسببون لما هم فيه ، فلا يعتبون على الأغيار ، ولا على الأقدار ، ثم أضفت إليها بعض زيادات ، وحوّلتها إلى هيئة هذا الكتاب . »

وقد اقتبس فيه كثيراً من أقوال « ألفيرى » ولا أعرف كيف وصلت إليه ، وألفيرى "Alfieri Vittoria" ، كاتب إيطالى عاش من سنة ١٧٤٩ — ١٨٠٣ ، من بيت نبيل وقد ساح فى أوربة نحو سبع سنوات ، ودرس كتب فولتير ورُوشو منتسكيو ، وتشبع بأرائهم الحرة وتعشق الحرية وكره الاستبداد أشد الكره ، ووجه أدبه للتغنى بالحرية ومناهضة الاستبداد ، يُنطق بذلك أبطال رواياته ، ويثبته فى كتاباته . ولكن الكواكب هضمها وعدلها بما يناسب البيئة الشرقية والعقلية الإسلامية ، وزاد عليها من تجاربه وآرائه .

— ٢ —

وكتاب « طبائع الاستبداد » يدور حول تعريف الاستبداد بأنه « صفة للحكومة المطلقة العنان ، التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء ، بلا خشية حساب ولا عقاب » . ويأتى هذا من كون الحكومة مطلقة التصرف ، لا يقيدوها قانون ولا إرادة أمة ، أو أنها مقيدة بنوع من ذلك ولكنها تملك بنفوذها إبطال هذه القيود والسير على ما تهوى . والحكومات ميّالة بطبيعتها إلى الاستبداد ، لا يصدّها عنه إلا وضعها تحت المراقبة الشديدة ومحاسبتها محاسبة لا تسامح فيها ، وإلا قوة رأى العام وعظمة سلطانه .

والمستبد يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ، ويحكم بهواه

لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى ، فيضع كعبَ رجله على أفواه الملايين من الناس ، يسدها عن النطق بالحق ومطالبتها به .
والمستبد عدو الحق ، وعدو الحرية وقاتلها .

والمستبد يود أن تكون رعيته بقرأ تحلب ، وكلاباً تتذلل وتتملق ؛ وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه : هل خلقت خادمة له ، أو هي جاءت به ليخدمها فاستخدمها ؟ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف في وجه الظالم المستبد ، تقول له لا أريد الشر ، ثم هي مستعدة لأن تتبع القول بالعمل ؛ فإن الظالم إذا رأى المظلوم قوياً لم يجرؤ على ظلمه .

وقد بحث بحثاً مستفيضاً في علاقة الاستبداد بالدين ، ونقل عن الفرنج رأيهم في أن الاستبداد في السياسة متولد من الاستبداد في الدين أو مساير له . فكثير من الأديان تبث في نفوس الناس الخشية من قوة عظيمة لا تدرك كنهها العقول ، وتهددهم بالعذاب بعد المات تهديداً ترتعد منه الفرائص^(١) ؛ ثم تفتح باباً للخلاص والنجاة بالالتجاء إلى الأحرار والقُسس والمشايخ ، بالذلة لهم ، والاعتراف أمامهم ، وطلب الغفران منهم . والمستبدون السياسيون يتبعون هذه الطريقة فيستترهبون الناس بالتعالى والتعاضم ، ويذلونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال ، حتى لا يجدوا ملجأ إلا التزلف لهم وتملقهم ! وعوام الناس يختلط عليهم في أذهانهم الإله المعبود والمستبدون من الحكام ، فيتشابه عندهم استحقاق التعظيم ، وينزهونهم عن سؤا لهم عما يفعلون ، ولا يرون لهم حقاً في مراقبتهم على أعمالهم ، كما أنه ليس لهم حق في مراقبة الله فيما يفعل !! ولهذا خلعوا على المستبد صفات الله كولي النعم ، والعظيم الشأن ، والجليل القدر ، وما إلى ذلك ! وما من مستبد سياسي إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك فيها الله أو تربطه برباط مع الله

(١) الفرائص ، جمع فريصة ، وهي : لكمة بين الجنب والكف ترتعد عند الفرع .

ولا أقل من أن يتخذ بطانة من أهل الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله !!
ولقد رأى « الكواكبي » أن الإسلام في جوهره الأصيل لا ينطبق عليه
هذا القول ، فهو مبنى على قواعد الحرية السياسية متوسطة بين الديمقراطية
والأرستقراطية ، فهو مؤسس على أصول ديمقراطية (أى المراعاة التامة المصلحة
العامة) ، وعلى شورى أرستقراطية ، أى شورى الخواص ، وهم أهل الحل والعقد ؛
فالقرآن مملوء بتعاليم تقضى بإماتة الاستبداد ، والتمسك بالعدل ، والخضوع لنظام
الشورى ، من مثل : « وشاورهم فى الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » حتى فى
القصص ، من مثل : « ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون » . ومظهر هذا كان
فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين . ثم لا يعرف الإسلام سلطة
دينية ، ولا اعترافاً ، ولا بيع غفران ، ولا منزلة خاصة لرجال الدين . ولكن دخل
عليه من الفساد ما دخل على كل دين ، فتفرقت كلمة المسلمين وانقسموا شيعاً ،
وتحول الحكم من نظام شورى إلى الاستبداد ، فصغرت نفوس الناس وخفت
صوتهم ، وأضاعوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو المبدأ الذى به
يراقب أولو الأمر فى الأمة ؛ فصار أمر المسلمين إلى ما نرى .

ولم يتعرض « المؤلف » للرد على الشطر الأول ، وهو ما يوحى تصوير الله
بالقوة والعظمة والسيطرة من خضوع النفوس للمستبد . وعندى أن الإسلام بجعله
« لا إله إلا الله » محور الدين ، تتكرر فى كل أذان وفى كل مناسبة ، كان كفيلاً
أن يذكر النفوس دائماً بأن العزة لله وحده ، وأن النفوس لا يصح أن تذلل لأحد
سواه ، وأن هذه الكلمة توحى بالضعف أمام الله والقوة أمام من سواه . ولكن
بتوالى القرون ، ودخول الدخيل من العقائد ، أصبحت « لا إله إلا الله » عند
أكثر المسلمين كلمة جوفاء لا روح فيها ، تبعث الضعف ولا تبعث القوة ، وتبيح
أن يشرك مع الله الحاكم المستبد والرئيس المستبد ، بل المال والجاه والمنصب ،

فكل هذه وأمثالها أصبحت آلهة مع الله ، وقد المدلول الحق لا إله إلا الله !!

* * *

ثم أبان أن الحاكم المستبد يخشى العلم ، لأن العلم نور ، وهو يريد أن تعيش الرعية في الظلام ، لأن الجهل يمكنه من بسط سلطانه ، (وروى أن حاكما مستبدا شرقيا كان له مربّ سويسرى ، فقال له يوما بعد أن تأمّر^(١) : « ليتك تُعنى بتربية الشعب وتعليمه ! » فقال الأمير : « كلا ! إني إن علمته صعب على حكمه » !) .

والحاكم المستبد لا يخشى علوم اللغة والأدب ، ولا علوم الدين المتعلقة بالمعاد^(٢) ، بل هو يستخدم العلماء من هذا القبيل لتأييده في استبداده ، بسدّ أفواههم بلقيمات من فتات مائدته ؛ إنما ترتعد فرائضه من الفلسفة العقلية ، ودراسة حقوق الأمم ، وعلوم السياسة والاجتماع ، والتاريخ المفصّل ، والقدرة على الخطابة الأدبية ، ونحو ذلك من العلوم التي تنير الدنيا وتثير النفوس على الظالم ، وتعرّف الإنسان ما هو الإنسان ، وما هي حوقه ، وكيف يطلبها ، وكيف ينالها ، وكيف يحفظها ؛ فإن المستبد سارق ، والعلماء من هذا القبيل يكشفون السرقة .

ولذلك يكون الحاكم المستبد وهؤلاء العلماء في صراع دائم ، العلماء يحاولون الإنارة ، والمستبد يحاول إطفاءها ، وكلاهما يحاول كسب عامة الشعب ، فالمستبد يخيفهم ليستسلموا ، وهؤلاء العلماء ينيرونهم ليقولوا ويفعلوا .

والحاكم المستبد تسرّه غفلة الشعب لأنه يتمكن بغفلتهم من الصولة عليهم : ينصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء حياتهم ، ويضرب بعضهم ببعض فيصفونه بحسن السياسة والكياسة ، ويُسرف في أموالهم فيقولون إنه كريم ، ويقتلهم

(١) تأمر : تول الحكم .

(٢) المعاد : عودة الحياة في الدار الآخرة .

ولا يمثّل بهم فيقولون إنه رحيم ، وإن نقم عليه بعض الآباة^(١) ، قاتلهم بهم كأنهم بُغاة^(٢) ١١ .

والحاكم المستبد يخاف رعيته كما تخافه رعيته ، بل خوفه منهم أشد ، لأنه يخافهم عن علم ، وهم يخافونه عن جهل . وقد اعتاد المؤرخون المحققون قياس درجة استبداد الحاكم بمقدار حذره ، ودجة عدله بمقدار طمأنينته ؛ كما يستدلون على أصالة الاستبداد في الأمة بترف الحكام . وإمعانهم في البذخ ، وكثرة الحجاب . ومن دلائل تغلغل الاستبداد في الأمة استكناه لغتها ، فإن كثرت فيها ألفاظ التعظيم وعبارات الخضوع كاللغة الفارسية ، دلت على تاريخها القديم في الاستبداد ، وإن قلت — كالعربية قبل امتزاجها بغيرها — دلت على الحرية . وعلى الجملة فأخوف ما يخافه المستبد من العلم ، العلم الذي يعلم أن الحرية أفضل من الحياة ، والشرف أعز من المنصب والمال ، والحقوق وكيف تُحفظ ، والظلم وكيف يُرفع ، والإنسانية وقيمتها ، والعبودية وضررها .

وقد كان « الكواكبي » في كل هذا يقرأ نتائج القرائح التي كتبت في الاستبداد ، وينظر إلى الدولة العثمانية في عهده ، ويستمل منها آراءه وأحكامه .

* * *

ثم عرض للاستبداد والمجد ، ويعني بالمجد رغبة الإنسان أن تكون له منزلة حب واحترام في قلوب الناس ، وهو مطلب طبيعي شريف ، ويبلغ عند بعض الأفراد درجة تجعلهم يتساءلون : أيهما أقوى ، الحرص على المجد أم الحرص على الحياة ؟ و « الكواكبي » من قبيل من يرى الحرص على المجد أقوى وأوجب من الحرص على الحياة ، ولذلك عاب على ابن خلدون رأيه في تقديم الحرص على الحياة

(١) الآباة ، جمع أبي . وهو : من يابى الظلم ويستنكره .

(٢) البغاة ، جمع باغ ، وهو : الممتدئ والمنحرف عن الحق .

عند ما تقد ابنُ خلدون الإمامَ الحسين بن عليٍّ وأمثاله ، وقال إنهم يعرضون أنفسهم للموت بخروجهم في فئة قليلة على الخليفة ذى السلطان والعدد والعدد ، فيلقون بأنفسهم إلى التهلكة . فقال الكواكبي : « إنهم معذورون ، لأنهم يفضلون الموت كراماً على حياة الذل التي كان يحياها ابن خلدون ، وهم في ذلك ككرام سباع الطير والوحوش التي تأبى التناسل في أقاص الأشر ، وتحاول الانتحار تخلصاً من قيود الذل . وغضبة الكواكبي على ابن خلدون سببها عصبية لأهل البيت ، إذ كان من الأشراف ، وفيه نزعة لحب المجد ولو كان فيه فقد الحياة . فابن خلدون يتحدث بالعقل ، والكواكبي يتحدث بالعاطفة .

والمجد أنواع : « مجد الكرم » وهو بذل المال في سبيل المصلحة العامة ، وهو أضعف أنواع المجد ، و « مجد العلم » وهو نشر العلم النافع برغم عوائق السلطات . و « مجد النبالة » وهو بذل النفس بالتعرض للمشاق والأخطار في سبيل نصرة الحق ، وهذا أعلى المجد ويقابل المجد التمجيد ، أى المجد الكاذب ، وهو أن يكون الإنسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الأعظم ، وهذا يزدهر في الحكومات المستبدة ، لأن الحكومات الحرة تحافظ على التساوى بين الأفراد ، ولا تميز بعض الأفراد إلا بخدمة عامة للأمة أو عمل عظيم يوفق إليه . أما في الحكومات المستبدة فالمتمجدون أعداء للعدل ، أنصار للظلم ، ينتخبهم المستبد الأعظم ليقوى بهم سلطانه ، ويختارهم من ضعاف النفوس ويستغويهم بالمناصب والراتب ، وأكثر ما يعتمد على المفرقين في التمجيد ، الوارثين من آبائهم وأجدادهم مرض الاستبداد ؛ ومن هنا ظهرت في الأمم نعمة التمجيد بالأصالة والأنساب . والحكومة المستبدة يظهر استبدادها في كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشرطي ، إلى الفراش ، إلى كفاش الشارع ، ولا يكون كل صنف من هؤلاء إلا من أسفل طبقته ، لأنه لا يهمهم المجد باستجلاب محبة الناس ، إنما يهمهم التمجيد باكتساب

ثقة رئيسهم المستبد . والوزير في الحكومة الاستبدادية وزير المستبد الأعظم لا وزير الأمة ، وكذلك من تحته من أعوانه ، فلهيئة كلها تتمجد ولا تتمجد ، وكلهم شركاء في جريمة الضغط على الأمة وظلمها . والاستبداد يقتل المجد ويحيي التمجيد !!

وهذا حق ، فالحكومة المستبدة تقتل في النفوس العزة الحقيقية بالمفاخرة بالأعمال النافعة ، وتخلق نوعاً من السيادة الكاذبة ، وتجعل أولى الأمر سلسلة تبدأ من المستبد الأعظم إلى الشرطي في الشارع ، كلٌّ يمنع لمن فوقه ويستبد بمن تحته ، وعلى العكس من ذلك الحكومة الديمقراطية ديمقراطية صحيحة ؛ فهي تُشعر كل شخص في الدولة بالعزة التي يحميها العدل ، وبأن له نصيباً في حكم بلاده ، وصوتاً مسموعاً فيما يجب أن يُعمل وما يجب أن يترك ، وأن حكومته ليست قائمة إلا برأيه ورأى أمثاله ، إن شعروا يوماً بجورها أسقطوها ؛ سلطة الرأي العام فيها فوق سلطان الحكومة والبرلمان وكل سلطان .

* * *

ثم عرّض للاستبداد والمال ، ويعنى بذلك الحكومة الاستبدادية وأثرها في الثروة أو الحالة الاقتصادية في البلاد . وهو في هذا الموضوع يرى الخير في نوع معتدل من الاشتراكية ، نعم لا ينبغي أن يتساوى العالم الذي أنفق زهرة حياته في تحصيل العلم النافع ، أو الصانع الماهر في صنعة مفيدة ، وذلك الجاهل الخامل النائم في ظل الحائط ؛ ولكن العدالة تقضى أن يأخذ الراقى بيد السافل والغنى بيد الفقير ، فيقربه من منزلته ، ويقاربه في معيشته ، وقد مال الإسلام إلى هذا النوع ، ففرض الزكاة (٢.٥ ٪) من رموس الأموال تعطى للفقراء وذى الحاجة ؛ وحرّم الربا ، لأنه وإن أجازة الاقتصاديون لأسباب معقولة اقتصادياً (للقيام بالأعمال الكبيرة ، ولأن الأموال المتداولة في السوق لا تكفي للتداول ، فكيف إذا

أمسك المكتنزون قسماً منها ؛ ولأن كثيراً من القادرين على العمل لا يجدون رموس المال) فإن الدين ورجال الأخلاق ينظرون إليه من حيث ضرره الأخلاقي ، لأنه متى انتشر قسم الناس إلى عبيد وسادة ، وكان سبباً في ضياع استقلال الأمم الضعيفة .

والحكومة الاستبدادية سبب في اختلال نظام الثروة ، فهي تجعل رجال السياسة والدين ومن يلحق بهم يتمتعون بحظ عظيم من مال الدولة ، مع أن عددهم لا يتجاوز الواحد في المائة ، وهي تخصص المال الكثير لترف المستبد وسرفه ؛ وتغدق على صنائعها^(١) ، ومن يُستخدم لتحصيل شهواتها ، ومن يعينها على طغيانها ، وسائر أفراد الشعب في شقاء وفقر وبؤس !

ثم الحكومات المستبدة تيسر للسفلة طرق الغنى بالسرقة والتعدي على الحقوق العامة ، ويكفي أحدهم أن يتصل بباب أحد المستبدين ويتقرب من أعتابه ، ويتوسل إلى ذلك بالتملق وشهادة الزور وخدمة الشهوات والتجسس ، ليسهل له الحصول على الثروة الطائلة من دم الشعب .

عرض « الكواكبي » بعد ذلك لأثر الاستبداد في فساد الأخلاق ، فالاستبداد يتصرف في أكثر الليول الطبيعية والأخلاق الفاضلة فيضعفها أو يفسدها . فهو يفقد الإنسان عاطفة الحب ؛ فهو لا يحب قومه لأنهم عون الاستبداد عليه ، ولا يحب وطنه لأنه يشقى فيه ، وهو ضعيف الحب لأسرته لأنه ليس سعيداً فيها ، وهو لا يركن إلى صديقه لأنه قد يأتي عليه يوم يكون فيه عوناً على الاستبداد ومصدر شر له .

(١) الصنائع ، جمع صنيفة ، وهو : من تربيته وتخرجه وتختصه بعمالك .

الإنسان في ظل الاستبداد لا ينعم بلذة العزة والشَّعْم والرجولة ، فلا يذوق إلا اللذة البهيمية لأنه لا يعرف غيرها .

والاستبداد يلعب بالأخلاق ، فيجعل من الفضائل رذائل ، ومن الرذائل فضائل : فيسمّى النصح فضولا ، والشهامة تجبرا ، والحمية طيشا ، والإنسانية حقّا ، والرحمة مرضا ، كما يسمى النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفًا ، والنذالة دماثة وظرفًا .

والاستبداد أفسد عقول المؤرخين ، فسمّوا الجبابة الفاتحين عظماء أجلاء ، مع أنه لم يصدر عنهم إلا الإسراف في القتل والتخريب ، ثم أشادوا بذكر السلف تملقًا للخلف .

والاستبداد يفقد الثبات في الخلق ، فقد يكون الرجل شجاعا كريما ، فيصبح بعوامل الاستبداد جبانًا بخيلا . ولا أخلاق ما لم تكن ثابتة مطردة ! وأقل ما يؤثر الاستبداد في أخلاق الناس أنه يرغم الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق ، ويعين الأشرار على فجورهم ، آمنين حتى من الانتقاد والفضيحة ، لأن أكثر أعمالهم تظل مستورة ، لا يجرؤ الناس على قول الحق أمامهم خوف العقبي .

وأقوى ضابط للأخلاق النهى عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وما إلى ذلك ، وهو في عهد الاستبداد غير مقدور لغير ذوى المنعة ، وقليل ما هم ، ويصبح الوعظ والإرشاد ملقًا ورياء .

في الحكومات التي نجت من الاستبداد أطلقت حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات ، ورئي أن الفوضى في ذلك خير من تحديد الحرية ، لأنه متى وضعت القيود نفذ منها الحكم ، وتوسّعوا فيها حتى خلقوا منها سلسلة من حديد يخنقون بها الحرية .

والاستبداد يفقد الناس ثقة بعضهم ببعض ، ويحل الخوف محل الثقة ، فيقلّ التعاون بين الأفراد ، والتعان حياة الأمم .

والأنبياء سلكوا في تكوين الأخلاق مسلكاً خاصاً ، فبدعوا بفك العقول من تعظيم غير الله ، وذلك بتقوية الإيمان المفطور عليه الإنسان ، ثم جهدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته وحرية في أفكاره ، وبذلك هدموا حصون الاستبداد . ثم أبانوا أنه مكلف بقانون الإنسانية ، واتباع المبادئ التي ترقيه وترقى جنسه — وكذلك فعل السياسيون الأقدمون من الحكماء .

أما الغربيون المحدثون فوضعوا الأخلاق غير مرتكزة على الدين ، ولكن على ما أودع فطرة الإنسان من ضمير وحب نظام ، وساعدهم على ذلك انتشار العلم عندهم والرغبة في التقدم ، واستعانوا على ذلك بالوطنية .

* * *

ثم عرض للاستبداد والتربية — والتربية تنمية الاستعداد جسماً ونفساً وعقلاً وهي قادرة أن تبلغ بالإنسان أعلى حد من الرقي لو صلحت .
والحكومة العادلة تُعنى بتربية الأمة من وقت تكوّن الجنين ، بل قبله ، بسن قوانين للزواج الصالح ، ثم بالعناية بالقابات والأطباء ، ثم بفتح بيوت اللقطاء ، ثم بإنشاء المكاتب والمدارس وتنظيم خططها متدرجة إلى أعلى مرتبة ، ثم تسهيل الاجتماعات ، والإشراف على المسارح ، ثم تشجيع النوادي وإنشاء المكتبات ، وإعلان شأن النوابع بإقامة النُصُب ونحوها ، ثم بتنمية الشاعر القوية بشتى أنواعها وتيسير الأعمال وغير ذلك .

أما الحياة في الحكومات المستبدة فجردّ نماء يشبه نماء الأشجار الطبيعية

في الغابات والخرجات^(١) ، يسطو عليها الفرَق والخرَق ، وتحطمها العواطف ،
والأيدي القواصف .

في الحكومة العادلة يعيش الإنسان حرّاً نشيطاً ، يسرّه النجاح ولا تقبضه
الخبية ؛ وفي الحكومة المستبدة يعيش خاملاً خامداً ، ضائع القصد حائراً .
الأسير المعبّد يسلى نفسه بالسعادة الأخروية ، ويبعد عن فكره أن الدنيا
عنوان الآخرة ؛ وقد جنى على المسلمين علماءؤهم ، فأفهموهم أن الدنيا سجن
المؤمن ، وأن المؤمن مصاب ، وإذا أحبّ الله عبداً ابتلاه ، وهكذا مما ابتدعوه .
ويتغافلون عن حديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً » وحديث معناه :
« إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم غرسة فليغرسها » ! وكل هذه المثبطات
تحوّل الأذهان من معرفة أسباب الشقاء إلى إلقائها على عاتق القضاء والقدر .
وقد أحكموا هذه المكيّدة باختراع الأحاديث التي تجعل الخضوع للحاكم
المستبد ديناً .

وعلى الجملة فالتربية الصحيحة لا تمكن في ظل الاستبداد !

ثم الاستبداد — على الإجمال — يمنع الترقى . والترقى الحيوى الذى يسعى
إليه الإنسان هو — أولاً — الترقى فى الجسم صحة وتلذذاً ، ثم الترقى فى الاجتماع
بالعائلة والعشيرة ، ثم الترقى فى القوة بالعلم والمال ، ثم الترقى فى الملكات بالخصال
والمفاخر . وهناك نوع آخر هو الترقى الروحى ، وهو الاعتقاد بأن وراء هذه الحياة
حياة أخرى يُترقى إليها على سلم الرحمة والإحسان — والاستبداد بالأمة عدوّ
ذلك كله ؛ بل هو تحوّل الميل الطبيعى فيها إلى طلب التسفل ، حتى لو دُفعت
إلى الرفعة لأبت وتألّت كما يتألم الأجهَر من النور ! وعندئذ يكون الاستبداد

(١) المخرجات ، جمع خرجة ، وهى : مجتمع الشجر .

كالعلق يمتص دم الأمة فلا ينفك عنها حتى تموت ، ويموت هو بموتها ، والاستبداد يجعل الأمة منحطة في الإحساس ، منحطة في الإدراك ، منحطة في الأخلاق . وهو يضغط عليها فتكون كدود تحت صخرة ، والمشفقون عليها يجب أن يسعوا في رفع الصخرة ولو حثاً بالأظافر ذرة بعد ذرة !!

وهنا ضرب مثلاً يصح أن يخطب به الخطباء في الناس ليستيقظوا ؛ فوضع خطبة نموذجية لتنبيه المشاعر . ثم قال : إن الرقي الذي ينشده في ظل العدل هو أن يكون الشخص أميناً على جسمه وحياته بحراسة الحكومة التي لا تفعل عن المحافظة عليه ، أميناً على ملذاته الجسمية والفكرية باعتناء الحكومة بإيجاد أسبابها ، أميناً على حرите فلا يعتدى عليها ، أميناً على نفوذه كأنه سلطان عزيز فلا يمانع في تنفيذ مقاصده النافعة ، أميناً على ماله وشرفه ، وما منحه الطبيعة من مزايا ؛ فما لم تتحقق هذه فالحكومة مستبدة ليست بيئة لترقى شعبها .

وأخيراً ما وسائل التخلص من الاستبداد ؟ يرى هو أن الاستبداد لا يقاوم بالقوة ، إنما يقاوم باللين وبالتدريج ؛ يبتث الشعور بالظلم ، وهذا يكون بالتعليم والتحميس ؛ ذلك لأن الاستبداد مخوف بأنواع القوات : كقوة الجند ، وقوة المال ، وقوة رجال الدين ، وقوة الأغنياء ، فإذا قوبل بالقوة كانت فتنة تحصد الناس ، وإنما الواجب المقاومة بالحكمة في توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة . والاستبداد مع اعتماده على هذه القوات كلها يضعف أمام الوسائل المحكمة في قلبه ، كما قيل : كم من جبار عنيد جدّله^(١) مظلوم صغير !!

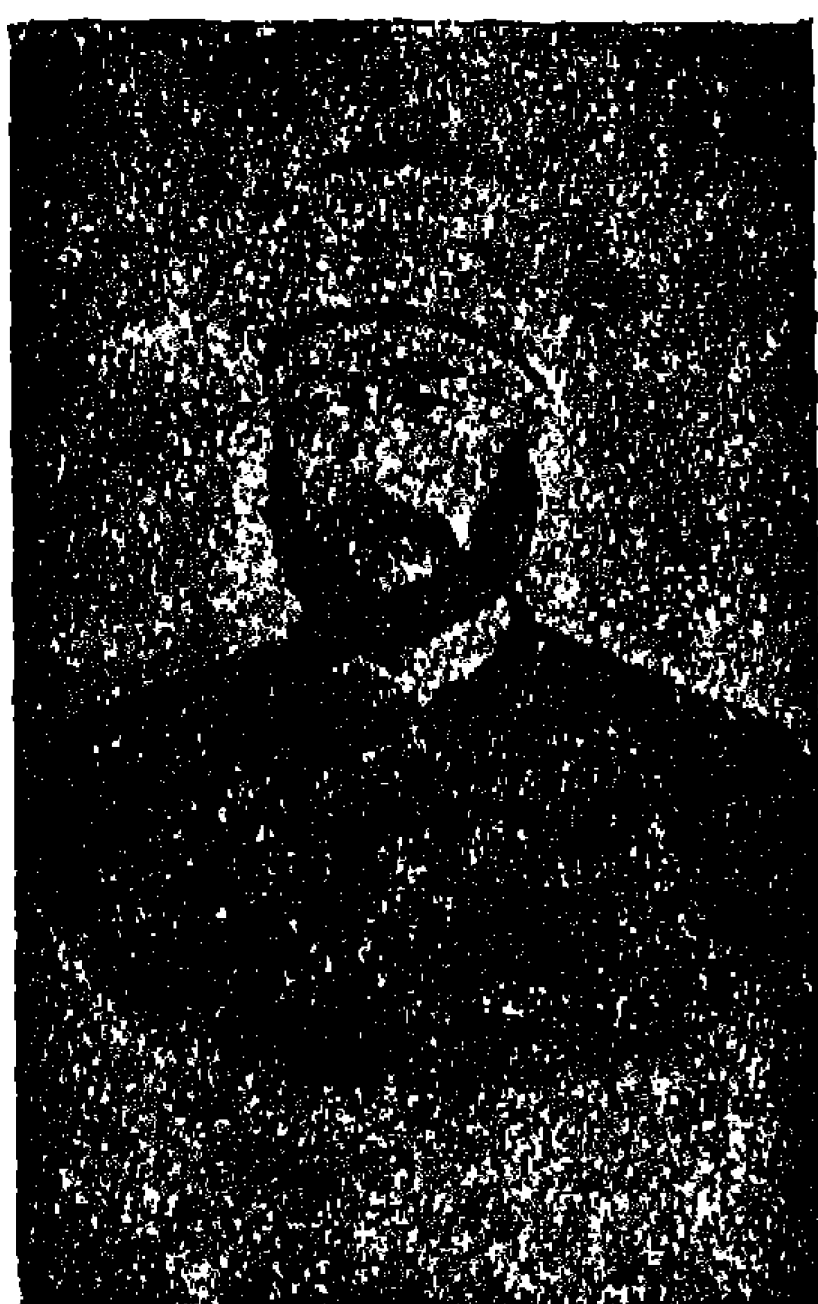
ويجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يحل محله ، ومعرفة الغاية معرفة دقيقة واضحة . ومتى وضحت الغاية المرسومة يجب السعي في إقناع الناس بها واستجلاب رضاهم عنها وحملهم على النداء بها ، ويجب أن ينشر ذلك في كل الطبقات حتى

(١) جدله : صرعه .

يصبح عقيدة ، فيتلهفوا جميعاً على نيل الحرية وتحقيق المثل الذى ينشدونه ، عندئذ لا يسع المستبد إلا الإجابة طَوْعاً أو كَرْهاً .

وقد حدّد فى ثنايا كتابه ، ماذا يقصد بالحكومة المستبدة ، فقال : إنها تشمل حكومة الحاكم الفرد المطلق ، كما تشمل حكومة الجمع ولو منتخباً إذا استبدّ ، بل قد يكون هذا الحكم أضر من استبداد الفرد . ويدخل فى أنواع الاستبداد أنواع الاستعمار ، فالمستعمر تاجر لا يرى إلا مصلحته . ولا عبرة بأسماء أنواع الحكومات ، إنما العبرة بحقيقتها ، وكل أمة فيها لون من ألوان الاستبداد ، ولكنها تختلف فيه كميّةً وكيفيةً ، فبعضها يمسّه الاستبداد مسّاً خفيفاً ، وبعضها تفرّق فيه من قدمها إلى مفرّق رأسها . والغرب سبق إلى تقدير معنى الحرية والعدالة ، ولكنه لا يأخذ بيد الشرق ، بل يستغله لمصلحته . وواجب الغرب أن يرفعى للشرق سابق فضله ، فيأخذ بيده ليخرجه إلى أرض الحياة ، ويعامله معاملة الأخ لأخيه ، لا السيد لعبده ليتعاونوا بعدُ على السير بالإنسانية .

وبهذا ينتهى الكتاب . وهو فيه قوى مخلص ، مملوءة غيرةً وأسفاً ، وتلهفاً على رفع نير الاستبداد عن الشرق ، وهو إن استمد الفكرة من العرب ، فهو يبسطها ويعدّلها ويُعنى بتطبيقها . وقد يؤخذُ عليه حصرُ نفسه فى دائرة النظريات ، وكان الكتاب يكون أوقع فى النفس لو ملأه بالشواهد وما رأى وسمع من أحداث وهو معروف بسعة الاطلاع ؛ فلو قرن النظريات بالشواهد لكان كتابه أكثر فائدة وأعم نفعاً ، ولكن يظهر أن قد منعه من ذلك أنه أراد أن يستتر فأخفى اسمه ولم يضعه على الكتاب . وقال فى مقدمة الكتاب : إنه لم يقصد ظالماً بعينه ولا حكومة مخصوصة ، ولو أتى بالشواهد للدّل على الحكومة التى يقصدها ، ودلّ بذلك على نفسه ؛ وما كان فى ذلك من ضرر ، بل كان فيه كل النفع ؛ ولكن الأمور تقدّر بأوقاتها وظروفها ، وهو فيما اكتنفه من ظروف كان فى عرضه النظريات فقط شجاعاً جريئاً .



السيد عبد الرحمن الكواكبي

أما كتابه الثانى « أمّ القرى » فأدلّ على الابتكار وأوضح في إظهار الشخصية ، يقف فيه من المسلمين موقف الطبيب من المريض ، يفحص داءه ويتعرف أسبابه ، ويصف علاجه في أسلوب قصصى جذاب ، تحدّث فيه عن جمعية من المسلمين عُقدت في مكة حضرها ممثل أو أكثر لكل قطر إسلامى ؛ فعضو شامى ، وعضو إسكندريّ ، ومصرى ومقدسى ويمنى وبصرى ونجدى ومدنى ومكى وتونسى وفاسى وإنجليزى ورومى وكردى وتبريزى وتترى وقازانى وتركى وأفغانى وهندى وسندى وصينى ؛ وأسندت رئاسة الجمعية للعضو المكى ، والسكرتارية للسيد الفراتى — ويعنى به الكواكبى نفسه — واجتمعوا كلهم قبيل الحج في مكان متطرف في مكة يتداولون في حال المسلمين . وكان أول اجتماع لهم في ١٥ ذى القعدة سنة ١٣١٦ هـ .

فهل كانت هذه الجمعية حقيقة أو هى من نسج خياله ؟ يقول هو : إن لها أصلاً من الحقيقة ، وإن الخيال تممها ، فهل هذا صحيح ، أو هو من قبيل تأييد الخيال كما يفعل كثير من الروائيين ؟ أرجح الرأى الثانى .

على كل حال انعقدت الجمعية — فيما يقول — ووضع الرئيس منهج البحث ، وهو الكتمان ، لأنه أدعى إلى إفشاء كلِّ بما فى نفسه فى صراحة ، وتناسى الاختلاف فى المذاهب ، فلا سُنّى وشيعى ، ولا شافعى وحنفى ، فالكل مسلم . ثم التحرز من اليأس فى الإصلاح ، فهذه أم كثيرة كالرومان واليونان واليابان ، استرجعت مجدها بعد تمام ضعفها ؛ خصوصاً وأن الظواهر كلها تدل على أن الزمان قد استدار ، وبدأت تظهر أعراض الصحة على المسلمين ، ومن أعظم الظواهر انعقاد مثل هذه الجمعية . ووضع برنامج المؤتمر ، وهو يتلخص فى بحث موضع الداء فى المسلمين وأعراضه وجراثيمه ودوائه وكيفية استعماله ، الخ .

قال الرئيس : إن أوضح عَرَض من أعراض مرض المسلمين فتورهم ، وهو فتور عام شامل لجميع المسلمين في جميع أقطار الأرض ، لا يسلم منه إلا أفراد شذاذ ، حتى لا يكاد يوجد إقليمان متجاوران ، أو ناحيتان في إقليم ، أو قريتان في ناحية ، أو بيتان في قرية ، أهل أحدهما مسلمون وأهل الآخر غير مسلمين ، إلا والمسلمون أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً ، وأقل إتقاناً من نظرائهم في كل فن وصنعة — مع أن المسلمين في جميع الحواضر متميزون عن غيرهم من جيرانهم في المزايا الخلقية ، مثل الأمانة والشجاعة والسخاء — حتى توهم كثير من الحكماء أن الإسلام والنظام لا يجتمعان ! فما هو السبب ؟

وقد لفت نظره العضو الهندي إلى أنه مع تسليمه بما قال الرئيس ، يود أن يستثنى بعض حالات فيها المسلمون خير من جيرانهم ، كبعض الوثنيين في الهند ، والصابئة في العراق ؛ فوافق الرئيس وشكره على دقة ملاحظته .

ثم أخذوا — بعد التسليم بوجود العَرَض — يبحثون في الأسباب . وذهبوا في ذلك كل مذهب ؛ فالشامى رأى أن سبب الفتور يرجع إلى ما أصاب المسلمين من عقيدة جبرية ، فهذه العقيدة في القضاء والقدر على هذا النحو آلت إلى الزهد في الدنيا ، والقناعة باليسير والكفاف من الرزق ، وإماتة الطالب النفسية كحب المجد والرياسة ، والإقدام على عظام الأمور ، فأصبح المسلم كئيت قبل أن يموت . والعقيدة بهذا الشكل مشبّطة معطلة لا يرضاها عقل ، ولم يأت بها شرع .

والمقدسى رأى أن السبب تحوّل نوع السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى استبدادية ، فأفسدت العقول وأماتت الأخلاق .

وردّ التونسي بأن بعض الأمم الأوربية محكومة بحكومة استبدادية ولم يمنع ذلك من تقدمها ، وإنما السبب في نظره الأمراء المترفون الذين لم يراعوا للأمة حقوقها .

وقال الرومى : إن تحميل الأمراء التبعة كلها غير سديد ، فها هم إلا نفر قليل من الأمة . والسبب الحقيقى فى نظره فِقدان المسلمين الحرية بجميع أنواعها : من حرية التعليم ، وحرية الخطابة ، وحرية البحث العلمى ؛ فبفقد الحرية تفقد الآمال ، وتبطل الأعمال ، وتموت النفوس ، وتختل القوانين وتسأم الأمة حياتها فيستولى عليها الفتور .

ورأى التبريزى أن السبب ترك المسلمين أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فاسترسل الأمراء فى أهوائهم وشهواتهم ، وعدمت المراقبة عليهم .

وقال الفاسي : إن السبب هو إهمال الناس الاهتمام بالدين ، حتى لم يبق له أثر إلا على أطراف الألسن ، وأمراؤهم مثلهم لا يتراءون بالدين إلا بقصد تمكين سلطانهم على البسطاء من الأمة ، هذا إلى ظلمهم وجورهم . وقد كان المسلمون أعزاء يوم توثقت بينهم الرابطة الدينية ، فلما انحلت ضاعت الأخلاق ففتروا وخذوا .

وأجاب المدنى بأن فقدَ الرابطة الدينية والوحدة الخلقية لا يكفى سبباً لهذا الفتور العام . وعنده أن السبب تدليسُ رجال الدين وغلاة المتصوفين الذين لونوا الدين بلون سىء فأضاعوه وأضاعوا أهله ؛ وذلك أن العلماء العاملين أهل لكل تجلّة واحترام ، فلما حسدهم من لا يستحقّ هذه المنزلة سلّكوا مسلك الزاهدين . ومن العادة أن يلجأ ضعيف القدرة إلى التصوّف كما يلجأ فاقدُ المجد إلى الكبر وقليل المال إلى التظاهر بزينة اللباس والأثاث ، فأفسد هؤلاء الدين بما أدخلوا فيه ما ليس منه ، كالعلم اللدنى^(١) ، وترتيب المقامات ، ووراثه السرّ ، والرهبة ، والتظاهر بالعفة ، والتبرك بالآثار ، والكرامة على الله ، والتصرف فى القدر . فسحروا عقول الجهلاء ، واختلبوا قلوب الضعفاء كالنساء ، والنساء بذرنَ هذه

(١) اللدنى : أى الذى يكون من لدن الله ، يلتقى فى النفس دون تعلم أو تلقين

البذور الضارة في أبنائهم وبناتهم ، فماتت النفوس وخرفت العقول . وهؤلاء المدلسون وجدوا في بغداد ومصر والشام وغربوا الشوق في الآستانة ، وسرى التدليس من هذه العواصم إلى جميع الآفاق فأصبح المرض عامًا .

وانضم الرومى إلى هذا رأى وزاده إيضاحا ، فقال : إن داءنا الدفين دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين والجهال المتعممين ؛ وبلغ أمرهم في البلاد العثمانية أن صارت الألقاب العلمية منحة رسمية تُعطى للجهال ، حتى للأمين والأطفال (كشيخة الطرق عندنا) . فقد يكون طفلا ويُمنح بالوراثة لقب « أعلم العلماء المحققين » ، ثم « أفضل الفضلاء المدققين » ، ثم وثم ... حتى يوصف بأنه « أعلم العلماء المتبحرين » ، وأفضل الفضلاء المتورعين ، وينبوع الفضل واليقين » وأكثرهم لا يحسنون حتى قراءة ألقابهم . وطبيعى أن هؤلاء يقابلون السلطان بالمثل ، فهو صاحبُ العظمة والإجلال ، المنزه عن النظر والنشال ، مهبط الإلهامات ، مصدر الكرامات ، سلطان السلاطين ، مالك رقاب العالمين . وأصبح التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخدم الدينية سِلعا تباع وتشترى ، وتوهب وتورث . وتسلط هؤلاء المتعممون على المجالس والإرادات ، واتخذ الأمراء من ذلك وسيلة يعتذرون بها عند الدول الأجنبية بأن رأى العام — وعلى رأسه المعمون لا يقبلون الإصلاح المدنى .

أجاب الكردي بأن هذا الداء خاص ببعض الولايات : ولكن عَرَضَ الفتر عام في الولايات الإسلامية التي فيها هذا الشأن وغيره ، فلا بد أن يكون السبب شيئا أعم من ذلك . وعندى أن السبب هو أن المسلمين أصيبوا باقتصارهم على العلوم الدينية وإهمالهم العلوم الدنيوية ، كالرياضة والطبيعة والكيمياء ، على حين أن هذه العلوم نمت في الغرب وترقت وظهر لها ثمرات عظيمة في جميع الشئون المادية والأدبية ، حتى صارت عندهم كالشمس ، لا حياة لهم إلا بنورها ؛ وأصبح

المسلمون في أشد الحاجة إليها في جميع أمورهم : من تربية الطفل إلى سياسة الدولة ، ومن عمل الإبرة إلى عمل المدافع والبوارج ، ومن استخدام اليد إلى استخدام الأسلاك والبخار — فابتعاد المسلمين إلى الآن عن هذه العلوم النافعة الحيويّة ، جعلهم أخط من غيرهم من الأمم ، وكلما تبادت الأيام بُعدت النسبة بينهم وبين جيرانهم .

أجاب الإسكندري : إن هذا يصلح سبباً ، ولكن ليس كل السبب ؛ لأن فقد العلوم لا يصلح سبباً لفقد الإحساس الشريف والأخلاق العالية . وإنما السبب نومنا ويأسنا .

قال التتري : إن هذا شكاية حال لا شرح أسباب . إنما السبب عندى فقدان القادة والزعماء ، فلا أمير حازم يسوق الأمة طوعاً أو كرها إلى الرشاد ، ولا زعيم مخلص تنقاد له الأمراء والناس ، ولا رأى عام يجمع الناس على غرض نبيل .

والأفغانى يرى أن سبب الفتور الفقر ، وهو قائد كل شر ، ورائد كل فساد ، فمنه الجهل ، ومنه الانحطاط الخلقي ، ومنه تشتت الآراء حتى في الدين ؛ فليس ينقصنا عن الأمم الحية إلا القوة المالية . ولكن المال لا يأتى إلا بالعلوم والفنون العالية ، وهذه لا تنتشر في الأمة إلا بالمال . وبهذا تحدث مشكلة الدور ، ويجب أن نبحث عن حلها .

أجاب المسلم الإنجليزى : إن الفقر في المملكة الإسلامية ليس طبيعياً ، فهى بلاد غنية ، لو نفذت تعاليم الإسلام فيها من تحصيل الزكاة والكفارات وما إلى ذلك وصُرفت في وجوهها خلقت وطأة الفقر وإنما سبب الفتور في نظره فقد الاجتماعات والمفاوضات وتبادل الآراء ، ففسى المسلمون حكمة تشريع الجمعة والجماعات والحج ، وصارت الخطب التى تلقى تافهة لا قيمة لها ، وكان الغرض منها التحدث

في الأحوال الطارئة . وبلغ من سوء رأيهم أنهم عدّوا التحدث في الأمور العامة فضولا ، والكلام فيها في المساجد لغوا ، فلما انعدم الكلام في المصالح العامة أصبح كل شخص لا يهتم إلا بنفسه ، ولا اهتمام له بالصالح العام ولا بغير ذلك من الشئون ؛ حتى لو بلغهم خبر تخريب الكعبة — لا قدر الله — ما زادوا على أن يقطّبوا جبينهم لحظة وينتهى الأمر . والأثم الحية في الوقت الحاضر تهيب الفرص للاجتماعات ومبادلة الآراء ما أمكن ، بكثرة النوادي والمجتمعات ، وتنظيم الرحلات والسيارات ، وكثرة الخطب والمحاضرات حتى في المنزهات ، وعقد المؤتمرات للمناسبات ، وتذكيرهم بتاريخهم وأهم أحداثهم ، وبشهم في الأغاني والأناشيد ما يبعث على حبّ البلاد والحرية ويحمس للخير العام .

ورأى الصينى أن السبب هو تكبر الأمراء وميلهم للعلماء المتملقين المناققين ، الذين يتصاغرون لديهم ، ويتذلّلون لهم ، ويحرفون أحكام الدين ليوفقوها على أهوائهم ، فإذا يَرجى من علماء دين يسترون بدينهم دنياهم ، ويقبلون يد الأمير لتقبل العامة أيديهم ، ويحرقون أنفسهم للعطاء ليتعاضموا على ألوف من الضعفاء ، فأفضل الجهاد عند الله الخطّ من قدر العلماء المناققين عند العامة ، وتحويل وجهتهم لاحترام العلماء العاملين . وعندنا في الصين رجال حُكّاء نبلاء ، لهم نوع من السيادة حتى على العلماء ، وهؤلاء هم الذين يسمّون في الإسلام أهل الحل والعقد ، وهم خواصّ الطبقة العليا في الأمة الذين أمر الله نبيه بمشاورتهم . وتاريخ المسلمين يدل على ارتباط القوة والضعف بمنزلة أهل الحل والعقد في الأمة . والخلاصة أن سبب الفتور استحكام الاستبداد في الأمراء ، وانعدام أهل الحل والعقد من الأمة .

وقال النجدى : إن سبب فتور المسلمين الدين الحاضر نفسه ، بدليل التلازم . فالدين الحاضر ليس دين السلف : إن الدين الحاضر ترك إعداد القوة

بالعلم والمال والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود ، وإيتاء الزكاة ، إلى غير ذلك مما بيّنه إخواننا . قد يقول قائل : إن كل دين دخل عليه التغيير ولم يؤثر في أهله الفتور ، بل قال كثير من رجال الغرب إنهم ما أخذوا في الترقى إلا بعد فصلهم الدين عن شئون الحياة الدنيا . والجواب أن كل أمة لا بد لها من نظام ثابت تسير عليه ، ويلأثم نفسها ويبتتها وعلاقاتها التجارية والسياسية ؛ والقانون الطبيعي الذي يتفق والطبيعة البشرية هو إذعان الإنسان لقوة غالبية هي الله الذي يوحى به الإلهام الفطرى . ولهذا الفطرة علاقة عظمى بتنظيم شئون حياته ، وهى أقوى وأفضل وازع — وكل الأديان راجعة إلى أصل صحيح واحد ، فإذا تغير أو فسد فسد الناس لاختلال هذا الوازع ، قال تعالى : « وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً » . « والأمة كلما قربت من الأصل الصحيح والمبادئ الصحيحة قربت من الكمال » .

وهنا أعلن الرئيس أن البحث في أعراض الداء وأسبابه قد نضج أو كاد ، فيكتفى فيه بهذا القدر ، ويجب نقل البحث إلى موضوع آخر . قال : وكلمة أخينا النجدى تلهمنا الموضوع الآتى الذى نبهته ، وهو : ما هو الإسلام الصحيح ؟

بعد هذا انتقل بحث المؤتمر إلى تحديد « الإسلام الصحيح » وما دخل عليه من تغيير . وقد أفاض فى ذلك العضو النجدى ، فقال : « إن الإيمان بالله أمر فطرى فى البشر ، وحاجتهم إلى الرسل لإرشادهم إلى كيفية الإيمان ؛ ويختلف الناس فى تصور الله ؛ والعقول البشرية مهما قويت واتسعت لا تتحمل إدراك صفات الله الأزلية المجردة عن المادة والزمان والمكان ، فاحتاجت إلى من يرشدها » .

وأساس الإسلام جملتان : « لا إله إلا الله » و « محمد رسول الله » ؛ وثمره الإيمان بالأولى عتق العقول من الأسر ، وثمره الثانية الاهتداء بمحمد في تعاليمه التي تحول بين المرء ونزوعه إلى الشرك .

ولكن إدراك التوحيد والاحتفاظ به عسير على النفس ، فسرعان ما يخرج منه إلى الشرك . والشرك أنواع ثلاثة : « شرك في الذات » وذلك في عقيدة الحلول ، و « شرك في الملك » كاعتقاد الناس في بعض المخلوقات المشاركة في تدبير شئون الكون ، و « شرك في الصفات » بإسباغ صفات الكمال على بعض المخلوقات .

وقد فشا في المسلمين هذا الشرك ، كتعظيم القبور ، وبناء المساجد والمشاهد عليها ، والطواف بها والإسراج لها^(١) والتذلل ، وكدعوى أن هناك علماً يسمى علم الباطن خص به بعض الناس ، واتخاذ الدين لهواً ولعباً بالتغنى والرقص ، ولبس الأخضر والأحمر ، واستخدام الجن والشياطين ، فكل هذه وأمثالها شرك محض أو مظنة إشراك .

وعرض للإسلام — غير الشرك — أمران خطيران : وهما التشدد في الدين بعد ما كان يُسرّاً سهلاً ، فكانت كل فرقة تأتي تزيد في هذا التشدد حتى صار عُسرّاً صعباً ؛ والأمر الثاني تشويش الدين بكثرة المذاهب والشيّع وطرق التصوف .

وقد لاحظ الرئيس أن عضوين من الأعضاء لم يتحدثا ، فرغب أن يسمع صوتهما ، وهما العضو السُّنْدي والعضو القازاني ، فأما السُّنْدي فقد تكلم في التصوف والذي دعا إليه ، وما فيه من حق وما فيه من باطل ، وأما القازاني فقص عليهم قصة جرت بين مسيحي روسي ومفتي قازان ، تدور حول دعوة المفتي إلى

(١) الإسراج : إيقاد السراج ، وهو المصباح .

تقليد السلف والاقتصار على ما قالوا، ودعوة الرومى المسلم إلى ضرورة الاجتهاد وعدم التقليد؛ وحكى ما جرى بينهما من حجج وأدلة، وأخيراً انتصر المسلم الرومى المستشرق على المفتى، فاقتنع بأن التقليد ضارّ حمل عليه الكسل، وأن الاجتهاد واجب، ولكن يحتاج القيام به إلى جدّ وعناء.

ثم دعا الرئيس السيد الفراتى السكرتير، وهو «الكواكبى» لتلخيص المحاضر السابقة للمؤتمر وتعداد أسباب فتور المسلمين، وكلفه أن يزيد عليها من الأسباب ما يراه إن وجد غير ما ذكره الأعضاء؛ فلخص أسباب فتور المسلمين فى :
(١) أسباب دينية : أهمها عقيدة الجبر، ونشر ما يدعو إلى التزهيد

فى الدنيا، وترك السعى والعمل، واختلاف المسلمين فرقاً وشيعاً، وإضاعة سماحة الدين، وتشديد الفقهاء المتأخرين، وإدخالهم فى تعاليم الخرافات والأوهام، وعدم المطابقة بين القول والعمل فى الدين، وتهوين غلاة الصوفية شأن الدين وجعله لهواً ولعباً، والتوسع فى تأويل النصوص، والتحايل على التحرر من الواجبات، وإيهام الدجالين الناس أن فى الدين أموراً سرّية، واعتقاد مناقاة العلوم الحكيمية والعقلية للدين، وتطرق الشرك إلى عقيدة التوحيد، وتهاون العلماء فى تأييدها، والغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة والحج.

(٢) وأسباب سياسية : أهمها السياسة الخالية من المسئولية، وحرمان الأمة حرية القول والعمل، وفقدانها الأمن والأمل، وفقد العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقات الأمة، وميل الأمراء للعلماء المدلسين، واعتبار العلم صدقة يُحسَن بها الأمراء على الخاصة، وإبعادهم للناصحين وتقريبهم للمتملقين.

(٣) وأسباب خلقية : من الاستغراق فى الجهل والارتياح إليه، واستيلاء اليأس على النفوس، والإخلاد^(١) إلى الخمول، وفساد التعليم، وفساد النظام المالى،

(١) الإخلاد : للركون .

ولإهمال طلب الحقوق العامة جبنًا ، وتفضيل الوظائف على الصنائع ، والتباعد عن المداولات في الشئون العامة .

وقد زاد السكرتير أشياء على ما سبق ، أهمها : الغفلة عن تنظيم شئون الحياة ، وعدم توزيع الأعمال توزيعًا عادلاً ، وعدم العناية بتعليم النساء وتهذيبهن ، المهمة وانتشار داء التواكل .

ولم يرض المؤتمر بالاكتفاء بالبحث في الأمراض وعلاجها ، بل اقترح إنشاء جمعية دائمة تُعنى بإصلاح المسلمين ، وتشرف على تنفيذ برنامجهما في الإصلاح ، وهذه الجمعية تؤلف من مائة عضو : عشرة عاملين ، وعشرة مستشارين ، وثمانين نخبين ، ولا عدد للأعضاء المساعدين المحتسبين ؛ واشترط في الأعضاء العاملين شروطًا دقيقة : من العفة والأمانة والإخلاص وسعة العلم والقدرة على التأثير وإمكان التفرغ للعمل لأغراض المؤتمر ؛ وجعل مركزها في مكة ، ولها شعب في الآستانة ومصر وعدن والشام وطهران وتفليس وكابل وكلكتا وسنغافورة وتونس ومرّاكش وغيرها . والجمعية لا تكون تابعة لحكومة ما ، ولا تتقيد بمذهب ديني خاص ، ويكون شعارها : « لا نعبد إلا الله » ، ويكون من أهم أغراضهم تعميم التعليم بين المسلمين ، والترغيب في العلوم والفنون النافعة ، وإيجاد المدارس العالية يتخصص كل منها للتوسع في فرع من فروع العلم ، وتوحيد أصول التعليم ، ووضع مناهج للرقى بالأخلاق وتنفيذها ، وإنشاء مجلة شهرية للجمعية لتأييد أغراضها إلخ إلخ .

وقد اتفقوا على أن يكون مركز الجمعية المؤقت هو مصر ، لتقدمها في العلم والحرية ، ولأنها أسبق الأمم الإسلامية في ذلك .

وانفض المؤتمر بعد أن اجتمع اثني عشر اجتماعًا وصل فيها إلى النتائج الآتية :

- ١ — المسلمون في حالة فتور عام .
- ٢ — يجب تدارك هذا الفتور .
- ٣ — جرثومة الداء الجهل .
- ٤ — الدواء تنوير الأفكار بالتعليم ، وإيقاظ الشوق للترقى ، وخصوصاً في الناشئة .
- ٥ — تأسيس الجمعيات التي تقوم بهذا العلاج .
- ٦ — المكلفون بذلك كل قادر على عمل ، وخاصة نجباء الأمة من السّراة والعلماء .

* * *

هذه نظرة الطائر إلى هذه الرواية العظيمة العميقة المفيدة ، وهذا تفكير « الكواكبى » من نحو نصف قرن يَشْف عن سعة اطلاع ، وصدق إخلاص ، وسموّ فكر ، وبعد نظر ، وشجاعة وصراحة ؛ فإذا نحن اطلعنا على ما كان يُكتب قبله في المجلات والصحف في مثل هذه الموضوعات رأيناها كانت أقرب إلى موضوعات إنشائية جوفاء ، فنقلها هو إلى بحوث علمية عملية ، يحلل ويذكر العرّض وسبب الداء وعلاجه في صبر وأناة واستقصاء .

كتاب « أم القرى » رواية جدّية ليس فيها غرام وغزل ، بل فيها غرام مؤلفه بالعالم الإسلامى ، يعانى في سبيله ما يعانى المحب الهائم ، ويود من صميم قلبه أن يصل محبوبه إلى أعلى درجات الكمال ، ويصيحى من أجله بماله الذى ضيعه عليه الظلّة لئلا تمسكه بالحق ، ويصيحى بوطنه فيهجّره لأنه لم يستطع أن يجهز برأيه في حلب فجهر به في مصر ، ولا بأس فكل بلد إسلامى وطنه — كان يحب التخصص ، وينادى بأن كل قادر يحصر نفسه في فرع من فروع العلم أو الفن حتى يتقنه ، وطبق ذلك على نفسه ، فلم يتوزع بين فقه ولغة ، وما إلى ذلك ، إنما وهب نفسه

لإصلاح المسلمين ، فدرس التاريخ الإسلامى فى دقة وإمعان يتعرف فيه الأسباب والنتائج ، كما تدل عليه كتابته ، وساح فى البلاد الإسلامية سياحة فاحصة منقبة ، ودرس كل قطر إسلامى ومزاياه وعيوبه ، حتى إنه لما وضع روايته « أم القرى » أنطق كل عضو بعقلية قطره : النجدى يشكو من ضياع الدين ، والرومى يشكو من ضياع الحرية وسلطة المتعممين ، والإسكندرى يشكو ضعف الأخلاق ، والإنجليزى ينعى على المسلمين عدم المجتمعات وتبادل الرأى بالخطيب والمحاضرات ونحو ذلك .

اكتوى السيد جمال الدين الأفغانى من السياسة الأوربية ولعبها بالمسلمين ، فصب عليها جَآمَ غضبه ، واستغرقت حملته على السياسة الإنجليزية أكبر قسم فى العروة الوثقى ، واكتوى الكواكبى بالسياسة العثمانية فكانت موضع نقده . نظر الأفغانى إلى العوامل الخارجية للمسلمين فدعاهم إلى أن يناهضوها ، ونظر الكواكبى إلى المسلمين فدعاهم إلى إصلاحها ، فإنها إن صلحت لم تستطع السياسة الخارجية أن تلعب بهم . ولذلك كانت معالجة الأفغانى للمسائل معالجة تأثر ، تخرج من فم الأقوال ناراَ حامية ؛ ومعالجة « الكواكبى » معالجة طبيب يفحص المرض فى هدوء ، ويكتب الدواء فى أناة . الأفغانى غضوب ، والكواكبى مشفق ؛ الأفغانى داع إلى السيف ، والكواكبى داع إلى المدرسة . ولعل هذا يرجع أيضاً إلى اختلاف المزاج ، فالأفغانى حاد الذكاء حاد الطبع ، والكواكبى رزين الذكاء هادئ الطبع ، إذا وضعت أمامها عقبة تخطاها « الأفغانى » قبل ، وتخطاها « الكواكبى » بعد ، ولكن من خير نقطة تُتخطى ؛ فلا عجب أن كان للأفغانى دوى المدافع ، وكان للكواكبى خير الماء يعمل فى بطنه حتى يفتت الصخر ! .

لو مُكن له معرفة لغة أجنبية ووقف على ما وصلت إليه بحوث

علم الاجتماع الحديث لكان له منبع فياض إلى جانب غزارة فكره .
وينا الناس يُعجبون بما ينشره من مقالات إصلاحية في المجلات والجرائد ،
ومجالس الفضلاء في مصر عامرة بحديثه وجدله ودفاعه المؤدب عن آرائه ، إذا
بالصحف المصرية تطلع نبأ موته الفجائي يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ ،
فأسف عليه كل من كان محباً لإصلاح المسلمين ، وبكاه إخوانه الذين كانوا
يرون فيه رجلاً نبيل الخلق ، سامي المقصد ، عف اللسان ، نقي الضمير .
فرحمه الله !

الشيخ محمد عبده

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

يعتمد نبوغ النابغ على عنصرين أساسيين : استعداد الفطري — أو بعبارة أخرى طبائعه الموروثة — وبيئته التي عاش فيها ، كالشجرة الطيبة إنما تنبت نباتاً حسناً إذا حسنت بذرتها ، ووجدت من التربة والهواء والماء ما يصلح لها ، فإن كانت البذرة سيئة فلا أمل في شجرة ممتازة ، وكذلك إن حسنت البذرة وساء الغذاء .

وقوانين الوراثة في الإنسان في منتهى التعقّد : ماذا يرث من أبيه ؟ وماذا يرث من أمه ؟ وماذا يرث من آبائه الأقربين ؟ وماذا يرث من آبائه الأبعدين ؟ كل هذا لا يزال غامضاً مع عناية علماء الوراثة بالبحث والتقصّي . على كل حال ورث « محمد عبده » صفات نشأ عليها ، وساعدت بيئته على نموها ، أهمها : الذكاء ، والثقة بالنفس والاعتداد بها ، ويتبع ذلك حب التفوّق والمطف .

من أين نبعّت هذه الصفات ؟ من تركمانية أبيه كما يقال ، أو من عربية والدته ، إذ يقال إنها من بني عديّ ؛ ولكن ما هذا ولا ذاك بالسبب الكافي ، ففي كل من التركمان والعرب الذكي والغبي ، والعزيز والذليل . ولا نستطيع أن نتنبّت من موضع الوراثة حتى نكون على علم تام بأبائه وأمهاته فرداً فرداً ، وأنّى لنا هذا ؟ فليس لنا إذاً إلا أن نقول : إنه هكذا خلق .

ثم كم من الفلاحين الفقراء في الحقول ، وصغار الصّناع في المصانع ، من ورث من الصفات وما ورث الشيخ محمد عبده بل خيراً مما ورث ، ولكن لم تسعفهم البيئة

وفضت عليهم ، وعاشوا وماتوا لم يشعر بهم أحد . ولو وجدوا من الظروف ما وجد الشيخ محمد عبده وأمثاله لظهر نبوغهم وعلا اسمهم وآمن الناس بتفوقهم ، والناس كالكنوز المدفونة ، أحياناً يُقضى عليها بالدفن الأبدى ، وأحياناً يُعثر عليها فتكون مصدر ثراء . وفي عصر الشيخ محمد عبده إلى عصرنا لم تسعنا نظم التربية وحالة البلاد الاجتماعية لنستكشف الأحجار الكريمة ، بل هي في أغلب الأحيان تعمل على دفنها في الرمال .

لا تعجبَنَّ من هالك كيف ثوى بل فاعجبَنَّ من سالم كيف نجا
هذا هو محمد عبده ينشأ في قرية من قرى الريف كما ينشأ ابن كل فلاح في ذلك العصر ، فإذا كان لأبيه بعض اليسر وبعض الوجاهة وبعض الدين علم ابنه في الكتاب ، ثم بعث به إلى الأزهر أو إلى معهد ديني ، وكذلك فعل أبوه ، فأرسله إلى الجامع الأحمدى بطنطا لقربه من بلده ، وليجود القرآن بعد أن حفظه ، ثم ليتعلم العلم . فأما تجويد القرآن فأمر ميسور ، يسمع ما تيسر فيأخذه الشيخ بضبط مخارج الحروف ومقاييس المد والغنة والإدغام وما إلى ذلك . وأما العلوم التي يدرسها فطرقها في منتهى العُقم — على المبتدئ أن يقرأ على شيخ كتاباً في الفقه وكتاباً في النحو ، وأمر الفقه محتمل ، فهو يبدأ بعلمه في دقة كيف يتوضأ وكيف يصلي ، وهي أمور مارسها في حياته العملية ، فمن السهل التدقيق فيها مادام الأساس معروفاً . أما النحو فهو الطائفة الكبرى ، فهو لا يعلم كما نعلمه نحن اليوم ، فنبدأ بأن الكلمة اسم وفعل وحرف ، ونأخذ في مميزات كل منها ، إنما كان يعلم كما في كتاب « الكفراوى على الأجرومية » وأول درس فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الياء حرف جر واسم مجرور بالباء وعلامة جره كسرة ظاهرة في آخره ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أولف ، وأولف

فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم ، والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا . هذا إن جعلت الباء أصلية ، وإن جعلتها زائدة فلا تحتاج إلى متعلق به ، وتقول في الإعراب حينئذ : الباء حرف جر زائد ، واسم مبتدأ مرفوع بالابتداء وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد ، والخبر محذوف تقديره اسم الله مبدوء به « إلخ .

باسم الله ما شاء الله ! هذا أول درس لمن لم يعرف في النحو شيئاً ، فلو أن متكلماً تكلم بالسريانية لكان أهون ، وكيف يستسيغ هذا وهو لم يسمع قبل إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا جرّاً ولم يفهم لها معنى ، ومثل هذا مثل كفا تتضاحك منه وكان أعجوبة الأعاجيب ، وهو أن مدرساً في مسجد سيدنا الحسين كان يعظ النساء ، اسمه الشيخ يوسف ، وكان يجلس ويتحلق حوله عوام النساء للتبرك ، فيقرأ عليهن حديثاً من الأحاديث النبوية يأخذ في شرحه ، ولكنه ينسى أنه يدرس لنساء أميات جاهلات ، أو لا يستطيع ذوقه أن يدرك مقتضى الحال ، وما يصح أن يقال وما لا يقال ، فيتساءل في أثناء شرحه : « لم حُذف المسند إليه ؟ » فيكون الكلام كتلاوة اللاتينية في الكنائس لمن لم يعرف كلمة لاتينية ، أو خطبة الجمعة بالعربية لأتراك لم يعرفوا شيئاً من العربية !

كذلك كان تعليم النحو في الأزهر والجامع الأحمدي للمبتدئين . فلو لطمت البيداجوجيا لطمة مميتة لم تجد شراً من هذه اللطمة . ورحم الله الشيخ الكفراوى ، فلو علم ماذا يجنى على المتعلمين كتابه ما خط منه حرفاً .

كانت سن « محمد عبده » إذ ذاك خمس عشرة سنة ، واستمر على هذا عاماً ونصف عام يحاول أن يفهم فلا يفهم ، وكيف يفهم الوضع المقلوب على أنه وضع صحيح ؟ الجمهرة العظمى من المتعلمين على هذا النحو ، يَمَلُّون ويسأمون وينقطعون عن الدراسة ، وبعضهم كانوا يَخْتَانُونَ^(١) أنفسهم فيزعمون فيما لا يفهمون أنهم

(١) يَخْتَانُونَ : يخونون .

يفهمون . وتجلت في صاحبنا سجايه التي ذكرنا في هذا الموقف ، فهو ذكي إذ فرّق بين ما يفهم وما لا يفهم ، وهو معتدّ بنفسه إذ ثار على الاستمرار على هذه الحال ، وأبى أن يرضى بهذا الهوان ، واختزن هذا الدرس في نفسه ، فتجلى فيما بعد في حمله عيبه إصلاح الأزهر والمطف على أهله .

عوّل أن يتجه إلى الزراعة فيكون فلاحاً كسائر أهله ، وصمم على ألا يتعلم ، وصمم أبوه على أن يتعلم ، فلما أكرهه أبوه هرب إلى بلدة فيها بعض أقاربه ، وشاء القدر أن يلتقى بشيخ صوفي ، هو الشيخ درويش خضر خال أبيه ، فينقلب محمد عبده كأنه شخص آخر ، حتى كأن عصا سحرية مسّته ، وهنا يتجلى فعل المصادفات في حياة العظماء ، فلولا هرب محمد عبده إلى هذه البلدة وملاقاته لهذا الشيخ ، لكان محمد عبده المشهور هو محمد عبده المغمور الذي لا يعرفه أحد إلا ببلده ، ولكان شأنه شأن أيّ فلاح في أي بلدة لا يسجّل اسمه إلا في دفتر المواليد ودفتر الوفيات .

وشخصية الشيخ درويش من الشخصيات اللطيفة التي تظهر في بعض البيئات المصرية على قلة ، وقد شاهدت منها في حياتي شخصين . هي شخصية متصوفة تمتاز بنور البصيرة أكثر مما تمتاز بسعة العلم تعرف الدنيا وشؤونها ، وتزهد في قيمتها عن علم لا عن غباء ، وخير عبادتها ذكر الله بالقلب لا باللسان ولا بالأوراد ، تعمل في الدنيا كما يعمل أهلها ، ولكن في رفق وتسامح وميل إلى الخير . هي شخصية من أولئك الذين يرون الدنيا جسراً إلى الآخرة ، فلا بد أن يُعبّر الجسر في أمان ، يألمون لغفلة الناس وطغيان المادة عليهم وتورّطهم في المفاسد ، ويشفقون عليهم ويعملون ما أمكنهم لإيقاظهم في هواة ، يشعّ النور في قلوبهم على وجوههم ، فيكون منظرهم وتصرفهم وحركاتهم وسكناتهم منظرًا جذاباً يستدعي الحب والإعجاب . اتصل به محمد عبده فكان شخصاً آخر . ولم يكن ذلك عن عصا سحرية

ولا معجزة سماوية ، وإنما هي ظاهرة طبيعية . كان عند محمد عبده عقدة نفسية كَوْنُهَا شرح الكفراوى على الأجرومية ، فاعتقد أنه لا يفهم ولن يفهم ، فما فائدة الاستمرار ؟ وحلّ الشيخ درويش هذه العقدة بأن أعطاه كتاباً سهلاً فى المواعظ والأخلاق ، وجعله يقرأ وأخذ الشيخ يشرح ، فإذا الطالب يفهم وإذا العقدة تحل ، ويعتقد محمد عبده أن فى الإمكان أن يفهم .

ودرس آخر علّمه له الشيخ ، وهو درس « القيم » فقد كان محمد عبده كعامة الناس يرون مظاهر الحياة من مال وجاه وزينة وتفاخر وتكاثر فى أعلى القائمة ، وأن المسلم — بنطقه بالشهادتين — سيد الناس ، ولا بأس بما ارتكب ، فصيده الجنة ؛ فجاء الشيخ وتحمّل له هذه القائمة وأثبت غيرها ، وجعل القائمة الجديدة مطلعها العمل الصالح بدل المال والجاه ، وأن اسم الإسلام لا يصح أن يكون مخبأ ترتكب فيه الجرائم . فالإسلام عقيدة وعمل لا ألقاظ سيّالة تنتهى بمجرد النطق ، وأن المسلمين محاسبون على أعمالهم كغيرهم ، وأن أكثر من يُسمّون مسلمين لا يصح أن يدخلوا فى عداد المسلمين ، وأن التعاليم الفاسدة ليست من الإسلام فى شيء ، وأن أساس الإسلام وأساس العقيدة الصحيحة هو القرآن ، والقرآن وحده ، وأن خير عبادة هو تفهم معانيه .

وكان الشيخ درويش متأثراً بتعاليم السنوسية التى تتفق مع الوهابيين فى الدعوى إلى الرجوع إلى الإسلام الأول فى بساطته الأولى وتنقيته من البدع ، وذلك على أثر رحلته إلى طرّابُلُس الغرب واجتماعه بأتباع السنوسى هناك .

فى سبعة أيام تغير محمد عبده الذى يريد الزراعة والتفوق على الشبان فى ألعاب القروسية إلى محمد عبده الذى يريد الصفاء الروحية والتعلم ، ليستطيع فهم القرآن وإعداد نفسه ليَهْتَدَى ثم يَهْدَى .

فإلى الجامع الأحمدي إرضاء لوالدى وإرضاء لنفسى ، فقد اتفقت الإرادتان .

وبدأ يدرس النحو فإذا هو يفهم لأن العقدة النفسية قد زالت ، ولأنه بدأ يقرأ الكتاب الثانى فى النحو وهو شرح الشيخ خالد على الأجرومية ، وسوء الوضع جعل الكتاب الثانى أسهل من الأول ، ولعله قد رزق بشيخ خير من شيخه السابق استطاع أن يوضح له ما غمض ويبين ما أبهم .

وإذا بالشيخ محمد عبده يلتف حوله بعض زملائه ليشرح لهم الدرس قبل بدء الأستاذ ، فتعود إليه ثقته بنفسه ، ويسير على الدرب .

كانت هذه الأيام السبعة أيام حضانة تكون فيها كل ما اتجه إليه بعد من إصلاح . فاهتمامه بعد بتفسير القرآن ، وجعله أساساً لدعوته الإصلاحية ، وتنقيته للعقيدة الإسلامية مما أصابها من دخيل ، وتلون حياته بلون صوفى راق ، وزهادته فى المال ، وغيرته الشديدة على إصلاح المسلمين ، كلها غرست فى هذه الأيام السبعة ، ثم نمت وازدهرت وتعدلت وفقاً للظروف والأحوال .

* * *

تحول محمد عبده من الجامع الأحمدى إلى الجامع الأزهر ، لأن الأزهر هو المثل الأعلى للتعليم فى المعاهد الدينية .

والتعليم فى الأزهر إذ ذاك — وكما رأيناه إلى عهد قريب — يلقى عبء الطالب كله على نفسه من غير أن يحمل أحد أى عبء عنه ، فاعليه إلا أن يسجل اسمه فى دفاتر الأزهر ثم يفعل ما يشاء ، إلى أن يتقدم لامتحان العالمية ، فهو الذى يختار مدرسه ويختار علومه ويحضر أو لا يحضر ، ويمد أو يلعب ، ويفهم أو لا يفهم ، كل هذا متروك إلى نفسه ، وهو أسلوب يفيد الخاصة ويضر العامة .

يأتى الطالب من بلده فيسكن فى حجرة فى حى الأزهر ، وقد يشركه فى الحجرة طالب أو أكثر ، وفى الحجرة كل أدواته وأدواتهم : حصير مفروش على الأرض ، وصندوق فيه بعض الملابس وبعض الزاد ، و(مرتبة) ولحاف يفرشهما ليلاً

ويطويهما صبيحاً ، و « حَلَّة » يطبخ فيها بنفسه من حين لآخر في الحجرة نفسها — وقد حدث محمد عبده عن نفسه أنه غضب على كتاب فطبخ به عدساً — ومن حين لآخر يأتيه الزاد من البلد ، بعض الخبز وبعض الجبن وشيء من السمن ، فإن كان أهله في شيء من الثروة فشيء من الفطير وشيء من الدجاج المذبوح . وهذه هي دنياه .

والطالب المجد يصحو عند أذان الفجر فيصلي الصبح ويذهب إلى الأزهر ليحضر درس الفقه ويستمر الدرس إلى الضحى ، والشيخ يقرأ في الكتاب وهو مترجع على كرسى حوله الطلبة ، فإن كان عدد الطلبة قليلاً استغنى عن الكرسى وجلس على فُرْوة ؛ أما الطلبة فيتربعون على الحصير ، ومن كان منهم من أبناء الأعيان جلس كذلك على فُرْوة ، والشيخ يقرر الجملة ويشرحها ، والطلبة يسمعون ويعترضون ، والشيخ يجيب ، وأحياناً يحتدّ الشيخ فيضرب أو يلعن ، ولا ينتقل الشيخ من جملة إلى جملة إلا بعد أن يقتلها بحثاً ، وقد تضيع الساعتان أو الثلاث في سطر إذا اقتضى الحال ، فإذا ختم الشيخ درس الفقه بقوله : « والله أعلم » انصرف الطلبة يبحثون عن « فطورهم » فمن كان منهم له « جِراية » — وهي رغيفان إلى خمسة — تسلمها من رواقه وخرج إلى محيط الأزهر ، حيث دكاكين الفول المدمس والطعمية ، فاشترى منها ما شاء ، وإن كان طالباً متقدماً بعث طالباً صغيراً يقوم عنه بهذا العمل ، وإن كان فقيراً باع رغيفين أو أكثر من الجراية ، ليشتري بثمرها إداماً ، وإن كان مُتَرَفّاً استعاض عن الفول بالجبن والزيتون والحلاوة الطحينية في بعض الأيام ، وإذا ذاك ترى الأزهر كله مائدة للطعام ، حلقات حلقات ، وعُدّة هذا فطوراً وغداءً معا .

فإذا انتهى الطلبة من هذا جلس المجدّون يطالعون درس النحو القادم ، فإذا فرغوا منه كان الظهر قد أذن ، فتقام الصلاة ويبدأ درس النحو على نحو

درس الفقه ، فيمتدّ ساعات وقد يصل إلى العصر .

وبعد استراحة الطالب يُعَدّ درس الفقه القادم ، وينتهي بذلك يومه العلمى فيعود إلى بيته ، وإن احتاج إلى ضوء فصباح يشتعل بالجاز بواسطة فتيل من غير زجاج ، ولا بأس بدُخانهِ . وإذا اشترك جماعة في حجرة وكانوا فقراء تقاسموا ثمن الجاز ، كلٌّ عليه ليلة أو أسبوع ، وقد حدّث « الهلباوى » أنه تنازع مع زميله على ثمن الجاز لأنه لم يشأ أن يدفع نصيبه .

ويتدرّج الطالب في الكتب ، كل سنة كتاب في الفقه وكتاب في النحو ، إلا إذا طال الكتاب فيقرأ في أكثر من سنة ، ولكل كتاب — تقريباً — متن هو الأصل ، وشرح يشرح المتن ، وحاشية تشرح الشرح ، وقد يكون هناك تقرير يشرح الحاشية ، والشيخ يطالع كل هذا استعداداً لما يطره الطلبة عليه من الأسئلة ، فيبدأ الشيخ بقراءة المتن ويشرحه بجميع ما كتب عليه مناقشاً مهاجماً مدافعاً حتى تنتهى المعركة بانهاء الدرس .

وإذا انتهت كتب الفقه حل محلها كتب أصول الفقه ، وإذا انتهت كتب النحو حل محلها كتب البلاغة .

وعلى هامش هذه الأوقات قد يحضر الطالب المتقدم دروساً صباحية بعد صلاة الفجر مباشرة ، أو دروساً مساءً بعد المغرب في علوم أخرى كال تفسير والحديث والمنطق .

وليس بالنادر أن نسمع صبيحة تقوم في الدرس أو قبله أو بعده لاختلاف طالبين على مكان في الحلقة أو نحو ذلك ، فيتضاربان ، ويتعصب أهل الصعيد للصعيدى . وأهل البحيرة للبحراوى ، فتكون معركة حامية يتدخل فيها جنود الأزهر المسمّون بالمُشدّين .

فإذا سررت بصحن الأزهر رأيت حُصراً مفروشة نُشر عليها خبز مما أرسله

أهل المجاورين^(١) إليهم ليتجفّف في الشمس خوف العَنَن .
ورأيت ثياباً منشورة ومياهاً مصبوبة إلخ . وفي الدروس ترى مريضاً
بجانب صحيح وقديراً بجانب نظيف ، ولم يفكر أحد في إشراف طبيب .
وقلّ أن تسمع مدرّساً تعرّض في درسه لمسألة خلقية ، أو حتّى على فضيلة
أو حذر من رذيلة .

كل الكتب التي تدرس في الأزهر من نتاج العصور المتأخرة ، تحدّرت
من العصور الزاهية ، ولكن عدا الزمان عليها فأفقدتها رُوحها فصارت شكلاً ،
النحو كان يراد منه النطق الصحيح والكتابة الصحيحة وفهم كتب الأدب
فهماً صحيحاً ، فصار مجرد تفهم لألفاظ المؤلفين في النحو . وأصول الفقه كان
يقصد منها التمرين على الاجتهاد في التشريع ، فأصبحت ولا اجتهاد ولا تشريع ،
والبلاغة كان يُقصد منها كيف يكتب القول البليغ ، فصار المؤلفون فيها أعاجم
لا يحسنون التعبير كالسعد التفتازاني ، حتى أباح لنفسه الشيخ أحمد الرفاعي أن
يدرّس أكبر كتاب في البلاغة وهو المطوّل ، ثم يعترف أنه لا يحسن أن يكتب
رسالة ، ولو غير بليغة ، لأن هذا من عمل تلاميذ المدارس المديّنة .

واشتهر من فطاحل العلماء في هذا العصر : الشيخ أحمد الرفاعي هذا ، وأساس
شهرة أنه يحسن فهم الكتب ويستطيع تحليل الجمل وإثارة الشبهات حولها حتى
يعقد السهل ويغمّض الواضح . والشيخ عليش ، وهو شيخ من أصل مغربي ، شهرته
في تدينه وعصبيته ورميه الناس بالكفر لأوهي سبب ، وضيق أفقه وشدة غيظه
على الدين بالمعنى الذي يفهمه . ولكن كان هناك آخرون هيأتهم الظروف لأن
يتصلوا بالدنيا وحركة التعليم المدنية ، فأتسع أفقهم ، كالشيخ البسيوني إمام المعية ،

(١) المجاورون : من يسكنون الأماكن المقدسة ، ويمتكنفون في المساجد ، وقد غلبت
هذه الصفة على طلاب الأزهر في العهود الماضية .

وكان ظريفاً في شكله وفي ملبسه وفي تأليفه؛ والشيخ حسن الطويل، وكان ذكياً حكيماً له نظرات في الحياة صائبة، يقرأ الفلسفة فيزني بالزندقة.

هذا هو الأزهر الذي رآه محمد عبده. يقوم التعليم فيه على الفلسفة اللفظية، ويعلم طالبه الدقة في الفهم والقدرة على الجدل؛ وهذه محمّدة، ولكن مع الأسف لا تستخدم هذه الدقة ولا الجدل إلا في الألفاظ، وتجعل صاحبها غارقاً في الاحتمالات بما يراه في الحواشي والشروح من التأويلات، فكل شيء يجوز حتى دخول الجمل في البندقة — على حد تعبير الشيخ محمد عبده نفسه — يتم الطالب الدراسة فيه فيخرج فاهماً لبضعة كتب، أما الدنيا وشؤونها فإنه يجهلها كل الجهل، فلا جغرافية ولا تاريخ ولا طبيعة ولا كيمياء ولا رياضة، فكل هذه علوم أهل الدنيا، وما للآخرة والدنيا! ومع هذا فالنزاع على الجراية كثير، وعلى الوظائف الصغيرة أكثر. كل شيء خارج عن المؤلف كفر أو حرام أو مكروه؛ فتحويل «المباعدة» القدرية إلى حنفيات حرام، وذهاب للبركة! وقراءة كتب في الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام، ولبس «الجزمة» بدعة.

فإن تحركت نفس صالحة للإصلاح خفقت دعوتها في مهدها ورُميت بالزندقة ومثل هذه البيئة تنتج عقولاً جامدة ونفوساً خامدة، إلا أن يتداركها الله بمدد من الخارج. وقد ذكر الشيخ محمد عبده نفسه أنه حاول أن يغسل أثر هذه البيئة فنجح في بعض وأخفق في بعض. فإن رأيت نابغة خرج منها فبرغها لا بفضلها. ومن الأسف أن ولادة الأمور من أول الأمر، مع علمهم بنقص الأزهر وحاجته إلى الإصلاح — خوفاً من العلماء والرأي العام — تركوه وشأنه يأكل بعضه، وأنشأوا بجانب المدارس المدنية يشكّلونها كيفما يشاءون.

في هذا الجو عاش صاحبنا نحو اثني عشر عاماً ، من سنة ١٧٨٢ — ١٢٩٤
حيث نال شهادة العالمية من الأزهر .

وفي هذا الجو المظلم كانت تلعب ثلاثة نجوم أضواء جوانب نفسه : الشيخ
درويش ، والشيخ حسن الطويل ، والسيد جمال الدين .

فالشيخ درویش كان يلقاه الشيخ محمد عبده في بلده في الإجازة من نصف
شعبان إلى نصف شوال كل عام ، فيتم له ما بدأه منذ لقّنه الدرس الأول في
التصوف وتنقية العقيدة ، ويعرض عليه الشيخ محمد عبده ما درسه في العام وما في
نفسه من أزمات ، فيتلقى ملاحظات الشيخ وإرشاده ؛ وقد لقّنه درسين جديدين
هامين : الأول نقده الشيخ محمد عبده لعزلته وعدم اتصاله بالناس ، وقصر عنايته
على تكميل نفسه من غير اتجاه إلى إصلاح من حوله ؛ ولم يكتف الشيخ درویش
في ذلك بالكلام النظري ، بل حمله على أن يغشى المجتمعات في البلد معه ،
ويتحدث إلى الناس ويعظمهم ويدكرهم ، ويدعو محمد عبده للتحدث معهم كحديثه
ونصحهم كنصحه ؛ وهو درس انتفع به محمد عبده ونفّذه طول حياته إلى نفسه
الأخير ؛ فإن زاد السيد جمال الدين شيئاً في هذا الدرس فهو تعليمه كيف يختار
موضوعات الكلام في الإصلاح . والدرس الثاني الذي علمه له الشيخ درویش
هو هدمه للنظرية الأزهرية التي تقول إن هناك علوماً تعلم وعلوماً لا تعلم ، فكسر
الشيخ درویش هذه الحدود ، وقرر أن كل العلوم يجب أن تعلم ، ويجب أن يطلبها
الطالب ما أمكن ، ولا يستثنى من ذلك شيئاً ، إلا ما يتخذ شكل العلم وليس بعلم
كالسحر والشعوذة . أما المنطق والفلسفة والرياضيات ، وما إلى ذلك فليست بحرام ،
بل هي واجبة على طالب العلم . ومن أجل ذلك عاد الشيخ محمد عبده إلى الأزهر
يطلبها فوجدها عند الشيخ حسن الطويل ، وهو شخصية غريبة ؛ ذكاء حاد ،
ومعرفة بالرياضيات حتى كان يحلّ لطلبة دار العلوم ما أشكل عليهم من تمرينات

هندسية ، واتصال بكتب الفلسفة القديمة ، وعلم بمصطلحاتها ، ومعرفة بالدنيا وبالسياسة ، وشجاعة في الكلام بما يعتقد ولو حُرِمَ منصبه في دار العلوم ، وزُهِد في الدنيا حتى لا يهتم منها شيء ، يلبس قفطاناً من « البفتة » وجبة من « البفتة » أيضاً ، ويقال له : إن عليّ مبارك باشا سيزور دار العلوم غداً . فيعزم أن يلبس كما يلبس كل يوم ، فيُنصَح له بأن يتخذ شيئاً من الأناقة ، فيقول : إذا أبعث بحجة من الصوف وقفطان من الحرير إلى دار العلوم ، أما إن أردتم « حسن الطويل » فهو هو في ملبسه . ويدعى إلى موائد الأغنياء للإفطار في رمضان فيأكل كل من طبق الفول ويَزْهَد فيما عداه ، ويُطْرَد من دار العلوم لكلامه في السياسة ، فينشق عليه صاحب مُقَهِّى بلدى ، فإذا عاد إلى عمله سلعه الشيخ حسن الطويل مرتبه ليصرف على يتيهما كما كان يفعل وهو مطرود . ويدرس في الأزهر الفلسفة والمنطق فيحضر دروسه نخبة من الطلبة مثل محمد عبده ، فيُزَمِّي هو وتلاميذه بالزندقة . ولكن دروس الشيخ الطويل تفتح شهية الشيخ محمد عبده ولا تغذيه ، فيجد الغذاء الكافي عند السيد جمال الدين وقت حضوره إلى مصر ، فيتصل به ويلازمه ، وتفتح له آفاق كانت مغلقة ، ويحسن أنه وجد طَلَبَتَه .

* * *

كان السيد جمال الدين الأفغانى شعلة ذكاء ، وقوة هائلة ، متحركة محرّكة ، لا يمسه ماسّ إلا شُجِنَ من كهربائه على قدر استعدادده ؛ دائم التفكير ، دائم القول لمن يفهم ومن لا يفهم ، دائم النقد ، دافع للحركة والثورة والهيجان في المطالبة بالحقوق ، حيثما حل رأيت نارا تشتعل وأفكاراً تهيج ، ومطالب تُطلب ، وحكومة تضطرب — قد حدد غرضه في الحياة ، ووهب نفسه للوصول إليه ، وهو إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها ، وتبصرة شعوبها بحقوقها ، ورفع نير

الأجنبي عنها ، وتحديد مركز الحاكم والمحكوم فيها ، وربط هذه الدول كلها برباط واحد مع الخلافة في الأستانة .

ووسيلته في ذلك تنوير عقول الخاصة من أبناء كل دولة حتى يعرفوا مركزهم وإعدادهم لمهاجمة الغاصبين من الأجانب والمستبدين من الحكام ، ثم هؤلاء يعملون لتكوين الرأي العام بكتابة المقالات في الجرائد والمجلات والخطب في المحافل ، والأحاديث في المجالس ؛ وكلما كانت المقالات والخطب أحرّ ناراً وأجهرَ بالرأى وأصرَحَ في الدعوة إلى العمل كانت أجودَ وأنسب . هذه خطته في كل بلد يَحِلُّه .

اتصل به في مصر محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبراهيم اللقاني ، وإبراهيم الهلباوى . كما اتصل به في مجالسه الخاصة محمود سامى البارودى ، وإبراهيم المويلحى ، وأديب إسحق وغيرهم . كان له درس علم في بيته ، ودروس سياسة واجتماع في مُقْهَاه الذى يجلس فيه ، وحيث يكون زائراً أو مزموراً .

وكان أقربهم إلى نفسه محمد عبده ؛ قرأ فيه « السيد » الذكاء وحسن الاستعداد وطيب القلب والحماسة للإصلاح ، وقرأ محمد عبده في أستاذه سعة العقل ، وصحة الإرشاد ، والسمو في النفس ، ونبل الغرض ، وشيئا جديداً لم يره في الأزهر .

لم تكن الكتب التى قرأها عليه محمد عبده ذات قيمة في نفسها ، فهى من جنس ما كان يقرؤه على الشيخ حسن الطويل ، ولكن العبرة ليست بالكتاب وإنما هى بشارح الكتاب ، والعالم الماهر يستطيع أن يصب كل تعاليمه أثناء كلامه على نملة أو نحلة ، وأى جملة في نظره يستطيع أن ينفذ منها إلى العالم الفسيح .

استفاد محمد عبده من السيد بصرأً بالدنيا التى حجبها الأزهر ، وتحولاً من تصرف خيالى إلى تصوف فلسفى عملى ، ورغبة صادقة في العمل للأمة ، وشوقاً إلى الإصلاح الدينى والخلقى والاجتماعى ؛ وميلاً مُلِحاً إلى إجادة قلمه حتى يتصل

بالرأى العام من طريق الكتابة فى الصحف .

وأحسن الشيخان وحدة الغرض والانسجام فتلازما وتحاباً ؛ يحب محمد عبده أستاذه حب إجلال ، ويحب الأستاذ تلميذه الكبير حب رعاية وأمل فى استخلافه . ووثق الصلة بينهما اشتراكهما فى الإباء والسمو والعظمة ، إذ يترفعان عن الناس فى غير كبر ، ويستصغرانهم فى عطف من غير احتقار . يقول محمد عبده : « إن أبى وهبنى حياة يشاركنى فيها على ومحروس (وهما أخوان له كانا مزارعين) والسيد جمال الدين وهبنى حياة أشارك فيها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، والأولياء والقديسين » .

نال الشيخ محمد عبده شهادة العالمية من الأزهر ، فلم يكن كغيره مثل ساقية « جُحا » ، تملأ من البحر وتصب فى البحر ، بل علم فى الأزهر ، وعلم فى دار العلوم ، ومدرسة الألسن ، واتصل بالحياة العامة .

* * *

لم يعلم فى الأزهر النحو والفقه كما كان يفعل غيره من المشايخ وخاصة المبتدئين بالتدريس ، فالنحو والفقه — كما يدرسان فى الأزهر — من العلوم النقلية ، وهو يريد أن يربى العقل ، ويفهم الكون ، ويهذب الخلق . كان يقرأ فى الأزهر أو ملحقاته درساً فى المنطق والفلسفة والتوحيد ، وكان يقرأ فى بيته لبعض الطلبة تهذيب الأخلاق لمسكويه ، وأعجب له يقرأ لهم أيضاً « تاريخ المدنية فى أوربة وفرنسا » لمؤلفه الفرنسى « فرانسوا جيزو » الذى عربه « حنين نعمة الله خورى » وسماه « التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوربية » .

وعين مدرسا للتاريخ فى دار العلوم ، فلم يقرأ لهم ملخصاً من ابن الأثير والطبرى ، وإنما قرأ لهم مقدمة ابن خلدون ، وألف لهم كتاباً فى « علم الاجتماع والعمران » فقد ولم يُعثر عليه .

واتصل بالجرائد — وخاصة الأهرام — يكتب فيها مقالات في الإصلاح الخلقى والاجتماعى .

كانت مصر في آخر عهد إسماعيل هائجة مأثجة ، إذ وقعت في الدين ، فكان هذا أوربة من التدخل في الشئون المصرية ، ومراقبة مالياتها . فأنشئ صندوق الدين والمراقبة الثنائية سنة ١٨٧٦ م = ١٢٩٣ هـ وتغلغلت سلطتها في المصالح الحكومية باسم الدين . ومن الناحية الداخلية كان الوعى القومى ضعيفاً ، لا يرى الناس لهم رأياً يصح أن يُبدوه ، وليس لهم أن ينقدوا عمل الحاكم ، فما على الحاكم إلا أن يأمر ، وما على المحكوم إلا أن يطيع ؛ فكانت هذه الأمور كلها مدعاة لأولى رأى في الأمة أن ينهضوا بالصحافة ويشيعوها بين رأى العام ويقووها ؛ وتعاون على إنهاضها الخديو إسماعيل والسيد جمال الدين الأفغانى ورياض باشا ، فأما الخديو إسماعيل فرأى من مصلحته ومصلحة الأمة أن تكون الجرائد حرة في نقد التدخل الأوربى ، أما إذا نقد هو شخصياً فالعقوبة الشديدة ، كما حدث لصاحب جريدة الأهرام لما أشار إلى مال صُرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكما نُفي يعقوب صنتوع صاحب جريدة « أبو نضارة » لانتقاده أعماله .

وأما رياض باشا فكان ذا رغبة إصلاحية في تنظيم الشئون المالية وتهذيب للعقول وتشجيع الآداب ، وكان مدركاً الخطر الذى يهدد البلاد ، فلعل في الجرائد وحريتها ونقدها وتنبيه الشعور القومى ما يدفع هذا الخطر ، ولهذا شجع السيد جمال الدين وحزبه على الكتابة .

وأما السيد جمال الدين فنثر على سوء الحال في مصر وجود الناس وبرودتهم إزاء ما يكتنفهم ، فهو يريد أن يشعلها ناراً ، ولا أصلح لذلك من الجرائد . ولعل دروسه في الفلسفة لم تكن إلا ستاراً لبث روح الثورة وإعداد طائفة من الشبان يتصلون بالصحافة ويكتبون .

رَبِّي على هذا طائفة من الشباب الذين ذكرنا .

فبعد اتصال محمد عبده بالسيد بدأ يكتب في الأهرام في السنة الأولى من صدورها سنة ١٨٧٦ ، وكان مجاوراً ، قبل أن ينال شهادة العالمية ، فكتب مقالا في « الكتاب والقلم » وآخر في « المدبر الإنساني والمدبر العقلي الروحاني » وثالثا في « العلوم العقلية والدعوة إلى العلوم العصرية » إلخ ، وهي مقالات تدل على تأثيره بالكتب الفلسفية الشرقية التي درسها ، وعلى رغبته الخيرة في الإصلاح ، وعلى ما يبشر بالخير منه ، أكثر مما تدل على أسلوب قوي وبلاغة ممتازة .

ثم اتصل بالصحافة اتصالا قويا بعد أن نال شهادة العالمية ، وبعد أن نزل الخديو إسماعيل عن عرشه ، وتولى توفيق ، ونفى أستاذه جمال الدين ، وتولى رئاسة النظار رياض باشا فجاء في تنظيم شئون الدولة من مالية وأشغال ومعارف ، وكان له ميل قوي إلى تشجيع الحركة الأدبية ، فشجع بطرس البستاني على إخراج دائرة المعارف ، وكان واسطة في أن يمنحه الخديو إسماعيل منحة مالية وعلمية ، وشجع أصحاب مجلة المقتطف على نشرها ، وشجع شبلي شميل صاحب مجلة الشفاء ؛ ولما سمع بعزمه على السفر لدراسة الأساليب الحديثة لمرض السل أعانه إعانة مالية على ذلك .

واتجه — فيما اتجه — إلى إصلاح « الوقائع المصرية » واختار الشيخ محمد عبده لهذا الإصلاح ، فضم محمد عبده إليه سعد زغلول ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وإبراهيم الهلباوى ، والشيخ محمد خليل ، والسيد وفا . وكان من وسائل إصلاحهم إنشاء قسم في الوقائع غير رسمي بجانب الأخبار الرسمية ، تحرر فيه مقالات أدبية اجتماعية إصلاحية ، وكان الشيخ محمد عبده هو المحرر الأول .

مكث الشيخ محمد عبده في هذا العمل نحو ثمانية عشر شهراً . وفي الحق أنه برهن فيها على شخصية قوية ، فجعل من هذا العمل العادى رقابة على المصالح

الحكومية ومنبراً للدعوة إلى الإصلاح ، فاستصدر قراراً بلائحة تجعل جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى ملزمة أن تكتب إلى إدارة المطبوعات بجميع ما لديها من الأعمال الهامة التي تنوى عملها ، والمحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها — وتبيح لإدارة المطبوعات حق النقد لأى عمل من الأعمال حتى وزارة الداخلية التي يتولاها رياض باشا والتي تُعَدُّ إدارة المطبوعات تابعة لها ، وأن تسأل كل مصلحة عن حقيقة ما وجه إليها من نقد في الجرائد العربية والإفريقية . وعلى المجلة جعلها أداة إشراف على الحكومة وعلى ما ينشر في الجرائد العربية من حيث لغتها وموضوعها ، وعلى الجرائد الأجنبية من حيث نقدها . وقد وافق هذا هوامى في نفس رياض ، لأنه يمكنه من ضبط الأمور والإشراف على الجرائد . وقد كتب الشيخ في هذا العهد مقالات كثيرة أهمها في نقد نظارة المعارف ، وكان من أثر ذلك إنشاء المجلس الأعلى لها واختياره عضواً فيه ، ونقد لبعض الأخلاق والعادات الاجتماعية والدينية ، وتوضيح لنظام الشورى وما يصلح منه في مصر ، وأحياناً — تصريحاً أو تلميحاً — في تأييد لوزارة رياض باشا ومدحها .

والواقع أن وزارة رياض باشا قسّمت البلاد قسمين :

مؤيد ومعارض ، والمعارض معارض بالحق وبالباطل .

كان رياض يريد الخير لمصر ولكن من طريق التدرّج ، ويعتقد أن المصريين في حالة تدعو إلى الإشفاق والأخذ بيدهم في هوادة ، وهو في هذا قوى جبار ينفذ ما يريد في عنف ، له لازمة وهي « هيه » إذا قالها رعب من حوله ، لا يعبأ إذا اقتنع بشيء من إصلاح أو بشخص من الأشخاص أن ينفذه ويؤيده مهما كانت النتائج . وإلى ذلك يعتقد في الأجانب من إنجليز وفرنسيين القوة ويسألهم ، ويرى الطريق الوحيد هو التفاهم معهم .

فتألبت عليه الجموع ؛ منهم من كرهه لصلفه ، ومنهم من كرهه لعدله في إبطال

الشُّخْرة والضرب بالكرباج ، ومنهم من كرهه لسيرته مع الأجانب ، حتى سموه « رياضستون » على وزن « جلادستون » ، ومنهم الطُّمُوح الذي كرهه لرجعيته . وشعر الناس بغضب الخديو توفيق عليه لأنه يعارضه في بعض أغراضه وتصرفاته ، فشجعهم هذا على محاربته ، وتخصّصت جرائد لتجريحه وسبّه ، مع أنه كان مؤيدها من قبل أو خالقها .

هنا بُذرت بذرة الثورة العراقية ، وفي هذه الظروف كان الشيخ محمد عبده على رأس الوقائع وإدارة المطبوعات ، فكان يهاجم لأنه من أتباع رياض ، وكان هو نفسه يشعر بالحرية التامة في نقد الشُّئون الاجتماعية والعادات الدينية ، لكنه يشعر ببعض القيود فيما يمسّ المسائل السياسية ، إما اعترافاً بحميل رياض عليه وعلى أستاذه ، وإما نزولاً على مقتضيات الوظيفة ، وإما اعتقاداً بمذهب رياض في التدرج ، وإما كلها مجتمعة .
حتى كانت الثورة العراقية .

* * *

يكاد يكون في كل جماعة نوعان من القادة : نوع طُمُوح يريد القفز إلى الأمام ولا يرضيه السير البطيء ، ولا التفكير الهادئ ، ونوع يرى الخير في الهدوء والسير في معالجة الأمور برفق ، والإيمان بقانون السبب والسبب ، فإن أردت النتيجة فكون مقدماتها ؛ وهذا الميل إلى هذا أو ذاك يتبع المزاج الشخصي — أولاً — والتربية والظروف — ثانياً — فمن الناس من خلق هادئ المزاج يُصغى إلى حكم العقل ، ومنهم من خلق ناري المزاج يُحكّم بعواطفه ويحكمها ؛ وهذان النوعان يسميان أسماء مختلفة باختلاف الأمم والأزمنة : أحرار ومحافظون — اشتراكيون وغير اشتراكيين — أحزاب اليمين وأحزاب اليسار إلخ . والمعنى واحد وإن تعددت الأسماء .

وكان في مصر في أول عهد الخديو توفيق بالطبيعة هذان المزاجان — أوهاتان النزعتان — كلاهما يتفق مع الآخر في وصف سوء الحال : الفلاح بائس وشقيّ وجاهل ومظلوم ، ومصر كلها شقية بما جر عليها الدين من تدخل الأجنبيّ ، وخاصة الإنجليز والفرنسيين ، في شئوننا حتى تفاصيلها ، وشقية بأداتها الحكومية من انتشار الرشوة والمحسوبية وتفضيل العنصر الشركسي والتركيّ على المصريّ ، وشقية بأن سواد الشعب ضعيفُ الوعي ، مستكين للظلم ، لا يرفع صوتاً من أى جور يناله ، ولا يفهم أن له حقاً يطالب به — كل الأطباء من الفريقين متفقون على تشخيص المرض ، فإذا هم أخذوا في وصف العلاج اختلفوا .

فأما فريق المحافظين فيرون بَرنامَجَ العلاج — أولاً — نشر التعاليم الصحيح بين أفراد الشعب ، على أن يكون من أهم ما يشمله تفهيم الناس الحقوق والواجبات . ثانياً — استخدام الصحافة استخداماً قوياً في محاربة المفسد وتنبية الوعي القوميّ . ثالثاً — الاجتهاد في أن يكون رئيس الحكومة حازماً عادلاً ينفذ الإصلاح المعتدل المنشود في قوة . رابعاً — التدرج في الحكم النيابي بالتوسع في سلطة مجالس المديرية — مثلاً — تبعاً للوعي القوميّ ، فإن رقى هذا الوعي بالتربية والتعليم نما المجلس النيابي تبعاً له حتى يصبح بعد سنوات والوعي القوميّ قوى ، والمجلس النيابي قويّ ، ولا فائدة من مجلس نيابي يوضع وضعاً قوياً ما لم تُسند له الأمة والرأى العام ؛ ولا يمكن ذلك الآن والأمة في حالة قلّ أن نجد فيها معارضاً قوياً يجرؤ على نقد الحكومة . وكان من هذا الرأى محمد عبده ، وسعد زغلول ، ومن لفّ لفهما ، وبهذا دَعَوْا فيما كانوا يحررون في الوقائع المصرية ، وفيما كانوا يقولون ويخطبون . وكانوا يَرَوْن في رياض باشا — وهو على رأس الحكومة — المحقق لهذا الغرض ، فهو عدل نزيه حازم مَيّال للخير محبّ للإصلاح قابل للنصيحة لو جاءت ممن يثق به — على الرغم من عيوبه الأخرى .

أما الطائفة الأخرى فكانت نواتها أفراداً تعلموا في أوربة لا من طريق البعثة ، وعاشوا فيها زمناً طويلاً ، ورأوا نظمها ولسوا حرية أفرادها ، وأعجبوا بحرية سياستها في نقد الحكومة وأعمالها ، وعادوا إلى مصر فتقزّزوا من حالها ونظامها ، فدعوا في مجالسهم وجرائدهم إلى إصلاح وثاب . أو أفراداً تعلموا على الأنماط الأوربية ، وتثقفوا ثقافتها ، وهؤلاء يريدون حرية شخصية للفرد في أعماله وعقائده ، ولا يسمحون للحكومة أن تتدخل فيها ما لم يقع العمل تحت سلطة القانون ؛ وحرية سياسية تامة في نقد الحكومة وأعمالها ، وأهم ما في هذا الباب إنشاء مجلس نيابي مستقل على النظام الإنجليزي أو الفرنسي ، له الإشراف العام على الحكومة ، وهي مسئولة أمامه لا أمام الخديو . وكان على هذا الرأي بعض المصريين ، وبعض الجالية السورية .

وتجادل الفريقان في هذه المبادئ أيما جدال ؛ وهذا ما يفسر كل ما صدر من الشيخ محمد عبده في مقالاته في الوقائع وغيرها ، فهو يُعنى فيها بأمر التربية والتعليم ، ويلح في إصلاحهما ، وينال من ذلك بعض غرضه ، وينقد العادات السيئة ، ويدعو إلى التخلص منها ، ويدعو إلى احترام القوانين وإطاعتها . ومن ناحية أخرى يكتب مقالةً عنوانه « خطأ العقلاء » يهاجم فيه الفريق الآخر ، في دعوته إلى الحرية الشخصية ، والحرية الاجتماعية ، في الحرية الشخصية يرى أنها ضارة ما لم تدعم بالتربية وإلا سقط الناس في الخمر والقيار وهتك الحرمات ، وجاهروا بالإلحاد ، بل نراه يفضل « الكبسة » على الحرية الشخصية من غير تربية ، والكبسة عادة كانت جارية ، وهي أن يهجم رجال الضبط على بعض الأماكن المشبوهة ليلاً ليقبضوا على من يُظن فيهم الاجتماع لخم أو فجور ؛ فيقول : « فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الأنفس والأموال وشناعة الصورة ، لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل ، إلى زمن تتقدم فيه التربية ، فيكون لكل شخص

زاجر من نفسه فترتفع الكبسة بذاتها . وكذلك رأيه في الحرية السياسية ، يرى أن يبدأ بإصلاح المجالس البلدية وتعويد الأهالي السير عليها قبل مجلس نيابي منقول نظامه عن أوربة . ثم يستمر متمسكا بهذا الرأي حين يقول : « إنما ينهض بالشرق مستبدّ عادل » ردّا على من يرى أنه إنما ينهض بالشرق حكم نيابي شامل ، ويرى في هذا المقال أن هذا المستبدّ العادل يستطيع أن يفعل في خمسة عشر عاماً الأعاجيب ، وينقل الأمة خطوة واسعة إلى الأمام .

ويرى الفريق الآخر أن الحرية الشخصية حق طبيعي للإنسان لا يصحّ أن يهدر لأى سبب ، ومثّل من يقول بالقضاء عليها لسوء استعمالها كمن يريد إبطال السكك الحديدية لأن القطار يقتل بعض الأفراد ، والعفة التي تحتاج إلى حارس أقل قيمة من أن يحرّمها حارس .

وأما الحرية السياسية فلا بد منها لمعالجة ما أصاب البلاد من الاستبداد ، والمستبدّ العادل إذا ظفرت به أمة أعقبه في الأعم الأغلب مستبدون ظلمة ، فلا يصلح إلا أن يكون علاجاً مؤقتاً ، والحكم النيابي هو الأمل الوحيد في الإصلاح ، فإن كان الناس لم يتعودوه فليتعودوه ، ولا بأس من مضيّ قليل من الوقت حتى يألفه الناس ويسيروا عليه .

وكان من السنة هذه الدعوة شابّ سوري اسمه أديب إسحق . كان ذكياً كاتباً شاعراً خطيباً مثقفاً ثقافة واسعة ، مطلعاً على شئون العالم الأوربي وتاريخه ، يجيد العربية والفرنسية والتركية ، مطلعاً على آدابها ؛ وأسلوبه في الكتابة أقوى من أسلوب الشيخ محمد عبده وصحبه يوم كانوا يحرّرون في الوقائع ؛ تتلمذ أيضاً للسيد جمال الدين في مصر ، وتشرب من روحه ، وكان متأثراً تأثراً كبيراً بالعقيدة الفرنسية ، على حين كان الشيخ محمد عبده متأثراً بالعقيدة الأزهرية والشرقية ،

وحتى في سيرته الشخصية كان مسرفاً على نفسه ، على حين كان الشيخ محمد عبده متديناً ورعاً .

كان لأديب إسحق هذا جريدتان يحرر فيهما ، وهما : « مصر » و « التجارة » ، وكان شعلة ملتهبة يعيش عيشة عنيفة على حساب أعصابه ، فكان يهاجم الاستبداد ويطالب بالحكم النيابي في أكل صورته . يقول : لقد عرف الناس الآن شُرور الاستبداد ، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضا به ، وصار الأمر شُورى عند جميع الدول المتقدمة إلا روسيا ، وذلك إن صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متقدمة . إن ثورة فرنسا برزت إلى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقليد فضعضعتها ، ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها ، فأنتست من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلايب الرق والعبودية ، فتصدى لها أعوان الرق وأنصار العبودية ، وما ألوا^(١) في قتالها جهداً ، فلقيتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة ، والحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ، ورسخت في عالم الوجود قدمها ، وأدهشت الدنيا بشدة حوّلها « إلخ . ويهاجم رياض باشا وصحبه في مذهبهم ، وينتعى عليهم اعتقادهم في ضعف المدارك المصرية ويقول : « زرت رياض باشا على عهد الوزارة الأجنبية في ديوان الداخلية ، فقابلته خارجاً من الغرفة فجلسنا على مقعد الباب ، فقال : كيف ترون الحال ؟ قلت : رأى الوزير أوسع . قال : وما الذي يبلغكم من أخبار الريف ؟ قلت : إن الناس أمثلوا كثيراً ولم ينالوا شيئاً ، فأوشكوا أن يعودوا إلى اليأس بعد الرجاء ، والوزير يعلم أن النكسة شر من الداء . فقال بازدرأه : فليرجعوا إلى حالة الخسف ويعانوا عذاب الظلم . قلت : إنهم لا يرومون ذلك ، ولكن يرومون نيل الحرية وتأبيد الكلمة الوطنية . فقال متهمكاً : ألا يرجون مجلس النواب ؟ قلت : لا بدع

(١) ما ألوا ، أى : ما قصروا .

أن يُطلب الشيء من معدنه . فقال : أى معدن فى مثل هذا المجلس ؟ وكيف يرجي له البقاء ، وليس فى مصر من يعلم شيئاً من الأحوال السياسية الدولية ليصلح أن يكون نائباً ؟ قلت : إن صح هذا رأى فلا يقضى بحرمان البلاد من نعمة الشورى ، فإن النواب المصريين يستطيعون النظر فى أمورهم الداخلية وأحوالهم الزراعية ، وما يترتب عليه نفع البلاد ليستجلبوه ، وما ينشأ عنه الضرر ليجتنبوه ، وهم بذلك أحق من غيرهم ، فإن صاحب البيت بالذى فيه أدرى . فهمم بكلام لا يفهم ، وانصرفت .

وكان يكثر الكلام فى الوطن والوطنية ، والحقوق والواجبات ، والدستور ، وغير ذلك من الموضوعات الملونة بالثقافة الفرنسية ، مع الاجتهاد فى وضع مصطلحات عربية موقفة .

وكان زعيم أديب إسحق وصحبه هو شريف باشا ؛ إذ كان شريف — كما صورته الشيخ محمد عبده — « من أقوى عوامل النهضة التى انقلبت إلى فتنة . كان من القائلين بأن النفوذ الأجنبي قد بلغ حدًا لم يكن يمكن أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للأجانب فى كل ما يطلبون . وكان يُقنع جلساءه أنه إذا حَكَم أوقف الأجانب عند حدودهم وسار بالوطن شوطاً عظيماً فى مجده » وكانت سياسته إنشاء مجلس النواب فى صورة قوية « وأخذ الناس يقولون : لا صلاح فى الاستبداد بالرأى وإن خلصت النيات ، فرأى واحدٍ عرضة للخطأ وإن تحققت نزاهته من الغرض » .

وكان هؤلاء ينظرون إلى محمد عبده وصحبه وعلى رأسهم رياض على أنهم حزب رجعى ؛ ويظهر أنه لم يكن رجعيًا ، وإنما كان حزباً مصلحاً محافظاً ، يرى التؤدة ولا يرى الطفرة .

وقد أغلق رياض جريدتى « أديب إسحق » ونفاه . ولما ألف شريف مجلس

النواب استدعاه وعينه رئيساً لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف ، ثم سكرتيراً في مجلس النواب ، ثم مات شاباً في التاسعة والعشرين من عمره .
ومع الأسف لم يكن مصدر الثورة هذا الحزب الذي يطالب بالمجلس النيابي والحرية الشخصية ، ولو كان لا تتخذ الثورة وضعاً آخر ، ولُنظِرَ إليها على أنها ثورة من الأمة لتحقيق العدل . إنما بدأت الثورة من الحزب العسكري وعلى رأسه عرابي ، يطالبون بتحقيق المساواة بين الضباط المصريين والضباط الشرقيين ، ولكن اتسعت الثورة رويداً رويداً ، وزادت مطالب عرابي باشا شيئاً فشيئاً ، فتزعم — أيضاً — الوطنيين وطلّاب المجلس النيابي ، وانضم إليه سلطان باشا أول الأمر — وكان من الناقمين على رياض والمطالبين بالحكومة النيابية — وبانضمامه انضم كثير من الأعيان وعلماء الأزهر ، ثم انضم الشعب بأجمعه تهيجته الجرائد الثائرة ، وعلى رأسها عبد الله نديم ، وامتزجت مطالب الجنود بمطالب الأعيان وبمطالب الأهالي ، وطلب العدالة بين الضباط بطلب الحكم النيابي وبإلغاء الاستبداد — وكل ذلك تنفذه القوة العسكرية .

لو حكمنا منطق الواقع فيما سيحدث لقلنا إن الشيخ محمد عبده لا ينبغي في هذه الثورة العراقية مطلقاً ، لا في أولها ولا في آخرها ؛ لأنه لا يؤمن بالحكم النيابي السريع ، ولأنه يشايح رياض باشا ، ولأنه لا يرضى أن تكون الثورة بيد العسكريين ، ولأنه يكره عرابي باشا ، ويعتقد أنه شهم في الكلام ضعيف في الحرب ، يحتكم إلى المنامات أكثر مما يحتكم إلى العقل ؛ أليقُ به أن يكون واعظاً للعوام من أن يكون زعيم أمة — وإن كان طيّب القلب حسن النية — ولكننا نجد أنه يقراره مناهضة للثورة في أولها ، مشايحاً لها في آخرها . وليس بصحيح ما يقال من أنه لما تطور أمر الثورة من مطالبة بالمساواة العسكرية إلى مطالبة بالحكم النيابي انضم إليها ، فإنه لم يكن يؤمن بالحكم النيابي العاجل كما قدمنا . إنما الأمر في

نظري أن مسائل الحياة لا تجري على المنطق دائماً وخاصة أيام الثورات . وحوادثنا القريبة في ثوراتنا الحديثة أكبر شاهد على ذلك ؛ فكم انتقل رأى الكبراء من ناحية إلى ناحية تحت تأثير تيار الرأى العام . فالشيخ محمد عبده رأى كل الأمة في ناحية الثورة ، واشترك فيها المسلمون والأقباط واليهود ، ولم يشذ عنها إلا أحد رجلين : رجل لا في العير ولا في النفير^(١) ، وهو لابد أن يكون في العير وفي النفير . ورجل انضم إلى الخديو توفيق يشايه ، وتوفيق باشا في نظر الشيخ محمد عبده لا يصح أن يكون أحد بجانبه بعد أن استعان بالدول الأجنبية في إخماد للثورة ، ومالاً الأجانب على قومه . أضف إلى ذلك أن الأمر آخراً لم يصبح أمر حزب أمام حزب ، بل أمر مصر أمام الإنجليز ، فلا بد أن يكون مع قومه وينشد :
وما أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشد غزيرة أرشد
فإذا نحن تساءلنا : ما أثر الشيخ محمد عبده في هذه الفترة ؟

قلنا إن له أثراً كبيراً اعترف به حزبه وخصومه والذين حققوا معه وحاكموه ؛ فقد نبه الأفكار إلى الإصلاح فيما كتب في الصحف وما تحدث في المجالس وما اتصل بالهيئات المختلفة ، فكان مصدراً كبيراً لشعور الناس بسوء الحال والحاجة إلى الإصلاح مهما اختلف هو وغيره في طريق العلاج ؛ وكان يعدّه أصحابه وأعداؤه من أقوى العقليات الموجودة إن لم يكن أقواها ، ومن أقوى الشخصيات التي تعمل للخير حسبما تعتقد من غير أنانية ، فمن يوم أن عيّن في تحرير الوقائع وهو جّم النشاط محرر وراقب ، ويتصل بالمصالح الحكومية ، ويفشى المجالس : مجلس رياض ، وعلى مبارك ، وسلطان ، وعرابي ، وطلبة ، والسراي . وفي كل هذه المجالس يقول ويجادل ، ويقنع ويقتنع ، ويشير الحماسة للعمل . وكان للثورة العراية أسباب ، فكان هو سبباً من أسبابها ، ولكنه سبب بعيد ، لا كعبد الله

(١) العير : القافلة تحمل المتوفى . والنفير : القوم ينفرون للقتال .

نديم سبب قريب ، ثم انقلب الشيخ محمد عبده سبيًا قريبًا يوم حميت النار ؛ فلئن اتهم بأنه من زعماء الثورة وحوكم عليها ، لقد كان ذلك حقًا .

* * *

هذا هو الشيخ محمد عبده في بيروت بعد أن قبض عليه لاشتراكه في الثورة العربية وأودع السجن ثلاثة أشهر للتحقيق ، لاقى فيها الأمرين^(١) من اضطهاد وإهانة وشماتة أعداء وتنكّر أصدقاء وتضييق بالأُسئلة وإخراج في الاستجواب ، ثم حُكم عليه بالنفي ثلاث سنوات .

يقيم في بيروت نحو عام — سنة ١٨٨٣ — وسنه إذ ذاك نحو أربع وثلاثين سنة .

ثم لا يلبث أن يدعوهُ أستاذه السيد جمال الدين ليوافيهِ إلى باريس فيلبي الدعوة ، ويشتركان في إخراج مجلة « العروة الوثقى »^(٢) . للسيد التوجيه والروح ورسم الخطط وإبداء الأفكار ، وللشيخ التحرير والصياغة وتفصيل المعاني . إدارة الجريدة في غرفة صغيرة في سطح منزل في باريس ، هي مكان التحرير وملتقى الأتباع ومجمع الأفكار ، وهذه الغرفة الصغيرة أثارت الأفكار وأخافت الإنجليز والفرنسيين ، وأقلقت راحتهم ، أكثر مما أخافتهم عمارات ضخمة وإدارات نفحة ، بل أكثر مما أخافتهم الجنود والبُنود ، فالعبرة بالسكان لا بالمكان .

وهذا الشيخ محمد عبده يتأثر بباريس ، بما يطلع على شئونها ومعيشة أهلها . فيطيل شعر رأسه ويلبس الطربوش ، ويحتفظ بالجبّة والقفطان ، ولكن لم يكن له من الفراغ ما يتعلم فيه الفرنسية ، فمهمته تستغرق كل وقته ، فهو وأستاذه وقليل

(١) الأمران : الشر والأمر العظيم

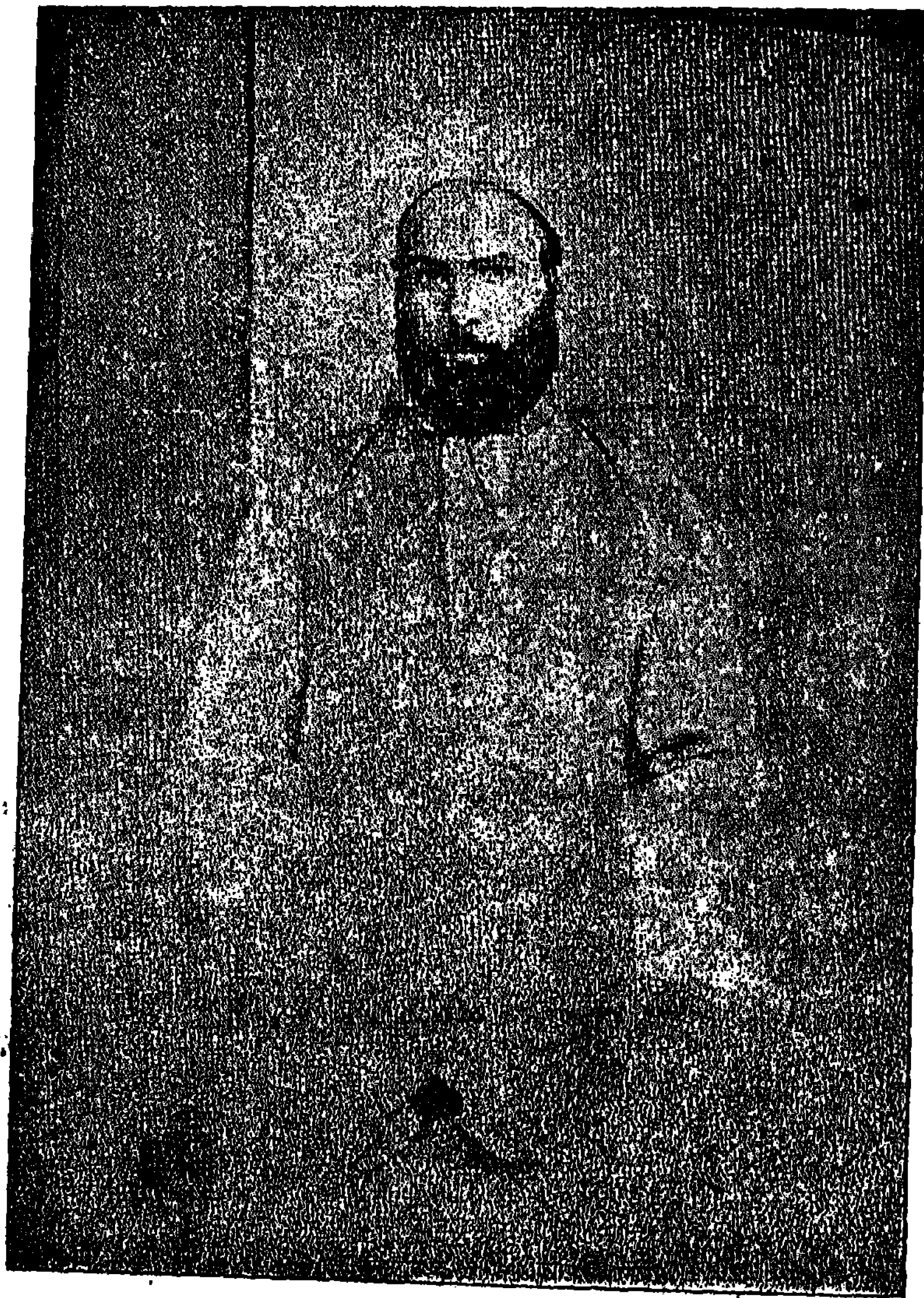
(٢) انظر أغراض المجلة في ترجمة « جمال الدين » .

من الأتباع يحملون عبء التفكير والتحرير والتصدير ، وتمهيد السبل السرية والعلنية لوصول المجلة إلى أنحاء العالم الإسلامي ، وتأسيس فروع مركزية لمساعدتها وانتشارها وتحقيق أغراضها .

والقارىء للمقالات التي كان يحررها الشيخ محمد عبده في الوقائع المصرية ومقالات « العروة الوثقى » يرى للفرق الكبير بينهما في الاتجاه والغرض والأسلوب والحرارة .

كانت مقالاته في « الوقائع » تقصد إلى الإصلاح الاجتماعي في مصر وحدها بأسلوب هادئ ، يغلب عليه العقل والتحفظ والتدرج ، ومقالات العروة الوثقى تنظر إلى العالم الإسلامي كله على أنه وحدة ، فإن ذكرت مصر أو الهند فعلى سبيل المثال ، وكانت تقصد أول ما تقصد إلى مناهضة الاحتلال الأجنبي بجميع أشكاله ، وتهدف إلى رفع نيره عن العالم الإسلامي كله عن طريق ثورة الشعوب ، وبث روح العزة القومية بواسطة العقيدة الدينية الصحيحة ، وخلق الأمل في النجاح مكان اليأس ، وتوثيق الصلات بين الشعوب الإسلامية كلها لتتعاون على دفع أذى الأجنبي عنها ، والتخلص من المستبدين الظالمين من أهلها ، وتأسيس الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية على أسس أصول الإسلام الأولى . من إعداد السلاح ومقاومة القوة بالقوة ، وطرح العقائد الدخيلة التي تدعو إلى الاستسلام مثل رمى العبء كله على القضاء والقدر ، وإفهام الشعوب أن الإسلام في شكله الصحيح لا يتنافى مع المدنية ، ولا يعوق التقدم والوصول إلى ما وصلت إليه الأمم الأخرى .

هذه المعاني القوية أكتسبت أسلوب الشيخ محمد عبده قوة لا تجدها في « الوقائع » . ثم إننا نلاحظ أن « الشيخ » متى اتصل بالأستاذ فنارى من ناره واثار من ثورانه ، وعاطفى من حرارة وجدانه ؛ فإذا انفصل عنه عاد إلى حكم



الشيخ محمد عبده في لندن سنة ١٢٨١ هـ

العقل والمنطق وزالت ثورته ، وخفت حدته .

وحدث في هذه الأثناء أن سافر الشيخ محمد عبده إلى « لندن » وكانت الثورة المهدية في السودان ، والإنجليز لم يثبتوا أقدامهم في مصر ، ووعودهم بالجلالة تتابع ، فلعل في رجال الإنجليز من أعضاء البرلمان من يُضغى إلى صوت الإنسانية وحق البلاد في الاستقلال ، فكان الشيخ محمد عبده — وقد عاد إلى عمامته — في البرلمان الإنجليزى يحدث أعضائه ، ويحدث رجال السياسة ، ورجال الصحافة — وهو في كل ذلك وطنى مصرى نخلص يطلب الجلاء والوفاء بالوعود ، ويوضح حقيقة الحال في الثورة العراقية ودسائس الأوربيين فيها ، وكراهية الشعب للحكم الأجنبى ، وأنهم يفضلون استبداد الحكام من أهلها على الأجنبى من غيرها مهما كانت سيرته ، ويهدد بأن المصريين سوف لا يدفعون الضرائب ، وسيجعلون حكم الأجانب مستحيلاً ، سواء أكانوا إنجليزاً أم فرنسيين ، ويقرر أن انتشار الأمية في مصر لم يفقد أهلها الشعور الطبيعى برغبتها أن تحكم نفسها ، والإسلام الذى بين جوانحها يحرم عليها الاستسلام لغيرها .

ولكن متى خضعت القوة للحق ، ومتى خُصِّيت المصلحة القومية للإنسانية ، ومتى عفا الأسد عن فريسته ؟

لقد عاد الشيخ محمد عبده إلى باريس يائساً ، وزاد الأمر سوءاً أن نجحت إنجلترا في اضطهاد « العروة الوثقى » والتضييق عليها ، فاحتجبت بعد ظهور ثمانية عشر عدداً منها في ثمانية أشهر ، وسافر السيد جمال الدين إلى فارس ، وعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت ، فإن كانت « العروة الوثقى » لم تخلق أشجاراً كما كانا يؤملان ، فقد نثرت بذوراً تنتظر الجو الطبيعى والغذاء الصالح لتبدأ في النمو وتكون بعد أشجاراً وإن انتفع بها الأعقاب .

سكن الشيخ محمد عبده بيروت فانقطع عنه مدد الثورة والهياج السياسى

الذى كان يُمدّه به السيد جمال الدين ، وعاد إلى طبيعته من ميله إلى الإصلاح العقلي والديني وتجنب السياسة ، وكانت الظروف حوله تدعو إلى ذلك ، فقد أخفقت الثورة العراقية ، وأُقفلت جريدة العروة الوثقى ، ولم تنجح مفاوضاته مع الإنجليز ، وهو الآن يقيم في بيروت ، حيث الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد ، الذى يخنق الحرية ، ويملاّ البلاد بالجواسيس يُحصون على الناس أنفاسهم .

لهذا كله كان الشيخ محمد عبده في بيروت عالماً ومعلماً فقط ، يملأ زمنه بالتأليف والتعليم ، شرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان ، وأخذ يدرس تفسير القرآن في مسجدين من مساجد بيروت على الطريقة التى اتبعها بعد في مصر ، لا يتقيد بكتاب في التفسير خاص ، إنما يقرأ الآية من القرآن ويفسرها من عنده بما يختار من التفاسير وبما يجتهد ، ويستطرد في شرح أحوال المساكين ونقدمهم حسبما تلهمه الآية .

ودعى للتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت فأصلح برامجها ونقلها إلى درجة أرق بكثير مما كانت ؛ نقلها من شبه مدرسة أولية إلى شبه مدرسة عالية ، وشغل نفسه بالتدريس فيها أكثر الوقت ، فكان يدرس التوحيد والمنطق والبلاغة والتاريخ الإسلامى ، والفقه على مذهب أبى حنيفة ، واتخذ بيته ندوة للحديث العلمى والأدبى والسمر المفيد ؛ وكان لبقاً في دروسه وأحاديثه ، يشتاقي إليها المسلم والنصراني .

وكان من آثار إملائه ودروسه في بيروت ما كان أساساً لما نشره بعد في مصر من « رسالة التوحيد » و « شرح البصائر » النصيرية في المنطق .

وعلى الجملة فقد خلق في بيروت حركة علمية راقية استفاد منها كثير من أهلها . ولم ينس الجرائد ، فكان يكتب في جريدة « ثمرات الفنون » مقالات



الشيخ محمد عبده في بيروت سنة ١٢٨٣ هـ

تشبه تلك التي كان يحررها في الوقائع ، مثل مقالته في الدعوة إلى « النقد » والحث عليه ، وأنه أداة لتمحيص الآراء ، ومعرفة وجه الحق في الأفكار الخ . والتفت في المصالح العامة للدول الإسلامية ، فوضع لأئمتين في إصلاح التعليم الديني في مدارس المملكة العثمانية ، بمناسبة صدور إرادة سنية من السلطان عبد الحميد بتشكيل لجنة تحت رئاسة شيخ الإسلام لإصلاح البرامج في المدارس الإسلامية ، وقد رفع الشيخ محمد عبده إحداها إلى شيخ الإسلام في الآستانة ، يرى فيها أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصول الدين ، وأن ذلك أضعاف أخلاقهم وأفسدها ، وأن العلاج الوحيد هو إصلاح التعليم الديني ، وقد رسم لذلك خطته .

ورفع لأئمة أخرى إلى والي بيروت تتضمن إصلاح سورية ، ووصف سوء حالها ، وتقسم النزعات السياسية لها بانتشار المدارس الأجنبية فيها ، واقترح تعميم المدارس الوطنية ، وإصلاح برامج التعليم الديني به والعناية به . ومع انقطاعه للعلم وبعده عن السياسة لم يخل من متاعب ، بسبب حسد بعض الضعفاء الجبناء ، أو بسبب حدة مزاجه ، وكان إذا احتد جرح ، فاضطّر إلى ترك التدريس في المدرسة السلطانية لما شعر بسوء جوّها .

كانت مدة نفيه التي حكم عليه بها ثلاث سنوات ، ولكنه مكث في المنفى نحو ست سنين ، لأن الأمر لم يكن حكماً بالنفي فقط ، بل كان أكثر من ذلك ، غضب الخديو توفيق عليه ، إذ كان ممن اتهم في الثورة العراقية بجهره بخلع الخديو ؛ وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في محاكمته دون غيره ممن اشتركوا في الثورة العراقية مثل اشتراكه . وقد قرر هذا المعنى أثناء حديثه وهو في إنجلترا مع بعض مكاتبي الجرائد ، فقد سأله مكاتب « البول ميل جازيت » عن رأيه في الخديو ، فقال الشيخ : « إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد

لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله — انضم إلى أعدائنا أيام الحرب — لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه — إننا لا نريد خَوَنَةً ، وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية .

لهذا كان من العسير عودته إلى مصر في عهد توفيق ، ولكن عادت وزارة رياض باشا إلى الحكم وسعى عند الخديو جماعة في العفو عنه ، ومنهم الأميرة نازلى ولم تكن تعرفه ، ولكنها سمعت عنه كثيرا من رجال مُنتداهها ومنهم سعد زغلول ، وكانت حسنة الصلة مقبولة الرجاء عند اللورد كرومر ، ومنهم الغازى مختار باشا ؛ وأفعلُ شفاعَةٍ كانت — بطبيعة الحال — شفاعَة اللورد كرومر ، وقد قال في كتابه « مصر الحديثة » : « إن العفو صدر عن الشيخ محمد عبده بسبب الضغط البريطانى » ، وينسبُ بعضهم الفضلَ الأول في العفو إلى مختار باشا ، ولكن المطلع على الأحوال في ذلك الوقت يعرف أنه ما كان الخديو توفيق يعفو إلا برضا اللورد كرومر أو ضغطه .

وهنا يصح أن نتساءل : ماذا كان وراء الستار ؟ واللورد كرومر لا يُقدِّم على هذا مجرد رجاء الأميرة نازلى ورجال ندوتها ، وهو يعلم ما كان من الشيخ محمد عبده مع السيد جمال الدين في العروة الوثقى التى هاجمت إنجلترا أشد مهاجمة وعدتها أكبر خصم للمسلمين .

الذى يظهر لى أن أصدقاء الشيخ محمد عبده في مصر استوثقوا منه أنه إذا عاد لا يشتغل بالسياسة العليا ، فقد جرَّبها واكتوى بنارها ، ولم يُفد منها ما يرجو لأُمته والعالم الإسلامى ؛ وإنما يعمل على الإصلاح الدينى والنظم الدينية ، وهذا لا يضرّ موقف الإنجليز في مصر في شيء . وعلى هذا الأساس قبل اللورد كرومر شفاعَة الأصدقاء ، وضغط على الخديو توفيق ، فسمح له بالعودة ،

وسار الشيخ محمد عبده على النحو الذى سنبينه .

ونسأل أيضاً : هل يلام الشيخ محمد عبده على هذا الموقف ؟

ونرى أيضاً أنه لو أعد نفسه ليكون زعيماً سياسياً يرمى إلى تحرير وطنه
لكان موضع اللوم فى هذه الخطوة ، ولعدّ ذلك تراجعاً . ولكن يظهر من تاريخ
الشيخ محمد عبده كله أنه لا يحب السياسة بل يلغنها ويلعن مشتقاتها ، ولم يشتغل
بالسياسة إلا حين دفعه التيار فى الثورة العرابية ، أو حين كان تحت تأثير أستاذه
السيد جمال الدين النارى المزاج فى « العروة الوثقى » . أما هو فيرى فى نفسه أنه
معلم منير عقول ، مُفهم للحقوق والواجبات ، مصلح للعقيدة الإسلامية ، مدافع
عن الإسلام . كان كذلك قبل الثورة ، وكان كذلك فى بيروت ، فلم يتنكّر
لمبادئه حين أفهم اللورد كرومر موقفه بواسطة أصدقائه . ولعل هذا هو سبب
ما نلاحظه من فتور فى العلاقات بين السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده من
ذلك الحين ، و « كلّ ميسّر لما خلق له » .

* * *

ماذا يصنع الشيخ محمد عبده فى مصر وقد عاد إليها ؟ إن مصر التى يدخلها
اليوم غير مصر التى تركها .

لقد أصبح كل شىء فى يد الإنجليز ، لهم فى كل نظرة من يستبد بالأمر فيها
دون الناظر ، حتى الداخلية وحتى التعليم وحتى الأزهر والمحاكم الشرعية . والنظار
قطع شطرنج يلعب بها الإنجليز ، والمديرون فى البلاد خاضعون للمفتش الإنجليزى ،
والعميد الإنجليزى مقصّد كل ذى حاجة ، والمقرّب إلى الإنجليز مقبول الشفاعة ،
مقضى الحاجة ، واسع الجاه والمبعد عنهم معطل الحوائج ، مضطهد ، محارب حتى
فى أدق الأمور — والحدىو توفيق مسالم يأخذ بنصائح الإنجليز حتى فى الجلاء عن

السودان ، ويقول لمكاتب التيمس : « إن أمانى واحدة من ثلاث خطط في الحكم ، إما اتباع نصائح إنجلترا ظاهراً والعمل على محاربتها في الخفاء ، أو إطاعتها إطاعة عمياء ، أو مناقش نصائحتها بكل صراحة وأبدى آرائى فيها ، فإذا قُبِلتُ فيها ، وإلا فأنا مضطر لقبولها ؛ وقد أتبعْتُ في الحكم الطريقة الأخيرة ، فرُميتُ بالضعف ، فهل كان يمكننى أن أقاوم إلى النهاية ؟ » .

إن أهم غرض للشيخ محمد عبده كان إصلاح العقيدة والمؤسسات الإسلامية كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، ومثل هذا الإصلاح لا بد أن يعتمد فيه المصلح على سلطة قوية تحمى ظهره ، وإلا كان كائى عالم من علماء الأزهر ، لا تُسمع له كلمة ، ولا يؤبه له بدعوة ، فعلى أى السلطات يعتمد ؟ .
أعلى الخديو توفيق وهو يكرهه كل الكراهية ، ولو ترك له الأمر ما أعاده من منقاه ؟ ثم هو ليس له من الأمر شيء ، ولكنه على كل حال السلطة الشرعية ، والمؤسسات الدينية التى يريد إصلاحها أمس به .

أم على الإنجليز وفى يدهم القوة ، ولو عاونوه فى الإصلاح لتحقق بفضل نفوذهم ، ولكن أليس من المهانة أن يُستعان على ذلك بالأجنبي المحتل للبلاد ؟ ولو استعان بهم لظُلِّتْ دعوته بظلال من وحى الأجنبي ، وظن الناس الظنون بكل ما يدعو إليه ؛ ولكن هم الذين لهم الفضل فى دخوله مصر ، ولولاهم لظل مبعداً ؛ ثم هم لا يمانعون فى الإصلاح الدينى والمؤسسات الدينية ، إذ هذا الإصلاح لا يؤثر فى مركزهم فى مصر . فما الضرر من الاستعانة بهم لتحقيق الغرض ولو اتهم وكره ؟ .

أم يعتمد على الأمة وهى ضعيفة منهوكة ممزقة ، لم يتكون فيها وعى قومى ، ولا شعور بالعزة ، وكبراؤها أسوأ ما فيها ؛ ثم إن إصلاح العقيدة والمؤسسات الدينية يهيجها — كما هو الشأن دائماً — لأنها ألقت الفاسد حتى لم تشعر بفساده ،

فإذا دُعيت إلى الإصلاح هاجت وماجت ورمت الداعي بالكفر والزندقة ،
فكيف يعتمد عليها في الإصلاح ؟

أعتقد أن هذا وأمثاله هو ما كان يدور في ذهن الشيخ محمد عبده ويخيره ،
وهو في طريقه إلى مصر عند عودته .

وأظن أنه وضع قراراً في أعماق نفسه بمسألة الخديو ما استطاع ، والاستعانة
بالإنجليز فيما ينوي من إصلاح .

يدل على هذا أنه وضع تقريراً بعد عودته عما يراه في وجوه إصلاح التعليم
في مصر ، ورفعته إلى اللورد كرومر ، لا إلى غيره ، تسليماً منه بأنه القوة الفعالة .

ويدل عليه سيرته الواقعية ؛ فقد ظل طول حياته بعد عودته يسالم الإنجليز ويتعاون
معهم ، وهي سياسة لما منطقها ؛ فقد كان يرى أن جلاء الإنجليز لا يأتي إلا من

طريق استنارة الشعب وفهمه لحقوقه وواجباته ، وغضبه من الاعتداء على حقوقه
وهتمته في أداء واجباته ، ومصر لم تكن تبلغ هذا المبلغ ، ووسيلة إصلاحها التعليم —

ثم يروى أن مسألة مصر لا تُحلّ بمواجهة مصر لإنجلترا ، بل بالحالة الدولية العامة ،
والتفات الدول إلى أن مصلحتها في استقلال مصر . وإلى أن يحدث ذلك يجب

على القادة أن ينبروا الشعب بالتعليم ولا يجعلوا كل همهم الاشتغال بالسياسة ؛
فهو ينقذ جمال الدين لأنه صرف كل جهوده في السياسة دون الإصلاح الداخلي

للسعوب ، وينقذ الأميرة نازلي في أنها انصرفت إلى الجهود السياسي ولم تؤسس
جمعية للنهضة النسوية — مثلاً — وإذا حضر مجلسها لم يحب أن يتكلم

في السياسة ، وهي لا تحب إلا أن يتكلم في السياسة .

وكان في مصر رأيان : رأى يقول إنه لا أمل في الإصلاح الحقيقي إلا بزوال
الاحتلال أولاً ، ورأى يرى أن الإصلاح الحقيقي الداخلي هو وسيلة الجلاء ، وعلى

الرأى الثانى كان الشيخ محمد عبده وأصحابه ، وعلى الرأى الأول كان مصطفى كامل

وأصحابه ، وبينهما حرب عَوَان ، يتهم الأولون الآخرين بالرُّعونة ، ويتهم الآخرون الأولين بالرجعية والضعف .

وطبيعيٌّ أن يكون الزعماء السياسيون من الرأى الأول ، والمصلحون الدينيون والاجتماعيون من الرأى الثانى . وفى الحق أن السيد جمال الدين كان زعيماً للناحيتين ، أو على الأقل اعتقد أن رسالته إصلاح العقيدة الدينية والإصلاح السياسى بمهاجمة الاحتلال الأجنبى ، ولكنهما لم يجتمعا إلا فى يده ؛ ثم من بعده دعا دعاة إلى هذا ودعاة إلى ذلك ، فخلفه فى مصر فى إصلاح العقيدة الشيخ محمد عبده وتخلّى عن السياسة ، وخلفه فى السياسة فقط عبد الله نديم ، ثم مصطفى كامل ، ثم سعد زغلول .

ومن الإنصاف — إذا قومنا الشيخ محمد عبده فى هذه الناحية — أن نراعى كل ظروفه وكل الأحوال فى زمنه ، فلم يكن الشيخ محمد عبده بدعاً فى هذا الاتجاه ، فمثله فى ذلك كان السيد أحمد خان المصلح العظيم فى الهند ، فقد رسم خطته أن يصلح الشئون الاجتماعية والدينية لىلى الهند مع مسألة الإنجليز ، حتى لا يحاربوه فى إصلاحه .

ولما اقتنع بهذه النظرية سار عليها قولاً وعملاً ، وقد استفتى مرة فى الاستعانة بالأجانب فكان من فتواه : « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين ، وأن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أيتامهم وما فيه خير لهم لم يفعلوا إلا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأن من كفرهم أو فسقهم فهو بين الأمرين : إما كافر أو فاسق ؛ فعلى دعاة الخير أن يجدوا فى دعوتهم ، وأن يمتضوا على طريقتهم ، ولا يحزنهم شتم الشائمين ، ولا يغيظهم لوم اللائمين ، فالله كفيل لهم بالنصر إذا اعتصموا بالحق والصبر » .

فهو في هذه الفتوى يعبر عن مذهبه ويبرر موقفه . والقارئ لهذه الفتوى
يشعر بما يشعر الأستاذ به من مرارة وغيظ .
على كل حال هذا مفتاح لفهم سياسته ، وما لاقى في حياته من عناء ، وفي
إصلاحه من دسائس ، وفي شخصه من تهمة ، وفي طريقه من عوائق .

عاد الشيخ محمد عبده وهو يأمل أن يكون ناظراً لدار العلوم أو أستاذاً
فيها ، فيعيد فيها ما بدأ ، وينير أذهان المعلمين لينيروا أذهان الطلبة ، ولكن
لم يرض الخديو توفيق بذلك ، لأنه إذا فعل أوصل التيار الكهربائي إلى الأسلاك ،
وهو تيار بغيض إليه ؛ ولعل الإنجليز أيضاً لم يرضوا ، ولو شاءوا لضغطوا ،
فحين قاضياً أهلياً في محكمة بنها ثم الزقازيق ثم عابدين ، ثم عين مستشاراً في محكمة
الاستئناف ولم يكن هذا غريباً ، فقد كان يعين في القضاء أي مثقف ممن تمرن
على المحاماة ولم تكن معه شهادة ، أو ممن تخرج في دار العلوم أو نحو ذلك .
ورأي نفسه — وهو قاض — في بيئة من القضاة يدلون بمعرفتهم للقوانين
الفرنسية وشروحها ، فأبت نفسه الطموح أن يكون أقل شأنًا منهم ، فبدأ يتعلم
اللغة الفرنسية وهو قاض في عابدين ، وسنه إذ ذاك نحو الأربعين ، وجد فيها حتى
بلغ شأواً^(١) لا بأس به ، وقد أطلعته تعلمها على ميدان فسيح استفاد منه كثيراً
مما قرأ في اللغة الفرنسية . وقد ترجم كتاب التربية لسبنسر بعد أن نقل من الإنجليزية
إلى الفرنسية ، وكان يكمل تعلمه الفرنسية برحلاته إلى سويسرا وفرنسا ، ويستمع
إلى بعض المحاضرات ويقابل بعض العظماء ، وكما يقول هو : ليجدد نفسه .

وقد امتاز في قضائه بتحرّيه الحق وتقديره للعدالة أكثر مما يقدر نصوص
القانون ، ويرجع هذا إلى سعة أفقه ودراسته للشريعة الإسلامية وعدم تشككه

(١) الشار : الغاية .

تماماً بالقلب القانوني ، ولذلك شكاً بعض زملائه من أنه يتحرر من النصوص القانونية ، ولما سئل في هذا اعترف به ودافع عن وجهة نظره .

* * *

مات الخديو توفيق ، وتولى الخديو عباس سنة ١٨٩٢ وقد عاد من فيينا ممتلئاً حماسة وغيرة وتصميماً على مناهضة الاحتلال وأخذ خطة جديدة غير خطة أبيه المستسلمة ، والتف حوله بعض شباب مصر المتحمسين ، وبقايا رجال الثورة العربية الذين تألموا من الهزيمة ولم يياسوا من تغير الحال ، ووراءهم تركيا وفرنسا تشجعانهم على حركتهم ، وقد ضاع نفوذها على يد توفيق ، فأثلاً عودته على يد عباس . وبدأ الخديو عباس بتغيير رجال الحاشية وإحاطة نفسه بما يتفق وسياسته ، وبدأ يتعرف أحوال مصر بنفسه ، ويتصل بالموظفين والأعيان ، وأحياناً يرأس مجلس النظر ، وبدأت إنجلترا تشعر بما سيصادفها من متاعب على يد هذا الشاب ، وتنتهز الفرص لإحراجة .

رأى الشيخ محمد عبده أن آمال عباس في الإصلاح يجب أن تستغل ، ووضع خطة أن يتقرب إليه ويوثق الصلة به ، ويحسن إليه برنامجاً في الإصلاح ، مع حسن علاقته أيضاً بالإنجليز ، فيكسب السلطتين ، ويعتمد عليهما في تحقيق أغراضه الإصلاحية ، ويتم له ما يريد ، ولكن ستبين الحوادث أن هذا خيال ، وأن الجمع بين صداقة السلطتين كالجمع بين الماء والنار ، وأن إرضاء إحداها إغضاب للأخرى لا محالة^(١) .

على كل حال تقرب محمد عبده من عباس بواسطة محمد ماهر باشا ، ورحب الخديو بذلك ، إذ يسره أن يجمع حوله أقوياء الرجال ، وتقابلوا سرّاً وجهرّاً ، وحسن إليه الشيخ محمد عبده أن يتجه إلى إصلاح الشعب الثلاث المتصلة بالدين

(١) لا محالة : لا حيلة .

والتي لا شأن للإنجليز بها، والتي في صلاحها صلاح للأمة، وتقوية لمركز الخديو .
إذ في ذلك برهان قوي على أنه إذا وكل إليه الأمر أحسن خيراً مما يحسن الإنجليز
في إدارتهم — وهي : الأزهر ، والأوقاف ، والمحاكم الشرعية . وليكن البدء
بالأزهر ، فاقترح الخديو بذلك ، وكلفه تقديم تقرير ، ففعل واعتمد ، وصدر القرار
بتشكيل مجلس إدارة للأزهر برئاسة الشيخ حسونة ، وفيه الشيخ محمد عبده ،
والشيخ عبد الكريم سلمان ، مندوبين عن الحكومة ، واعتمده مجلس النظار
سنة ١٨٩٥ ، وصدق عليه الخديو ، وأتيحت الفرصة للشيخ محمد عبده لإصلاح
الأزهر الذي تمناه من يوم أن كان مجاوراً ساخطاً على سوء حاله .

يا لله وإصلاح الأزهر ! ما حاوله أحد من قبل ونجح ، ولا الشيخ محمد عبده ،
لأن كل المحاولات كانت تنجبه إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع ، وكانت
عن سبيل استرضاء أهله والخوف من أى قلق واضطراب ، والأزهريون كان
يتزعمهم طائفة ألفت القديم حتى عدته ديناً ، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً ،
وعاشت في المغارات فلم تر ضوءاً ، وأفنت عمرها في فهم لفظ ، وتخريج جملة ،
وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا ، فإذا أتى مصلح سم أهله الجوحوله ، واحتَمَوْا
بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب ، وخنقوا الطائفة القليلة
من شبابه النازعين إلى التجديد ، وحرَّصوا على مراكزهم أن يكتسحها الإصلاح
وجاههم أن ينتقل إلى يد المصلحين ، وبجانبيهم طائفة أخرى تؤمن بالقديم عن
صدق وإخلاص ، ولكن عن ضيق أفق ، وغفلة عن الحق ؛ هم من جنس ما قال
أهل الحديث عن بعضهم : « تتطلب دعوتهم ، ولا تقبل شهادتهم » فتتجمع كل
هذه العوامل ، فيُضطرَّ المصلح — أخيراً — إلى الانسحاب إن غضب ، أو المداواة
والمسالة والرضا بالموسود إن لم يغضب . وتُضطرَّ الحكومة أن تتخلى عن إصلاح
« الأزهر حُبّاً في السلامة ، وتركه يأكل بعضه بعضاً ، وتنشئ بجانبه المعاهد المعلى

اللغة العربية والقضاء الشرعي ، لتستطيع تنظيمها والإشراف عليها ، إذ أعجزها الإشراف على الأزهر ، ومع هذا يخلو الجو من شغب يقلق بال الحكومة الحين بعد الحين ، بين الأصل والفرع ، وما يحتضنه الأزهر من طلاب وعلماء ، وما تحتضنه الحكومة ، وتترك ذلك للزمن ، والزمن لا يحل المشكل ، لأن المشكل لا يحل إلا بالعلاج الحاسم .

أخذ الشيخ محمد عبده يحرك مجلس الإدارة للإصلاح ، وبدأ بالمسائل الشكلية من زيادة رواتب المدرسين وتنظيمها ، ووضع لأئمة لكساوى التشريف ، وتنظيم الجراية ، ومساكن الطلبة ، والإشراف الصحى عليهم ، والامتحان . فلما تعرض لشيء من الأساس ، وهو ماذا يدرس فى الأزهر ، واختيار الكتب ، وطرق التدريس ، وبرامج الدراسة ، زادت العقبات فى سبيله ، واضطراً أخيراً إلى الانسحاب ، فكانت معالجته سطحية لا علاجاً لأصل الداء . وفى الحق أنه لم يكن يمكنه فى مثل ظروفه غير ذلك .

* * *

ظل الشيخ محمد عبده يعمل فى القضاء ويحرك مجلس إدارة الأزهر للإصلاح حتى سنة ١٨٩٩ ، وحدث أن كثرت الشكاوى من المحاكم الشرعية وقضاتها ، ففكر مستشار الحقانية الإنجليزى فى إلغائها وضمها إلى المحاكم الأهلية ، ولكن حسَبوا حساباً لِهياجِ رأى العام ، فأرادوا أن يفعلوا ذلك تدريجاً ، وذلك بتعيين مستشارين من محكمة الاستئناف عضوين فى المحكمة الشرعية العليا ، فلم يرض بذلك جمال الدين أفندى قاضى مصر التركى ، ولا الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية . وعرض المشروع على مجلس شورى القوانين فرفضه ، ووقف الشيخ حسونة موقفاً شديداً صلباً انتهى بتركه المنصبين ، ووقف المشروع . وكان الشيخ محمد عبده يطمح فى أن يعين مكان الشيخ حسونة فى المنصبين ،

فيقبض على ناصية الأزهر ويتمكن مما ينوي من إصلاح ، ولكن أسرع الخديو فعين الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي للشيخة ، والشيخ محمد عبده للإفتاء ، فأثر ذلك في نفس الشيخ محمد عبده وآمن بأن الخديو لا يطمئن إليه في باطن نفسه ، ولم يمض نحو شهر حتى مات الشيخ القطب وعُيِّن مكانه الشيخ سليم البشري ، فاعتقد الشيخ محمد عبده أن إصلاح الأزهر قد تعقّد بهذا الوضع ، فلم يكن يطمئن إلى الشيخ البشري اطمئنانه إلى الشيخ حسونة ، ويراها لا يؤمن بإصلاح ، ويدارى ولا يصارح ، ويعمل بإشارة السلطة لا بوحى من نفسه ؛ ومع هذا فمنصب الإفتاء خلع على الشيخ محمد عبده وجاهة دينية ممتازة ، وهو نفسه قد خلع على المنصب بشخصيته إجلالا واحتراما ، وزاد في ذلك تعيينه في السنة نفسها عضواً دائماً في مجلس شورى القوانين .

وظلت العلاقة بينه وبين الخديو عباس حسنة في ظاهر الأمر ، فالخديو يستشيرُه إذا تعقدت الأمور بينه وبين الإنجليز ، كاستشارته له عندما أرادوا تعيين قاض مصرى بدل القاضى التركى ، وكان الخديو لا يرى هذا رأى ، لأنه يضعف صلة مصر بتركيا ويمكن من سلطة الإنجليز ؛ وكاستشارته له في مسألة « ليون فهمى » الأرمنى ، وكان قد قبض عليه الخديو وحبسه في قصر رأس التين لاتهامه بتزوير أختام باسم رئيس كتاب « يلدز » ، وأراد اللورد كرومر أن يفتش عنه في القصر ، ورأى الخديو أن هذا منتهى الإهانة ، وقد أشار الشيخ محمد عبده على الخديو بما أنقذه من الموقفين .

كان الشيخ محمد عبده إلى هذا الحين يتفق ورأى الإنجليز في أن الخديو ليس له أن يستبدّ بتصرف الأمور ، أو أن يكون حكومة داخل حكومة ، وأن ليس من مصلحته ولا مصلحة مصر أن يحارب جماعة تركيا الفتاة خدمة لتركيا ، وفيهم قوم أجراء لم يرضهم ظلم عبد الحميد ولا عسفه ولا استبداده ، وأن من الخير للخديو

أن يوجه أنظاره إلى ترقية الشئون المصرية كالتعليم وإصلاح المحاكم الشرعية وإصلاح الأزهر ، فهو بذلك يخدم بلاده .

والشيخ محمد عبده يصدر في هذا عن مناجيه وطريقته في التفكير والإصلاح ، ويتكلم في ذلك في مجالسه الخاصة ، فيبلغ الخديو فيسرها له .

ولكن حدث أن خلا مكان لكسوة التشريفة في الأزهر ، فأراد الخديو أن يشغله الشيخ محمد راشد مفتي المعية ، ولم يكن تنطبق عليه اللائحة الموضوعية ، فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ ذلك الأمر وإعطاء الكسوة للمستحق ، وزاد الطين بلة أن العلماء لما اجتمعوا عند الخديو في التشريفات كلم الخديو شيخ الجامع في غضب وتوبيخ ، فرد الشيخ محمد عبده في حدة : « إذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريف بمقتضى إرادته الشخصية فليصدر بذلك قانونا آخر ينسخ هذا القانون » فلما سمع الخديو هذا الرد احمراً وجهه ووقف ، إيذانا للحاضرين بالانصراف . وآلى^(١) على نفسه أن يخرج المفتي ويكيد له حتى يخرج منه من منصبه ، وينتقم من فعلته .

ثم أعقب ذلك وقوف الشيخ محمد عبده وحسن باشا عاصم في أرض يريد الخديو استبدالها من الأوقاف ، ورأيا أن هذا العرض ليس في مصلحة الوقف ، وحللاً مجلس الأوقاف الأعلى على رفض هذا الاستبدال إلا إذا دفع للوقف عشرون ألفاً فرقاً بين الصفتين .

انكشف الغطاء وظهر العداء ودبرت المؤامرات ودست الدسائس ، وكلما أمعن الخديو في ذلك اضطر الشيخ محمد عبده إلى كثرة الاتصال بالإنجليز ، وكلما اتصل زاد غضب الخديو ، حتى لقد هم الخديو بعزله من الإفتاء ، فصرح اللورد كرومر : « إنه لا يوافق على عزله من منصب الإفتاء ، مهما كانت الأحوال ، مادام موجوداً » .

(١) آلى : أقسم .



الشيخ محمد عبده في تونس

(١) بقر يضرب على رأسه بالبلطة حتى تضعف مقاومته ، ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ؟

فأفتى الشيخ محلها ، فقامت عليه قيامة العلماء يقولون إنها محرمة لأنها هي الموقوذة التي حرم الله أكلها ، والشيخ يقول : إن الموقوذة هي ما ضربت بشيء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت ، وهذه ذبحت قبل موتها .

السؤال الثاني : يوجد أفراد في هذه البلاد (الترنسفال) يلبسون البرانيط لقضاء مصالحهم وعوّد القوائد عليهم ، فهل يجوز ذلك أو لا ؟ .

فأفتى أيضاً بالجواز وقال : « أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعدّ مكفراً ، وإذا كان اللبس الحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يُكره كذلك » .
فهيّجت عليه الجرائد كجريدة الظاهر وجريدة اللواء .

وزاد خصومه وقاحة ، فلفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الإفرنج وحملوها للورد كرومر ، وأفهموه أن هذا في عرف المسلمين لا يجوز صدوره ممن يتولى منصب الإفتاء ، فلم يأبه لقولهم . وصوّرت الجرائد الهزلية بصور شنيعة ، وحكّم على أصحابها بالحبس .

هكذا لم يتورع خصومه أن يحاربوه بأسفل الوسائل ، وكان بعض هذا يكنى لعدله عن جهاده ، وكان بعض أصدقائه كسعد زغلول وقاسم أمين يعيبون عليه إلحاحه في إصلاح الأزهر ، مع أنه غير ممكن بهذا الوضع ، وهو — مع كل هذا — مصرّ على المضي في عمله تشجّده الخصومة ، ويأرق بعض الليالي مفكراً في وسائل الإصلاح ويقول : إن وجداني الديني لا يرضى بالصمت عن المفاسد وآخرون من خلصائه كانوا يعيبون عليه عداؤه للخديو على هذا الوجه ، ويرون أن الأجدر به أن يفضّ النظر عن هفواته ، ويقولون : ماذا عليه لو أعطى

كسوة التشریف لغير مستحقها ، أو تساهل في استبدال الوقف ، ثم كان ثمن ذلك أن تطلق يده في الإصلاح كما يريد ، وحينئذ يجد من الخديو كل عون ؟ ولكن فاتهم أن الطبيعة تأبى أن تخلق من على معاوية ، أو أن تجعل من عمر عمرًا .

وعابوه أنه نظر إلى الخديو عباس من جانبه الأسود ، وهو جشعة المادى ووسائله في ذلك ، ولم ينظر إلى جانبه الأبيض وهو إباؤه الاستسلام للمحتلين ، وتشجيعه الحركة الوطنية وتغذيتها وتنميتها . بل إن الشيخ محمد عبده كان يناهض أيضًا دُعاة الحركة الوطنية ، ويرميهم بالتَّهْوُر ، ويقنع في آماله الوطنية بالقليل ، كما يدل عليه كتاباه اللذان نشرهما بعد موته ، وكان قد أرسلهما إلى صديقة مستر « بلنت » يشرح فيهما مذهبه في الإصلاح السياسى ، وفيهما قناعة في السياسة لا ترضى الوطنيين ، وقد أثارا نفوس الخديو والوطنيين وحتى بعض المعتدلين .

ولكن — مهما كان الأمر — فإن العظيم يجب أن يقدر من جميع جوانبه لا من جانب واحد ، وكان الشيخ محمد عبده مصلحًا دينيًا ومصلحًا اجتماعيًا ومصلحًا للغة والأدب ، وشخصية بارزة في التفكير ، وأخيرًا سياسيًا . فإن هو لم يوفق في سياسته فهذا لا يقلل من نواحيه القيمة الأخرى . نعم يُسقط الرجل في السياسة أن يُشترى بمال أو يبيع ذمته لمنصب ، ولكننا نجزم أن الشيخ محمد عبده كان وفيا لأُمته مخلصا نزيها ، يسلك هذا المسلك السياسى عن عقيدة وتقدير للمصلحة ، ويجتهد أحيانا ، فيخطئ ، وتحمله الظروف القاسية أحيانا على ما يكره .

والحق أن كثيرا من شيوخ الأمة كانوا في ذلك الوقت على مثل رأيه السياسى ، كسعد باشا زغلول ، وفتحي باشا زغلول ، وحسن باشا عاصم ،

ومحمود باشا سليمان وغيرهم من رجال حزب الأمة ، ولكنه هوجم من هذه الناحية أكثر مما هوجموا ، لأن الخديو عباس كان يؤلَّب عليه أكثر مما يؤلَّب عليهم ، ولأن الناس اعتادوا أن يروا رجال الدين بعيدين عن السياسة وخاصة مع المحتلين .

في سنة ١٩٠٥ كان الأزهر هادئاً وعلى رأسه السيد علي الببلاوى ، وكان رجلاً يرتاح إلى الشيخ محمد عبده ويرتاح محمد عبده إليه ؛ والأمر سائرة سيراً طبيعياً ، فظهرت فجأة حركة تدعو إلى الشعب وتشكو من شيخ الأزهر ومن مجلس الإدارة ، وكان القائمون بها من المتصالحين بالخديو ، على أثر رفض الشيخ محمد عبده وحسن عاصم استبدال الوقف الذي أشرنا إليه — وعلى أثر هذا الشعب استقال السيد علي الببلاوى ، وعيّن الخديو عباس الشيخ عبد الرحمن الشرييني ، وهو ممن لا يستطيع الشيخ محمد عبده العمل معهم لرجعيته وجهوده . وخطب الخديو في حفلة الإِنعام بالخلعة على الشيخ الشرييني خطبة تدل على الغيظ الشديد من الشيخ محمد عبده وصحبه ، قال فيها : « إن الأزهر أسس وشيّد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية ، تنشر علوم الدين في مصر وجميع الأقطار العربية . ولقد كنت أودّ أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ، ولكن مع الأسف رأيت فيه من يخلطون الشعب بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثرون من أسباب القلاقل . . . وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر ، والشعب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف العقائد وشغب الأفكار ، لأنه مدرسة دينية قبل كل شيء » .

وقد استقال السيد علي الببلاوى رعاية لصحته ، وقد جريت منذ اثنتي عشرة سنة على أن أقبل استقالة كل من يستقيلني من وظيفته ، فقبِلْتُ استقالته ، ومن يستقيلني من وظيفته سواه فأنا مستعدّ أن أقبل منه ، جرياً على العادة التي اتبعتها .

ومن يحاول بث الشعب بالوساوس والأوهام والإيهام بالأقوال ، أو بواسطة الجرائد

والمكويين ، فماله أقله له وأكثره للإعانة والإغاثة والنجدة ؛ يصف شعوره في حريق ميت غمر فيقول : « لما قرأت وصف الحادثة كان لهب الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين ، وسهر من فؤادي ما يصهر من لحومهم ، أرقّت تلك الليلة ولم تغمض عيناى إلا قليلا ، وكيف ينام من يبيت يتقلب في نعم الله وله هذا العدد الجمّ من إخوة وأخوات يتقلبون في الشدة والبأساء ؟ أردت أن أبادر بما أستطيع من المعونة ، وما أستطيع قليل لا يُغني عن الحاجة ولا يكشف البلاء ، ثم رأيت أن أدعو جمعا من أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البر في أقرب وقت » . وكذلك فعل في كثير مما أصاب البلاد من بلاء .

وصوره السيد جمال الدين مرة أخرى فقال له : « إن بين برديك قرداً يخرج رأسه في بعض الأحيان » يشير إلى ما يعتريه من الحدة أحيانا ، كالذى كان منه مع الخديو عباس مما رويناہ قبل ، وفي الدرس إذا سئل سؤالا سخيفا ، وفي بعض تصرفاته ؛ ولكن هذه الحدة كانت أيضا مصدر قوة له ، فكان يغضب لما يعتقد الحق ، وينفعل لما يصيب الناس من أذى ، والمكويين من مكروه ، ثم هذه الحدة أضفت عليه من المهابة والتوقير الشيء الكثير .

وهو — مع هيئته وحدته — طيب القلب سليم الصدر ، وفي لأصدقائه ، لطيف الحديث ، سَمَح النفس ، ينصف الناس في الحق حتى من نفسه ، أُمِيزُ شيء فيه شجاعته الأدبية ، لا يدارى ولا يمارى ، ويقول ما يعتقد أمام أىّ عظيم ، ويعتمد في شجاعته على ربه وإيمانه . وكَم سببت له شجاعته وصراعته من متاعب احتملها في صبر وثبات ، علما منه بأن المقدمة لا بد أن تتبعها النتيجة .

وكان أهم خصائصه غيرته الشديدة على الإسلام والمسلمين ، هي محور أعماله ومصدر آلامه وآماله . حدثني صديق قال : « كنت أسير مع الأستاذ في « جنيف » من أعمال سويسرة ، وكنا نلتقي معا بعض المحاضرات الصيفية في جامعها ، فجاء

ذكر الإسلام والمسلمين ، فقال الشيخ : إني وهبت حياتي لإصلاح العقيدة الإسلامية وتنقيتها مما علق بها من الخرافات والأوهام . فقلت : وهل الدين عند العوام إلا الخرافات والأوهام ؟ وماذا يبقى عندهم لو زالت ؟ فرأيت أنه قد احمرّ وجهه وغضب غضبة ما رأيت به غضب مثله ، فتأولت ما قلت حتى هدأت ثورته .

كم لاقى من عناء في سبيل إصلاحه ، وكم اتهم وكم سبّ وكم دسّ له ، وكم نصح له أصدقاؤه أن يستريح من هذا العناء ، ويعود إلى القضاء ، فما طاوعته غيرته أن يسمع لقولهم .

لقد ذكر الشيخ محمد عبده ما يصحّ أن يكون مجمع لإصلاحه ، ومجمل رسالته ، فقال : « ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ؛ وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردّ من شطّطه ، وتقلل من خلطه وخبثه . . . وأنه على هذا الوجه يعدّ صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل . . . والأمر الثاني إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في الخطابات الرسمية أو في المراسلات بين الناس — وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجّج الذوق ، وتنكره لغة العرب : الأول ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رثّ خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم لا في صورته ولا في مادته . والنوع الثاني ما كان يستعمله الأدباء والمتخرّجون من الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان بارداً ، وتلاحظ فيه القواصل

وأنواع الجنس ، وإن كان رديثاً في الذوق بعيداً عن الفهم ، وثقيلاً على السمع ، غير مؤثرٍ للمعنى المقصود

« وهناك أمر آخر كنت من دعائه والناس جميعاً في معنى عنه . ولكنك الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية . وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه . وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على إقبال من مدة تزيد على عشرين قرناً ؛ دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتعابهم شهواتهم ، وأنه لا يردّه عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهونه ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل . جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنوانه ، والظلم قابض على صولجانه^(١) ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أيّ عبيد .

« ولم أكن في كل ذلك الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدين ، وأطالت بإتمام الإصلاح في اللغة وقد قارب . أما أمر الحكومة والحكماء فتركته للقدر يقدره ، وليلد الله بعد ذلك تدبرة ، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تحنيتها الأمة من عراس تعريسه ، وتقوم على نميته السنون الطوال ، فهذا العراس هو الذي ينبغي أن يُعقَى به الآن ، والله المستعان .

في هذا القول الموحز كل حياة الشيخ محمد عنده الإصلاحية ، وكل رسالته ، وكل نجاحه وإخفافه . ثلاثة أمور اتجه إليها : إصلاح الدين ، وإصلاح اللغة والأدب ، وإصلاح السياسة . فلنذكر كلمة في عمله في كل منها .

فأما إصلاح الدين فأتجه فيه إلى إصلاح الأزهر. وكان رأيي أنه إذا أصبح يحكم العالم الإسلامي أكبر خدمة، لأنه سيخرج قوماً غيراً على الدين، مثبورين ينبئون في جميع أنحاء العالم الإسلامي فيحملون مثل رسالته ويقومون بمثل دعوته؛ وقد استعان على ذلك بالحداد والنجار وبمقصية وجاهة وأصدقائه، ثم كان من أمره ما ذكرنا؛ ولهذا وأمثاله وصحه اللورد كرومر بأنه «كان رجلاً مستثير الرأي، بعيد النظر، خيالياً، حالماً بعض الشيء»، ولكنه كان وطنياً صادقاً. ومع أنه لم يصل في الأزهر إلى ما يريد، ولا إلى بعض ما يريد، فقد خلف فيه طبقة مستنيرة، وإن كانت قليلة، اعتنقت مبادئه وتبعت بأرائه؛ وإن لم تكن لها الحماسة وعيرته.

واتخذ أهم وسيلة لإصلاح العقيدة تفسير القرآن الكريم، جعله ديدنه يدرسه في بيروت في مسجلين، ويدرسه في أحد مساجد القاهرة وهو قاض، ويدرسه في الأزهر وهو في القصبة والإفتاء، ويتحدث موضوع محاضراته في الجرائر تفسير سورة العصر، ويفسر جزء عم لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، ويشترط رؤس في التفسير في مجلة المنار ليقرأ في العالم الإسلامي.

كان يقرأ الآية، وإذا اتصت بالعقيدة شرحها شرحاً وافياً، عارضاً ما وزاد في القرآن في موضوعها، مبيناً ما دخل على المسلمين في هذه العقيدة من فساد ودخيل، وإذا اتصت الآية بالأخلاق أبان أثر هذا الخلق في صلاح الأمم وفسادها في قسادها، وإذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثر هذه الحالة الاجتماعية في حياة الأمم، مسترشداً بالواقع، مستشهداً بما يجري في العالم في بيان المدفق ولسان ذلق وصوت جميل أخاذ؛ فهو تفسير عملي، يشرح الواقع ويبين سببه، وهو أخلاق، يدعو للعمل على مبادئ الإسلام، ويبين أنها متبع السعادة في كل العصور؛ وهو روحاني يدعو إلى السموات بالنفس إلى العالم العلوي، ويتره الله عما

دخل على العقيدة من فساد بالإشراك مع الله الأولياء وعبادة الأضرحة والتشفع بأهل القبور ، وإقامة الموالد ونذر النذور ؛ وهو في كثير من مبادئه يشبه تعاليم الوهابية في الرجوع إلى الأصول الأولى للإسلام ، وتنقيته من البدع والخرافات والأوهام ؛ ولكنه يتقبل ما صلح من مبادئ المدنية الحديثة ، ويدعو إلى الأخذ بها ما اتفقت والإسلام .

الإسلام دين توحيد لا شرك فيه ، تنزيه لا تجسيم فيه ، وهو دين يعتمد على العقل ويستنهضه لإدراك أن العالم له صانع واحد عالم قادر ، والعقل ضروري للدين ، فهو المرشد إليه ، والدين ضروري للعقل لأنه يكمله ويقوّمه .
والإسلام يفسّح صدره للعلم ويدعو إليه ، لأن العلم يكشف أسرار الكون ، وذلك يفضي إلى معرفة الله وإجلاله .

وهو في تفسيره يحاول التوفيق بين الإسلام ونظريات المدنية الحديثة ، ويتبع طرقاً من التأمل للتوفيق بين الدين ونظريات العلم .
أكبر قيمة له في تفسيره أنه كان يحى العواطف ، ويحرك المشاعر ، أكثر مما يستقصى بحث المسائل العلمية ؛ فهو يتجه إلى القلب أكثر مما يتجه إلى العلم والعقل ، متأثراً في ذلك بطبيعة الدين نفسه ؛ أفادته سعة اطلاعه على الفلسفة الإسلامية ثم اتصاله بالثقافة الغربية ، وقراءته بعض أصولها ، ورحلاته إلى أوروبا ، وملابسته لحياتها ، ومقابلته لبعض فلاسفتها ، وسماعه بعض محاضراتها ، أن ينظر إلى حال المسلمين نظرة إشفاق في عقيدتهم وأعمالهم ، فبيث كل ما يرى من إصلاح حول تفسير آيات القرآن .

واستمر يدرس هذا الدرس في الأزهر نحو ست سنين ، كان يحضّره كثير من عليّة القوم وكبار القضاة والموظفين وشباب الأزهر والمدارس العالية ، كان درسه ذا أثر كبير فيهم .

كان يرى أن إصلاح المسلمين من طريق دينهم أيسر وأصح من إصلاحهم من طريق الإصلاح المعتمد على مجرد العقل ومقياس المنفعة والتقليد الأوربي ، وأن هذا الطريق هو الذي سلكه جميع المصلحين المسلمين . يقول : « إن الغرض الذي يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع ، تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامة أحوال الأفراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرّى الإصلاح منهم إلى الأمة . . وإذا كان الدين كافلاً وتهذيب الأخلاق ، وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما يئناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟ » .

وعلى هذا الأساس في التفكير كان يريد أن يسيطر على برامج التعليم في المدارس ، حتى يصلح النفوس من هذا الطريق ، بالتوسع في التاريخ الإسلامي ، وبث مبادئ الدين الصحيح ، ولهذا كان ينتهز كل فرصة لتقديم تقرير عن التعليم ؛ فعل ذلك لما كان في الوقائع قبل الثورة العراقية ، حتى شكل مجلس التعليم الأعلى بناء على سعيه ، وكان هو فيه عضواً بارزاً ، وفعل ذلك عندما كان في بيروت ، فكتب تقريراً في إصلاح التعليم رفعه إلى شيخ الإسلام في الآستانة ، حتى لم يتحرج أن يرفع تقريراً بذلك إلى اللورد كرومر بعد عودته ، فلما لم تتحقق مطالبه رجا أن يكون على رأس دار العلوم يثّ روحه في طلبتها فيبثون روحهم في طلبتهم ، فلما يئس من ذلك أيضاً وجه همته إلى الجمعية الخيرية الإسلامية يضع لتلاميذها مناهج دراستهم ، ويؤلف لهم تفسير جزء عم . وهكذا كان دائماً يريد أن يسيطر على التعليم ليوجهه الوجهة التي يريد .

وكما جدد في نشر تعاليمه وآرائه في الإسلام خد في الدفاع عنه ، وكانت تأخذه الغيرة الشديدة إذا مسّه أحد بسوءه . ينجلي ذلك في موقفين شهيرين :
 ١ - رده على هانوتو في أوائل سنة ١٩٠٠م نشر هانوتو مقالا عن الإسلام بمناسبة ستياشة فرنسا في المستعمرات الإسلامية ، ثم تعرض للمقارنة بين المدنية النصرانية والإسلامية ، ووازن بينهما في مسألتين : ذات الله والقضاء والقدر ، فقال : « إن اعتقاد النصارى في الثبوت ، ومطوونهم للإله الإنسان لعملهم يؤمنون بمرتبة الإنسان ويحولونه حق القراب من الذات الإلهية ، على حين أن العقيدة الإسلامية تذهبها إلى التوحيد وتزويه الله عن البشرية ، حملت الإنسان على الضعف والوهن ، والعقيدة المسيحية القائلة بحرية الإنسان وإرادته ، دفعته إلى العمل والجهد ، أما عقيدة المسلمين في القضاء والقدر بجماعتهم على الجمود والركود . ونشرت ترجمة هذا المقال في المؤيد ، فلم يمه الشيخ محمد عبده ليأتمه حتى يكتب الرد عليها ، وظهرت أول مقالة له في ثلثي يوم ، ثم تتابعت مقالاته ، بين فيها فضل الإسلام ، وأن عقيدة التوحيد أسمى فكرة ، وأن الإسلام لم يدع إلى الجبرية بالمعنى الذي يفهمه هانوتو ، وأن في القرآن أربعاً وستين آية تثبت حرية الإرادة إلح . وكان من نتائج هذا كتابه المشهور « الإسلام والنصرانية » .
 ٢ - وأما الموقف الثاني فقد نشر فرح أنطون في مجلة « الجامعة » مقالا عن ابن رشد قرر فيه أنس المسيحية . كانت أوسع صدراً وأكثر تسامحاً للعلم والفلسفة من الإسلام ، فرد عليه الشيخ محمد عبده في سلسلة مقالات ، يثبت فيها سعة صدر المسلمين للعلاسة وأهل العلم والأديان الأخرى ، مما لم يكن له نظير في أي دين آخر .

وهكذا كانت حياته في خدمة دينه .

أما إصلاحه اللغوي والأدبي فقد بدأه بإصلاح أسلوبه نفسه ، أخذ يكتب في جريدة الأهرام بأسلوب متأثر بالكتب الأزهرية ، وخاصة بما ألف في الفلسفة الإسلامية ، وبما هو شائع في ذلك العصر من السجع والازدواج ، وبمقدمات طويلة قبل الدخول في الموضوع . ثم أخذ يَتَّقَوِي أسلوبه ويصحح ويزداد حركة وقوة من روح أستاذه جمال الدين ، كما يتجلى في مقالات العروة الوثقى ، ثم مر من قلمه وتدفق من طول ما كتب وعالج ، حتى بلغ غايته في مقالاته في الرد على هانوتو ، حيث تجمل ببجمال البساطة وتدفق المعاني ، في سلاسة وقوة .

ونظر إلى أساليب الكتّاب فحاول إصلاحها ما استطاع ؛ فكان يقدم نماذج للكتابة أيام كان مشرفاً على الوقائع المصرية بما يكتبه هو وأصحابه فيها ، وكان يَلْتَفِتُ نظر الجرائد إلى سوء أسلوبها ، ويُزِمُّ أصحابها أن يختاروا من يرفع مستوى الكتابة فيها .

ولما كان في بيروت كان يعلم في « المدرسة السلطانية » الإنشاء . ونشر مقامات بدیع الزمان الهمداني بعد أن ضبطها وشرحها ، و « نهج البلاغة » بعد أن ضبطه وشرحه ، يرمى بذلك إلى تغذية الناشئين بأدبهما واتخاذها نموذجاً من نماذج الأساليب الجيدة .

ولما عاد إلى مصر كان من دروسه درس في البلاغة لا على نمط البلاغة التي أفسدتها الفاسفة ، بل على النمط الذي يربي الذوق ويرقي الأسلوب ؛ فقرأ كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، وكان هو السبب في نشرهما ، فقدم بهما معنى للبلاغة لم يكن مفهوماً للناس من قبل .

وفي سنة ١٣١٨ أسّس في مصر جمعية برياسته سُمِّيَتْ « جمعية إحياء الكتب العربية » كانت فاتحة أعمالها نشر كتاب المختص في اللغة ، وقد عُهِدَ في تصحيحه للعالم اللغوي الشيخ محمد محمود الشنقيطي . وشرعت الجمعية بعد

المختص في إعداد مَدَوْنَةِ الإمام مالك للطبع ، بعد أن است حضر لها الشيخ محمد عبده أصولاً من تونس وقاس بها الأصل الذي كان في يد السيد محمد رشيد رضا ، وهو الذي أخذ بيد الشنقيطي ولولاه ما بقي في مصر ، فكان الشنقيطي عالماً من أعلام اللغة يعلمها للناس ويصحح ما تعقد من الكتب ، وينشر البحوث اللغوية الدالة على اطلاع واسع وتدقيق عميق .

وهو الذي عهد إلى الأستاذ سيد الرضوي في تدريس كتب الأدب بالأزهر ، أمثال كتاب الكامل للمبرد وديوان الحماسة لأبي تمام ، ولم يكن ذلك معروفاً من قبل ، فكان عمله هذا سبباً في نهضة لغوية أدبية واضحة ، تأثر بها كثير من الأدباء البارزين وتلاميذهم . فإن قلنا إنه حول الكتابة من كتابة مسجوعة سخيفة إلى كتابة مرسلة جميلة ، ومن كتابة فارغة المعاني إلى كتابة يُعنى فيها بالمعاني لم نبعد ، أما إصلاحه السياسي فكان في مجلس الشورى منذ عُيِّن عضواً به ، فكان قوة فعالة فيه . قال صديقه حسن عاصم وكان زميلاً له في المجلس : « لقد عُيِّن الشيخ محمد عبده سنة ١٨٩٩ ، وكان بين أهل الحل والعقد في الحكومة وبين رجال مجلس الشورى شيء أشبه بالخلاف في الرأي ، أدى إلى أن الحكومة نفذت كثيراً من المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للأمة في عدم العمل بها ، وصرفت النظر عن كل أوجه التعديل في المشروعات التي كان يرى أن الإصلاح والنفع للأمة في تعديلها . فلما جاء الأستاذ إلى المجلس ونظر في الأمر نظرة الحكيم البصير ، وعرف أن ليس هناك ما يدعو إلى هذا الانزعاج ، وإنما هو سوء التفاهم باعد ما بين المشارب على تقاربها ، سعى رحمه الله في أن يزيل أسباب هذا الخلاف ، فكان ما أراد ، وعرفت الحكومة أن المجلس إنما يطلب ما فيه سلامة الأمة ، ويبتغي الخير لها ، وأن ليس له غرض في مصادمة آراء الحكومة ومطالبها ما دامت تتفق مع مقصده ، وعلم المجلس أيضاً أن الحكومة

لا تقصد إلى شيء وراء ما يقصده مصلحة البلاد، وبذلك اتفقت الكلمة في الغالب، ولم يعلّق بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يتعسّر حله. « وما زال وكان ما ترسله الحكومة من المشروعات يؤلف المجلس لجنة لدرسه، وكثيراً ما تكون برئاسة الأستاذ، سواء أكانت المسألة قانونية أم اجتماعية أم شرعية، حتى قد التهم المجلس وقته وهو لا يعبأ بالجهد يبذل فيه، لأنه كان يرى أن عمله مع الأعضاء درس يعلم الجِد والاهتمام بالأمر العامة للبلاد، وأنه وسيلة لتربية الرأي العام. «

هذه ناحيته السياسية الرسمية. أما غير الرسمية — وأعنى بها عمله في موقف الأمة من الحكم — فقد لخص موقفه منهما في قوله: « إنه يريد تنبيه الرأي العام حتى يميز ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، وأن الحاكم من البشر يخطئ ويصيب، ولا يصده عن الخطأ إلا تيقظ الرأي العام ووقفه الحاكم — إذا تجاوز حده — بالقول أو الفعل. «

« وسيلة تنبيه الرأي العام التعليم، وخاصة التعليم الاجتماعي، والصحافة النزيهة، وتربية القادة في مجلس الشورى وأمثاله، فيدرسون المسائل درساً وافياً، ويبدون الرأي في إخلاص وأمانة فيكون هذا كله درساً يقلد عند طبقات الشعب. «

هذا النحو من السياسة — وهو الاعتماد في النضج السياسي على التعليم والتربية — برنامجه عقلي لا برنامجه شعوري، وهو قلما ينجح في الدعوة السياسية؛ إنما ينجح فيها من يعتمد على الشعور، وإلهاب العواطف، ولذلك نجح عبد الله نديم ومصطفى كامل سياسياً أكثر مما نجح محمد عيده بن مصطفى كمال. «

ولعله هو قد أدرك ذلك فقال في أمر الحكومة والحكوم: « إني تركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره. « وفي هذا القول نغمة يأس، وشغور بالإخفاق. سببت له دعوته الإصلاحية الدينية ومذهبه السياسي خصومات ذوات ألوان؛

فدعوته الدينية حركت عدااء الجامدين من رجال الدين الذين حياتهم الدينية مملوءة بالأولياء والأضرحة والنذور والموالد والشفاعة ، كما حركت عدااء قوم يرون مصدر الأحكام والفتوى ليس إلا أقوال المتأخرين من الفقهاء ، وليس لأحد كائناً من كان أن يجتهد ويقدر الظروف والأحوال ، أو أن يرجع إلى الدين في أصوله الأولى يستمد منها أحكامه . وآخرون دفعهم الحسد إلى خصومته ، إذ أخل شأنهم ، وأبان ضعفهم ، وأظهر نقصهم ، فخاربه باسم الدين . وآخرون غير هؤلاء وهؤلاء تألبوا عليه ، كالخديو عباس : كرهه سياسياً ، ولكنه حاربه دينياً ، فخرّض عليه بعض رجال الدين ليستقطه في ميدان السياسة .

وهناك خصوم شرفاء أكثرهم ممن تعلم في أوربة ، يرون أن الشيخ طيب القلب محب للخير ، ولكنه يسلك طريقاً مسدودة ، فيحاول إصلاح الأزهر وليس يصلح ، ويحاول الإصلاح الاجتماعيّ من طريق الدين ، وهم يرون الإصلاح الاجتماعيّ إنما يكون عن طريق العقل وحده ، والتقليد لأوربة فيما وصلت إليه من شرائعها ونظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؛ وهكذا كل هؤلاء تجمعوا عليه في خصومته في الإصلاح الديني . ومع هذا فهذه الخصومات زادت الحركة قوة والحياة نشاطاً ، واستخرجت من الشيخ محمد عبده أقصى قواه وملكاته . واستخرجت من خصومه أقصى قواهم وملكاتهم .

وحاربه في السياسة الحزب الوطنيّ ، لأنه لا يرى رأي الأستاذ في إصلاح التعليم أولاً ، بل بالجللاء أولاً ، ولا يرى رأيّه في الاعتماد في السياسة على العقل ، بل بالاعتماد على الشعور ولا يرى رأيّه في مسألة الإنجليز ، بل بمخاصمتهم العنيفة . واشترك خصومه الدينيون والسياسيون في تهيج الرأي العام عليه ، ومحاولتهم إسقاطه من أعين الناس : هؤلاء يرمونه بالكفر الدينيّ ، وهؤلاء بالكفر السياسيّ .



الشيخ محمد عبده في سيرة واضعاً يديه على ابن وبنت لأستاذه السويسري

ثم ذهب هذا كله ، ومات الشيخ محمد عبده ، وزالت الأحقاد وذهب الزبدُ جُفَاءً^(١) وبقي ما ينفع الناس .

لقد أيقظ الشيخ محمد عبده الشعور الديني ، وأشعر المسلمين أنهم يجب أن يهتبوا من رقتهم لإصلاح نفوسهم وتكميل نقصهم ، وألا يعتمدوا على الفخر بماضيهم بل يبنوا من جديد لحاضرهم ومستقبلهم . ودعا إلى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عُرف بالعقل ، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة في المدنية الجديدة ، ونقتبس منها ما يفيدنا ، لأن المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا في عزلة ، ولا بد أن يتسلحوا بما تسليح به غيرهم ، وأكبر سلاح في الدنيا هو العلم ، وأكبر عمدة في الأخلاق هو الدين ، ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدره للعلم ويحض عليه ، وللعقل ويدعو إليه ، وللأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها المدنية الحاضرة .

لقد خلف في هذه الآراء كلها مدرسة تأخذ بتعاليمه وتعتمد على آرائه ؛ منهم من أخذها عنه شفاهاً ، ومنهم — في الأقطار الإسلامية المختلفة — من أخذها عنه بما نشره في كتبه ومقالاته ، وكانت مدرسته هذه مدرسة قوية الأثر واضحة المعالم . وحسبنا دليلاً على هذا أن أكثر من تصدّوا للإصلاح الديني أو الاجتماعي أو السياسي بعده كانوا من تلاميذه أو من أصدقائه المتأثرين به .

وزاده قوة أثر أنه لم يكن يدعو إلى الإصلاح نظرياً عن طريق التأليف أو الخطب والمقالات فقط كما يفعل بعض المصلحين ؛ بل كان يحاول دائماً أن يحول إصلاحه إلى عمل ، وينغمس في الحياة الواقعية ليتمكن من تنفيذ برامج الإصلاحية . فإن مات وفي نفسه غُصّة من أنه لم ينل ما يريد ، فعزّاه أن الصالح من أفكاره لم يمت ، وظل يعمل في موته كما كان يعمل في حياته . رحمه الله ؟

(١) جفاء : باطلا .

خاتمة

أثرت دعوة هؤلاء المصلحين وأمثالهم في الأمم الإسلامية ، فأعلنت مستواها ورفعت من شأنها ، فكانت حالتها بعدهم ، خيراً مما كانت قبلهم .

لقد عاصر أكثرهم غزو الغرب للشرق واستيلاءه عليه ، فلما غزاه حمل معه مدنيته ، سواء منها ما كان مدنية مادية كالسكك الحديدية والآلات الصناعية والمخترعات الحديثة ؛ وما كان مدنية معنوية كالأفكار والعقائد والعادات ونظم الحكم ونحو ذلك . فأما الحضارة المادية فقد تقبلها العالم الإسلامي في سهولة ويسر ، لظهور نفع أكثرها ورخصها وملاءمتها للحياة ، ولأن الأوربيين كانوا يشجعون نشرها بكل الوسائل ، إذ كانت انتشارها في مصلحتهم أيضاً ؛ فهد السكك الحديدية في البلاد المحتلة يمتكن من سطانهم ، ويسهل لهم طريق حكمهم ، وانتشار المخترعات يفتح السبيل لتجارتهم ورواج مصنوعاتهم وهكذا . وقد تغلغلت هذه المخترعات والأدوات والآلات في جميع طبقات الشعب ، وغزت الكوخ الفقير كما غزت القصر الكبير ، حتى كان جلاب الفلاح البسيط وصبغته من منتجات أوربة .

أما الحضارة المعنوية ، من أفكار وعقائد — فقد قوبلت بحذر — ولم تفتح لها الصدور كما تفتحت للحضارة المادية ، لأنها أحياناً تصدم العقيدة ؛ وأحياناً تخالف التقاليد والأفكار الموروثة . ولم تنتشر إلا في طبقات محدودة ، هي طبقات المثقفين ثقافة أجنبية أو من كان من تلاميذهم . ومع هذا فقد تقطر إلى الشعب منها بعض الأفكار والآراء من طريق الصحف وما إليها .

على كل حال كانت مشكلة المدنية الغربية وما صحبها من غزو من أعقد

للمشاكل التي واجهها أكثر من ذكرنا ومن لم نذكر من المصلحين . وسلك كل منهم مسلكا يتفق ومزاجه وتربيته وعقليته ؛ فمنهم من كان يرى مسألة الأجانب والتفاهم معهم والاجتهاد في نشر العلوم الغربية ونظم الحكم الأجنبية وأساليب التعليم وبثها في الشعب حتى يقوى ، فيكون أهلا للاستقلال يطالب به ، ويستطيع أن يحافظ عليه إذا هو ناله ؛ كالسيد أحمد خان في الهند ، وخير الدين التونسي في تونس وعلى باشا مبارك والشيخ محمد عبده في مصر . ومنهم من كان يأبى المسألة والتفاهم مع الأجنبي بحال من الأحوال ، إذ كان يعتقد أن الحرية أولاً والإصلاح الداخلى آخرا ، ويرى أن لا فائدة من الإصلاح الداخلى ما بقى الاحتلال ؛ فالحتل مهما كان كيّساً لبقاً لا يسمح بالإصلاح الجوهرى ، لأنه يحاربه في الصميم من استعماره ، كما نرى في السيد جمال الدين وعبد الله نديم .

ثم كانت المدنية الغربية نفسها وما تحوى من أفكار وآراء وآداب تحمل في ثناياها حب الحرية ، وتبث في نفوس قارئها الشعور بحقوق الإنسان ؛ فالطبقة المثقفة ثقافة أجنبية ، سواء منهم من ثقف في الخارج أو في الداخل ، اطلعوا فيما اطلعوا على تاريخ المدنية الأوروبية ، وكيف جاهدت الأمم في نيل استقلالها ، وكيف ناضلت في الحصول على حقوقها ، ثم كيف تنعم البلاد المستقلة بحريتها وتدير شئونها بنفسها وتوجيهها أمورها لمصلحتها ، فترجموا هذه الأفكار وهذه المشاعر إلى أمهم فزادت في وعيهم ويقظتهم وتنبيههم والمطالبة بحقوقهم ؛ ومن أجل ذلك شهد القرن التاسع عشر سقوط أكثر الممالك الإسلامية في يد الغربيين أولاً ، وسهولة حكمها واستغلالها ثانياً ، ثم اضطرابها والمناداة باستقلالها وصعوبة حكم الأجنبي لها ثالثاً ، بسبب ما أسلفنا من أسباب .

وكان الجيل الجديد الذى نشأ في عهد الاحتلال أقرب إلى قبول المدنية الغربية من آباءه ، كما كان أشد وعياً وتنبهاً ، حتى كان الفرق بين الأبناء والآباء في القرن

التاسع عشر أوسع من الفرق الذي كان بين أهل القرن الثامن عشر والخامس عشر. ومع هذا ظل للقديم أثره وللجديد أثره — ترى هذا في الملابس البلدية والملابس الأفريقية ، وفي نظم التعليم المدنية والدينية ، وفي المحاكم الأهلية والشرعية ، وفي الاعتقاد بالسبب والمسبب ، وبناء العمل على ما أثبتته العلم إلى جانب الاعتقاد بالحظ وأعاجيب القدر .

ونشأ عن هذا اختلاف كبير في العقليات ، لا اختلاف بسيط ، كالذي يكون بين أفراد الصنف الواحد ، ولكنه اختلاف كبير كالذي يكون بين الأصناف المتعددة ؛ ولا تزال هذه الخلافات الكثيرة تصهر في بُوتقة^(١) واحدة . ومن عمل المصلحين إشعال النار القوية تحتها حتى يتم امتزاجها ويذهب زبدُها ، والزمن كفيل بذلك ؛ وغيزة المصلحين وحماستهم تعمل على سرعة الوصول إلى الغاية . ومما زاد الأمر صعوبة في تطبيق ظواهر المدنية الغربية في الشرق أنها نشأت بالتدريج في الغرب ، واتصلت كل الاتصال بتاريخه وأحداثه ويثته الطبيعية والاجتماعية ، ثم جاءت إلى الشرق دفعة واحدة من غير تمهيد ، ودخلت على عادات وتقاليد ومواضع موروثة تخالفها كل المخالفة ، فكانت المنازعات شديدة والصدمة قوية ، وفي المدنية الغربية ما لا يتفق ومزاج الشرق وأخلاقه ، وفيها ما هو ضار بالشرق وما هو نافع ، وتصفية ذلك كله أمر عسير يدعو إلى طول التفكير .

ثم بدأ الوعي القومي للأمم الشرقية يقنبه في أواخر القرن التاسع عشر ، ووُجد في كل قطر زعماء سياسيون يعلمون أنهم دروس الحرية وحقهم في حكم أنفسهم بأنفسهم ، ويرسمون لهم الخطط في عرقلة الحكم الأجنبي ووضع الصعاب في سبيله . وجاء القرن العشرون فازدادت هذه الحركة قوة ، ولكن بدل أن يقدرها الغرب قدرها ، ويسايرها بملايقتها والنزول عن بعض سلطانه لها ،

(١) البوتقة : الوعاء يذيب الصائغ فيه المعدن .

ومساعدتها على المرونة في حكم نفسها ، قابل القوة بالقوة والعنف بالعنف ، وواجه المطالبة بالحرية بزيادة التضييق على الحرية ؛ فازدادت كراهية الشرق للغرب ، واتسعت شقّة الخلف بينهما . ووجد في هذه الآونة من يدعون إلى الإصلاح الاجتماعي الداخلي ، ولكن صوتهم كان خافتاً بجانب الزعماء السياسيين ، وقويت هذه الظاهرة على مرّ الأيام ، حتى إننا نرى في مصر — مثلاً — أنه لم يتم مصلح اجتماعي بعد « قاسم أمين » ، على حين أن سلسلة الزعماء السياسيين لم تنقطع ؛ وتبع هذا أن عواطف الشعوب كانت تتجاوب وزعماء السياسة أكثر مما تتجاوب ودعاة الإصلاح الاجتماعي .

وتزاحمت الأمم الأوروبية على استغلال الشرق ، وتدافعت المناكب ، حتى كان ذلك من أهم أسباب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فلما اشتد القتال وودّ كل فريق أن يكسب الحرب بأيّ ثمن ، بُذلت الوعود للشرق بأنه إذا بذل المعونة في الحرب عُوّض عن ذلك بتحقيق أمانية ، وخطبت في ذلك الخطب الرنانة وقيلت الأقوال البديعة في حق الشعوب المستضعفة في الحرية . ولكن ما انتهت الحرب ، وجاء دور عقد المؤتمرات ، حتى أخلفت هذه العهود ، فبلغ الغضب من الشرق ما يبلغه من الرجل أصيب في شرفه وخُدع في كرامته .

وكان من نتيجة هذا أن استمر الشرق في نضاله ، وارتفع صوت المتشائمين الذين يسيئون الظن بأوربة ، وخفت صوت المتفائلين الذين يدعون للمصالحة . فلما جاءت الحرب الثانية مُثل الدور من جديد ، ولكن كان الشرق قد اشتد وعيه وقوى ساعده ، فنال بعض أقطاره قسطاً وافراً من حريته واستقلاله ، وبعضها قسطاً أقل ، وبعضها لم ينل شيئاً ؛ وذلك تبعاً لاختلاف حالة كل قطر في قوته المعنوية وملابساته المحيطة به . ولكن على كل حال شجع من تقدم من تخلف ، ومن ظفر من لم يظفر .

وتكشفت الحرب العالمية الثانية عن قلق عام ساد العالم كله ، وزُلزلت المدنية الحديثة من أصولها ، وتنازعت المذاهب السياسية والاجتماعية ، واضطربت أصول الحكم ، وفقد العالم إيمانه بالنظم القديمة ، ولم يهتد إلى ما يرضى عنه من نظم جديدة ، ولا يزال إلى اليوم في غليانه .

واشترك الشرق في هذا القلق ، وزاد على ذلك قلقه الخاص نحو مستقبله وموقفه من أوربة ؛ وكل هذا القلق والاضطراب في الشرق يُعَرِّضُ لأزمات خطيرة ، ومواقف دقيقة ، يُتَمَلَّسُ معها القادة الذين يوجهونه نحو الطريق الآمن ، والهداة الذين يرشدونه لبوغ الغاية .

ولم تكن مشاكل الشرق الاجتماعية بأقل تعقيداً من مشاكله السياسية . فقد كان الشرق يعيش على أساليبه القديمة الزراعية والصناعية والتجارية ، يزرع كما يزرع آباؤه الأولون زراعة مؤسسة على التقاليد الموروثة ، لا على نظريات العلم المدروسة ، تُستخدم فيها الآلات التي استُخدمت منذ فجر التاريخ . وكانت الصناعات ساذجة بسيطة ، وما أتقن منها كان قليلاً جداً ، يتخذه الأغنياء وللترفون تحفة من التحف ، أو طرفة من الطرف ؛ والتجارة كانت على عهدا القديم في أساليب المعاملات والأخذ والعطاء . فجاءت المدنية الغربية وقلبت هذه الأوضاع كلها ، فالزراعة أسست على العلم واستخدمت فيها آلات جديدة ، والصناعة التي كانت تعتمد على سواعد الإنسان وقوة الحيوان اعتمدت على البخار والكهرباء ، وأنتجت في اليوم ما كانت تنتجه في سنين ، وتوالت المخترعات في كل باب من أبواب الصناعة ، فأكثرت الإنتاج ، وأرخصت الأثمان ، وبذلك استطاعت الصناعة الأوربية أن تغزو الصناعات الشرقية وتفتحها كما فتحت الآلات الحربية البلاد الشرقية . وكذلك الشأن في التجارة ، أصبحت لها أساليب جديدة ، وأصبحت تقوم على الشركات أكثر مما تقوم على الأفراد ،

وعلى رموس الأموال الضخمة لا على رموس الأموال الفردية القليلة . واختُرعت أساليب للمعاملات جديدة تسهل عمليات الأخذ والعطاء . وهذه أيضاً وردت على الشرق مع الغزاة الفاتحين . هذا إلى أن القائمين بالتجارة في الشرق من الأوربيين كانوا أوسع علماً وأكثر خبرة وأرق عقلاً ، فنجحوا في تجارتهم حيث لم يبق للتجار المواطنين إلا فتات الموائد .

وأخيراً تنبه وعى الشرقيين من هذه النواحي كما تنبه وعيهم السياسي ، فأخذوا يستغلون الآلات الزراعية الجديدة ، وإن كان ذلك في حدود ضيقة ، وأخذوا يفهمون عظمة الصناعة الأوربية وقوتها ، ويقلدونها ويحاكونها ، وأدركوا أن الاعتماد على الزراعة وحدها لا يكفي لحياة الأمم ، فبدأ كثير من الأمم الشرقية يؤسس الصناعة بجانب الزراعة ، ويستخدم الآلات الصناعية الأوربية ويستغلها ، ويفرض الضرائب على ما يأتي من الخارج لحماية الصناعة في الداخل . وكذلك الشأن في التجارة والمعاملات المالية ، فقد فهم الشرق طرق الغرب في التجارة وأساليبها ، وأخذ يكوّن الشركات وينشئ المصارف ويتعامل بعضهم مع الأوربي معاملة الندّ للندّ . ورقى الصناعة والتجارة والتوسع فيهما يخلق أهل البلاد — عادة — بأخلاق غير الأخلاق الزراعية ، إذ يجعلهم أقدر على تحقيق مطالبهم ، بحكم سهولة اجتماعهم ، وبحكم سهولة احتسكائهم بأمثالهم من الغربيين . وساعد على التقدم في هذا الباب أن كان الباعث عليه شعور الناس أن ليس يمكن الاستقلال السياسي إلا بالاستقلال الاقتصادي ، ولكن لما يَزَلْ المدى بعيداً أمام تحقيق الغاية من ذلك ، فالزراعة لم يتم تأسيسها على العلم ، والصناعة لم يتم بناؤها على النظام والسرعة والإتقان ، والشئون المالية لم تفهم حق الفهم ، ولم تستخدم حق الاستخدام ؛ وهذا يجعلنا ننتظر النابغين من المصلحين في هذا الباب .

ثم إن الشرق على العموم يعيش منذ القرن التاسع عشر على أساسين

متباينين : قديم ورثه من آباؤه الأولين ، وجديد أخذه عن حضارة الأوربيين ؛ يظهر ذلك في ملبسه ومسكنه وشارعه وجمعياته وأنديته وأفكاره . وهذان العنصران يتفاعلان تفاعلا غريباً ، ويتصادمان أحياناً تصادماً عنيفاً ، فترى الرجل يلبس اللباس الشرقي من عمامة وقباء أو طربوش وجلباب ، ويتحدث في التليفون المصنوع في إنجلترا ، ويحمل ساعة مصنوعة في سويسرا ، وفي البيت سَجَّادة عجمية وحصير بلدي وراديو أمريكي ، وفي المجلس الواحد حديث عن قوة السحر والتعاويذ ؛ وحديث عن نظرية دارون في النشوء والارتقاء ، ونظرية أينشتاين في النسبية . وفي الناس من يمجّد كل قديم ويكره كل جديد ، ومنهم من يمجّد كل جديد ويكره كل قديم ، وهكذا وهكذا . والعنصران يعملان في كل أمة شرقية ، وإن اختلفت مقدار كل عنصر في طبقاتها المختلفة ، فالطبقة الفقيرة يتجلى فيها عنصر القديم ، والطبقة الغنية على العكس من ذلك . هذا في الماديات . والطبقة المتعلمة على النمط الحديث أكثر تأثراً بالعنصر الجديد في الأفكار والآراء ، على العكس من الطبقة الجاهلة أو المتعلمة على النمط القديم ، وهذان العنصران يمتزجان امتزاجاً غريباً ، ويترتب على امتزاجهما والأخذ بهما محاسن ومساوئ ومزايا ومضار ، ففي القديم خير وشر ، وفي الجديد خير وشر ، فإلى أي حد ينتفع بخير القديم ويُتجنب شرّه ؟ وإلى أي حد ينتفع بخير الجديد ويتجنب شره ؟ هذا أيضاً ما شغل المصلحين .

والمرأة ، كانت قبل القرن التاسع عشر في الشرق جاهلة محجّبة ، تربي داخل البيوت تربية منزلية ، ولا تعرف شيئاً مما وراء البيت ؛ ضيقة العقل ، محصورة الأفق ، وهي هي التي يُعهد إليها في تربية الجيل . فلما جاءت المدنية الغربية إلى الشرق أخذ عنها تعليم البنات وتربيتها وتهذيبها وفتح المدارس لها . فكان هذا تطوراً اجتماعياً خطيراً ، إذ أخذت المرأة تطالب بحريتها وحقوقها ، وأخذت تنال ذلك

شيئاً فشيئاً . ولكن نشأ عن ذلك ما هو طبيعيّ ، وهو أن من نال الحرية بعد فقدانها لم يحسن استعمالها أول عهده بها ، حتى يَتمرّن عليها ، ويكتوى بنارها ، فيعرف بعدُ كيف يحسن استعمالها ، ووُجد لذلك مصلحون أمثال قاسم أمين في مصر ، والسيد أمير علي في الهند ، يطالبون للمرأة بحريتها ، كما وجد بعد ذلك من ينقدها في طريقة استخداما لحريتها . والمرأة سائرة إلى الأمام ، وهي كل يوم تفتح باباً جديداً ، من سفور ، إلى تعلم ، إلى مطالبة بتشريع ، إلى مزاحمة للرجل في الأعمال ، إلى طلب مساواة للرجل في جميع الشئون ، فنشأت عن كل ذلك مشا كل احتاجت وستحتاج إلى مصلحين ومصلحات .

ومع مشكلة المرأة مشكلة الأسرة ، فقد كانت من قبل تسير على « النظام الأبوي » فكل سلطة فيها للأدب ، وأفراد الأسرة يأتمرون بأمره ، ويخضعون لإرادته ، وهو المسيّر لشئونها المالية والاقتصادية والاجتماعية . فلما دخلت المدنية الغربية الشرق حملت معها حرية الأسرة ، فسفرت المرأة وأدركت أنها شريكة الرجل في إدارة البيت ، لها الحق في الإشراف على دَخل الرجل ووجوه إنفاقه ، ولها إبداء الرأي فيما يعمل وما لا يعمل ، وفي غُشيان دور السينما والتمثيل . وفهم الأبناء والبنات حقهم في إبداء الرأي ومناقشة الأب ، واصطدم النظام الأبوي القديم في الأسرة بالنظام البرلماني الجديد ، ولم ينزل الأب عن سلطانه في يسر وسهولة ، ولم تسر الأم والأبناء على النظام الجديد في رفق وهوادة ، فارتجت الأسرة بعد ثباتها ، وكثرت أحداثها ومتاعبها ، وطالبت المرأة الجديدة بالتشريع الجديد في تحديد سن الزواج وتقييد حرية الرجل في الطلاق ، وتعدد الزوجات ؛ وقد أجيبت إلى بعض مطالبها ، ولما تزل تلحّ في الباقي .

وعلى الجملة فقد أصبحت للأسر مشا كل عويصة كما لكل مرفقٍ من مرافق الحياة .

ثم مشكلة التعليم ، فقد كان التعليم عندنا سائراً على النمط القديم فيما يُعلم وكيف يُعلم ، فأخذنا بعض الأساليب الحديثة في التعليم كالذي رأينا في سيرة علي باشا مبارك في مصر ، والسيد أحمد خان في الهند . وخطا الشرق خطوات موفقة في ذلك ، ولكن لم يحل كل مشاكل التعليم ولا أكثرها ؛ فلا تزال الأمية فاشية ، ولا تزال الثقافة الشعبية ضعيفة ، وما اخترع من أساليب جديدة في التربية الأوربية لم يطبق التطبيق الكافي المفيد الواسع ، ولا يزال ما يجري من إحصاء للأُميين والمتعلمين والمتقنين وغير المتقنين ، ومن تتقنوا ثقافة عالية ومن لم يتقنوا هذه الثقافة ، يبعث على الألم ويدعو إلى الإصلاح .

ولعل من أهم المشاكل التي تواجه العالم العربي الآن استخدامه لغتين : عامية وفصيحة ، والفرق بينهما كبير ، يستعمل إحداها في البيت وفي الشارع وفي المجالس ، ويستعمل الأخرى في الكتابة والقراءة ، ولم تنجح أية محاولة في التقريب بينهما ، وهذا أضعف من اللغة الفصحى لأنها لم تكتسب الحيوية التي تأتي من طريق الاستعمال اليومي ، وأضعف اللغة العامية لأنها لم تستفد مما ينتجه الأدباء والشعراء . ولا تزال المشكلة عويصة تتطلب الحل من المصلحين .

ثم الفقر ، وهو مشكلة المشاكل ، فالسواد الأعظم من الشعوب الشرقية فقير لا يكاد يجد ما يُمسِكُ رَمَقَهُ^(١) . مسكنه ضيق مظلم ، وما لبسه قَدِرٌ مهلهل ، وفقره يستتبع سوء حالته الصحية وحالته التهذيبية ؛ فالفقر والجهل والمرض عوامل متفاعلة متشابكة يؤثر كل عامل منها في الآخرين — والفروق بين طبقات الشعب الواحد في الشرق أكبر منها في الغرب . وقد كانت الحال تجري هادئة مطمئنة يوم كان للفلاح الفقير والعامل البسيط يستسلم للقدر ، ويوم كان يُلطَف من الفقر إحسان المحسنين ، ويوم كانت مطالب الحياة قليلة وأسعار السلع رخيصة . ولكن تعقدت

(١) للرمن : بقية الحياة .

الحياة وكثرت مطالبها ، وعُدَّ كثير من الأشياء ضرورياً بعد أن كان يعدّ كالياً ؛ وانتقلت أخبار الصنّاع والعمال في أوربة وما يُعْمَلُ لرفاهيتهم إلى الشرق ، فدبَّ في فلاحه وصنّاعه الوعي بأنه يجب أن يعيش عيشة معقولة مقبولة ، فتألم — وزاد في وعيه ما يواجهه من غلاء الأسعار الذي لا يتفق ودخله ، فنشأ عن هذا كله ضرب من القلق والتذمر . وقد أخذت الحكومات تبحث أسباب الفقر وعلاجه وتعمل لإيقاظ الفقراء من فلاحين وصنّاع ، ولكن لم تصل في ذلك إلى الغاية المنشودة ، ولا تزال المشكلة تنتظر العلاج .

وبعد الحرب العالمية الأولى نشطت في الغرب نظريات سياسية كبرى كالنازية والشيوعية والديمقراطية والاشتراكية ، وكان لكل منها برامج سياسية واجتماعية واقتصادية ، وبعضها يعادى بعضاً أشد العداوة وأعنفه ، وتسابق كل في الدعاية لمذهبه ، والتشهير بخصومه ، واشتدت هذه الدعاية في الحرب العالمية الثانية ، وتفاعل المتفائلون بسلم ينعم فيها الناس بالطمأنينة والاستقرار ، ولكن خاب فآلمهم ، فاشتد النزاع بعد الحرب واحتدّت الخصومات ، وتجاوبت النظريات ، وقويت الدعايات وانتقل كل هذا من الغرب إلى الشرق فبلبل أفكاره ، ورَوَّع قاداته ، وجعلهم يتساءلون : إلى أين المصير ، وكيف المخرج من هذه المآزق ، وكيف تهدأ الأفكار وتطمئن النفوس ؟

وكان طابع القرن التاسع عشر في الغرب طابعاً مادياً بحتاً ، فهو لا يؤمن إلا بالمادة ، والعلم عنده هو العلم بالمادة ؛ وما ليس مادياً يخضع لأساليب البحث العلمي ليس إلا وهماً . ونتيجة هذا أن القيم الأخلاقية والدينية والفنية في نظرهم ليست إلا أموراً اعتبارية لا حقيقة لها ، وقدس علم الطبيعة والكيمياء ، وتحول علم النفس إلى المادية ، فكل مظهر من مظاهر النفس — من أفكار وبواعث — ليس إلا نتيجة لمادة الجسم ، وفُسِّر الكون كله وأحداثه تفسيراً

مادياً — فلما أتت هذه الأفكار إلى الشرق — وهو المعتز بدينه الفخور بروحانيته — غَضِبَ منها وغَضِبَ ممن اعتنقها . وجاء بعض المصلحين كالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده يبين مزايا الدين ، ويردّ على الملحدّين ؛ فكانت من ذلك حركة عنيفة بين المؤمنين والجاحدين . وأخيراً جاء القرن العشرون وتقدمت البحوث العلمية فى المادة وتكوينها ، فتبين لكثير من العلماء أن المادة وحدها تعجز عن تفسير الكون تفسيراً صحيحاً يركن إليه ، فعادوا إلى الروحانية والقول بالدين ؛ وظهرت موجة الإيمان بعد موجة الإلحاد . وكان الشرق دائماً يتأثر بما يظهر فى الغرب . ومهما كان فى الغرب فالشرق مهد الأديان ، يؤمن بها ويركن إليها ، ويرى أنها ستدّيه فى حياته ، وأمله بعد مماته . وهو مع ذلك يرى أن الدين الصحيح لا يحارب العلم ولا يقف فى سبيله ، فلكل مجاله ، ولكل مزاياه . ولكن ما هى حدود العلم وما هى حدود الدين ؟ ثم إن الدين يدخل عليه على توالى الأيام بعض الأوهام ، ويندس بين عقائده ما يتناقض مع أصوله ، فكيف ينقى هذا ويصنّى ؟ كل هذا أيضاً عمل القادة المصلحين .

هذا عرض سريع لما يعرض الآن للشرق من مشاكل ، وقد علمتنا الأيام أن الحياة تتجدد ، ومشاكلها تتجدد ، وكلما تركبت الحياة واتسعت المدنية والحضارة زادت مطالب الناس وتعقدت مشاكلهم . والأمة الموفقة هى التى رُزِقَتْ بمصلحين ينيرون لها السبيل فى الليالى الظلماء ، ويوجهونها خير الجهات عندما تقف حيرى فى مفترق الطرق ، فيقفون من أمتهم موقف الملاح الماهر ، فى الرياح العاصفة ، والأمواج المتلاطمة ، حتى تصل إلى برّ السلامة .

وعمل المصلح من أشق الأعمال وأصعبها ، فهو يحتاج فيما يعالجه من إصلاح إلى درس دقيق ، وتفكير عميق ، حتى يحيط بالمشكلة التى يواجهها جملة وتفصيلاً ،

ثم يضع خطة الإصلاح في إتقان وإحكام على ضوء ما درس ، ثم يُعِدُّ الرأي العام لتستجيب لدعوته ويتحمس لمطلبه .

هو — عادة — يلقي العقبات في طريقه ، والأشواك يُشَاك بها أثناء سيره ، لأنه بإصلاحه — يدعو إلى نوع من التجديد ، والناس — في الأعم الأغلب — عبيد ما ألفوا ، فإذا دُعوا إلى جديد لم يألفوه خاصموه وحاربوه ، فإذا ألح المصلح في دعوته ، ألحوا في خصومتهم . وكثيراً ما تنتقل الخصومة إلى إيذاء ، فيتهم في عقله وفي أمانته وفي شرفه ، وقد قال وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين عَرَضَ عليه دعوته : « ما جاء أحد بمثل ما جِئْتَ به إلا أُوذِيَ » . وقد رأينا فيما عرضنا من المصلحين في هذا الكتاب أنواع ما أصابهم من الأذى ، فمنهم من نُفِيَ ومنهم من سُجِنَ ومنهم قُتِلَ ؛ ولكن لا يكون المصلح مصلحاً حقاً حتى يؤمنَ الإيمان العميق بدعوته ، وحتى تكون مبادئه أحب إليه من نفسه ، فيصبر على الأذى ، ويتحمل العذاب في ثبات ، حتى تنتشر دعوته وتتحقق مبادئه .

وكما أن لكل جيل مشاكله التي تنجم من نوع حياته ، فلكل جيل مصلحوه الذين يتناسبون وزمانه ؛ فلا بد أن يكون المصلح عارفاً لأُمته ، مطلعاً على خفاياها ، واقفاً على أسرار نفسياتها ، خبيراً بطرق توجيهها ، يعرف كيف مخاطبها بلغتها ، وكيف يتملك زمامها ، وكيف يكون موضع تقديرها وإجلالها . ولا يكون ذلك حتى يكمل نفسه ويسبق قومه — وقد زرع المصلحون من سلفنا فحصدنا ، فليزرع شبابنا لمن يأتي بعدهم ليحصدوا ، جزاء وفاقاً ۞

هَذَا الْكِتَابُ

من عايش «أحمد أمين» عرف أن الرجل كان يخفي أعنف ثورة
تهدف للنهوض بيني قومه، في إهاب أهدأ إنسان يمكن أن يكون
من آراء التسلمة. وإذا كانت ممارسة للإصلاح في عقود السنين
الأولى من انتاجه قد بدت «أنواراً» لم ينسب بينها على تاريخ
«فلسفة الحضارة العربية» حتى أيقن أنه وثاقها حقاً من
الإيضاح، فلقد خضع سبب انتاجه التالية لمؤلفات حملت
عاطفة الحمية في الإصلاح، عبر «تراجم» شخصيات كان يرى في
كل منها ما يخوف لنفسه أن تكون.

«زعماؤ الإصلاح في العصر الحديث»

نقشات مقيمة لمؤلف مجهول وجهه الآخر... إقرأها
تقع على كاتب جدير في الخالد «أحمد أمين»

الناشر

